الانسان والبيئة

تمهيد

شهدت السنوات العشر الاخيرة زيادة كبيرفي اهتمام العلماء والمخططين والسياسيين ورجال الاقتصاد وعلماء الاجتماع بمشكلات البيئة ،والتغيرات التي تطرا عليها واساليب التعامل معها والاضرار التي تلحق بها نتيجة لمبالغة الانسان فياستغلال مواردها الطبيعية ، والى اي حد ينعكس هذا كله على حياة الانسان والمجتمع . وواضح انهذا الاهتمام لم يكن قاصرا على البحث عن مدى مايمكن ان تقدمه الطبيعية للانسان من ثروات ؛او الطريقة المثلى التي يمكن للانسان ان يكشف بها عن هذه الثروات والموارد ، وافضل الاساليبلاستغلالها ، وانما كان ، بالاضافة الى هذا كله ، يحاول الكشف عما لحق بالبيئةالطبيعية مناضراروأذى قد يصعب علاجها او تلافيها نتيجة لسوء الاستغلال وسوء الفهم . وقد انعكس هذا الاهتمامفي ثلاثة امور : ــ

الامر الاول : هو كثرة الكتابات التي تهدفالى تنبيه الاذهان الى الاخطار المحدقة بالبيئة الطبيعيةوطريقةالمحافظةعليها،والابقاء علىمايعرفباسم التوازن الايكولوجي (اى التوازن بين كل

عناصر البيئة من ناحية وبين الانسان والبيئة من الناحية الأخرى) وكذلك الاخطار التي سوف تحيق بالانسان والمجتمع ، والتى قد تودى بهما كليهما ان لم يغير الانسان من سياسته وموقفه من الطبيعة . وتحمل هذه الكتابات غير قليل من التشاؤم والشك عن مستقبل البيئة والحياة الاجتماعية السليمة . ورغم ماقد يكون فى هذه الكتابات من مبالغة وتهويل فانها تكشف بغير شك عن جانب هام من العلاقات المعقدة المتشابكة بين الانسان والطبيعة ، وهو جانب يستحق أن يلقى الكثير من العناية والاهتمام ، نظرا لارتباطه الوثيق المباشر بمستقبل الجنس البشرى .

الأمر الثانى : هو اهتمام المحافل الدولية والمنظمات العلمية بعقد المؤتمرات والندوات التي تعالج فيها مشكلات البيئة بوجه عام ، واثر هذه المشكلات على الحياة الاجتماعية وعلى الحضارة . وكان من اهم هذه المؤتمرات الدولية مؤتمر اخطار البيئة الذى عقد فى استكهولم عام ١٩٧٢ ، وحضره مئات من المهتمين بشئون البيئة من مختلف التخصصات ، ثم ما ارتبط بهذا المؤتمر من اهتمام الامم المتحدة ووكالاتها المتخصصة باجراء عدد كبير جدا من الدراسات والبحوث الميدانية في مختلف انحاء العالم ، للتعرف على التغيرات التي يحدثها الانسان عن طريق مشروعات التنمية الاقتصادية في البيئة الطبيعية ، وانعكاس هذه التغيرات آخر الامر على حياة الانسان نفسه . ويكشف هذا الجانب بصورة واضحة عن العلاقة الوثيقة بين الانسان والبيئة ، وهي علاقة عضوية ، قلما كانت تلقى ما تستحقه من عناية واهتمام . **وسوف يجد القارىء فى هذا العدد كثيرا من الاشارات الى هذا المؤتمر والنتائج المترتبة عليه .**

الأمر الثالث : هو الاهتمام الذى تبديه الآن بعض الدول المتقدمة والصناعية بانشاء وزارات واقسام وادارات واجهزة حكومية لشئون البيئة ، يكون من اهدافها وضع الخطط لاحكام السيطرة على البيئة ، وتنظيم عمليات الاستغلال بطريقة محسوبة بدقة ، حتى يمكن المحافظة على تلك العلاقة الدقيقة القوية بين الانسان والطبيعة . وربما كان من آخر هذه الوزارات ما لجات اليه بريطانيا فى اكتوبر عام ١٩٧٠ من تعيين وزير دولة للبيئة تخضع لاشرافه ثلاث من اهم الوزارات التى كان يشغلها دائما وزراء لهم مكانتهم واهميتهم فى الحياة السياسية الحزبية وهى وزارة النقل ، ووزارة الاشغال العامة ، ووزارة الحكومة المحلية والاسكان . ومن اهم ما يضطلع به وزير الدولة لشئون البيئة التنسيق بين اعمال هذه الوزارات بما يكفل ضمان المحافظة على البيئة المحلية والعمل على تحسينها لتوفير حياة افضل للاهالى . والواقع ان بعض الدول الأخرى سبقت بريطانيا في هذا المضمار ، اذ كانت كل من السويد وفرنسا قد انشات وزارات لشئون البيئة تعنى فى المحل الأول بامور المحافظة على جمال البيئة الطبيعية ، كما كانت الولايات المتحدة الامريكية تهتم اهتماما خاصا بتكوين هيئات من العلماء والمستشارين والاخصائيين فى شئون البيئة ، يضعون خبراتهم تحت تصرف رئيس الدولة حيث يقدمون له النصح والمشورة في كل مايتعلق بامور البيئة ، وبخاصة المحافظة عليها وتحسينها وحفظ ذلك التوازن الايكولوجى الدقيق .

وواضح من هذه الاتجاهات الثلاثة ان معظم الاهتمام الذى تبديه الهيئات والاجهزة المتخصصة بل وحتى العلماء الافراد انفسهم في معالجة شئون البيئة تتصل بأمور محددة يمكن اجمالها في التالي:

١ ـ الاعتراف بموقف الانسان المعادى للطبيعة ، واستخفافه عموما بمكوناتها ، وعدم ادراكه لمدى الاضرار التي يلحقها بها ، وكذلك عدم ادراكه ان مصادر الثروة الطبيعية محدودة نسبيا ، وانها تستهلك نتيجة للزيادة الهائلة المطردة في عدد السكان، مع عدم ترشيد الاستهلاك وازدياد حاجيات الانسان والرغبة فى اشباع هذه الاحتياجات .

٢ ـ على الرغم من اهتمام هؤلاء العلماء وتلك الاجهزة والهيئات بتحديد مدى الضرر الذى يلحق بالبيئة فان هذا الموقف ينطوى الى حد كبير على كثير من السلبية نظرا لعدم الاهتمام ، او ربما عدم القدرة على ابداء اقتراحات محددة تتعلق بامكانية انقاذ البيئة من سوء استعمال الانسان والوسائل التى تحقق ذلك ، وربما كان هذا العجز ناشئا عن عدم وضوح الرؤية امام الكثيرين عن مكونات البيئة والعلاقة بينها وبين حياة الانسان ، وبخاصة الحياة الاجتماعية ، بكل ما تشتمل عليه من نظم وقيم وعادات وتقاليد ، وان كان هذا الوضع قد تغير في السنوات الاخيرة كما يظهر فى النقطة التالية .

٣ ـ النظر الي المشكلة نظرة تكاملية شاملة بمعنى ازدياد الادراك بين العلماء بأن مشكلة تلوث البيئة والاضرار التى تلحق بها هي مشكلة انسانية تتعلق فى المحل الاول بسلوك الانسان وموقفه من الطبيعة، وان اى محاولة لحل مشكلات البيئة يجب ان تنبع اساسا من معرفة وادراك طبيعة العلاقة بين الانسان والبيئة ، ومواطن الخلل في هذه العلاقة حتى يمكن معالجتها على اسس سليمة . بل ان الكثير من العلماء يعتبرون ما نسميه الآن بمشكلة البيئة انما هي مشكلة سلوكية في المحل الاول ، ولذا فان الحملة المعروفة باسم « الصراع من أجل البيئة » تؤكد على هذه الناحية السلوكية ، وترى ان علاج الموقف يجب ان يبدأ بالانسان نفسه باعتباره هو العامل الاساسي فى الاستفادة من البيئة ، كما انه هو السبب المباشر فى تلويثها ، وانه هو الذى يعانى من هذا التلوث فى آخر الامر.

والواقع ان العلاقة بين الانسان والبيئة علاقة قديمة بقدر ماهى وثيقة ، وان كان شكل هذه العلاقة يختلف من عصر لآخر ، بل ومن مجتمع لآخر ، تبعا لمدى تقدم المجتمع او تاخره وانماط الحياة السائدة فى هذه المجتمعات . ومع ذلك فان هذه العلاقة كانت تتصف دائما باغارة الانسان على الطبيعة ومحاولته تغييرها بدرجات متفاوته وهو في هذا كله كان يؤثر فيها تاثيرا سيئا ، ويعمل على استهلاك مواردها الطبيعية بشكل او بآخر ، وان كانت هذه التغييرات وتلك التاثيرات السيئة الضارة أكثر وضوحا فى الوقت الحالى وفي المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا بالذات نتيجة للعوامل التي سوف نعرض لها .

ولقد كانت هذه العلاقة تتخذ فى المراحل الاولى المبكرة من تاريخ الجنس البشرى بوجه عام شكلا يتميز بتغلب سطوة الطبيعة وسيطرتها وقسوتها على الانسان المبكر ، الذى كان يبدو

عاجزا الى حد كبير عن امكان اخضاع البيئة لـه ولمتطلباته ، وانما كان يشكل ظروفه ومواقفه وحياته لشروط البيئة التي يعيش فيها ويعمل على ان يكيف نفسه مع الأوضاع الايكولوجية العامة . وبقول آخر كان الانسان في هذه المراحل الاولى المبكرة يقف من البيئة موقفا يتصف بالسلبية الى حد كبير ، اذ كان يقنع باستهلاك ماتقدمه له الطبيعة من موارد ، وبخاصة تلك التي يعتمد عليها في طعامه . كما انه كان عرضة لكثير من الكوارث الطبيعية وللامراض المختلفة ، التي لم يكن يدرك لها معنى او يعرف لها سببا او تفسيرا ، وبذلك كان عاجزا تماما عن التحكم فيها وتجنبها ، او على الاقل تخفيف نتائجها السيئة . ومن هنا كان يردهذه الكوارث والامراض الى قوى خفية غامضة اقوى منه واكثر قدرة وعنفا ، وبذلك لم يكن امامه سوى الاستسلام لها . ولم يكن الانسان المبكر قادرا من ناحية اخرى على التنبؤ بما سوف يحدث له في المستقبل القريب نظرا لعجزه عن فهم المنطق الذي تسير عليه الطبيعة والقوى التى تحركها ، ولذا كان يسلم قياده لهذه القوى تماما ويتقبل بالتسليم كل مايصدر عنها ، بل انه كان يعمل على ان يتقرب اليها ، ويتضرع ويتذلل لها مادام عاجزا عن التحكم فيها . ويذهب كثير من العلماء ، وبخاصة علماء الانثربولوجيا ، في القرن التاسع عشر الى ان هذا الموقف المستسلم العاجز امام الطبيعة والقوى الكونية هو الذى ادى في آخر الامر الى ظهور الدين ، وتحديد العلاقة بين الانسان والكون بكل ما فيه من خوارق وغيبيات . فالدين في نظر هؤلاء العلماء يقوم اساسا على فكرة التسليم بوجود قوى ـ ايا ما تكون طبيعتها ـ يعترف الانسان بضعفه امامها ، ويسلم بقوتها وقدرتها على التحكم في مصيره وتسيير حياته ورسم قدره .

ورغم كل ما يبدو في هذه النظريات من طرافة فمن الصعب تصور الانسان في اى مرحلة من مراحل تطوره وحياته سلبيا تماما ازاء الطبيعة ، وانما الاغلب ان الانسان بحكم طبيعة تكوينه وملكاته وقواه الطبيعية كان يقف موقفا اشد ايجابية من البيئة مما تحاول هذه النظريات تصويره وابرازه ، وان كان هذا الموقف الايجابى اقل وضوحا مما هو عليه الآن بطبيعة الحال ، وذلك بحكم المرحلة التي كان يمر بها ، وبحكم تخلفه التكنولوجي وقلة امكانياته المادية في الماضى . بل انه يمكن القول ان الانسان حتى في ابسط اشكال حياته كان يقوم بنفس الدور الذى لا يخلو من تدمير الطبيعة او بعض مظاهرها ومقوماتها ومكوناتها ، والحاق الاذى بهذه الطبيعة وذلك في اثناء معركة الحياة التى كان يخوضها حتى يضمن بقاءه ووجوده واستمراره ....

ظهر هذا مثلا في مرحلة قنص الحيوان التى تعتبر من المراحل المبكرة في تطور المجتمع الانسانى .. فقد كان الانسان المبكر ـ على مايبدو يبالغ ويغالى مغالاة شديدة في مطاردته الحيوانية الطبيعية ، وهذا في حد ذاته يعتبر فيها ويعمل على قنصها والعيش على لحمها ، وانتهى الامر به الى القضاء تماما على كثير من فصائل الحيوانات واختفاء شكل من اشكال الثروة الحيوانية ، الطبيعية ، وهذا في حد ذاته يعتبر تغييرا هاما في البيئة الطبيعية لا يمكن التهوين من شأنه . كذلك ظهر هذا الموقف الإيجابي من ناحية ثانية في اكتشاف الانسان للنار ،

واستخدامها على نطاق واسع فى حرق الخشب والحطب بل واحيانا فى اشعال غابات باكملها ومناطق واسعة من الحشائش ، وما كان ينتج عن ذلك من تلويث للبيئة ، وان كان هذا التلوث ضئيلا فى تلك الازمنة نظرا لضآلة عدد السكان وتاخر حياتهم التكنولوجية . ولكن ينبغي الا نغفل هنا عما كانت تسببه الحرائق من تغيير فى الطبيعة ، سواء كانت هذه الحرائق تنشب بطريقة تلقائية وطبيعية نتيجة لبعض التغيرات الكونية ، او تشتعل بطريقة متعمدة ومن صنع الانسان نفسه فى الغابات ومناطق المراعى والاحراش . وكل هذا معناه ان تاثير الانسان فى البيئة كان قديما ويرجع الى اقدم العصور ، كما يرتبط بكل اشكال الحياة الاجتماعية والاقتصادية مع اختلافات فى الكم وليس فى النوع . وهذا لا ينفى بطبيعة الحال ان مشكلة اختلال العلاقة بين الانسان والبيئة مشكلة حديثة لم تظهر الا بعد ان احرز المجتمع الانسانى تقدما ملحوظا فى التقدم الصناعى والتكنولوجى وبخاصة منذ القرن التاسع عشر .

وليس ثمة شك فى ان ارتقاء المجتمع الانسانى وتقدمه يرتبطان ــ فى احد جوانبهما على الاقل ــ بالقدرة على السيطرة على الطبيعة ، وتسخير البيئة واستغلال مكوناتها لصالح الانسان ، وكذلك القدرة على التحكم فى هذه البيئة وتطويع مواردها لخير الانسان واشباع احتياجاته ومتطلباته . وبقول آخر فان تقدم الانسان والمجتمع يمكن ان يقاس ليس فقط بمدى تحرر الانسان من سلطة البيئة وسيطرتها ، بل وايضا فى قدرته على اخضاعها لرغباته والتحكم فى مكوناتها . والواقع ان التقدم التكنولوجى الرائع الذى احرزه الناس خلال جميع مراحل تاريخ التطور البشرى ، والذى وصل الى ذروته فى القرن الحالى ، قد ساعد على تصور الطبيعة على انها شيء يمكن غزوه والتحكم فيه وتطويعه واستخدامه لاشباع احتياجات الجنس البشرى التى كانت ولا تزال تتزايد باستمرار واطراد . ولقد ترتب على ذلك كله ان بدات النظرة الى الطبيعة والى البيئة تختلف ، كما بدات اتجاهات الانسان ومواقفه وقيمه المتصلة بالبيئة والطبيعة يطرا عليها كثير من التغيير نتيجة لهذا الادراك ، اعنى ادراك الانسان لقدرته على توجيه الطبيعة ، بل وضرورة التحكم فيها . فلقد اصبح الانسان يشعر انه فوق الطبيعة ، او على الاقل انه يسير مع الطبيعة على قدم المساواة ، بعد ان كان عبدا لها ولثوراتها ونزواتها وعنفوانها وجبروتها .

كل هذا معناه فى آخر الامر انه من الخطا ان ننظر الى مشكلة البيئة على انها مشكلة فيزيقية بحتة ، بحيث نغفل ابعادها الاجتماعية والانسانية ، وذلك لان الانسان هو بالضرورة احد العوامل او العناصر الاساسية فى البيئة ، باعتباره على الاقل عامل التغيير فيها وموضوع التاثر بها والتاثير فيها ، سواء كان ذلك التاثير يتخذ شكل المحافظة ، او الابادة واحداث الضرر ، كما ان حياته هو هى التى سوف تتاثر بشكل مباشر فى آخر الامر بما يطرا على البيئة من تغيرات نتيجة

لسلوكه وتصرفاته وموقفه منها . ولو اننا سلمنا بذلك واعتبرنا الانسان هو احد مكونات البيئة الاساسية فان اية دراسة للبيئة لابد ان تكون بالضرورة دراسة تكاملية شاملة ، ولا بد من ان تتعرض لكثير من الامور المتشابكة المعقدة التي يمكن ان نشير الى بعضها هنا ، مثل : –

١ – الاسس الفيزيقية والكيميائية والبيولوجية لمشكلات البيئة او المشكلات الايكولوجية ، وهي اسس معقدة الى ابعد حدود التعقيد .

٢ – الظروف الايكولوجية من حيث انها تنعكس ، ليس فقط على نوع الحياة التي يحياها الافراد والمجتمعات ؛ بل وايضا على نفس مشكلة الوجود الانساني وامكان استمرار الجنس البشري في الوجود ، وامكانيات الانسان على التكيف .

٣ – النتائج السيئة المترتبة على التغيرات الايكولوجية سواء على المستوى المحلي او الاقليمي او العالمي .

٤ – الامراض والمشكلات الاجتماعية التي تنجم عن التغيرات الايكولوجية ، وهي مشكلات يمكن حلها اجتماعيا عن طريق اعادة النظر في النظم الاجتماعية السائدة في المجتمعات المختلفة ، واعادة تشكيل هذه النظم ، وكذلك اعادة النظر في سلوك الانسان ازاء البيئة ، وموقفه منها ونظرته الى الطبيعة . وسوف يقتضي ذلك ، في آخر الامر ، ضرورة ان يراجع الانسان نفسه ويعيد النظر في القيم الاجتماعية السائدة في المجتمع المعاصر ، من حيث انعكاسها على معاملة الطبيعة (وسوف يجد القارىء في مقال الدكتور حسن الرصفاوي مثالا للعلاقة بين البيئة وبعض الامراض الاجتماعية ، والجريمة بالذات) .

٥ – التفاعل القوي بين كل الظواهر البيئية والاجتماعية وتساندها الوظيفي ، وهي امور تتصل اتصالا وثيقا بالمشكلات الانسانية . (وثمة امثلة كثيرة لذلك يجدها القارىء في مقالات الدكتور محمود احمد الشربيني ، والدكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبي ، والدكتور احمد ابو زيد) .

وكل هذا خليق بان يبين لنا في آخر الامر ان الاضرار التي يلحقها الانسان بالبيئة التي يعيش فيها انما تنجم عن افتقار الناس او معظمهم على الاقل الى وجود نسق متماسك من القيم المتعلقة بطريقة معاملة الانسان للبيئة والاهتمام بها ، والحد من المغالاة في الاقبال على التكنولوجيا الحديثة التي قد تسهل حياة الانسان وتقدم له كثيرا من الخدمات وتوفر عليه كثيرا من الجهود والوقت ، ولكنها تلحق في الوقت ذاته اشد الضرر والاذى بالبيئة كما هو الحال مثلا في تلوث الهواء والماء نتيجة لانتشار الصناعة وما يتخلف منها من نفايات وبقايا وابخرة ودخان ورماد وغير ذلك .

ولقد دفع ذلك الكثير من المفكرين الى المناداة بضرورة الوصول الى ما يطلقون عليه أحيانا أسم « اخلاقية الارض » – كما ترد فى مقال الدكتور ابو زيد – اى وجود نظرة جديدة او اتجاه جديد وموقف جديد لعلاقة الانسان بالبيئة . وفى ذلك يقول الاستاذ ليوبولد Leopold وهو من أكبر المهتمين بالمشكلات الايكولوجية وممن بذلوا جهودا كبيرة فى تدعيم فكرة المحافظة على الارض : « اننا نحقق فكرة اخلاقية المحافظة على الارض حين ننظر اليها على انها مجتمع ننتمى اليه وبذلك يمكننا ان نستخدم الارض بطريقة تنم عن الحب والاحترام . وليس هناك سوى هذه الوسيلة لكى تساعد الارض على الصمود امام وطأة الحياة الالية التى تسم الانسان الحديث ، كما ان هذا هو الطريق الوحيد امامنا نحن لكى نحصد من الارض المحصول الجمالى الذى هى قادرة على ان تنتجه – بفضل العلم – وتسهم به فى الحضارة الانسانية . ان النظرة الى الارض على انها مجتمع هى الفكرة الاساسية فى الايكولوجيا ، كما ان حب الارض واحترامها هو امتداد طبيعى للاخلاق الانسانية . ولقد ادرك الانسان منذ زمن بعيد ان الارض قادرة على ان تنبت محصولا ثقافيا وحضاريا خليقا بالاحترام ، ولكن هذه الحقيقة غابت عن الاذهان فى العصور الحديثة »» . (انظر كتابه : Game Management)

والواقع اننا نستطيع ان نميز فى هذا الصدد بين موقفين مختلفين اشد الاختلاف يقفهما الانسان من البيئة الطبيعية التى يعيش فيها ، فأما الموقف الاول فيتمثل فى اهتمام فئة قليلة – ولكنها تتزايد فى العدد باستمرار – من الناس ممن يهتمون بالمحافظة على البيئة وما بها من جمال طبيعى مع عدم الرغبة فى ادخال اية تعديلات على مقوماتها الطبيعية او التعديل فيها ، على اساس ان اي تعديل يدخله الانسان عنوة واقتدارا فى الطبيعة سوف يؤدى الى اختلال التوازن الايكولوجى ، وبالتالي الى ظهور كثير من المضاعفات والتأثيرات الجانبية الضارة السيئة . الا ان هذه الدعوى تجد كثيرا من المعارضة والمقاومة من فئات كثيرة جدا من الناس فى مختلف المجتمعات ، وهي فئات تتهم اصحاب حركة « الصراع من اجل البيئة » بانهم ينتمون الى قطاعات متميزة اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ، وتعيش فى عزلة تامة بحيث لا تكاد تشعر باحتياجات الطبقات الاخرى الفقيرة التى تريد ان ترفع من مستواها الاقتصادى والمعيشى والاجتماعى عن طريق التنمية الاقتصادية التى تحتاج بالضرورة الى ادخال تعديلات فى البيئة ، تتمثل فى ابسط صورها في استغلال الموارد الطبيعية . فكان اختلاف الموقفين من البيئة يعكس – الى حد ما على الاقل – اختلاف المستوى الاجتماعى والثقافى والاقتصادى فى المجتمع ، بحيث تصدر الدعوة للمحافظة على البيئة والابقاء على مقوماتها الطبيعية من الجماعات والفئات القادرة اجتماعيا واقتصاديا ، والتي تريد ان تتمتع بما تقدمه البيئة من جمال طبيعى ، ولذا

فهى تعارض اى تدخل من جانب الانسان ، وتعتبره تشويها واساءة الى هذا الجمال ، بينما يقف المهتمون بتنمية المجتمع والمشتغلون بالتخطيط فى الناحية الاخرى ، ويرون انه لا بد من استغلال الموارد الطبيعية حتى ولو كان فى ذلك القضاء على كثير من جمال الطبيعة ، وذلك على زعم ان التقدم العلمى والتكنولوجى الذى يحقق رخاء الانسان والمجتمع لن يقصر عن ايجاد وسيلة للتغلب على اخطار البيئة وحل مشكلاتها ، وانه مهما يؤخذ على التصنيع مثلا من اضرار يجلبها على البيئة وتؤدى الى تلوث الهواء والماء وما الى ذلك فانه فى آخر الامر وسيلة فعالة لرفع مستويات كثير من الناس ، ولتوفير مستوى كريم وحياة كريمة لكثير من الطبقات الكادحة . وقد تكون هذه المشكلة بعيدة فى الوقت الحالى عن اذهان الناس فى المجتمعات المتخلفة والنامية ولكنها قائمة بالفعل ، ويدور حولها كثير جدا من الجدل فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، وهى تعكس فى آخر الامر الصراع الدائر بين الذين يملكون والذين لا يملكون . وليس من شك فى ان الطبقات الفقيرة فى اى مجتمع تهتم اولا وقبل كل شىء بتوفير العيش لها ، ولا تكاد تعتبر جمال الطبيعة جزءا من عملية الحياة .

ومع ادراك هذه الحقائق كلها ، والتسليم بمدى ما تتعرض له البيئة من اخطار ، فالظاهر انه من الصعب التغلب على هذه الاخطار وايقافها تماما ، وانه يتعين على العالم ان يتقبل هذه الحقيقة الواقعة ، وان يتعين عليه فى الوقت ذاته ان يعثر على حلول تقلل من هذه الاخطار التى يبدو انها تهدد نفس وجود الانسان والحياة ، وهذه هى الفلسفة التى تختفى وراء الدعوة الى « المعركة او الصراع من اجل البيئة » التى اشرنا اليها ، وهى معركة علمية وتكنولوجية واجتماعية وسياسية معا ، تهدف الى تنبيه الاذهان وتجنيد كل القوى للوقوف فى صف البيئة ومعها ضد عوامل التخريب ، كما تحرص اشد الحرص على تحديد مصادر هذا الخطر حتى وان كان يصعب التغلب عليها .

والواقع ان المشتغلين بهذه المسالة يرون ان الخطر الاكبر الذى يهدد البيئة ناجم عن مشكلة اخرى عامة تهدد العالم الآن وهى مشكلة تزايد السكان تزايدا رهيبا فى كل انحاء العالم وبالذات فى العالم المتخلف ، وهذه مسالة سبق ان عالجناها فى العدد الرابع من المجلد الخامس من هذه المجلة (المشكلة السكانية) . ولكن الجديد هنا هو ان الازدياد المطرد فى مطالب السكان الذين يتزايدون باطراد نتيجة للتقدم التكنولوجى والصناعى من ناحية ، والحاجة الماسة الى توفير اعداد متزايدة من المساكن لهم وما يرتبط بهذا كله من اعادة تخطيط للمدن والمناطق السكنية والمستوطنات البشرية ايا كان نوعها من ناحية اخرى ، كل هذا يستلزم بالضرورة الاغارة على المناطق الخلوية ؛ بل واحيانا على الاراضى الزراعية

لتوفير المسكن ، وهذا فى حد ذاته يشكل خطورة بالغة على البيئة الطبيعية يحس بها سكان المدن المزدحمة بالسكان . ويزيد الامر سوءا ضرورة العمل على توفير وسائل المواصلات والنقل لهذه الاعداد المتزايدة ، وهذا يتطلب ليس فقط شق كثير من الطرق فى هذه المناطق وتخصيص مساحات متزايدة من الارض لكى تجرى فوقها وسائل المواصلات ، بل ان انتشار هذه الوسائل ذاتها يجلب معه كثيرا من الضجة والضوضاء ، التى يعتبرها الكثيرون صورة أخرى او شكلا آخر من اشكال تلوث البيئة ، وذلك فضلا عن ازدياد مخلفات السكان من نفايات وفضلات .

وهذه كلها امور معروفة تناولتها كل الكتب التى تدور حول تلوث البيئة ، وسوف يجد القارىء لها صدى فى اكثر من مقال فى هذا العدد ، بل وفى أعداد سابقة من المجلة .

ولكن الطريف فى الامر حقا هو ما يضيفه كثير من العلماء المحدثين الى هذا كله من ان التحركات السكانية من مكان لآخر ، وبخاصة أثناء العطلات ، له دخل كبير جدا فى تغيير البيئة وغزو الطبيعة والاغارة عليها والحاق الكثير من الاضرار بها . وقد ساعد على ذلك كله انتشار استخدام السيارة كوسيلة عادية ومألوفة من وسائل الانتقال ، ويذهب بعض المشتغلين بمشكلات البيئة الطبيعية والعمل على المحافظة عليها الى اعتبار السيارة أعدى اعداء الطبيعة ، وبالتالى أعدى اعداء حركة المعركة من أجل البيئة ، ذلك انه قبل انتشار استخدام السيارة على هذا النطاق الواسع ، وحين كان الانسان يستخدم وسائل النقل العامة ، كانت تحركاته اثناء العطلات قاصرة على الاماكن المحدودة التى تصل اليها هذه الوسائل ، فلما اصبح للانسان وسيلة انتقاله الخاصة به ، والتي تتمثل فى السيارة بالذات لم يعد هناك ضابط او قيد على تحركاته ، واصبح الانسان حرا فى ان يذهب الى حيث يشاء والى حيث تستطيع وسيلته الخاصة ان تنقله ، وبذلك امكنه ارتياد مناطق كثيرة وعديدة وبعيدة لكى يمضى فيها عطلاته ، وازداد بالتالى تهجمه على جمال الطبيعة وانتشار التخريب والدمار . فليس أقدر من الانسان على تشويه جمال الطبيعة البكر فى الاماكن التي يمضى فيها عطلاته وأوقات راحته بما يحدثه من تغيير وما يتركه وراءه من مخلفات . ويزداد هذا الدمار بطبيعة الحال بطول فترة العطلة . وهذه حقيقة يأخذها فى الاعتبار الكثيرون ممن يعارضون الآن فكرة جعل الاسبوع اربعة ايام عمل فقط بدلا من خمسة او ستة ايام لاتاحة وقت اطول للفراغ والراحة والترفيه للناس مادام الانتاج لن يتأثر بتقصير مدة ايام العمل نظرا لازدياد الاعتماد على الآلات فى الانتاج . وليس ثمة غبار على توفير الراحة ذاتها للناس ، انما المشكلة الحقيقية هنا هى ما يلحقه الناس اثناء هذه العطلات ايام الراحة الطويلة من اضرار واذى بالبيئة الطبيعية . وربما كان هذا ايضا هو احد العناصر التي تتضمنها حركة ايجاد اخلاقية

للارض . ومن يدرى فقد يكون فى نجاح الدعوة الى ضبط النسل وبرامج تنظيم الاسرة علاج ، ولو جزئي ، لبعض مشكلات البيئة والمحافظة عليها ، ما دامت هذه البرامج ستؤدى فى حالة نجاحها الى خفض عدد السكان ، وبالتالى الحد من انتشار المستوطنات البشرية والمساكن والطرق ووسائل المواصلات فى النقل وحرية الانتقال .

ومع التسليم بهذا كله فان المشكلة العويصة التي يبدو انها تواجه العلماء الآن هى : كيف يمكن التوفيق بين الرغبة فى المحافظة على البيئة الطبيعية من ناحية وتحقيق برامج التنمية الاقتصادية وتوفير حد أدنى لرفاهية الانسان من ناحية اخرى ؟ او بقول آخر كيف يمكن التوفيق بين رغبات الاغنياء والقادرين والموسرين الذين يحاولون الاحتفاظ بجمال الطبيعة ، ورغبات ومطالب الفقراء الذين لا يهمهم فى المحل الاول شيء قدر توفير العيش ؟ وكل هذا خليق بان يكشف لنا عن مدى صدق ما سبق ان ذكرناه من ان مشكلة العلاقة بين البيئة والانسان هى مشكلة اجتماعية فى المحل الاول ، تتعلق بتحقيق مستوى معين وشكل افضل للحياة ، سواء فى المجال الجمالى الفنى أو الاقتصادى . ولا تزال الحلول تعوز الانسان ، ولا يزال المفكرون يحاولون الوصول الى التوفيق بين هاتين الناحيتين تحت ظروف اجتماعية بالغة القسوة .

* * *

أحمد أبو زيد

أزمة البيئة

لا يحدث سوى مرة واحدة في كل قرن ان تستطيع احدى القضايا الهامة ان تفرض نفسها على الناس جميعا من مختلف الاجناس والطبقات والاديان . ولقد اصبحت مشكلة البيئة الفيزيقية التي نعيش فيها احدى هذه القضايا .

(وليام روكلهاوس)

أفلحت « قضيـة البيئة » في ان تفرض نفسها بشكل قوى منذ اوائل السبعينات ، وذلك حين ظهر ما يعرف باسم « حركة البيئة Environment movement » ، ولو ان الاراء لاتزال مختلفة اختلافا شديدا حول مدى عمق هذه القضية او المشكلة ، والى اى حد يمكن ان تؤثر في مصير الانسان بوجه عام وحياة شعوب ومجتمعات معينة بالذات . وعلى ذلك فان الاراء تكاد تجمع على أن العالم كله مقبل على « ازمة بيئية » او « ازمه ايكولوجية » قد تقلب الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية السائدة الآن في المستقبل القريب او البعيد . بل ان الذين يظهرون شيئا من التشكك في ضخامة المشكلة واهميتها انما يبنون احكامهم على الاوضاع القائمة في المجتمعات التي يعيشون هم فيها دون ان يقللوا من خطورة المشكلة بالنسبة للعالم ككل ، بمعنى انهم لايعطون

لمشكلة البيئة أولوية مطلقة ، وذلك على اساس ان مجتمعاتهم وشعوبهم تتعرض لأخطار ومتاعب أخرى يجب حلها أولا قبل الاهتمام بمشكلة البيئة التي يمكن تاجيل حلها الى ان تحل هذه المشكلات العاجلة .

ولقد بدأت « **حركة البيئة** » بما يطلق عليه الآن اسم « **يوم الارض** » Earth Day وذلك حين تقدم في عام ١٩٧٠ عدد كبير من المتحمسين في بعض دول العالم المتقدم ، وبخاصة في امريكا ، ببعض النداءات التي تدعو الى بذل الجهد لانقاذ البيئة من التلوث . ولم تلبث هذه الدعوة ان وجدت صدى كبيرا لدى الكثير من الناس ومن العلماء من مختلف التخصصات ، بحيث تبلورت بعد عامين اثنين في شكل مؤتمر عقدته هيئة الأمم في استكهولم ، واشترك فيه عدة آلاف من العلماء والساسيين والمخططين الاجتماعيين ورجال الصحافة ، وكان بذلك من اكبر المظاهرات العلمية ـ بل والفوغائية ايضا ـ التي شهدها العالم في اي وقت من تاريخه . (١) وبعد هذا المؤتمر انتشرت الدعوة الى تطهير البيئة مما يلوثها انتشارا واسعا بحيث خصصت لها الدول الكبرى ميزانيات ضخمة . ويكفي للتدليل على ذلك ان نذكر انه في عام ١٩٧١ اي قبل انعقاد المؤتمر نفسه بعام كامل ولكن بعد ان كانت الاذهان قد تنبهت فعلا الى خطورة المشكلة ـ انفق رجال الصناعة في امريكا مايزيد على ثلاثة بلايين من الدولارات لمعالجة مشكلة تلوث الماء والهواء **فقط** ، بينما وضعت حكومة الولايات المتحدة الامريكية خطة لانفاق للالفالة بليون دولار على برامج البيئة المختلفة خلال الأعوام العشرة ابتداء من عام ١٩٧٢ ، اي بواقع ثلاثين بليون دولار كل عام . وفي الوقت ذاته خصصت بريطانيا اكثر من ثلاثة بلايين من الدولارات لتطهير انهارها ، كما خصص الاتحاد السوفيتي بليون دولار لتطهير مياه نهري الفولجا والأورال وحدهما من كل عناصر التلوث . وهذه المبالغ الضخمة الهائلة خليقة بان تكشف لنا عن حجم المشكلة ، ومدى احساس الدول الصناعية المتقدمة بها .

ولكن ربما كان افضل مقياس لنجاح هذه الحركة هو رد الفعل المضاد لها . فلقد تعرض « انصار البيئة » او أصدقاؤها لكثير من الهجوم والنقد والتشكيك ، كما وصفت الحركة ذاتها بالمبالغة والتهويل والمغالاة التي لاتقوم على اساس سليم . وقد تزعم هذه الدعوة عدد من رجال الصناعة انفسهم ، نظراً لان انتشار الحركة واستعداد الناس لتصديقها وتقبلها قد كلفهم الكثير من الأموال التي انفقت على (تنظيف) البيئة وتطهيرها من التلوث . كذلك ذهب بعض المعارضين الى ان هذه الحركة تسببت بشكل مباشر في خلق « ازمة الطاقة » التي عانت منها امريكا معاناة شديدة ، وهي ازمة يمكن ان تهدد مستقبل الصناعة ، وبالتالي مستقبل امريكا والقوى العاملة في الصناعة ، تهديدا مباشرا لو انها استمرت وصدق الناس كل النتائج الوخيمة التي

---

(١) الواقع ان فكرة عقد هذا المؤتمر كانت اسبق على ذلك اذ بدأ التفكير فيه عام ١٩٦٨ وان كانت هذه النداءات والحركات وجهت الانظار الى اهميته . وقد اطلق على المؤتمر اسم « مؤتمر هيئة الامم المتحدة عن البيئة الانسانية » .

يزعم أنصار البيئة انها سوف تلحق بالانسان والعالم لو ظلت درجة التلوث على ماهي عليه، ولم تتخذ الاجراءات السريعة الحاسمة لوقفها . كذلك تعرضت الحركة لهجوم من زاوية اخرى مختلفة تماما ، وهو هجوم يرمى أنصار البيئة بأنهم فئة من المثاليين الذين عزلوا أنفسهم عن الاتصال بالعالم الخارجي ومشكلاته الحقيقية نتيجة لنوع الحياة التي يحيونها ، والتي تمتاز في الاغلب بارتفاع المستوى الاقتصادى والثقافي ، وهم بذلك لايحسون بآلام ولا متطلبات الطبقات والشعوب الفقيرة التي تعطى الأولوية المطلقة لمشكلة الفقر وكسر حلقته والخروج من دائرته ، وان التوقف عن الصناعة او تحديد الانتاج كوسيلة للاقلال من درجة التلوث لن يحقق هذه الغاية التي يحلم بها الفقراء ، وهم بعد كل شيء يمثلون القطاع الأكبر من الجنس البشرى .

والطريف هنا أن هذه الانتقادات التي وجهها رجال الصناعة الى انصار البيئة وجدت ترحيبا شديدا من بعض الشعوب الفقيرة والمتخلفة والنامية التي نظرت الى الدعوة الى المحافظة على (نظافة) البيئة ، ولو كان ذلك على حساب الانتاج الصناعى ، على انها حركة استعمارية جديدة تقوم على أساس تثبيط همم الدول النامية عن الاخذ بسياسة التصنيع ، وتحاول صرفها عن تنفيذ برامجها في التنمية الاقتصادية التي ترتكز الى حد كبير على التحول التدريجي الى الصناعة كوسيلة لرفع مستوى الحياة فيها اقتصاديا واجتماعيا ، أو على الاقل كوسيلة تتخلص بها من كثير من مظاهر التخلف والفقر المفروضة عليها . وبقول آخر فان هذه الدول النامية اعتبرت حركة البيئه حركة معادية للتحرر الاقتصادى من ربقة الدول الصناعية المتقدمة .
وقد انعكس ذلك بوضوح خلال جلسات مؤتمر استكهولم ، اذ كانت النغمة السائدة بين عدد من ممثلى العالم الثالث هى ان « البيئة النظيفة » ليست ضرورة عالمية ، وانما هى مجرد نوع من الترف يجب ان يشترى بالعملة الصعبة ، وان ثمن هذا الترف قد يكون غاليا جدا بالنسبة لبعض المجتمعات قد يكلفها فرصة التقدم والرقى . ولم يكن ممثلو هذه الدول ينصتون الى كل حجج انصار البيئة التي تقوم على مبدأ ضرورة تضافر جهود كل الدول والشعوب والمجتمعات لاصلاح البيئة ، وان ذلك يجب ان يتم بسرعة حتى لا يجد العالم نفسه في مأزق قد يكلفه وجوده نفسه ، وان الوسيلة الوحيدة لتجنب هذا المأزق هو ان يتحكم العالم كله وبكل مجتمعاته في درجة النمو الاقتصادى والسكاني على السواء . ولقد ذهب الدكتور بول ارليتش Paul Ehrlich في كتابه الشهير « **القنبلة السكانية** The Population Bomb » الى احتمال وقوع هذه الكارثة الايكولوجية المدمرة حوالى عام ٢٠٤٠ لو استمر العالم يسير في هذا الطريق الخطر الذى اختاره لنفسه .

وايا ماتكون الحقيقة وراء هذه الاتجاهات المتعارضة فهناك كثير من الأوضاع والحقائق التي يجب ان تؤخذ دائما في الاعتبار ، وهى حقائق تحمل كثيرا من التحذير من الاخطار التي تحيط الآن بالعالم والتي يجب الانتباه اليها . مثال ذلك ان كثيرا من المباني الاثرية في أوروبا كالكنائس

والكاتدرائيات التي ترجع الى القرون الوسطى ، والتي تعتبر من اكبر مظاهر الحضارة الغربية بدات تعاني من سحب الدخان والغبار والرماد المتصاعد من المصانع ويكاد بعض اجزائها يتداعى بتاثيرها . ولقد اوصت احدى اللجان التي كلفتها اليونسكو في اوائل السبعينات بدراسة حالة هذه المباني الأثرية الخالدة بأن تقوم الهيئة بتغليف الاكروبول كله بالزجاج لكي تمنع عنه آثار التلوث المدمرة ...

والظاهر ان كل مظهر من مظاهر النجاح الفائق يقتضي ثمنا غاليا للغاية . والظاهر ان هذا هو الوضع ايضا بالنسبة للبيئة ، بحيث يمكن القول ان تنفيذ اى مشروع من المشروعات الضخمة التي تؤدي الى حدوث بعض التغييرات في البيئة الطبيعية لخير الانسان وصالحه كثيرا ماتحمل بين طياتها بعض الآثار الجانبية الضارة التي يلحق منها بعض الأضرار في التوازن الايكولوجي . وربما كان افضل مثل لذلك هو التغيرات الايكولوجية التي تحدث الآن في مجرى نهر النيل واراضي الدلتا الخصبة بعد اتمام السد العالي وبحيرة ناصر . فعلى الرغم من كل ما حققه للآن السد العالي الذي يعتبر من مفاخر الهندسة الحديثة ، ومن اضخم المشروعات التي تهدف الى التنمية ، وعلى الرغم من كل ماقد يحققه في المستقبل سواء من حيث زيادة مساحة الأرض المنزرعة وتعميم الري الدائم بدلا من ري الحياض الذي كانت تعتمد عليه مساحات كبيرة من الوجه القبلي ، وكذلك توليد الكهرباء بكل ماسوف يترتب عليها من نتائج اقتصادية ومظاهر حضارية ، فان الثمن الايكولوجي لذلك سيكون فادحا بغير شك . فكثير من العلماء والاطباء يخشون من ان تؤدي بحيرة ناصر بمساحتها الهائلة الى انتشار البلهارسيا على نطاق أوسع مما هو موجود الآن بالفعل في مصر ، بل ان البعض يخشى من امكانية عودة بعض الأمراض التي كان قد امكن القضاء عليها تماما مثل الملاريا ، وذلك كله بالاضافة الى ظاهرة النحر النهري وتآكل الشواطىء في شمال الدلتا والاخطار التي تهدد التربة ذاتها نتيجة لحجز الطمى الذي كان النهر يحمله ويجدد به خصوبة ارض مصر ، وكذلك بالاضافة الى اختفاء كثير من مظاهر الحياة السمكية البحرية مثل السردين والجمبري والصناعات التي كانت تقوم على هذه الثروة السمكية ... ومع ذلك فان هؤلاء العلماء انفسهم يرون ان لكل مشكلة حلا ، وان العلم لن يعجز عن معالجة هذه المشكلات . (٢)

---

(٢) الملاحظ ان التغيرات البيئية توجد في كثير من الدول وهي تقتضي في رأى الكثيرين ضرورة تكاتف هذه الدول على وقف تيار التلوث ، وانه لن يمكن لأية دولة واحدة ان تقوم بهذا العمل بمفردها ، وليس ذلك ناشئا عن ارتفاع تكاليف هذه الحرب فحسب بل وايضا نظرا للاوضاع القائمة بالفعل . مثال ذلك ان سبع دول على الاقل تلقي بفضلاتها ونفاياتها في بحر الشمال ، كما ان الرماد المتصاعد من مصانع الرور في المانيا مثلا يؤثر في الوح النرويج ويفقدها بريقها ولمعانها وصفاءها ، وبالمثل فان نفايات وفضلات مصانع الرين تصل الى بحر الشمال وتؤدي الى موت اعداد هائلة من الاسماك فيه . والسائد لدى عدد كبير من العلماء ان البحر الابيض المتوسط سوف يصبح بحرا (ميتا) نتيجة لالقاء الفضلات والفاثورات والنفايات من المصانع والبواخر فيه ان لم تبذل الجهود الجبارة لانقاذه ، وان كان هناك من يعتقد ان الوقت قد فات بالفعل وانه لا امل في انقاذه من ذلك المصير .

والخلاصة من هذا كله هو ان الكثير من الدول المتخلفة والنامية والفقيرة تعتقد ــ كما ذكرنا ــ ان « حركة البيئة » هي آخر سلاح اوعلى الاصح أحدث سلاح تتسلح به الدول الغنية في مؤامراتها ضد الدول الاخرى حتى تظل هذه الدول الغنية متفوقة طيلة الوقت وبحيث تستطيع ان تتحكم في غيرها ، ويكفي هنا ان نذكر انه حين عقد مؤتمر ستكهولم للبيئة كان تعليق احد اعضاء وفد البرازيل عليه ، حتى قبل أن يعقد ، هــو ان « مشكلتنا ليست هي التلوث الناجم عن زيادة التفوق الصناعي وانما هي الفقر والتخلف » . وربما كان هذا التخوف او التشكك هو السبب في ان المؤتمر عالج بالاضافة الى التلوث الناجم عن التصنيع عددا من مشكلات البيئة في مجتمعات العالم الثالث مثل زحف الصحراء على الاراضي الخضراء الخصبة ، وانتشار الجدب وما الى ذلك . وعلى اية حال ، فلقد بدأت بعض الدول النامية بعد المؤتمر تشعر بعالمية المشكلة ، وتدرك ان تهديد البيئة ليس قاصرا على مجتمعات محددة بالذات دون غيرها ، وان الازمة الايكولوجية ازمة عالمية بكل مافي هذه الكلمة من معان . والأمثلة عديدة على تلوث البيئة والآثار الضارة المترتبة على ذلك ، وهي امثلة يمكن ان نجدها في كل بقعة من بقاع العالم . والمعتقد على اية حال ان الدول الفقيرة والمتخلفة هي اكثر عرضة من الدول الغنية والصناعية لكوارث البيئة ، على ماقد يبدو في ذلك من غرابة ، وذلك لان هذه الدول المتخلفة تبالغ ــ في سباقها للحاق بالعالم المتقدم المتحضر ــ في ادخال نظم الحياة السائدة في المجتمعات الصناعية المتقدمة ، وهي ترهق بذلك مواردها الطبيعية التي سوف تستنزف في فترة قصيرة نسبيا ، كما ان الاقبال الشديد على التصنيع سوف يعجل بتلويث الهواء والماء بدرجة اكبر مما هو موجود في المجتمعات المتقدمة التي لديها من الموارد المالية مايسمح لها بالتخفيف من ويلات التلوث . ويزيد من خطورة الامر في المجتمعات النامية ارتفاع معدلات الزيادة السكانية بدرجة غير مالوفة في المجتمعات المتقدمة .

(١)

والشيء الذي يسترعي النظر حقا هو انه على الرغم من ان « حركة البيئة » لم تبدأ بشكل منظم الا منذ اوائل السبعينات فان ماتم احرازه من تقدم حتى الآن في هذا المجال خليق بالاهتمام والتقدير على الاقل في مجال توجيه الانظار الى خطورة المشكلة ، حتى وان لم تنفذ كثير من البرامج الخاصة بمنع تلوث البيئة ، وعلى الرغم من ان منع هذا التلوث لا يزال أملا يراود احلام انصار البيئة . والمهم هنا هو ان عددا من الدول اصدر بعض التشريعات الخاصة بالمحافظة على البيئة ، كما افردت ميزانيات ضخمة لذلك على ما ذكرنا .

ولقد بدأ الاهتمام بالبيئة وعلاقتها بالكائنات العضوية ، او ما يعرف عموما باسم الايكولوجيا ــ على ايدي علماء النبات والحيوان الذين كانوا ينظرون الى المسألة في الاغلب من الزاوية الفيزيقية

البحث ، او على الاقل كانوا يميلون الى تغليب الجانب الفيزيقي للمشكلة . ولكن الرعيل التالى من علماء الايكولوجيا كانوا يتمتعون بنظرة اوسع واعمق ، ولذا فانهم اعطوا مزيدا من العناية والاهتمام الى وضع الانسان في البيئة والى التفاعل القائم بين الاثنين . وكما يقول فريزر دارلنج F. Fraser Darling في مقال طريف له: ان الايكولوجيا ـ باعتبارها علما يدرس الكائن العضوى في علاقته بالبيئة التى يعيش فيها ، وكذلك العلاقات التى تقوم بين مجتمعات الكائنات العضوية التى تنتمى الى نوع واحد أو الى انواع مختلفة ـ هى فكرة اوسع وارحب واكبر بكثير مما يتصور العلماء الرواد الاوائل ، وان الشيء الرائع حقا في هذه الفكرة هو انها كانت من العظمة والرحابة والاتساع بحيث استطاعت ان تتعدى كل الحدود وان تمتد الى ميادين لم تكن مفهومة او مدروسة تماما ، كما انها تحاول البحث عن العلاقات والروابط ، وان تفقد المقارنة وتكشف عن اوجه الخلاف مهما كانت صغيرة وغير مرئية . (٢)

وربما كان اهم ما يميز هذه الدراسات الايكولوجية الرائدة هو النظرة العامة الشاملة التي تحاول الربط بين عناصر البيئة المادية او الفيزيقية من ناحية ، وحياة النبات وسلوك الحيوان وتصرفات الانسان والتفاعل والتداخل والتاثيرات المتبادلة بينها جميعا من ناحية اخرى. ومن هنا كانت هذه الدراسات الايكولوجية المبكرة، رغم ضحالتها النسبية اذا هى قورنت بما يصدر الآن من كتابات دقيقة متخصصة ، تعكس جانبا انسانيا عميقا تفتقر اليه هذه الكتابات العلمية المتخصصة . فالظاهر ان علماء الايكولوجيا ساروا في نفس الطريق الذى سار فيه الكثيرون من المتخصصين في العلوم الاجتماعية حين حاولوا محاكاة علماء الفيزياء والكيمياء وغيرهم في تطبيق

(٢) Darling, F. Fraser; "A Wider Environment and Ecology Conservation" Daedalus, Fall 1967, P. 1003.

وليس من شك في ان الفضل في ابراز علاقة البيئة بالحياة العضوية يرجع في المكان الاول الى علماء النبات بالذات ، ومن هنا كثر الكلام عن الايكولوجيا النباتية ، ثم جاء بعد ذلك علماء الحيوان . ويعتبر كتاب تشارلز التون Charles Elton الذى نشر عام ١٩٢٧ عن الايكولوجيا الحيوانية Animal Ecology من اهم العلامات على الطريق لانه كان يعبر ـ كما يقول فريزر دارلنج ـ عن فلسفة محددة وعن رؤية واضحة لموقف شديد التعقيد فيه يعتبر سلوك الحيوانات ذاتها عاملا في بيئة الكائنات الاخرى . ولقد طالب التون الذى كان عمره في ذلك الحين اقل من الثلاثين سنة بضرورة تعاون علماء النبات مع غيرهم من العلماء من اجل الوصول الى فهم كيف تتعايش مجتمعات الكائنات العضوية المختلفة . وقد كان آخر كتاب اصدره التون في هذا المجال هو كتابه الشهير The Pattern of Animal Communities الذى صدر عام ١٩٦٦ وفيه لا يكتفي بوصف ما هو قائم وانما يتجاوز ذلك الى المستقبل ، ويستمد ذلك من طبيعة الاعمال والبحوث التي قام بها تلاميذه واتباعه خلال عشرين عاما . ورغم ذلك فقد اهتم التون بالتنبيه الى قلة البحوث التي اجريت في هذا المجال الحيوى الهام الذى تتوقف عليه قدرة الانسان على رسم حياته وحياة المجتمع البشرى في المستقبل .

ويمكن ان نذكر الى جانب التون عددا آخر من علماء النبات الذين اهتموا بتوطيد الدراسات الايكولوجية من امثال هومر شانتز Homer Shantz الذى وضع اطلسا نباتيا ظل معتمدا لمدة طويلة جدا وذلك بعد ان قام برحلة علمية في افريقيا من القاهرة الى جنوب القارة . كذلك يدخل الدو ليوبولد Aldo Leopold ضمن هذه المجموعة من العلماء ، وقد قام بكثير من الابحاث في صحارى المكسيك واريزونا .

المنهج العلمي الرياضي الدقيق ، وبذلك ترجموا كل العلاقات الايكولوجية ترجمة كمية افقدت هذه العلاقات كثيرا من « انسانيتها » وعمقها ، وفقدت الكتابات الايكولوجية عموما كثيرا من جاذبيتها السابقة التي كانت تتميز بها ، واخفقت بالتالي في ان تصل الى كثير من الناس على الرغم من انها تعالج مسائل وامورا تمس حياة الانسان والمجتمع مسا شديدا . وقد زاد الوضع سوءا ان عددا من علماء الايكولوجيا النباتية والحيوانية كانوا يرفضون فكرة امكان قيام ايكولوجيا انسانية او بشرية على الاصح ، وذلك باستثناء عدد قليل منهم كانوا في الاغلب من المتخصصين اصلا في الجغرافيا او الانثربولوجيا . ولعل من اهم هؤلاء الجغرافيين كارل ساور Carl Sauer الذي كان ينظر الى الايكولوجيا دائما في ضوء النشاط البشري العام . وبقول آخر فان هؤلاء العلماء الذين كانوا ينادون بضرورة قيام ايكولوجيا بشرية انما كانوا يؤمنون بأن هناك ايكولوجيا واحدة شاملة ، ويصدرون في كتاباتهم عن هذا الايمان . وعلى اي حال فالواضح ان كلمة ايكولوجيا انتشرت في مختلف الاوساط العلمية ، ولم تعد قاصرة على علماء النبات او الحيوان ، كما اصبحت الدراسات الايكولوجية اكثر ميلا بعد ذلك الى الشمول والتكامل مما يجعل من مشكلة البيئة مشكلة اجتماعية وانسانية بقدر ما هي مشكلة فيزيقية .

ومع ذلك ، فعلى الرغم من اتساع نطاق البحوث الايكولوجية الان واعطاء الجانب الاجتماعي والانساني قدرا اكبر من الاهتمام ، فلا تزال نقطة الانطلاق في اي بحث ايكولوجي هي الظروف والاوضاع المادية السائدة في اي مجتمع من المجتمعات ، والى اي حد تنعكس هذه الاوضاع في سلوك الناس ، والى اي حد تتاثر بدورها بهذا السلوك او بالثقافة السائدة في ذلك المجتمع ، وكيف يمكن الافادة من هذه الظروف البيئية العامة . وعلى الرغم من التسليم بان هذه الاوضاع الفيزيقية تؤثر تاثيرا قويا في حياة الناس الا انها لا تحدد لهم هذه الحياة تماما ، وهذا معناه ان ما كان علماء القرن التاسع عشر يطلقون عليه اسم « الحتمية الجغرافية » والتي كانوا يعنون بها ان الشروط والاحوال الجغرافية تملي على الناس نوعا معينا بالذات من السلوك والحياة والنشاط الاقتصادي والاجتماعي لا يمكن الخروج منه ـ قد اختفت الآن تماما من الكتابات الايكولوجية ، التي اصبحت تعتبر هذه الظروف مجرد عامل واحد ضمن عوامل كثيرة تتعاون معا في تشكيل السلوك الاجتماعي . فسكان الصحراء مثلا لا يشتغلون برعي الحيوان لان الظروف البيئية وحدها هي التي تحتم عليهم ذلك ، وانما لان هناك الى جانب هذه الظروف البيئية الملائمة اوضاعا اخرى اقتصادية واجتماعية وسياسية تتضافر معا وترسم لهم ذلك الطريق ، مع عدم انكار اهمية الدور الذي تلعبه تلك الاوضاع المادية او البيئية في توجيه هؤلاء السكان نحو ذلك النمط المعين من النشاط الاقتصادي ... فالانسان هو الذي يصنع النظم الاجتماعية التي تسود في المجتمع الذي يعيش فيه ، آخذا بالاعتبار في الوقت ذاته ما تقدمه له البيئة الطبيعية من امكانيات ، كما ان الانسان هو ايضا الذي يستطيع ان يغير هذه النظم التي اوجدها بنفسه لنفسه حين يقتضي الامر ذلك التغيير ، وان كان هذا لا يتم بسهولة في كل الاحوال . فكان اي تغير في البيئة الطبيعية يمكن

للانسان ان يقابله بادخال التعديلات والتغييرات المناسبة على النظم الاجتماعية ، بحيث تتلاءم مع الاوضاع والشروط البيئية الجديدة .

ولقد اتجهت البحوث الايكولوجية في معظمها ـ وبخاصة البحوث التطبيقية ـ ناحية العمل للمحافظة على البيئة. وارتبط هذا كله بالتخطيط وبالذات بظاهرة التحضر ، اى ازدياد الاقبال على انشاء المدن نتيجة للزيادة الهائلة في عدد السكان وهجرتهم من الريف الى المراكز الحضرية والصناعية . ولقد كان لهذا اثره بالتالى على المناطق الريفية والخلوية . فقد كان من الطبيعي ازاء زيادة التصنيع وزيادة الهجرة من الريف أن تمتد حدود المدن والمراكز الحضرية بحيث التهمت مساحات كبيرة من المناطق الريفية والخلوية والأرض الزراعية . وقد دعا ذلك بعض العلماء الى الاهتمام ليس فقط بتطهير و (تنظيف) البيئة الحضرية من الأدران التى تلوثها ، ولكن أيضا بانقاذ الريف والمحافظة عليه والابقاء على المناطق الخلوية التي تعتبر رئة المجتمع كله . ولعل هذه كانت هى الفكرة الكامنة وراء ما يقال من ان ارتفاع مستوى المعيشة اقتصاديا عن طريق التصنيع يرتبط بالضرورة بانخفاض او تدهور مستوى المعيشة بيئيا او ايكولوجيا ، ليس فقط نتيجة للتلوث الذى يصاحب نشأة الصناعة ثم انتشارها ، ولكن أيضا نتيجة للازدحام السكاني وازدياد الضوضاء والضجة والصخب التي ترتبط بعمليات التصنيع وظهور المراكز الصناعية ، بحيث اصبح الهدوء الآن سلعة نادرة الى حد كبير . وهذه كلها أمور يتطلب حلها قيام تعاون وثيق بين علماء الايكولوجيا والفيزياء والاجتماع والنفس والانثربولوجيا ، فضلا عن المهندسين والمشتغلين بالتخطيط وغيرهم ، وهو ما يزيد من توكيد وتوضيح خاصية الشمول والتكامل التى تعتبر من اهم الخصائص المميزة لمشكلة البيئة . (٤)

---

(٤) هناك بعض الاتجاهات التي تدعو الى توجيه التربية والتعليم بحيث تخدم البيئة، بل والى ظهور تخصصات جديدة في علم البيئة التي يبدو أن كثيرا من الدول حتى المتقدمة لا تعطيها الآن ما تحتاجه من عناية واهتمام . وتستند هذه الدعوة على أن (ادارة) البيئة والتحكم فيها والمحافظة عليها تحتاج الى عدة تخصصات تتكامل وتتعاون فيما بينها بحيث يمكن ان يخرج منها تخصص جديد يجمع بين عدة فروع مختلفة من العلم مثل الجيولوجيا وعلوم التربية والاقتصاد والاجتماع والانثربولوجيا بل والفلسفة أيضا باعتبارها من الدراسات التي تساعد على فهم مغزى سلوك الناس وعاداتهم وبخاصة فيما يتعلق بموقفهم من البيئة الطبيعية . فالانسان ـ على ما يقول روبرت موريسون Roper Morrison في مقاله الرائع من Education for Ecological Concerns هو انجح الكائنات في استعمار الارض واستخدامها واستغلال مواردها ولكنه في الوقت ذاته اكثر هذه الكائنات افسادا للارض وتدميرا لها . ولكن على الرغم من كل الجهود التى تبذلها الجامعات الامريكية بالذات وعدد من الهيئات والمنظمات العلمية لنشر فكر التخصص في (الايكولوجيا) بهذا المعنى العام الشامل ، فالملاحظ ان الاقبال عليه لايزال ضئيلا نظرا لصعوبة العلوم التي يتعين على العالم الايكولوجى ان يلم بها ، وتشعب هذه العلوم وتنوعها بل وتباينها . وعلى ان حال فان توفر امثال هؤلاء المتخصصين لن يكون سوى الخطوة الاولى في دراسة البيئة بينما سوف يحتاج الامر بعد ذلك الى تعاونهم مع عدد من المتخصصين في بعض فروع المعرفة الاخرى وبخاصة الهندسة والتخطيط بل وأيضا الكيمياء والبيولوجيا لحل ابسط مشكلات البيئة .

(٢)

وواضح من هذا ان اهم ما يشغل بال علماء الايكولوجيا الان هو مسالة «المحافظة على البيئة» ، وهو تعبير حديث نسبيا ، وان كان استعماله شاع كثيرا بين كل المهتمين بامر البيئة والمحافظة عليها ، حتى وان لم يدركوا كل الابعاد التى تتضمنها هذه العملية الشديدة التعقيد التى تحتاج الى الالمام بكل جوانب الحياة الاجتماعية الاقتصادية ، بماق ذلك نفس عادات الناس وموقفهم من البيئة وطريقة معاملتهم لها — او على الاصح تعاملهم معها — وردود الفعل التى ينتظر ان تصدر عنهم ازاء مشروعات وبرامج المحافظة على البيئة ، وهى برامج غالبا ما تتعارض مع رغبات الناس ومع ما تعودوا عليه ، ولذا فانها تثير فيهم الرغبة في المقاومة . وهذا وضع طبيعى على اى حال ، يصادف كل مشروعات التنمية التى تهدف الى تغيير الأوضاع القائمة . هذا كله بالاضافة الى المعارضة التى يثيرها المشتغلون بالتصنيع على ما سبقت الاشارة اليه . الا انه يبدو ان الأذهان اصبحت الان مهياة الى حد كبير الى تقبل فكرة المحافظة على البيئة ، كما انه امكن تبديد كثير من الشكوك التى اثيرت حول هذه الحركة وحول تلك البرامج ، وان كانت نتائج البرامج ذاتها لا تظهر بسرعة او سهولة مما يجعل من الصعب تقدير مدى ما احرزته من نجاح فى المدى القصير ، كما ان وضع هذه البرامج والتخطيط لها يحتاجان الى دراسات وبحوث طويلة وعديدة ومتعمقة وشاملة (دون ان نفرق مع ذلك فى المشاكل المنهجية التى كثيرا ما تكون عائقا امام تمام هذه البحوث وبخاصة فى المجال التطبيقى ، وربما كان الجانب الاجتماعى هو اصعب جوانب عملية دراسة مشكلة البيئة والمحافظة عليها . فقد يكون من السهل العثور على اعداد كبيرة من الباحثين الذين يمكن الاعتماد عليهم فى جمع المعلومات الخاصة بعملية التلوث ، ولكن من الصعب جدا العثور على مثل هذا العدد من الباحثين الذين لهم القدرة على الكشف عن العوامل السياسية او الاقتصادية او الثقافية او الدينية التي تكمن وراء تلويث الناس لاحد الانهار مثلا ، (٥) مع ان المعركة الحقيقية تدور ضد العادات والجهل واللامبالاة وما اليها ، وهى كلها امور يصعب قهرها والتغلب عليها ، وتحتاج الى جهود طويلة ومكثفة ، وقد تحتاج في آخر الامر الى اصدار قرارات سياسية حاسمة للقضاء عليها . وهذه القرارات السياسية تتخذ شكل تشريعات خاصة بالمحافظة على البيئة ، (مثل تحريم القاء الحيوانات الميتة فى الانهار ومجارى المياه) . وان كان السـلاح الاقوى والاكثر فعالية واستمرارا هو التعليم ونشر الوعى ، رغم ما يتطلب ذلك من وقت ومجهود .

ولقد سبق القول ان «المحافظة على البيئة» لا تعنى ابدا الامتناع عن كل ما عساه ان يؤدى الى تغيير الاوضاع البيئية الطبيعية . فليس من شك في ان عمليات استخراج المعادن مثلا مـن باطن الارض ، او انشاء مشروعات الرى وتوليد الكهرباء الكبرى قد اسهمت اسهاما ملموسا فى

---

(٥) R.W. Patterson; "The Art of the Impossible" op. cit., P. 1030.

نمو الاقتصاد القومي في البلاد التي نفذت هذه المشروعات ، كما أدت الى ارتفاع مستوى المعيشة وتقدم المجتمع الانساني ككل ، على الرغم من كل ما نجم عنها من تلوث واضرار تتمثل ـ في أبسط واوضح مظاهرها ـ في الامراض التي تصيب الانسان نتيجة لتلوث الهواء واستنشاق ذلك الهواء الملوث (٦) . والمشكلة الرئيسية التي تواجه المهتمين بهذه المسالة ليست هي الطريقة التي يمكن لها السيطرة على تلوث الهواء ، وانما هي الى اي مدى يجب التحكم في هذه السيطرة ، خاصة وان تكاليف هذه العملية باهظة الى حد كبير ، وترتفع ارتفاعا رهيبا كلما زادت درجة التحكم في تطهير وتنظيف الهواء وتنقيته . ولا يزال ثمة جدل كثير حول جدوى العمل على تطهير الهواء تماما من كل ما يشوبه ، كما انه لا يزال ثمة جدل طويل عما اذا كان كل ما يشوب الهواء يعتبر من عوامل التلوث الضارة التي يجب ابعادها وازالتها تماما . والرأى السائد هو انه لا يكاد يوجد الآن ما يمكن تسميته بالهواء النظيف تماما في اى بقعة من بقاع الارض . وهذا نفسه يصدق على الارض والماء وغيرهما من عناصر ومكونات البيئة الطبيعية ، وان كان تلوث الهواء يثير انتباه واهتمام وعناية العلماء اكثر مما يثيره تلوث تلك العناصر الاخرى ، وذلك نظرا لان الهواء هو العنصر الوحيد من عناصر البيئة الذى لا يمكن الاستغناء عنه والذى تحتاج اليه كل الكائنات العضوية وكل اشكال الحياة . وكما يقول تيلر Teller : « ان خدمات الهواء تحتاج اليها جميع الكائنات دون ان يملكها اى كائن واحد منها ، فالهواء سلعة جماعية بكل ما في الكلمة من معنى » .

ومع ذلك ، فالرأى السائد الآن هو اننا لا نستطيع ان نتحكم في البيئة الطبيعية ان لم نتحكم اولا في انفسنا ، اما عن طريق التشريع أو عن طريق التوعية والاقتناع الشخصي والادراك السليم . وهذا يقتضي بغير شك اعدادا طويلا يقوم على التعريف بالمعلومات الاساسية المتعلقة بالبيئة والاخطار التي يمكن ان تلحق بها نتيجة لسلوك الانسان . ورغم هذا كله ، فالرأى السائد ايضا بين اغلب العلماء والمشتغلين بمشاكل البيئة هو ان ثمة حقيقة يجب قبولها كقضية مسلم بها وهي انه لا مفر ـ رغم كل المحاولات التي تبذل لتنظيف البيئة ـ من وجود درجة معينة من التلوث في كل مكان وفي كل شيء وفي كل وقت ، وان المهم في الامر ـ من الناحية العلمية ـ هو أن نعرف متى تصبح درجة التلوث مسألة لا يصح السكوت عليها ، وان كان من الصعب الوصول الى مثل هذا التحديد الدقيق .

• • •

---

(٦) انظر في ذلك التقرير المرفوع عام ١٩٧٢ الى مجلس الشيوخ والنواب الامريكيين عن :

"A Study of Pollution — Air" P. 14 . ويشير التقرير الى اهم مصادر تلوث الهواء مثل السيارات والصناعة ، كما انه يعدد الكائنات العضوية غير العضوية التي العضوية كالبالى . ومثل هذه الاشارات توجد بكثرة في جميع الكتابات التي تتناول مشكلات البيئة والتلوث .

وتضافر كل هذه القوى فى معالجة البيئة ،وكذلك النظر الى مكونات البيئة وعناصرها المختلفة على انها تؤلف كلا واحدا متماسكا معناه ان البيئة ذاتها تؤلف وحدة متكاملة او نسقا متمايزا System . ولقد كثر الكلام في السنوات الاخيرة عن الانساق الايكولوجية Ecosystems ، وحاول كثير من العلماء تصنيف هذه الانساق تبعا لأحد الانماط الاساسية التى تغلب على شكل الحياة داخل كل (نسق) كما هو الحال مثلا فى التمييز بين النسق الايكولوجي الصحراوى الذى ينشا نتيجة لتوافر عناصر فيزيقية معينة تتمثل في جدب الارض وقلة الماء ووجود المراعى وما يرتبط بهذا من وجود نمط اقتصادى معين وتنظيم اجتماعى قبلى ، والنسق الايكولوجى الريفي الذى ينشا نتيجة لتوافر الارض الصالحة للزراعة وامكانيات الرى وما يرتبط بذلك من نشاة القرى بتنظيمها الاجتماعى الذى يختلف عن التنظيم القبلى اختلافا شديدا ويعتمد اساسا على الارتباط بمكان واحد والاستقرار فيه ، والنسق الايكولوجى الحضرى الذى يرتبط بالتجمعات الانسانية الكبيرة التى تنشا فى مناطق معينة بالذات نتيجة لظروف جغرافية معينة تساعد اما على التجارة او تقديم الخدمات أو قيام بعض الصناعات ، وهكذا .واعتبار البيئة نسقا يتطلب بالضرورة ترتيب مكوناتها وعناصرها فى نظام واحد يتدرج من ابسط الكائنات العضوية الى اكثرها تعقيدا بحيث تؤلف سلسلة واحدة تتداخل حلقاتها بعضها فى بعض وتتفاعل معا من ناحية ، ومع بقية الاشياء غير العضوية وكل ما فى الكون من قوى مختلفة ومتباينة من الناحية الاخرى . الا انه لابد من ان نميز فى هذا النسق بين التجمعات البشرية وبقية (التجمعات) واشكال الحياة الاخرى ، على الرغم من كل مابينها من تفاعل وتشابك فى العلاقات المتبادلة . وتحتاج هذه التجمعات البشرية فى اى نسق ايكولوجي بتعقد سلوكها الاجتماعى الى حد كبير جدا وبخاصة فيما يتصل بالبيئة بحيث يحقق هذا السلوك درجة عالية من التكامل البيولوجى لانجد له مثيلا في العلاقات القائمة بين الحياة الحيوانية او النباتية وبقية مكونات البيئة فى ذلك النسق ، كما ان الانسان في كل نسق من هذه الانساق الايكولوجية هو الذى يسيطر سيطرة تامة على بقية تلك المكونات و (التجمعات) واشكال الحياة ، وهذه السيطرة هى التى تخلق فى آخر الامر الأزمة الايكولوجية التى تعانى منها كل المجتمعات فى الوقت الحالى ، وذلك نتيجة لاساءة استخدام تلك المكونات والعناصر . وليس هناك من ينكر اهمية العلاقات بين الكائنات العضوية المختلفة والبيئة، ولكن التكامل بين الانسان والبيئة خليق بأن يلقى اكبر قدر من الاهتمام وبخاصة حين تكون المسالة متعلقة بمحاولة التعرف على مستقبل المجتمع الانسانى ومصادر الثروة فى الارض وامكانية تحقيق درجة اكبر من التقدم .(٧)

---

(٧) على الرغم من كل الاهتمام الذى يبديه العلماء الان بدراسة البيئة فلا تزال الدراسات والبحوث عن الانساق الايكولوجية المختلفة ـ بكل مكوناتها وعناصرها المتفاعلة ـ قليلة نسبيا ، كما ان معظم ما كتب للان لا يخرج عن الوصف السريع الذى يكاد يخلو من تحليل العلاقات المتبادلة بين هذه المكونات المختلفة . وربما كان ذلك راجعا الى تعقد هذه العلاقات والى الحاجة الى الاحاطة بكثير من العلوم المتخصصة لفهم هذا التفاعل على ما ذكرناه . ولعل الاتجاه يحاول ان يفرض نفسه الان على دراسة الانساق الايكولوجية عن طريق تطبيق المناهج الرياضية والكمية .

←

وهذا ينقلنا مرة اخرى الى ماسبق ان ذكرناه من ان النسق الايكولوجي ـ رغم تعقده ـ نسق اجتماعي الى حد كبير ، وان مشكلات البيئة مشكلات اجتماعية في المحل الاول .

(٣)

ولقد جاء اهتمام علماء الاجتماع والانثربولوجيا وغيرهم من المتخصصين في العلوم الاجتماعية والانسانية بمشكلات البيئة في مرحلة متاخرة على اهتمام علماء النبات والحيوان بهذه المشكلات ، والمعروف ان كلمة « ايكولوجيا Ecology » ادخلت لاول مرة الى ميدان العلوم البيولوجية على يد عالم الأحياء الالماني ارنست هيكل Ernst Haeckel عام ١٨٦٩ للاشارة الى العلاقات المتبادلة بين النباتات والحيوانات التي تعيش معا في بيئة طبيعية معينة ، بينما لم يستخدم المدخل الايكولوجي او النهج الايكولوجي في مجال العلوم الاجتماعية والانسانية الا في اوائل القرن العشرين ، وبخاصة في كتابات عالم الاجتماع الامريكي جالبن Charles Galpin وبخاصة في كتابه الهام الذى ظهر عام ١٩١٥ بعنوان « التشريح الاجتماعي لاحد المجتمعات المحلية الزراعية Social Anatony of an Agrarian Community ومع ان جالبن لم يستخدم في هذا الكتاب كلمة (ايكولوجيا) صراحة الا انه في دراسته للعائلات القروية التي تعيش ذلك المجتمع المحلي الزراعي (الذى يقع في احدى مقاطعات امريكا) اهتم بتبيين العلاقات المتبادلة بين افراد المجتمع ومكونات البيئة الطبيعية السائدة هناك . وافلح في ان يكتشف من مختلف انواع النشاط وعوامل توزعها . وقد كان الهدف الاول من دراسة جالبن هي ان يدلل على انه يوجد في كل مجتمع من المجتمعات الانسانية « مناطق طبيعية Natural areas » تظهر تلقائيا نتيجة لتوفر ظروف ايكولوجية معينة ، كما انه يوجد في كل منطقة من هذه المناطق انواع معينة من النشاط الاقتصادى والاجتماعي ، بل وايضا التنظيم السياسي التي تتلاءم مع هذه الظروف . ولم يلبث هذا الاتجاه ان انتشر في كتابات علماء الاجتماع الآخرين في امريكا من امثال روبرت بارك Robert Park وبيرجيس Burgess . ففى عام ١٩١٥ ايضا حاول بارك ان يدلل على ان المدينة ظاهرة طبيعية تنشا نتيجة لتوفر عوامل

→

وهذا اتجاه ينظر اليه الكثير من العلماء بغير قليل من الحذر والشك والتخوف على ما اشرنا من قبل ، لانه قد يفقد هذه العلاقات الايكولوجية جانبا من معناها الانساني ، وان كان اصحاب هذا الاتجاه انفسهم يرون ان تطبيق المناهج الرياضية سوف يدفع البحوث الايكولوجية الى آفاق علمية جديدة ويحقق لها مستوى لا يتوفر لها الآن باستخدام الاساليب الوصفية البحتة . وعلى اى حال فان التحليل الكمي للانساق الايكولوجية لا يزال في بداية الطريق . كما ان النتائج التي امكن الوصول اليها غير مقنعة تماما . والامر لا يزال في حاجة على اية حال الى كثير من المثابرة والجهد حتى يمكن ـ حسب قول موريسون ـ فهم اعماق ايكولوجيا المجتمع بنفس الطريقة التي يفهم بها الآن الشفرة الوراثية Genetic Code مثلا (انظر مقال موريسون المشار اليه في Daedalus op. cit., p. 1210

Hamilton, L.S., "Education for the Changing Field of Couservation", Science Education Vo. 51, No. 2.

طبيعية لايمكن التحكم فيها ، وان لكل مدينة من المدن تنظيمها الخاص الذى تنقسم بمقتضاه الى مناطق مختلفة لكل منها نشاطها الخاص ، سواء كان ذلك النشاط نشاطا صناعيا أو تجاريا أو سكنيا ، بل ان لكل منطقة خصائصها الاجتماعية والثقافية التي تطبع حياة أهلها بطابع خاص . اما بيرجس فقد حاول ان يكشف عن درجة التناظر بين المناطق الطبيعية فى المدينة والظواهر الاجتماعية والثقافية ، فالمناطق المتخلفة فى المدينة مثلا هى بطبيعتها مثوى للجريمة والرذيلة والامراض والفساد والتفكك العائلى وغير ذلك من السلوك الانحرافى . (٨)

ومع ذلك فانه يمكن القول ان الاهتمام الحقيقى بدراسة النسق الايكولوجى (وبخاصة فى العلوم الاجتماعية والانسانية) لم يبدأ الا فى الربع الثانى من هذا القرن لدرجة انه يمكن الكلام عن « المدرسة الايكولوجية » . وليس معنى هذا ان الاهتمام بدراسة الظروف الايكولوجية كان معدوما لدى هؤلاء العلماء ، ولكن كل ما نقصده هو ان الدراسات الايكولوجية ، وبخاصة ابتداء من الثلاثينيات من هذا القرن بدأت تهتم بأمور اخرى غير مجرد وصف الظواهر الاجتماعية فى حدود والفاظ التوزيع المكانى ، وبدأت تولى عنايتها بوجه خاص الى علاقات التكامل التى تقوم بين افراد المجتمع وموارد الثروة الطبيعية التى يشتمل عليها ذلك المجتمع .

ولقد ثار خلاف كبير بين العلماء حول ما اذا كان يمكن اعتبار « النسق الايكولوجى » نسقا قائما بذاته ومتميزا عن غيره من الانساق كل التميز ، او انه يدخل مع غيره من الانساق الاجتماعية فى تكوين النسق الاجتماعى العام او البناء الاجتماعى Social Structure وكان انصار تمايز النسق الايكولوجى واستقلالها عن بقية البناء الاجتماعى يقيمون حججهم على ان النسق الايكولوجى يهتم فى المحل الاول بدراسة العلاقات بين الانسان والطبيعة بعكس انساق البناء الاجتماعى التى تهتم بدراسة العلاقات الاجتماعية المستمرة التى تقوم بين الجماعات البشرية بعضها وبعض ، وليس بين الناس والظواهر الانسانية . ولقد نشأ هذا التمييز الذى لا يخلو من كثير من التعسف والافتعال من الاتجاه الذى اعتنقه بعض علماء الايكولوجيا البشرية فى الثلاثينات من التمييز بين التفاعل الايكولوجى Ecological Interaction والتفاعل الاجتماعى Social Interaction بينما الميل السائد الآن ـ على ما ذكرنا فى اكثر من موضع من هذا المقال ـ هو أن ينظر الى العلاقة بين الانسان والبيئة نظرة عامة شاملة وتكاملية ، وان كان هذا لا يمنع من اختلافات التخصص والنظرة وتغليب جانب على جانب فى الدراسة والتحليل .

---

(٨) راجع فى ذلك كتابنا عن : البناء الاجتماعى ـ الجزء الثانى (الانساق) صفحات ١١ وما بعدها . كذلك راجع

Park, R.E., (ed); The City, Chicago
V.P. 1925; Burgess, E.W., The Growth of the City; Hollinshead, A.B., "Human Ecology", in Lee; Principles of Sociology, Barnes and Noble, N.Y. 1955.

والذى لا شك فيه ان التوكيد على تكامل الانسان والبيئة هو الطريق الذى يميل الكثيرون الآن اليه لحل مشكلات البيئة على اسس علمية سليمة ، وهو موقف يعطى للانسان وللمجتمع الانسانى من الاهمية ما يعطيه للبيئة التى يعيش فيها الاثنان ، على اعتبار ان الاثنين طرفان فى ذلك الكل المتكامل الذى يؤلف وحدة تخفى تحتها كثيرا من العناصر والمكونات المتباينة المتشابكة . ومثل هذه النظرة التكاملية الى علاقة الانسان بالبيئة تقتضى من الباحث ، وبالتالى من المشتغلين بتطهير البيئة ، معالجة عدد من الموضوعات يمكن ان نشير هنا الى بعضها للتدليل على مدى تعقد الموضوع والجهود التى يتطلبها تحليل الموقف : –

اولا : عناصر ومكونات النسق الايكولوجى موضوع الدراسة ، والمقصود هنا هو بالطبع المكونات الفيزيقية مثل الهواء او الماء . (ومثل هذا ينطبق على الانساق الاخرى كلها كالكائن العضوى الحى والنسق الشمسى او نسق الكواكب السيارة وغيرها .

ثانيا : البناء او الهيكل المادى (المورفولوجيا Morphology) – والمقصود به دراسة تنظيم الاجزاء المختلفة بما فى ذلك التنظيم الاجتماعى داخل افراد النوع الواحد او المجموعة الواحدة او بين الانواع او حتى المجموعات المختلفة . وهذا ايضا يصدق على بناء المجتمع الانسانى كما يصدق على بقية الابنية النباتية او الحيوانية .

ثالثا : الوظائف والعمليات ، والمقصود بذلك فسيولوجيا النسق بما فى ذلك العمليات التى تتحكم فى سير وسلوك وتصرفات كل الانساق الحية بصرف النظر عن مستوى التنظيم الذى يسود فى كل نسق من هذه الانساق .

رابعا : التوزع فى الزمان وما يرتبط بذلك من تغيرات تطرأ على النسق خلال الزمن .

خامسا : التوزع فى المكان ، والمقصود بذلك انتشار الانسان او الحيوان او النبات فى مختلف المناطق واسباب ذلك التوزع .

سادسا : العلاقة بالبيئة – والمقصود بذلك دراسة التأثيرات المتبادلة بين البيئة ومكوناتها من الكائنات العضوية المختلفة .

سابعا : واخيرا مشكلات التصنيف – ويشمل ذلك تصنيف النباتات والحيوانات ، بل والناس ايضا ، داخل النسق الايكولوجى تبعا للخصائص الذاتية لكل فئة من هذه الفئات .(٩)

---

(٩) Dillon Ripley and Helmut K. Buechner; „Ecosystem Science as a Point of Synthesis'' in Daedalus, op. cit; PP. 1194 - 95.

وكل هذه النقاط اثيرت فى الاصل فى كتابات علماء الايكولوجيا النباتية والحيوانية ، ولكنها تصدق بكل دقائقها وتفاصيلها على مستوى العلاقات القائمة بين الانسان والمجتمع والبيئة ، بحيث ان اى عملية تبدأ فى اى طرف من هذه الاطراف الثلاثة لا تلبث ان تنتقل الى الطرفين الآخرين ، بحيث تؤثر ، آخر الامر ، فى ذلك الكل المتكامل او الوحدة المتكاملة المتميزة (وحدة الانسان - المجتمع - البيئة) . وابسط مثل لذلك هو حركة جزئيات الـ DDT من النبات او الحيوانات ومنها تلك التى تقتات على تلك النباتات ، الى الانسان الذى كان هو السبب الاول فى نشر هذا التلوث . واكتمال هذه الدورة هو الذى يبين مدى التكامل القائم داخل النسق الايكولوجى . وتتم فكرة التكامل حين تأخذ فى الاعتبار ان حركة هذه الجزيئات الفيزيقية او المادية D.D.T. تدفع الانسان الى التفكير فى هذا الوضع القائم ، والعمل على التغلب على الأخطار الناشئة من هذا الوضع .

ولقد ظل الانسان منذ نشأته الأولى المبكرة يعمل على تغيير البيئة التى يعيش فيها بحيث تتلاءم مع احتياجاته ومتطلباته ورغباته ، ولكن الغريب فى الامر هو ان هذا التعديل او التغيير كان يحمل دائما فى طياته كثيرا من المساوىء والشرور التى انعكست على حياة الانسان نفسه . فكأنه يمكن القول ان الانسان كان يعمل دائما ، ومن حيث لايدرى ، على تغيير البيئة بمايتعارض مع صالحه . ولقد كان هذا هو الحال خلال الخمسة آلاف سنة الماضية . - على الاقل - منذ ظهور الحضارات الاولى باستقرار الانسان فى الارض ، وان اتخذ هذا التعديل والتغيير اشكالا مختلفة باختلاف العصر والمكان ودرجة التقدم ونمط الحياة والظروف العامة التي يعيش فيها المجتمع . فمنذ هذه الفترة المبكرة ، وقبلها بكثير بغير شك ، عمل الانسان على استغلال الموارد الطبيعية بطريقة ادت الى نتائج عكسية فى كثير من الأحيان تمثلت فى استنزاف خصوبة مساحات كبيرة من الارض (كما حدث فى اراضى ما بين النهرين) والقضاء على كثير من مناطق الغابات (كما حدث مثلا فى بلاد اليونان القديمة وفى ايران) والقضاء على مساحات واسعة من المراعى فى جنوب اوروبا وشمال افريقيا بحيث تحولت الى ارض صحراوية مجدبة اخذت تتسع وتمتد بدورها على حساب الاراضى الخصبة القابلة للزراعة . كذلك ساعد الانسان خلال كل هذه الفترة على تلويث الهواء باحراقه الغابات وحشائش السافانا على امل ان يزرع الارض بعد ان (يطهرها) من غطائها الأخضر الطبيعى . ثم اسهمت التكنولوجيا الحديثة آخر الامر فى تدمير البيئة بسرعة والى حد كان يصعب تصور حدوثه منذ سنوات قليلة فقط . وهذا خليق بأن يجعلنا نعطى نصيبا اكبر من الاهتمام للدور الذى لعبته التكنولوجيا الحديثة فى خلق الازمة الايكولوجية التى نعانى منها الآن ، والتى تتمثل فى اختلال التوازن الدقيق بين عناصر البيئة وتخلخل ذلك التكامل الذى اشرنا اليه .

(٤)

ولسنا نقصد بالتكنولوجيا هنا مجرد الاشياء المادية او الادوات التي نستخدمها في حياتنا اليومية لانجاز الاعمال الصعبة او لزيادة الانتاج ، وانما المقصود هنا كل ما من شأنه ان يساعد على مد سيطرة الانسان على البيئة الطبيعية ، وبذلك يمكن ان ندخل ليس فقط الالات والاجهزة التي نستعين بها في العمل والانتقال وانجاز الاعمال المنزلية وقضاء وقت الراحة والترفيه فحسب ، بل وايضا جميع العوامل التي تساعد في اتمام هذه الانشطة ، مثل الطرق والمطارات والسدود والخزانات ومحطات توليد القوى وما الى ذلك ، وهي كلها تشغل حيزا كبيرا من البيئة الطبيعية وتؤثر فيها . والواقع ان كل ما تفعله التكنولوجيا بهذا المعنى يمكن تلخيصه في استخراج المواد الخام من البيئة واستخدامها بالاستعانة بأحد اشكال او صور الطاقة ، ثم رد هذه المواد بعد ذلك الى البيئة مرة اخرى ، ولكن بعد ان تكون قد اتخذت شكلا جديدا تماما . (١٠) ومع ان بعض هذه المواد الخام تستخدم في صورتها الطبيعية مثل الخشب والحجارة والطين ، الا ان الغالبية العظمى تخضع لكثير من التغييرات والعمليات الطويلة المعقدة التي تفقدها خصائصها الاولى . ولقد كان الانسان المبكر يكتفي في الاغلب باستخدام المواد الخام كما يجدها ، ولم يكن ذلك يتطلب منه سوى بذل قدر ضئيل من الطاقة هي تلك التي يستمدها من قواه العضلية وحدها . ولقد تمكن بذلك ، وعن طريق استخدام هذه المواد الخام في صورتها الطبيعية الاولى في صنع اسلحته واوانيه الفخارية وما اليها ، أن يصمد امام الطبيعة القاسية ويقاومها . ولقد زودت هذه الأدوات الانسان خلال كل مراحل تاريخه وتطوره بميزات كثيرة لم تكن متاحة لبقية الكائنات الحية الاخرى التي دخل الانسان معها في صراع طويل وعنيف . ولقد تطورت قوى الانسان وازدادت خلال تلك القرون الطويلة كما اصبحت الادوات والآلات التي يستخدمها اكثر تعقيدا وتقدما ، كما اصبح الانسان يستعين بمواد اخرى كيماوية او يقوم بعمليات فيزيائية معقدة لتنقية هذه المواد الخام الطبيعية او تحويلها الى مواد اخرى يستخدمها في حياته العملية كما هو الحال في صنع الصلب من خام الحديد بعد ان ينقيه من كل الشوائب ، ثم استخدام الصلب بعد ذلك في صنع كثير من الادوات . وهذا يصدق على اشياء اخرى كثيرة . وحين يضيق الانسان بهذه الادوات والمصنوعات فانه (لا يلقي بها بعيدا) في حقيقة الامر ، او (ينبذها) تماما ، وانما تعود هذه الادوات والمصنوعات الى البيئة لتصبح جزءا منها مرة اخرى . فالحديد حين يصدأ يعود الى الارض ، والبلاستيك حين يستغني عنه الانسان ويلقيه فانه اما ان يدفن في الارض او انه يحرق لكي يتحول الى حرارة وغازات تتصاعد في الهواء ، وهكذا . والمادة قد تتحول الى طاقة كما هو الحال حين يحرق الوقود ولا تلبث ان تمتصها (البيئة) بشكل ما . فكأن البيئة تسترد في آخر الامر وبشكل ما كل ما نأخذه منها مثلما تستردنا نحن ايضا ، على ما يقول هاملتون (صفحة ٢٠) .

---

(١٠) David Hamilton, Technology, Man and the Environment, Faber, London 1973, p. 18.

والمهم هو أن التكنولوجيا تساعد الانسان على البقاء والصمود فى صراعه الابدى مع الطبيعة. فلكى يتمكن الانسان من الحصول على الطعام والدفء والمأوى (او المأكل والملبس والمسكن) فانه يتعين عليه أن (يرتب) بيئته بما يتفق مع اهدافه وحاجاته ومتطلباته وبذلك يدخل فى صراع وتعارض مع البيئة ومع الطبيعة التى تعمل على هدم ما قام بترتيبه واعداده وصنعه، بل والقضاء عليه تماما . ولقد خسر الانسان كثيرا خلال هذا الصراع الطويل ، وان كان التقدم التكنولوجى الحديث والآلات والادوات المعقدة قد اعطته ـ كما قلنا ـ مزيدا من القوة التى لم يكن يتمتع بها من قبل . ويبدو أن هذه القوة قد بلغت درجة عالية من الخطورة على البيئة كلها . وصحيح أن البيئة الطبيعية كانت معرضة دائما لكثير من التغيرات التلقائية منذ وجد الكون ، ولكن الانسان اضاف الى هذه التغيرات بتدخله فى سير الطبيعة ، كما أن الذى يهم هنا هو سرعة وحجم هذه التغيرات التى أحدثها الانسان وبخاصة تلك التى لا يمكن الرجوع عنها أو علاجها . وليس من شك فى انه كلما تطورت التكنولوجيا وتعقدت وتقدمت زادت هذه التغيرات عمقا وخطورة . وربما كان أخطر هذه التغيرات هي تلك التى تطرأ على الهواء نتيجة لتلوثه ، وعلى الماء نتيجة لاغراق نفايات المصانع فى البحر (١١) . والاخطر من ذلك هو ان موارد المواد الخام لا يمكن ان تظل الى الابد ، بل ان بعضها بدأ يعانى بالفعل من النقص الشديد نتيجة لمغالاة الانسان فى استخراجها من باطن الارض ، وهناك من العلماء من يقدر أن كثيرا من هذه الموارد سوف تنضب تماما حوالى عام ٢٠٠٠ مما يعنى ان المجتمع الانسانى سوف يجد نفسه فى مأزق شديد نتيجة لهذه الازمة الإيكولوجية المتوقعة .

ولكن اذا كانت التكنولوجيا تحتاج بالضرورة الى توفر الطاقة فان النتائج المترتبة على استخدام الطاقة أصبحت تثير كثيرا من القلق ، وهو الامر الذى لم يكن الانسان يتوقعه فى بداية الثورة الصناعية أو حتى فى بداية برنامج استخدام القوى النووية . ويجد الانسان نفسه انه فى موقف صعب لا يكاد يجد لنفسه مخرجا منه ، على الاقل فى الوقت الحالى . ذلك أن الاستمرار فى احراق الوقود لتوفير الطاقة اللازمة وبنفس الطريقة التى نتبعها الآن يؤدى الى مزيد من ذلك التلوث الخطير بالاضافة الى استنزاف موارد الوقود ذاتها بسرعة ، كما ان هناك من العلماء من يرون أن الحرارة المنطلقة من حرق هذه الكميات الهائلة من الوقود قد تؤدى الى ارتفاع درجة حرارة الارض بشكل غير متوقع ، كما قد يؤدى الى حدوث اضطرابات شديدة فى المناخ ذاته . واذا

(١١) من أهم ما يشغل بال كثير من العلماء الآن مشكلة الحصول على اشكال من الطاقة لا ينجم عنها الا تلوث البيئة. فكل اشكال الطاقة المعروفة الآن تؤدى الى التلوث ولكن بدرجات مختلفة ، وربما كان الفحم اكثرها سوءا فى هذا الصدد . وربما كان أهم مصادر الطاقة التى لا يتولد عنها تلوث البيئة هي الشمس التي تعتبر المصدر الاصلى لمعظم اشكال الطاقة الموجودة فى الارض كما أنها هى الطاقة الاساسية التى تحفظ الحياة بكل صورها واشكالها . والملاحظ هو ان استهلاك الطاقة يزداد باطراد نتيجة لزيادة السكان وارتفاع مستوى المعيشة وتعقد التكنولوجيا واعتماد الحياة اليومية عليها اعتمادا متزايدا . وتبلغ معدلات الزيادة السنوية فى استخدام الطاقة الاولية ٥ ٪ بالنسبة للفحم والبترول والغاز عن السنة السابقة عليها بينما ترتفع هذه المعدلات بنسبة ٨ ٪ فى استهلاك الكهرباء . ومن المشكوك فيه ان هذه الزيادة يمكن ان تستمر بغير توقف .

حدد الانسان من الناحية الاخرى استخدامه للوقود لكي يحافظ على مصادر الطاقة ويقلل من درجة التلوث فسوف يعجز عن تحقيق التقدم التكنولوجي الذي يبدو انه أصبح سمة من سمات العصر الحديث والمجتمع المعاصر ، وهذا سوف يؤدي بالضرورة الى انخفاض مستوى المعيشة انخفاضا شديدا عما هو عليه الآن . وليس هناك من يستطيع ان يتنبأ بمصير المجتمع ان حدث ذلك او حتى يجرؤ على مجرد التفكير فيه ، او ان يتصور المستويات الدنيا التي سوف تنزلق اليها الحضارة الحديثة التي بدأت بالثورة الصناعية ، او التغيرات الهائلة التي سوف تطرأ على حياة الناس . فهل يهجر الناس مثلا المناطق الشمالية الباردة في العالم الى المناطق الاستوائية والمدارية الاكثر دفئا ؟ وهل تتفكك المجتمعات الحضرية والصناعية وتختفي المدن الكبرى بعد ان تتوقف الصناعة وتتحول التجمعات البشرية الهائلة التي ترتبط بهذا التنظيم الحضري الصناعي الحديث الى مجموعات بشرية صغيرة ومتناثرة كما كان عليه حال المجتمع خلال الفترة الاطول من تاريخه ؟ وهذه كلها ليست مجرد تخيلات او افتراضات لا تستند الى دليل وانما هي احتمالات يمكن ان تتحقق اذا زال الاساس التكنولوجي الذي تقوم عليه كل حياتنا المعاصرة . الا اننا نجد في الوقت نفسه ان الدول الصناعية المتقدمة تنفق الآن على البحث العلمي الذي يهدف الى تحقيق مزيد من التقدم التكنولوجي مبالغ هائلة لا يمكن ان تقارن بها تلك المبالغ الضئيلة نسبيا التي تخصص للبحث في المجالات التي تتصل بالحاجات الاساسية للانسان ، مثل العلوم الاجتماعية ومشكلات التخطيط وافضل الطرق لاستخدام الارض وتطوير الزراعة وانتاج الطعام . وهذه التفرقة الواضحة في الاهتمامات وفي الانفاق تعني ضمنا ان الجنس البشري اكثر اهتماما بما قد يودي به وبالمجتمع والعالم كله بدلا من ان يعطي المزيد من العناية بما قد يساعد على بقاء الحياة واستمرارها . ولكن الظاهر ان هناك من العلماء من يحاولون اعادة النظر في الموقف ، او على الاقل تنبيه الاذهان الى ما ينطوي عليه من اخطار (١٢)، خاصة وان الاوضاع في كثير من انحاء العالم

(١٢) ينظر كثير من الكتاب الى الامر نظرة ملؤها التشاؤم وبخاصة فيما يتعلق بمستقبل العلاقة بين الانسان والبيئة وتفاقم الازمة الايكولوجية . ففي فقرة طويلة بعنوان " الانسان عدو نفسه " Man his onw enemy يقول ديفيد هاملتون ـ الذي كان حتى وقت قريب رئيس تحرير مجلة New Scientist ـ في كتابه الذي سبقت الاشارة اليه ، ان الانسان لن يستطيع ان ينقذ نفسه من نفسه حتى ولو افلح في التخلص من الآثار السيئة التي تنجم من التكنولوجيا . ذلك ان الانسان في رأيه سوف يظل يتجب ويتزايد في العدد مما سيؤدي بالجنس البشري الى الفناء من الجوع ، او انه قد يضطر الى ان يحشر كل هذا العدد المتزايد باطراد في بيئة الارض المحدودة مما سيؤدي بهم الى الصراع والاقتتال من اجل البقاء وهذا سيؤدي بهم في آخر الامر الى النتيجة ذاتها . ولقد كان منطق الطبيعة دائما ان تقوم بتحديد عدد اي جنس من الاجناس تبعا لمساحة الارض المتاحة وكمية الطعام المتوفرة ، وان زيادة في العدد كان مصيرها دائما الفناء بسبب نقص الطعام او التنافس الطبيعي او نتيجة لتدخل احدى قوى البيئة الاخرى ، ومع ان الانسان يعرف ذلك تماما الا انه يتزايد بطريقة ستؤدي الى استنزاف كثير من الموارد الطبيعية في القريب ، ولكنه بفضل تقدمه التكنولوجي استطاع ان يغير البيئة وان يحفر في الارض الى اعماق بعيدة جدا بحثا عن مزيد من الموارد ولكن هذا كله لا يعني شيئا سوى تأجيل النهاية المحتومة لبعض الوقت فقط . وسوف يصحبه خطر نفاذ الطعام في وقت قريب . بل
←

تستدعى ضرورة الاسراع الى اتخاذ الاجراءات بحفظ حياة الانسان وحياة المجتمع وحياة البيئة على السواء . وقد يكفى ان نذكر هنا انه مع بداية القرن الحادى والعشرين سوف يعيش ثلاثة من كل اربعة اشخاص من سكان العالم فى تجمعات سكنية كبرى (المدن) ، وسيكون الجزء الاكبر من هذه المدن عبارة عن مناطق سكنية متخلفة Slum areas يقيم فيها المهاجرون ـ والنازحون من القرى والأرياف ، وبذلك يضعون أعباء جديدة وثقيلة على البيئة الحضرية . وفى الوقت الحاضر مثلا نجد ان ثلاثة ارباع السكان فى مدينة كبرى مثل كلكتا يعيشون في اكواخ واكشاك تنقصها كل اسباب الراحة الاساسية او الاولية (المياه والمجارى) وحين تهب الرياح الموسمية بما تجلبه من امطار غزيرة وترتفع المياه في الشوارع والطرقات يجد الناس انفسهم مضطرين حين يريدون الانتقال من مكان لآخر الى خوض هذه المياه التى تطفو عليها فضلاتهم وفضلات بهائمهم وكل انواع البقايا والنفايات والقاذورات . وليس حال المناطق السكنية المتخلفة فى مدن الشرق الاوسط افضل حالا من هذا . وليس من شك فى ان اى محاولة لتغيير هذه الاوضاع التى ينجم منها تلوث البيئة الحضرية سوف تؤدى الى ادخال تغيرات جوهرية جديدة فى هذه البيئة ذاتها .

ومهما يكن الأمر ، فهناك عدد من المبادىء التى يجب ان تؤخذ فى الاعتبار دائما حين تدرس الانساق الايكولوجية وما تتعرض له البيئة الطبيعية من تغيرات على يد الانسان في محاولته تسخير هذه البيئة لصالحه ، أو حين تحاول ان تفهم طبيعة المأزق الذى وضع الانسان نفسه فيه كما وضع البيئة ذاتها فيه .

ولعل **اول مبدأ** من هذه المبادىء هو تعقد العلاقات بين الانسان والبيئة وتشابكها الى ابعد الحدود . ويزيد من هذا التعقد تعرض هذه العلاقات دائما للتغيير والتعديل والتحوير نتيجة للتقدم الثقافى والتكنولوجى الذى يحرزه المجتمع . فليس من شك في أن مثل هذا التقدم التكنولوجى بالذات يساعد مساعدة فعالة واكيدة على تحكم الانسان فى البيئة الطبيعية بعد ان يكون

→

ان الجنس البشرى يعانى الآن فعلا من نقص الطعام ، وسوف يعانى قريبا من النقص فى اشياء اخرى مثل الماء الصالح للشرب والمسكن بل والارض التى يمكنه ان يسكنها ففى الوقت الحالى يشغل كل خمسة عشر شخصا فى المتوسط كيلو مترا مربعا واحدا من سطح الارض ، يرتفع العدد بعد جيل واحد الى اكثر من ثلاثين شخصا لكل كيلو متر مربع . ولقد اوقف التقدم فى مجال الطب عمل الطبيعة التى كانت تقضى على افراد الجنس البشرى غير الصالحين ـ كالمرضى والعجزة ـ فأطال الطب الحديث حياتهم لكى يزحموا الارض ويزاحموا الآخرين ويسهموا فى استنزاف الموارد الطبيعية وبالتالى فى تفاقم الازمة الايكولوجية .

والمعروف على اى حال ان سكان الارض يتضاعفون كل ثلاثين سنة تقريبا بحيث يتوقع ان يصل عددهم الى سبعة الاف مليون نسمة عام ٢٠٠٠ ، وان معظم الزيادة ستكون فى الدول المتخلفة التى هى اقل قدرة على استيعاب اعداد كبيرة من الناس . والظاهر انه لن يكون امام الجنس البشرى الا ان يختار بين العمل على ضبط النسل بكل الطرق بما فيها اباحة الاجهاض (كما يقول) او يموت جوعا (صفحات ٢٧٤ ـ ٢٧٩) .

خاضعا لها . وخليق بمثل هذا التحكم ان يؤدي الى تغيرات جوهرية في البناء الاجتماعي الكلي وليس في البيئة الطبيعية وحدها (انظر كتابنا عن الانساق ، صفحة ٨٥) .

والمبدا الثاني ، وهو امتداد للمبدا الاول ، يقوم على اعتبار كل التغييرات التي يحدثها الانسان في كوكب الأرض الذي يعيش عليه هي ظواهر ايكولوجية لا يمكن فهمها فهما صحيحا الا في ضوء العلاقة الثلاثية القوية التي تقوم بين الانسان والمجتمع والبيئة ، أو « المجتمع الانساني زائدا عليه البيئة » كما اصطلح كثير من العلماء على تسمية هذه العلاقة . ومع التسليم بقوة العلاقات بين تلك الاطراف الثلاثة التي تؤلف النسق الايكولوجي فان اثر البيئة الفيزيقية يكون اوضح في المجتمعات البسيطة والاقل تطورا منه في المجتمعات الراقية المتقدمة ، نظرا لاعتماد الناس في الفئة الأولى من المجتمعات بشكل مباشر وبطريقة واضحة على ما تقدمه البيئة لهم من امكانيات يفيدون منها في صورتها الاولية . فالتاخر التكنولوجي يقف عقبة في وجه الجهود التي قد يبذلها الناس في هذه المجتمعات لتشكيل موارد الثروة الطبيعية وتحويرها بنفس الدرجة التي نجدها في المجتمعات الصناعية . ومن هنا كان تغييرهم للبيئة الطبيعية محدودا نظرا لانخفاض المستوى التكنولوجي السائد عندهم .

والمبدا الثالث هو ان ندرك دائما في دراستنا للانساق الايكولوجية ان الانسان يوجد دائما في الطبيعة كجزء منها ، وانه ليس (خلقا) خاصا يوجد ويعيش بعيدا ومنعزلا عن الانساق الايكولوجية بحيث يؤثر فيها من الخارج دون ان يتأثر بها أو يتفاعل معها . بل ان تأثير (الانسان) على الانساق الفيزيقية انما يتم عن طريق المجتمع ومن خلاله . وليس المجتمع بعد كل شيء الا وحدة معقدة ومتكاملة لها خصائصها المميزة التي تظهر من خلال التفاعل القائم بين اعضاء ذلك المجتمع ، كما ان اى سلوك جماعي يصدر عن اعضاء المجتمع ككل يختلف في الاغلب اختلافا جوهريا عن السلوك الذي يصدر من اى عضو من هؤلاء الاعضاء على حدة وانفراد . ومع انه يمكن عزل المجتمع (كفكرة) عن النسق الايكولوجي الطبيعي وان ندرسه في حد ذاته بعيدا عن ذلك النسق فان ذلك يحتاج الى كثير من التجريد ، بينما الواقع يختلف عن ذلك كل الاختلاف . فليس هناك مجتمع يعيش في فراغ ، وانما لكل مجتمع اقليم خاص يرتبط به ويشغل رقعة محددة من الارض وتحيط به ظروف جغرافية وبيئية معينة تؤثر بطريق مباشر او غير مباشر في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة فيه وتطبعها بطابع مميز . وليس من شك في ان دراسة المجتمع في ضوء النقاط السبع التي سبق ذكرها والتي حددها ريبلي Ripley وبوشنر Buechner تلقي كثيرا من الاضواء على الدور الذي يقوم به المتخصصون في العلوم الاجتماعية والانسانية لفهم النسق العام الذي يضم الانسان والمجتمع والبيئة .

والمبدا الرابع هو انه على الرغم من التسليم بأثر البيئة في الحياة الاجتماعية في كل المستويات الثقافية والاجتماعية فان من الخطأ الزعم بان هذا التأثير يصل الى حد تشكيل حياة الناس كلها

وتوجيهها بطريقة معينة بالذات وفى اتجاه مرسوم بالذات ايضا . وكل ما تفعله البيئة هنا هو انها تقدم امكانيات عديدة للحياة الاجتماعية في اى مجتمع من المجتمعات ـ ايا ما تكون درجة بساطة هذا المجتمع او بداوته وتخلفه ـ بحيث يستطيع الناس ان يختاروا فى الاغلب من بين هذه الامكانيات ما يتفق مع ثقافتهم وتنظيمهم الاجتماعى . وليس ادل على ذلك من اننا نجد كثيرا من طرائق الحياة المختلفة فى البيئات المتماثلة من ناحية ، كما نجد مثل هذا الاختلاف فى اساليب العيش في البيئة الواحدة ، ولكن فى الاوقات والفصول المختلفة من الناحية الثانية ، دون ان يكون هناك ضغط شامل من البيئة لتقليل هذه الاختلافات او محوها . ففى معظم المجتمعات الافريقية مثلا يوجد كثير من انماط الحياة جنبا الى جنب بحيث يمارس الاهالى الجمع والالتقاط الذى يعتبر فى نظر كثير من العلماء اول مرحلة من مراحل الحياة الاقتصادية واكثرها تأخرا ، كما يمارسون فى الوقت ذاته الزراعة بل وايضا استخراج المعادن والصناعة في بعض الاحيان . كذلك نجد فى المجتمع الواحد ان الاوروبيين المستوطنين يمارسون انواعا من النشاط التى تختلف اختلافا تاما عن تلك التى يقوم بها الافريقيون ، على الرغم من انهم يعيشون معهم في نفس المجتمع ويخضعون لمؤثرات طبيعية وبيئية واحدة . وهذا كله معناه اننا يجب الا ناخذ البيئة الطبيعية او الظروف الايكولوجية على انها عامل سبب Causal Factor بقدر ما نعتبرها مجموعة من الظروف او الشروط الشاملة التى تتلازم على قيام نمط معين من انماط الحياة الاجتماعية . (راجع كتاب : الانساق ، المرجع السابق ذكره ، صفحتى ٨٥ ، ٨٦) .

والمبدا الخامس والاخير ، هو انه ضرورة التعرف على تأثير العوامل البيئية على التنظيم الاجتماعى ، وبالتالى على البناء الاجتماعى الكلى ، وعملية التكيف التى تحدث طيلة الوقت فى المجتمع سواء اتخذت هذه العملية شكل الاكتفاء باستغلال ما تقدمه البيئة من ثروة ، او شكل التحكم فى الظروف البيئية والجغرافية والسيطرة عليها واكتشاف مصادر وموارد الثروة الدفينة وتشكيلها فى صور واشكال جديدة ، فلا بد للعلم من ان يعطى جانبا كبيرا من الاهتمام الى الآثار السيئة التى يخلفها تحكم الانسان فى هذه الظروف والاوضاع البيئية . اذ ليس يكفى ان تنظر الى علاقة الانسان بالبيئة بما يحققه الانسان عن طريق ذلك التحكم من تقدم للمجتمع والحضارة ، وانما لا بد من ان تكشف عن الجوانب السلبية لهذه العلاقة ولهذا التقدم ، وهى الجوانب التى تتمثل فى تلوث البيئة واستنزاف مواردها الطبيعية ومايترتب على ذلك من مرض او متاعب ومشكلات اقتصادية قد يعانى منها المجتمع في المستقبل ان لم يكن يعانى منها او من بعضها الآن بالفعل . ودراسة هذه الجوانب السلبية هى التى تكشف لنا عن ازمة البيئة والابعاد التى وصلت اليها ، كما قد تحفز المشتغلين بالتخطيط ـ فى مختلف فروعه ـ بالعمل على تلافى استفحال هذه الازمة او استحكامها بشكل يهدد حياة الانسان فوق هذه الارض .

اهم المراجع

— Avril, R.; **Man and Environment**, Penguin, 1967.

— Buchanan, R.A.; **Technology and Social Progress**, Pergramon, Oxford 1966.

— Carson, Rachel, **Silent Spring**, Penguin, 1965.

— Drucker, P.F.; **The Age of Discontinuity**, Heineman, London, 196969.

— Galbraith, J.K.; **The Affluent Society**, Pelican, London, 1970.

— Hamilton, D.; **Technology, Man and Environment**, Faber, London 1943.

— Mumford, Lewis, **The City in History**, Pelican, 1966.

— Roszak, T., The Making of a Counter-Culture, Faber, London, 1940.

— Shanks, M.; The Innovators, Penguin, 1967.

— Sterland, E. G.; Energy into Power, aldus Books, London, 1967.

— Wagner, R.H.; Environment and Man, Norton, N.Y. 1971.

— Watt, K.F.; Ecology and Resoutcle Management, N.Y. 1969.

وذلك بالاضافة الى المقالات العديدة القيمة التي يضمها عدد خاص من مجلة Daedalus (وهي المجلة التي تصدرها الاكاديمية الامريكية للفنون والعلوم عن America's Changing Environment خريف عام ١٩٦٧ .

***

محمود احمد الشربيني

الإنسان بين العلم والبيئة

الجو مليء بالاشعاعات تأتينا من عل ، وكأن السماء تفرغ علينا ابدا اشعاعات من يوم بدء الخليقة ولكنا لا نأبه لها ولا نتتبع اثرها ، ولعل اثرها حتم في تطور البشرية .

ومن يدري ، ربما كانت الجرعة من الاشعاعات التي تأخذها اجسامنا يوميا تؤثر علينا في نسلنا ، وهي تؤثر على آلات القياس في معاملنا فتدق في كل دقيقة جملة دقات .

ولحكمة الهية قل تصادمها مع اجسامنا . يحدث التصادم بين الحين والحين ، وتخطئنا الاشعاعات وتصيب الجو المحيط ، فتجعل بعض عناصر الهواء مشعا ، ويصبح على وجه التحديد بعض ازوت الجو كربونا مشعا ، وهذا الكربون المشع جزء مما نأكل ومما نشرب ومما نستنشق ، ويمكن معرفة مقداره في اجسامنا ، وما اكثر الكربون في اجسامنا . ولكن نسبة المشع منه الى غير المشع نسبة ضئيلة ثابتة مدى الحياة ، ويعزى ثبات نسبتها الى تعويضنا ما تفقده منها ما دمنا نأكل ونشرب وفينا نفس يتردد ، ولكن بعد الموت نعجز عن تعويض ما يفقد فيخمد مع الزمن وتقل نسبته . . .

فكان كل جسم حي في الوجود يحمل معه ساعة دقاقة تدق دائما دون ان يتحرك عقرباها ، ولكنهما يبدآن في التحرك ساعة الوفاة . ويدل مقدار النقص في عدد الدقات على مضى الوقت بعد مفارقة الحياة ، واذا اقتلعت شجرة من ارضها فقد فارقت الحياة ، واذا انتزعت زهرة من غصنها فقد فارقت الحياة ، وهناك اكثر من سؤال يجول بالخاطر ارجئها جميعا حتى نتعرف على الاشعاعات التي تغمر الجو المحيط .

الاشعة الكونية :

يأتي الينا وابل من الاشعاعات الغريبة بطاقات عالية وسرعات تقارب سرعة الضوء ، يأتي الينا من كل فج عميق . لا يحابي اتجاها دون اتجاه ، فجميع الاتجاهات عنده سواء ، ولا يستريح ابدا فهو دائم التدفق في كل زمان وعلى كل مكان ، ولا يتأثر باختلاف الليل والنهار او الصيف والشتاء .

يقيس سكان الكرة الارضية جميعا ، وهم اشتات ، رؤوس نصفهم تتجه الى شمال ورؤوس النصف الباقي تتجه الى جنوب ، واقدامهم جميعا تتجه الى مركز الكرة الارضية يقيسون ويتفقون على سرعات هذه الاشعاعات وطاقاتها وكل مالها من آثار كما وكيفا ، ويطلقون عليها اسم الاشعة الكونية .

والراى السائد انها تأتي الينا من اعماق الكون من بين النجوم والمجرات ، ثم تصل الى الجو المحيط تزيح ما يعترض سبيلها . وفي عملية الازاحة تكون هناك ضحايا فتظهر اشعاعات ثانوية ، هذا لو جاز ان نسمي الاشعاعات قبل التصادم مع ذرات الجو المحيط بالاشعاعات الابتدائية ــ وربما يصل الينا من وقت لآخر بعض من الاشعاعات الابتدائية ، ولكن يصل الينا في الواقع كثير من الاشعاعات الثانوية .

وقد اجمع العلماء على ان الاشعاعات الابتدائية هي ذرات السحب السالبة التي تغلف نواة كل ذرة ، فهي ذرات كاملة التأين ، والذرة بغير الكتروناتها نواة ، والنواة موجبة التكهرب .

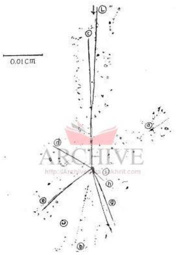
واجمعوا على انها نوى الايدروجين والهليوم ، ونوى ذرات اخرى خفيفة وثقيلة ، ولعل اثقلها نوى الحديد ، اجمعوا على ذلك ، ولكنهم اختلفوا فيما بينهم عند تعيين نسب كل من هذه المكونات ، وان كان الاجماع على ان النصيب الاكبر لنوى الايدروجين ، او ما يسمى البروتونات ، فقد اختلفوا ، وقال فريق ان تسعين في المائة من المكونات هي البروتونات ، وقال فريق آخر انها اقل من هذا ، ولكن لم يقل احد ابدا انها اقل من سبعين في المائة من المكونات . واجمعوا ايضا على احتلال الهليوم المكان الثاني بعد الايدروجين ، فتراوحت نسبة نوى الهليوم او ما يسمى بجسيمات الفا بين تسعة وعشرين في المائة وتسعة في المائة ، اما الثقيل من النوى ككل فهو اقل من واحد في المائة .

كشفنا عن هذه الاشعاعات بطرق بدائية ، ثم تقدم بنا العلم ، فاستحدثنا طرقا متطورة ، اذكر منها المستحلبات الفوتوغرافية لبحث مكونات الاشعة . اذا اخترق جسيم مشحون مستحلبا

فوتوغرافيا ترى أثر مسار الجسيم بعد التحميض والتثبيت ، اذ نجد خطا من النقاط السوداء تشى بمسار الجسيم فى المستحلب ، حيث يمكن فحص هذا الخط بمجهر اى ميكروسكوب . واستحدثت مستحلبات لهذا الغرض متراكمة وغير متراكمة ، ولكنها تظهر لنا المسارات والتفاعلات النووية داخل المستحلب (شكل ١) .

استحدثت طرق كثيرة قصد الكشف ، وقد بحثت خصائص الجسيمات المشحونة ، وتنفرد كل طريقة بخاصية واحدة يصطدم الجسيم الذرى المشحون بذرات متعادلة لغاز ما ، فتتأين ذرات الغاز ، اعنى ينفصل من الذرة الكترون فتصبح ايونا ، وهذا بدوره يؤين ذرة اخرى ، وهكذا يحدث تفريغ كهربائى ، وهذه خاصية تستخدم فى الكشف والقياس . والجهاز هو اسطوانة معدنية من النحاس ، ولكل اسطوانة قاعدتان ، ومادة القاعدة فى حالتنا ليست نحاسا ولكنها مادة عازلة لا تسمح بالاتصال الكهربائى بين جسم الاسطوانة النحاسى وسلك من التنجستن مشدود على امتداد محور الاسطوانة ينفذ من القاعدة . تسمى الاسطوانة المقفلة بسلكها وغازها وضغطه عشر ضغط جوى ، تسمى « عداد جيجر وميلر » وعندما يعمل العداد يكون السلك موجب التكهرب بالنسبة للاسطوانة ، ويوصل العداد بصمامات مختلفة لتسجيل عدد النبضات الناتجة عن دخول الجسيمات الذرية فى العداد ، ولكل جسيم عند دخوله نبضة (شكل ٢) يستخدم ايضا فى الكشف خاصية اخرى ، حيث لا يسمح الجو الرطب بتكوين ضباب عندما يخلو الجو من جزيئات يتكاثف عليها الضباب ، ولكن اذا مر جسيم ذرى مشحون فى هذا الجو المهيأ لتكوين ضباب تكاثف الضباب على الجسيم بفضل شحنته رغم صغر حجمه ، فنرى خطا من الضباب المتكاثف يحدد مسار الجسيم . بل نرى مسارات الجسيمات المتفاعلة مع الجسم الساقط نراها رؤية العين . واذا اردنا تسجيلها اخذنا صورا فوتوغرافية (شكل ٣ أ ، ب) والجهاز الذى يستخدم هذه الخاصية يسمى « غرفة ولسن السحابية » وهو عبارة عن اسطوانة زجاجية قاعدتها السفلى قابلة للحركة ، تتحرك فجأة لاستحداث جو مهيأ لتكوين ضباب ، وفى داخل الاسطوانة بخار يحوى مخلوطا بهواء او بغاز الارجون ، فاذا حركنا القاعدة الى اسفل فجأة كبر حجم المخلوط وانخفضت درجة حرارته ، وبقليل من المران يمكن التحكم فى سرعة الحركة حتى تؤدى الغرفة وظيفتها ، ونرى المسارات المختلفة للجسيمات الذرية . وتختلف كثافة مسار عن مسار تبعا لاختلاف سرعة الجسيم وشحنته ، ويمكن وضع الغرفة فى مجال مغنطيسى لينحرف الجسيم وبذلك نتعرف عليه وعلى بعض من خصائصه .

بحثت الاشعاعات الثانوية ووجد انها عبارة عن بروتونات ونيوترونات والكترونات وبوزوترونات ، وهى الالكترونات الموجبة ، وفوتونات وهى جسيمات ضوئية ، وميزونات اغلبها جسيمات وسط اثقل من الالكترون واخف من البروتون ، واشعة جاما ، كل هذا نتاج تصادم الاشعاعات الابتدائية بما فى الجو المحيط من ذرات وجزيئات ، ويتفاعل النتاج ايضا بما فى الجو المحيط ، وتحول النيوترونات التى تصطدم بالازوت فى الجو تحوله الى كربون مشع والذى سبق ان تحدثنا عنه .

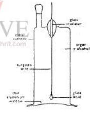


شكل (١)

صورة ما ظهر على مستحلب بعد تعرضه للاشعاعات الذرية الخط a ، b مسار ميزونات باى ، والخط c مسار بروتون .

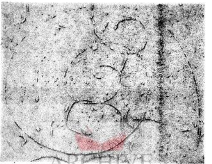






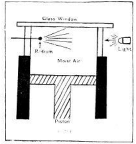
شكل (٢)

انواع مختلفة من عدادات « جيجر وميلر » للصانع لاستعمالات مختلفة لقياس الاشعاعات .



شكل (٣ ب)

صورة فوتوغرافية لمسارات الالكترونات في الغرفة السحابية للغرفة ولسن والغرفة موضوعة في مجال مغناطيسي .



شكل (٣ أ)

صورة توضيحية للغرفة ولسن السحابية .

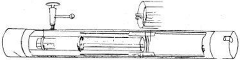
التاريخ والكربون المشع :

لسنا فى حاجة الى تبيان اهمية معرفةطريقة لتاريخ الآثار القديمة لمن يحاول دراسة الانسان وبيئته فى عصور ما قبل التاريخ . ولعلاقدم طريقة لجا اليها العلماء هى البحث عن الصخور التى بها يورانيوم ، واليورانيوم مادةمشعة تشع وتتحلل حتى تخمد وتصبح رصاصا خامدا ، وتؤدى معرفة نسبة الرصاص الخامدالى اليورانيوم فى جزء من الصخور الى تعيين عمر الصخور.وتستخدم هذه الطريقة لتحديد الاعمارالتى تربو على مائة الف سنة ، اما بخصوص الاعمار التى تقل عن هذه الفترة فيحسن استخدام نسبة الكربون المشع الى الكربون غير المشع ، واعود فاقول ان جميع المواد الحية بهاكميات ضئيلة من الكربون المشع (كربون ١٤) . وان هذه الكمية المشعة من الكربون ، والكميةغير المشعة منه تحافظان على نسبة ثابتة بينهما ، وذلك فى الاجسام الحية ، ويتولد هذا الكربونالمشع من تصادم يقع فى الطبقات العليا من الجو المحيط بين نيوترونات الاشعة الكونية والازوتفى الجو .

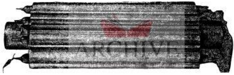
لا يختلف كربون ١٤ من الوجهة الكيميائيةعن الكربون العادى ، فاذا امكننا استخلاص الكربون الموجود فى مادة حية كالنبات مثلا نجدانه يشع اشعاعا ضئيلا نتيجة لوجود كميات ضئيلة من كربون ١٤ مخلوطة به ، ونسبة هذهالكمية دائما نسبة ثابتة فى جميع المواد الحية . وتخمد نصف كمية الكربون المشع فى ٥٦٠٠ عاموتسمى هذه الاعوام بعمر النصف ، وتحتاج البقيةالباقية الى ٥٦٠٠ عام اخرىلتخمد نصفهااى نصف المتبقى ، وهكذا يكون التاريخ من بدء مفارقة الحياة ، اذ تبدا عملية استنزاف للكربونالمشع دون تعويض ، اذ ان الحياة قد توقفت ، واصبح الجسم يعطى ولا ياخذ ، وتبدا نسبةالكربون المشع الى الكربون العادى تتضاءل ولا تحافظ على ثباتها . واذا وصلت النسبة الىنصف قيمتها الاصلية وقت الحياة فمعنى ذلك ان الحياة قد توقفت منذ ٥٦٠٠ عام مضت .

ان النسبة الثابتة او نسبة الحياة ان جازهذا التعبير ، تجعل آلات القياس تدق ١٥ دقة فى الدقيقة لكل جرام من الكربون ، ومعنى هذاان ١٥ ذرة مشعة تخمد نهائيا كل دقيقة فى جرام واحد من الكربون .

واذا ارجعت هذه الطريقة عمر اثر من الاثارالقديمةالى ٤٠,٠٠٠ عام فانا نقولان آلة القياس تدق ١٥ دقة كل مائة دقيقة . لذا كانت عمليةالقياس دقيقة جدا وتحتاج الى عناية وحرص شديدين ، والبعد عما يشوب التجربة وعما ينايبها عن الطريق الصحيح . لذا نرى العداد الذى يحوى العينة المطلوب بحثها يحاط بدرع من عدادات متلاصقة مع بعضها (شكل ١٤ أ ، ب) وتوضعكلها فى صندوق من الصلب سمك جدرانه ٢٠ سم ، ويصبح الصندوق درعا آخر يمنع اختراق الاشعة الكونية ، فيما عدا النوع النفاذ ،وهو الميزونات او المركبة القاسية ، ويمكن حساب اثرها باستبعاد جميع الدقات التىيسجلها عداد العينة عندما تتفق الدقة مع دقة عداد من العدادات المحيطة ، ومعنى تزامن العدان المتسبب فى العد جاء من خارج عداد العينة وليس من العينة ذاتها ، وقد استبعدت فى احدىالتجارب ٥٠٠ دقة ، واستبقيت خمس دقات فى الدقيقة ، لذا رؤى ان يستمر العد لعدة ساعاتحتى تكون النتيجة مطمئنة .



(شكل ٤ أ)



(شكل ٤ ب)

(أ) عداد يستعمل لقياس عينة بها كربون مشع .

(ب) العدادات المتلاصقة التي تحوط العداد الذي يحوي عينة مراد قياس الكربون المشع بها .

واستخدمت هذه الطريقة لمعرفة التغيرات المناخية والجيولوجية والبشرية في العشرين الف سنة الماضية ، ومن الطريف ان التاريخ الثبت بواسطة الكربون المشع ان بدء الحياة الانسانية فى أمريكا الشمالية معاصر لبدئها فى انجلترا والدانمارك ، وذلك حوالى عشرة آلاف عام مضت وهذا يدل على ان هذه المناطق كانت مغمورة بالثلوج ، وان نهاية عصر الثلوج منذ عشرة آلاف عام مضت ، اذ ان الانسان اقدم من هذا التاريخ بكثير ، ولكن عصر الجليد قد محا اى اثر للانسان من قبل ، بدليل انه عثر على بقايا فحم فى احد الكهوف في فرنسا وبحث مابه من كربون مشع ، وانتهى الى ان الانسان كان موجودا فى تلك المنطقة قبل عصر الجليد الاخير بنحو خمسة الاف سنة ، وكذلك ثبت ان الانسان قد ظهر حول حوض البحر الابيض المتوسط قبل عصر الجليد بكثير .

نخرج من كل هذا انك تنزع شجرة فتدق الساعة ويموت الحيوان ، فتدق الساعة وتقف دقات قلب الانسان ، فتبدأ الساعة فى الدق ، هذه هي ساعة تدق بعد الوفاة تصاحبك وتصاحبني وتصاحب كل حي من نبات وحيوان وتبدأ حيث تنتهي الحياة . لو وجدت جثة محنطة سمعت دقات الساعة التي تحملها وتعلم منها متى مات صاحب هذه الجثة . ولو عثرت على حفريات الشجرة ، وانصت الى دقات الساعة التي تحملها قطعة منها لعلمت متى قطعت الشجرة التي فيها القطعة ، ولكنك تعجز عن معرفة كم من السنين عاشت حية .

ولكن السؤال المتبادر الى الذهن لو اعدنا هذه التجارب هل نصل الى هذه النتائج وقد حدثت تفجيرات نووية وامتلأ الجو بالاشعاعات أكثر تشغيل الافران الذرية او ما يسمى بالمفاعلات النووية مما نتج عنه احزمة مشعة حول الارض لم يسبر غور اثرها حتى الآن ، ومهما كانت هذه الاحزمة موقوتة يحسن التحدث عن مسببات زيادة الاشعاعات فى الجو ، اي تلوث الجو بالاشعاعات وهى من مسببات تغير البيئة .

حزام الاشعة :

اطلقت الاقمار الصناعية وبداخلها آلات قياس منها عدادات « جيجر وميلر » ودقت العدادات بما يدل على ان الاشعة الكونية قد عملت عملها ، ولكن لو تتبعنا مسيرة القمر الامريكي (المستكشف ١) وهو يدور فى مدار حول الارض وكان أبعد ارتفاع اليه هو ٢٥٥٥ كم واقرب ارتفاع من الارض هو ٣٥٢ كم لاحظنا امرا غريبا اثناء دوران القمر بين الارتفاعين المذكورين ، وعلى وجه التحديد عندما جاوز الارتفاع ٧٠٠ كم ، اذ صمتت العدادات وتوقفت عن العد ، وعندما عاد القمر مرة اخرى الى مسافة ٧٠٠ كم انخفاضا عملت العدادات وبدات العد .

ذهب **فان الن** الى ان الصمت ناتج عن اختناق ، فقد اختنقت العدادات لانها مرت فى منطقة اشعة مكثفة تعجز العدادات عن متابعة مرور الذرات بها فتختنق عجزا عن المتابعة ، ولكنها تعود سيرتها فى العد عندما تتعدى هذه المنطقة انخفاضا ، لذا صمم « فان الن » عدادات

خاصة تصلح لهذه الاشعة المكثفة ويمكنها المتابعة ومسايرتها عدا لم وضعها في القمر الصناعي « الرائد III » بمداره الاهليجي ، حيث كان اكبر ارتفاع له عن الارض ١٠٧٠٠٠ كم . لوحظ ان القمر اخترق ذهابا وايابا منطقتين حول الارض بهما اشعاعات مكثفة ، وتمتد المنطقة البعيدة عنا مسافة تقدر بعدد من الاطوال ، والطول هنا هو نصف قطر الكرة الارضية . واخيرا حقق صحة هذا الامر ما أرسل من اقمار روسية وامريكية فيما بعد . عند ذلك سميت المنطقتان **بحزامي فان الن .**

وقد وجد ان الحزام الداخلي والحزام الخارجي مكونان من جسيمات ، اغلبها موجبة من البروتونات ، وبطاقات عالية للحزام الخارجي ، وبطاقات اقل للحزام الداخلي . قلت اغلبها بروتونات اذ ان القلة من الالكترونات السالبة . وينسب بقاء وجود الحزامين الى المغنطيسية الارضية . وهناك خطورة من وجود هذين الحزامين على رواد الفضاء ، لذا نختار مسارات الاقمار لتفادى المرور بهما حتى لا يتعرض الرواد لهذه الاخطار الاشعاعية ، وقد احدثت التفجيرات النووية احزمة اشعاعية ، وكان سمك الحزام ٤٠ كم ، وبقي بعضها لبضعة ايام وبقي البعض الآخر لمدة اسابيع .

وعلى كل فقد ثبت نظريا ان المغنطيسية الارضية هي السجان المسئول عن وجود الجسيمات المشحونة في حزامي « فان الن » .

التفجيرات النووية :

القنبلة التقليدية هي قنبلة كيميائية مليئة بالكيماويات المتفجرة التي هي جزئيات ذراتها قلقة غير مستقرة ، وتزداد قلقلة وعدم استقرار لو هزتها الحرارة العالية ، حتى انها لا تلبث ان تعيد ترتيب نفسها وتتخذ نظاما ما بتشكيلات جديدة مثيرة زوبعة من الحرارة خلفها ، وتمتد هذه الحرارة الى جزيئات اخرى تزيد ذراتها زعزعة لتستقر في وضع غير وضعها ، محدثة زوبعة من الحرارة اكبر . وهكذا يزحف التفاعل زحفا سريعا خاطفا حتى يأتي على المادة باجمعها ، فتصبح قطعة من غاز ملتهب يستعر حرارة فيزداد ضغطه وينتشر متمددا . وناقوس الخطر هو شرارة كهربائية من فتيل او قدح زناد يشعل مادة سريعة الاستجابة ثم يتسلسل التفاعل .

اما القنبلة الذرية فهي قنبلة محطمة تحطم الذرة ولا ترتبها كسابقتها ، وان قلت الذرة ، فانا اقصد نواة اليورانيوم المتوسط على وجه التحديد ، اذ بلغت من التعقيد مبلغا جعلها غير مستقرة ، بل على استعداد اذا تصادمت معها قذيفة غير مكهربة « نيوترون » أن تنشطر الى شطرين يطير كل شطر بقوة كبيرة ، ومن غريب الامر توالد القذائف غير المكهربة اثناء الانشطار ، وكأني بها تخرج من صلبها ما يزيدها اشتعالا فيزداد الانشطار ويزداد التوالد . واذا بها كرة غازية من السعير حرارة وضغطا ، وتعمل حرقا وهدما وتدميرا . وهذا السعير نشأ من الوميض الناتج عن تحطيم نوى كبير الى نوى صغير .

ولكن كيف تنشطر النواة ؟ والنــواة على‌ما نعلم كرية الشكل او هي الكرة اقرب منها الى هيئة اخرى متماسكة ، بها قوى تجاذب وقوى‌تنافر ، وتربو قوى التجاذب على قــوى التنافر حتى لا تتناثر .

واو كان في النية ان نجبر النواة لتنشطروجب ان نجعلها تستطيل ، وان يدق منتصفها حتى تصبح اشبه بكرتين في طرفي عاتق . وفي‌هذه الحالة تكون قوى‌التنافر قدر قوى‌التجاذب، وتكاد تكون هذه النواة غير مستقرة او هي في‌استقرار حرج في انتظار الضغط الذي يقصم ظهرها . فاذا هيجت النواة ضعفت‌قوى التجاذب‌وفعلت قوى التنافر فعلها وتطايرت النواة الى شقين يكادان يكونان متساويين .

وقد كفتنا الطبيعة مؤونة البحث عن طريقة‌لاستطالة النواة ، اذ وجدت نواة مستطيلة فعلا هي اشبه بكرتين في طرفي عاتق . وهذه النواةهي نواة اليورانيوم ، بل ان شئت دقة فهو نظير من نظائر اليورانيوم ، ولليورانيوم نظائر مختلفة ،والنواة التي تقصدها هي النواة التي يبلغ وزنها الذري ٢٣٥ ويعز هذا النوع عن زملائه من‌النظائر ، اذ يندر وجوده ندرة كبيرة . واذا اردنا ان نخرجه عن استقراره الحرج وجب ان نهيجه‌بقدر ، وهذا المقدار هو اقل درجة يمكن ان تهيج بها النواة ، اذ النواة تهيج في درجات . وقد وجدان من خصائص خلط بعض من مادة اليورانيوم مع بعض من مادة البيريليوم ان ينبعث من المخلوط‌نيوترونات يمسك البطيء منها بنوى اليورانيوم ٢٣٥ فتهتاج بالمقدار الصحيح ، وتخرج عن اتزانها ، فاذا بها شقان مشعان ينطلقان بطاقة حركة كبيرة .

وقد بحث الشقان ووجد في بعض الاحايين‌ان احدهما باريوم والآخر كريبتون،وهما مشعان تنطلق منهما اشعة جاما واشعة بيتا ، وتنطلق‌أيضا اثناء الانشطار نيوترونات ، وبذلك يضاعف البطيء منها الاثر ثم يتضاعف مرة اخرى بهذاالتضاعف ،وهذه العملية عملية متسلسلة ، ومثل المخلوط (الراديوم والبيريليوم) مثل عود الثقاب‌بدا واشعل وللنار ان ترعى وتغذي بعضها ، وكلما ازدادات سريانا ازدادات اشتعالا ، والقنبلةالذرية ، كما وصفها تقرير الحكومة البريطانية يوم ان القيت على هيروشيما : كرة من النارقطرها اكثر من مائة متر ، يخرج منها وميض خاطف من الضوء وسعير من الحرارة وقطع‌متناثرة في‌جميع الجهات من المواد المشعة،ويتبعها امواج من لفحات هوائية ودوي أصوات .

يصل الضوء والحرارة الى ارض الهدف ،ومن بعد تصل في بضع ثوان لفحات الهواء ودوي الاصوات ثم المواد المشعة الناتجة عن مخلفات‌المواد الانشطارية في القنبلة .

تفقد الكرة بريقها سريعا وترتفع في الهواءالغازات الساخنة الناتجة عن الانفجار في شكل عمود متعدد الالوان اولا ، ثم يأخذ لونه‌في‌البياض،ويرتفع العمود في هيئة دوامة من الغازات والجسيمات ، يرتفع عدة آلاف من الامتار ،واثناء ارتفاعه ينتشر كانه مظلة مفتوحة او زهرة تقف على ساقها ، وفي اسفل العمود عند الارض‌سحب متكاثفة من الدخان والغبار (شكل ٥) .



شكل (٥)

عمود من الغازات والجسيمات يرتفع على هيئة مظلة مفتوحة . ارتفاع العمود حوالي ٢٠ كم في الجو . أخذت الصورة للعمود عندما سقطت القنبلة الذرية على الميناء الياباني والمركز الصناعي المسمى ناجازاكي .

نعود ونسأل عن اثر الانفجار في اطواره المختلفة فنجد ان تقرير الحكومة البريطانية يخبرنا ان الحرارة تسري بسرعة الضوء ، اعني بسرعة ٣٠٠ الف كيلو متر في الثانية ، وتبلغ حرارة الاجسام التي تحت الكرة النارية مباشرة عدة آلاف من الدرجات المئوية ، ولتقدير ذلك يقول ان الانسان يحس الحرارة على بعد سبعة كيلو مترات ، وتستمر الحرارة مدة ثانية من الزمان او ثانيتين ، لذلك تحدث الحرائق وتبدأ بالمواد القابلة للاشتعال ، ولقد حدثت حرائق على بعد ثلاثة كيلو مترات من مركز التخريب ، ويبدأ الحريق بالابواب والنوافذ حيث تدخل اللفحة الحرارية وتحرق الخشب الجاف والاوراق والملابس السوداء ، وقد رؤي الاسمنت المسلح على بعد كيلو متر ونصف وقد احمر لونه ، وانابيب غاز قد انفجرت ، واسلاك كهربائية وقد انصهرت ، واصيب بحروق شديدة كل من كان في العراء وفي دائرة قطرها كيلو متر ونصف واصيب بحروق اقل شدة كل من كان على بعد اربعة كيلو مترات ، ويقل الخطر عند التواجد في مأوى حصين مع ارتداء ملابس غير قاتمة اللون وفضفاضة .

وليت الامر اقتصر على الحرائق بل هناك المواد المشعة ، اذ تهب عند الانفجار رياح محملة بجسيمات نفاذة هي النيوترونات ومعها اشعة جاما ومعها المواد الانشطارية التي هي مادة القنبلة ذاتها .

وتنبعث اشعة جاما بسرعة الضوء وتستطارق الجو وتنتشر في جميع الجهات فور الانفجار ، او في الثواني الاولى منه ، وتقل شدتها مع الزمن ، وذلك بارتفاع عمود الجسيمات والغازات نحو السماء ، وينعدم خطر اشعة جاما بعد دقيقة من الزمان ، وكانت في الثواني الاولى شديدة الخطورة على كل من كان في منطقة مركزها مكان الانفجار وقطرها كيلو متر ونصف او اكثر ، ولا يقلل من خطورتها انها لا تكسب الاجسام والمباني التي تخترقها خاصية الاشعاع ، فقد لقي جميع من في المنطقة التي قطرها ثلاثة ارباع الكيلو متر حتفهم ، اذ كان من نصيبهم جرعة مميتة من اشعة جاما .

ومن لم يمت باشعة جاما مات بالنيوترونات . والنيوترونات اشعاعات نفاذة خطيرة يبدأ خطرها وقت الانفجار ، فهي جسيمات صغيرة تنبعث من المواد الانشطارية المحدثة للانفجار ، وتتحرك بسرعة في جميع الجهات وسرعتها اقل من سرعة الضوء ، وهي اقل اثرا على الاجسام من اشعة جاما ، ورغم قلة اثرها فهي اكثر خطورة ، اذ تجعل الاجسام عند الاصطدام بها مشعة اشعاعات اصطناعية ، فخطرها مؤجل غير ناجز يأتي الانسان من مأمنه . واخطر من كل هذا المواد الانشطارية فهي تملأ مساحة كبيرة من الارض ، وتساعد على انتشارها الاحوال الجوية ، اذ تحمل مع العمود وتوزع على مساحات كبيرة بفضل الامطار الساقطة ، وتصبح مساحة كبيرة ملوثة ومصدر خطر ينبعث منها اشعة جاما ، وتحرم على الاحياء حتى ينقضي عمرها الاشعاعي ، او بعبارة ادق اعمارها الاشعاعية ، فالعمر وعمر النصف يختلفان باختلاف المواد . ولكثرة المواد المختلفة كان من الصعب التنبؤ بموعد زوال الخطر والسماح للارض بان تعمر ، ويزيد الامر خطورة ان الاشعاعات لا تشم ولا ترى ولا تحس الا بآلات خاصة وعدادات معينة ، وكثيرا ما ينسب الاختلال الوظيفي لاجزاء الجسم الى غير مسبباته الحقيقية .

واخيرا ليس المجال مجال التحدث عن لفحة الهواء الناتجة عن القنبلة الذرية ، ولكني اقول ان هناك اجماعا من جميع العلماء والمختصين على وجوب تحريم تجارب التفجيرات النووية للآثار الضارة الناتجة عن الغبار الذري ، سواء في مكان الانفجار أو في الاماكن المجاورة او في نطاق خط عرض الانفجار ، وما يتبع ذلك من زيادة كمية الاشعاعات في جو الكرة الارضية جميعها مما يزيد في مقدار الجرعة التي اعتاد الكائن الحي ان يتجرعها في حياته الدنيا . لا اريد ان اذكر تفاصيل علمية عن تأثير الاشعاعات ذات الكمية فوق المعتادة على الكائن الحي . فهي تقلل من مقاومته للامراض ، وتجعله هدفا لمختلف انواع السرطان ، سرطان الدم وسرطان العظام . بل تؤثر في النسل والحرث ، فتقصر العمر وتسرع بالشيخوخة ، وتتلف الاعصاب ، ويورث الآباء الابناء والاحفاد الشذوذ والجنون .

وظني ان العلماء قد بداوا يفزعون من خطر الاشعاعات اذ رأيناهم ينقصون الى النصف مقدار اكبر جرعة مسموح بأخذها دون حذر على الاجسام . وكان ذلك في المؤتمر السادس للعلماء الراديولوجي سنة ١٩٥٠ اذ انقصت الجرعة الى نصف ما كان متفقا عليه عام ١٩٢٥ . كل هذه الظواهر ادلة على خطر زيادة الاشعاعات في الجو المحيط .

وكما ان القنبلة الذرية رمز الفناء فهي احيانا رمز البناء ، فقد استخدمت في شق القنوات وانشاء الطرق وغيرها ، وكأننا جعلنا من الهلاك نفعا ومن النار زرعا ، بل جعلنا القنابل الذرية مستأنسة نحرك بها قطارا ذريا او ما يسمى بالمفاعل النووي للاستعمالات السلمية ، من استحداث كهرباء الى تحلية ماء الى ري ارض لا يصلها الماء ، الى غير ذلك من امور نحتاجها في بناء المدنية والحضارة .

المفاعل النووي :

المفاعلات النووية او الافران الذرية عبارة عن تكويم لقوالب من الجرافيت كما هو حاصل فعلا عند بناء هرم من اللبنات (قمينة الطوب) لطبخها لتأخذ خواص الفخار (طوب أحمر) .

ترص قوالب فوق بعضها في طبقات ، ولكنه في حالتنا ترصع طبقة من قوالب الجرافيت بصناديق من الالمونيوم ملأى باليورانيوم ، والصندوق على هيئة اسطوانة او على هيئة قرص توضع في شكل هندسي ، وعلى ابعاد متساوية من بعضها ، وتسمى هذه الطبقة بالطبقة الحية ، وبين طبقة حية واخرى طبقات من قوالب الجرافيت غير المرصع ، فهي طبقات خالية من اليورانيوم ، اعني طبقات غير حية ، واليورانيوم في جملته يأخذ شكلا هندسيا مجسما يوافق ما يقرره البحاث النظريون . واليورانيوم هو المادة الحية او الوقود الذي بانشطاره يعمل الفرق ، والجرافيت هو المهدىء ، وهو الذي يقلل من سرعة النيوترونات حتى تصبح سرعتها قدر سرعة جزيئات الغاز في درجة الحرارة العادية وربما يكون المهدىء غير الجرافيت ، فيكون الماء الثقيل ، وهنا يوضع اليورانيوم على هيئة قضبان مغطاة بالالمونيوم وتغمس في الماء الثقيل . ويمتاز الماء الثقيل بانه يهدىء النيوترونات بعد ٢٥ خبطة مع نواة

الايدروجين الثقيل ، فى حين ان الجرافيت يهدىء بعد ١١٤ خبطة مع نواة الكربون ، فضلا عن ان قدرة الماء الثقيل على امتصاص النيوترونات اقل بكثير من قدرة الكربون ، وعليه نحتاج الى حجم اقل فى حالة الماء الثقيل عنه فى حالة الجرافيت . ويسمى الفرن فى هاتين الحالتين فرنا غير متجانس ، لان الوقود والمهدىء يحافظ كل على كيانه ، اي لكل كيان مستقل ، واحيانا نجعل الوقود والمهدىء فى امتزاج تام ، بمعنى ان يكون الوقود ملحا من املاح اليورانيوم غنيا فى النظير ٢٣٥ فيكون الملح على هيئة كبريتات او ازوتات مذابة فى ماء عادي ، والماء هنا هو المهدىء ، ولا يصلح الماء العادي مهدئا لو استعملنا اليورانيوم الطبيعي غير الغني بالنظير ٢٣٥ ، ويسمى الفرن فى حالة ملح اليورانيوم المذاب بالفرن المتجانس . واذا نشط الفرن يمكن اخماده بادخال قضبان تمتص النيوترونات بشراهة كالكادميوم اوالبورون ، بل يمكن التحكم فى التفاعل بادخال اطوال مختلفة من القضبان ، لذا سميت القضبان بالقضبان الحاكمة . ان الاخماد بواسطة القضبان فى حالة الفرن الجرافيتي اسرع منه فى حالة فرن الماء الثقيل ، اذ عند اخماد فرن الماء الثقيل يستمر نتاج الانشطار فى ارسال اشعة جاما التي تولد نيوترونات من الماء الثقيل ، وهذا يؤخر الوصول الى الاخماد التام .

ولا يصح ان تسمح بتسرب النيوترونات الا بقدر ، لذا وجب ان نبحث العلاقة بين السطح والحجم ، فالتوالد يكون فى الحجم والتسرب يكون من السطح ، ونبحث ايضا تغليف الفرن بغلاف عاكس . اليورانيوم هو الوقود الذرى وقود مركز يشغل حيزا صغيرا وينتج من الحرارة الشيء الكثير . تخرج من الوقود الحرارة بعد الاشتعال ، ويشعل الفحم والبترول بالكبريت او بشرارة كهربائية ، وعود الكبريت للوقود الذرى هو النيوترون احد مكونات المادة . فالنواة مكونة من بروتونات بشحنات موجبة ونيوترونات بغير شحنات ، وهذه النيوترونات موجودة فى الجو المحيط ، ولا يتعدى عمرها عشرين دقيقة ويمكن تحضير فيض منها ، كما سبق ان ذكرنا ، وذلك بخلط الراديوم بمادة البريليوم . وهذه النيوترونات سريعة يمكن ان تهدىء من سرعتها بالماء او الجرافيت ، لان النيوترون البطىء هو الكبريت لليورانيوم ٢٣٥ ، واذا التصق نيوترون بطىء باليورانيوم ٢٣٥ اهتاج اليورانيوم وانقسم على نفسه وتناثر ، كما سبق ان شرحنا عند الحديث عن القنبلة الذرية ، ولكن القضبان الحاكمة تجعلنا نتحكم فى التفاعل ونسيطر عليه.

ومن رحمة الله ان بسط المادة وعقدها . فمنها البسيط ومنها المعقد ، واودع العالم الحياة والحركة ، فالبسيط يستريح اذا تعقد ، والمعقد يحاول ان يتحرر الى ابسط ، فالايدروجين بسيط لا مانع ان يتعقد ، واليورانيوم معقد لا مانع ان يتحرر ، وهذا فى تعقده وذاك فى تحرره يعملان عملا ويحدثان طاقة ، وهي ما نسميها بالطاقة الذرية .

فالطاقة الذرية تظهر عندما تحاول نواة الذرة ان تاخذ مكانا وسطا بين الثقيل والخفيف ، وتظهر الطاقة الذرية حرارة واشعاعا فنستخدم الحرارة ونمنع الاشعاع ، وساصف مفاعلا بالماء

الثقيل انشيء قصد الابحاث العلمية ، وتخبزالمواد فيهلتخرجمواد مشعة اصطناعيا ، ثم أضيف مفاعلا بالماء العادى انشيء قصد توليد الكهرباءلاستخدامها صناعيا .

فرن ذرى بمائه الثقيل :

يمتاز الفرن التجريبى الذى رايته بوجود ٢٥٠ عمود من اليورانيوم تبلغ زنتها ٢ر٣ طنا ، وقطر العمود ٢ر٢ سم وطوله ١ر٦ مترا ، والعمودمغلف بغلاف من الالمنيوم سمكه مليمتر واحد ، وبحركة بسيطة لمفتاح مثبت فى لوحة التوزيع تاخذالاعمدة شكلاهندسيا معينا ، ويتغير الشكل بتغير بسيط لحركة المفتاح . وبلغت الدقة درجةجعلت التحكم فى مواضع الاعمدة تاما ، فالزحزحة تصل الى ٠١ر٠ مم .

تغمس الاعمدة فى الماء الثقيل البالغ قدره ٥ر٤م٣ والماء فى وعاء من الالمنيوم مقفل ومزدوج الجدران ، ويفرغ ما بينهما ويعلو الماءالثقيل فى الاناء غاز الهليوم تحت ضغط ١ر١ جو .

وهناك قناة تنفذ فى الاناء من قمته وتتجهالى قاعه قطرها ١٠ سم وتسمى قناة التجريب حيث توضع المواد لتخبز اى لتشعشع وتصبح مادة مشعة ، واقرب عمود يبعد ٦ سم من الحافة الجانبية لهذه القناة ، ولكن بحركة بسيطة لمفتاحمعين مثبت فى لوحة التوزيع ، يمكن تحريك اى عمود دون الاخلال باوضاع الاعمدة الاخرى .

وهناك اربعة قضبان حاكمة ، وهى مادةالبورون وقضيبا امان من الكادميوم ، قطر كل منهما ٢ سم وطول كل منها ٥ر١ متر ، يتحركانتلقائيا ، لو زاد الاشعاع الى درجة يخشى عندها حدوث انفجار . اما قضيب التجريب الحرارى ،وهو الذى يعترض النيوترونات السريعة ويجعلها تاخذ طريقا وتتركه فى النهاية مسلوبة الطاقةلا تملك منها غير ما يملكه الغاز فى درجات الحرارة العادية ، فطوله الخارج من الفرن متران ونصفويسمح عند نهايته الخارجية بفيض من النيوترونات مقداره عشرة آلاف نيوترون ، وقدكان الفيض فى بدايته او فى الفرن بليون ، اى مليون مليون نيوترون .

اكبر درجة حرارة للماء الثقيل ٧٠م ، كما ان مقدار ما يفقد منه فى ٢٤ ساعة من التشغيل ٨سم٣ ، ودرجة حرارة اليورانيوم في المنتصف هى ١٤٠° م ، كما ان قدرة الفرن ٥٠٠ كيلوواط ، ويحاط الفرن بمتر من الجرافيت كعاكس ،ويوضع اعلاه طبقة من الكوبلت الرصاصى والبرافين الرصاصي .

وفى دائرة الفرن اربع مضخات . المضخةالأولى لتفريغ الهواء بين جدارى الاناء المزدوج . والمضخة الثانية لارجاع الهيليوم مرة اخرى الىالوعاء ، اذ أن الهيليوم يمر فى دائرة مقفلة تبدأ من الفرن الى غرفة حيث يمر الهيليوم مع ما تحللمن الماء الثقيل ، أعني مع غاز الاكسجين والايدروجين الثقيل فوق لوح من البلاديوم ليتحدالاكسجين والايدروجين الثقيل مرة ثانية ليصبح ماء ثقيلا ، ويعود الماء مع الهيليوم الى الفرن مرةثانية . اما المضخة الثالثة فهي لسحب الماء الثقيل

من الفرن بغية تبريده ثم ارجاعه الى الفرن مرةثانية فى دائرة مقفلة ، ويبرد بامراره على متبادل حرارى ينقل حرارته الى دائرة اخرى بها مـاءبارد متحرك فى دائرة اخـرى بواسطـة المضخـة الاخيرة والدائرة الاخيرة غير مقفلة اذ يقذف ماؤهاالى غير عودة وتسحب هذه المضخة ٢٥٠ م ٣ من الماء فى السـاعة (شكل ٦)

يستخدم هـذا المفاعل للبحث والتجريب لمعرفة اثر الاشعاعات على الموادولاستحداث نظائر مشعة للعلاج الطبي ، ولشئون الصناعة .

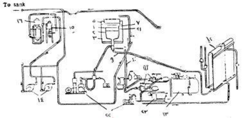
محطة الكهرباء الذرية :

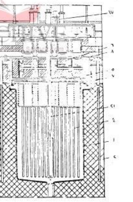
يتلخص عمل هذه المحطة الذرية فى توليـدحرارة نتيجة للانشطار المتسلسل لقوى اليورانيوم. وتستخدم هذه الحرارة لتحويل المـاء بخـارا ،ويعمل البخار فى ادارة تربين يحرك بدوره آلات توليد الكهرباء ، والفرق بين المحطة الذرية والمحطةالتقليدية التي تستخدم الفحم وقوداً هو طريقة توليد الحرارة ، اذ تولد فى حالتنا مـن الوقـودالذرى . لذا نرى المحطة من ثلاثة اقسام : القسم الاول هو الفرن الذرى لتوليد الحرارة ، والقسم الثاني هو المتبادل الحرارى حيث يتكون البخـار المضغوط. اما القسم الاخير فهو التوربين التقليدى الذى يحرك آلات توليد الكهرباء .

ساكتفي بوصف الفـرن الـذرى ، اذ ان المتبادل الحرارى والتربين لايختلفان عن مثيليهما فى المحطات التقليدية .

الفرن الذرى :

انابيب مصنوعة من اليورانيوم مغلفة مـن الداخل والخارج بمعدن الصلب الذى لا يصدأ . يدخل الماء من اعلى الـى جوف الانابيب ، حيث يخرج من اسفلها ليغمرها من الخارج من اسفل الى اعلى ليملأ الوعاء الخارجي لأنابيب اليورانيوم وعددها ١٢٠ انبوبة . وهذا الوعـاء مـن الصلب الذى لا يصدأ ، وارتفاعه ٦ر٥ م محاط بمتر من الماء يليه ثلاثة امتار من الخرسانة المسلحة ، وكل انبوبة يورانيوم عبارة عن اقراص مثقوبة عنـد منتصفها من اليورانيوم الغني بالنظر ٢٣٥ بنسبة ٥ ٪ وتوضع الاقراص فوق بعضها لتكون انبوبة اشبه بالانبوبة الشعرية من اليورانيوم طولها ٥ر٢ م وقطرها الخارجي ٢ر١ سم . ووزن اليورانيوم باكمله نصف طن . نسيت ان اقول ان كل انبوبة من انابيب اليورانيوم توضع داخل انبوبة مـن الجرافيت قطرها الداخلي ٦ر١ سم وقطرهـا الخارجي ٥ر٦ سم ، ويغطى سطحهـا الخارجي بالصلب الذى لا يصدأ ، ويترك السطح الداخلي عاريا ، اى جرافيت غير مغطى ، ويدخل الماء تحت ضغط ١٠٠ جو ، ويمر فى داخل الوعـاء ويغمـر الانابيب جميعها من الداخل والخارج ، ثم يخرج حيث المتبادل الحرارى ، ويصله بدرجة حرارة قدرها ٢٧٠ م ٥ ويتركه فى درجة حرارة قدرها ١٩٠ م ٥ . ويأتي الماء مضغوطا من بالـون مـن الصلب على ارتفاع ٥٠ م عن الفـرن ، ويحـوى البالون انابيب طول كـل منها ٥ر٥ م وقطرهـا الداخلي ٢٠ سم ، ويملأ الربع الاعلى للانبوبة هواء تحت ضغط ١٠٠ جو ، ويفصل الماء عـن الهواء غشاء من الصلب ، ويرشح الماء مرتين قبل وصوله الى الفرن ، ثم يمر منه الى المتبادل الحرارى حيث يعود مرة اخرى فى دائرة مقفلة .





شكل (٦)

رسم توضيحي للفرن بما فيه :

١ ــ صهريج
٢ ــ عاكس من الجرافيت
٣ ــ صهريج خارجي من الصلب
٤ ــ أعمدة من اليورانيوم
٥ ــ غطاء واق من الرصاص
٦ ــ غشـاء
٧ ــ لوح دوار
٨ ــ غلاف من صلب لا يصدأ
٩ ــ انبوبة ضغط
١٠ ــ انبوبة صرف
١١ ــ مضخة
١٢ ــ متبادل حرارى
١٣ ــ صهريج تخزين
١٤ ــ ضاغط غاز الهليوم
١٥ ــ مكثف
١٦ ــ جهاز ادماج (عكس التحليل)
١٧ ــ سحاب للقضبان الحاكمة
١٨ ــ درع جانبي
١٩ ــ قناة جانبية للتجارب
٢٠ ــ عمود حرارى من الجرافيت
٢١ ــ قناة رأسية للتجارب
٢٢ ــ مضخات تفريغ
٢٣ ــ مصيدة ازوت سائل

يتبخر ماء فى دائرة اخرى تحت ضغط ٥ر١٢ جو ، وذلك عند المتبادل الحرارى ، بفضل الحرارة التي يحملها ماء الدائرة الاولى . وقد وجد ان البخار خلو من الاشعاعات . ويذهب البخار الى تربين من النوع التقليدى ليعمل عمله ، ثم يتكاثف ماء يسحب الى المتبادل الحرارى مرة اخرى ليعود سيرته الاولى بخارا ليبدأ دورته من جديد . وحركة الماء فى الدائرة الاولى ٣٠٠ طن كل ساعة ، وحركة البخار فى الدائرة الثانية ٤٢ طنا فى الساعة ويستعمل فى دائرة الماء مضختان تصرف كل منهما ١٥٠ طنا فى الساعة ، ويديرها الفرن ذاته ، وتعمل المضخة ثلاثة آلاف دورة فى الدقيقة .

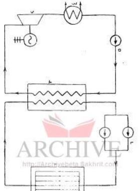
ويضبط الماء الداخل فى كل انبوبة بمعرفة درجة حرارته عند خروجه من الفرن ، وتتساوى درجات الحرارة فى جميع الانابيب ، وتضبط كل انبوبة على حدة ومقدار ما تأخذه الانبوبة من الماء في الساعة هو ٣م ، والتهوية لازمة اذ يتغير الهواء فى الحجرة وحجمها مائة متر مكعب خمسا وعشرين مرة فى الساعة ، والقضبان الحاكمة فى الفرن من كربيد البورون وكذلك قضيبا الأمان من نفس المادة ، ومقدار الطاقة الحرارية له ٣٠ مليون واط ، ومقدار طاقته الكهربائية خمسة ملايين واط بكفاية قدرها ١٧٪ .

وهكذا استحدثت الكهرباء اول ما استحدثت من الذرة (شكل ٧) .

التسمم والمخلفات :

يتلقى اليورانيوم فى الفرن الذرى ضربات كثيرة من النيوترونات التى تمرق خلال الالومنيوم الذى يغلف اليورانيوم ، وينشطر نوى اليورانيوم ٢٣٥ الى شطرين ، والنوى المتولد نتيجة التصادم هو نوى يأخذ مكانا وسطا بين العناصر ، وهو الباريوم والكريبتون والاسترونشيوم والاكزينون وغيرها . تتكون هذه العناصر فى انابيب اليورانيوم فتقل كفايتها مع التصادم حتى تعجز عن اداء رسالتها ، ويقال للانابيب انها تسممت ، لذا كان واجبا حتى لا يتعطل عمل الفرن ان تخزن مجموعة من الانابيب الاحتياطية السليمة لكي توضع مكان مجموعة مسممة جزئيا بعد بضع شهور من التشغيل ، ولا اقول لتغسل الانابيب المسمومة وتعود سيرتها الأولى ، بل اقول لتعالج كيميائيا وتفصل المواد المفسدة او ما تسمى بالمخلفات الاشعاعية ، اذ هي مواد نشطة نشاطا اشعاعيا ، اقول هذا ولا ادخل فى الاعتبار احتمال حدوث خلل مفاجىء لغلاف الالمنيوم لانبوبة او أكثر ، وبذلك يتلوث ماء الفرن بالمواد الاشعاعية ، وهنا الاشكال الاكبر فى كيفية التخلص منها ، هل نقذفها فى اعماق البحار وقد اصاب الفزع الاسبان عندما اشيع ان غواصة ذرية غرقت بجوار شواطئها ؟ أم ندفنها فى اعماق رمال الصحراء ؟ أم نبني لها حصنا سميكا من الاسمنت المسلح ؟ ... هناك حلول كثيرة ، وخوف اكبر من تلوث البيئة والجو بالاشعاعات ، وقد استأنس التفجيرات الذرية ، ولكن من يدرى فربما تكون وبالا علينا ... ورحم الله الأعرابي الذى استأنس ذئبا وبعد ان اطمأن اليه اكل الشاة الوحيدة التي يملكها فخاطبه قائلا « ومن أنباك أن أباك ذيب » ؟

اقول هذا لأبين ان الخير في استخدام الطاقة الذرية فى الاغراض السلمية ليس خيرا كله ، بل يحمل بين طياته احتمال شر يجب السهر على تلافيه والعمل على عدم ايقاظه ، وقانا الله ووقاك ووقى البيئة شره .



شكل (٧)

رسم توضيحي لمحطة كهربائية ذرية :

١ ــ المفاعل
٢ ــ التربين
٣ ــ التبادل الحراري حيث يتولد البخار .
٤ ــ المكثف حيث يتحول البخار الى ماء .
٥ ــ مضخة للدائرة الثانية .
٦ ــ مضختان للدائرة الاولى .

العلم والبيئة :

لم يكن علم الانسان فى بداية وجوده على الارض شيئا مذكورا ، وكانت خبرته بما حوله رغم ما حباه الله من عقل وتدبير لا تختلف كثيرا عما يأتيه الحيوان بغريزته . ولعل اكبر دليل على مستوى التفكير الانساني فى ذلك الوقت حيرة ابن آدم وهو يحاول ان يوارى سوأة اخيه وقد امتدت يده الى اخيه ليقتله ، فلم يهتد الى مواراته حتى رأى غرابا يهيل التراب على اخيه الغراب . . .

فلا غرابة ان يحاول الانسان ان يقتات مما حوله ويعدل فى طبيعة البيئة التي ولد فيها ينزع الاشجار من الغابات ويسوى الارض . . . ولعل افلاطون هو الذى نسب المساحات الجرداء حول مدينة « اثينا » فى ذلك الوقت الى عدم دراية الانسان الاول بالزراعة . . . ولكن مع تقدم العلم تحولت الاراضي الجرداء الى أراض زراعية ، وتغيرت البيئة تغيرا كاملا ، غيرها العلم . . . . ثم جاءت الحشرات ترعى ، واتى الجراد على الأخضر واليابس ، والديدان على شجر القطن تلتهمه ، واذا بالعلم يخرج علينا بالمبيدات الحشرية والاشعاعات الذرية والمخصبات الكيماوية ، واكتسبت الحشرات مع الزمن مناعة وتدهورت صحة الانسان من تعامله مع المبيدات ومن تعرضه للاشعاعات ، ورغم ذلك فالانسان يتكيف بالبيئة ويوائم حياته مع التغير الطارىء ، ولكن هذا التغير يحتاج الى الوقت والعلم ، وقد طور المواصلات ، وجعل الدنيا صغيرة الحجم يطوف ارجاءها الانسان فى ساعات قليلة ، لذا كان العلم حريصا ان يطور التقنية لاستحداث بيئة محلية حتى لا يشعر الانسان بالتغير المفاجىء ، فالحجرات المكيفة الهواء محاولة من هذا التنوع ، والى اشعر ان البيئة التي تقاس على الانسان تتنافى والفطرة ، فطرة الله التي فطر الانسان عليها . حقيقة لابد مما ليس منه بد ، فشخص يتنقل فى الفضاء الخارجي بين الكواكب والاقمار لابد ان يعد للرحلة لبوسها ليأمن الاشعاعات ومخاطر الطريق ، ورجل يريد أن يغوص فى البحر لابد له ان يعد العدة ليتقى الضغوط العالية مع اتصاله بالجو المحيط ليتنفس بحرية ، ولكن هذه رحلات موقوته بزمن محدد . اما الحياة ، الحياة الطبيعية ، الحياة على كوكب الارض تحتاج الى وقفة تأمل . . وتساءل هل يمكن لرجال الاسكيمو العيش فى الجو الحار ؟ . . . وهل يمكن لرجال المناطق الاستوائية العيش فى المناطق القطبية ؟ . . . . اعدت حجرات لتمثل هذه المناطق ، واجريت التجارب للوصول الى نتائج محددة يعتد بها ، وانتهى بعضها الى ان الانسان حيوان استوائي وبيئته استوائية يحملها معه اينما ذهب . وان بقاء الاسكيمو واستمرارهم فى الحياة هو بسبب معرفتهم كيف يتجنبون البرد اكثر من كيف يصمدون له ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وبان ايضا ان الاسكيمو لا يأكلون اكثر مما يأكل غيرهم . . . ولكن العمل الشاق هو الذى يتطلب كميات أكبر من الطعام . . . وبان ايضا ان الزيوت والدهون ليست اساس طعامهم ، فلو اتيح لهم طعام آخر لأكلوه ، ولكن المتحكم هو ما فى متناول اليد من طعام . . .

هناك حالات تأقلمت مع تغييرات تتناسب والتأقلم .

ومن رحمة الله ان سوّى الانسان حسب بيئته ، اذ نلاحظ خفة وزن انسان المنطقة الاستوائية واستقامة جسمه وكثرة عرقه الذي يصل الى نصف لتر في ساعة من الزمان ، وبذلك وقاه الله شر ضربة شمس مميتة ، وجعل النسبة بين مساحة جلده الى وزنه اكبر ، فنحن نرى ان لو جئنا بقطعتين قابلتين للتشكيل وزنهما واحد وشكلنا احداهما على هيئة كرة والاخرى على هيئة اسطوانة رفيعة طويلة لوجدنا ان مساحة سطح الاسطوانة الرقيقة الطويلة اكبر فتعرضها للجو اكثر ، وفقدها للحرارة اكبر ، وتبخر العرق منها اكثر ، فكان الرجل الاستوائي على تحمل الحرارة أقدر .

ورغم كل هذا فقد نجح العلم في تكوين البيئة المناسبة ويعتز بها الانسان ولا يصبر عليها طويلا ، فهو دائم الصراع بين العلم والبيئة يطلب العلم فتتغير البيئة او يحاول ان يوائم بين نفسه والبيئة ويضيق بهذا وذاك ويظل في صراع ، وسيظل في صراع ابدي حتى يحدث الله امرا كان مفعولا .

الانسان والعلم :

لعلي تجاوزت المعنى بقولي ان الانسان في صراع بين العلم والبيئة فما كان العلم والبيئة على طرفي نقيض . فالعلم يبني ، ومع البناء نفايات وغبار وعفار وبها تلوث البيئة ونلجأ مرة اخرى الى العلم لمحاولة منع التلوث او ازالة آثاره حتى تصلح البيئة للحياة السليمة من كل ما يفسدها . فالصراع بالعلم يقدم الينا نتاجا نظيفا لاغبار عليه .

ومن قدم رأى العلم ان الطاقة لاتفنى ولاتستحدث ولكنها تتشكل باشكال مختلفة . بل تتلون كما تتلون في انواعها الغول ، فاذا اختفت طاقة حرارة مثلا ظهرت طاقة اخرى ، ولتكن طاقة ميكانيكية ، والطاقة المختفية قدر الطاقة المستحدثة ، والفارق بينهما كالفارق بين اختفاء دينار وظهور ما يعادله من القروش . فالنقود المختفية قدر النقود المستحدثة وان اختلفتا عددا وما الاختلاف الا اختلافا شكليا ناتجا من اختلاف الوحدات ، فلو وحدنا الوحدات لاتحدت في الكم والعدد ايضا . واسهل انواع الطاقة الحرارية اسهلها حدوثا . تحدث باشعال مادة قابلة للاحتراق ، وهذا التلوث نراه في مداخن المصانع وافران الخبز ، وفي عادم السيارات وفي غيرها من امور نحتاج اليها عند استعمال الفحم والكوك والبترول وما اشبه . والطاقة الحرارية ايضا ابخل انواع الطاقة عند تحويلها الى طاقة اخرى . اذ تتحول الى طاقة اخرى بمقدار وعلى شروط . فالالات الميكانيكية التي تعمل بالطاقة الحرارية لها مصدر تأخذ منه الحرارة ، ولا يتحول كل ما تأخذه الالة من حرارة المصدر الى طاقة ميكانيكية ولكنها تحول جزءا منه وتقذف بالأجزاء الباقية الى مستودع ، ولاتعمل الالة دائما دون شروط ، ولكنها تعمل عندما تستوفي شرطا ، وشرط عمل الالة ان تقل درجة حرارة المستودع عن درجة حرارة المصدر ، ولا تعمل الالة اذا تساوت درجتا الحرارة ـ درجة حرارة المصدر ودجة حرارة المستودع . لذا يستحيل على هذه الالة بدون استعانة خارجية اعادة الحرارة المقذوفة الى المستودع اعادتها الى المصدر مرة اخرى ، ويستحيل عليها ايضا اعادة ما فقده المصدر تلوثا من دخان وحبيبات وغازات . ولكن تعاد ويزال تلوثها باستخدام آلة مضافة .

وهنا يأتي دور العلم الـذى انتج الآلـة التي افادت البيئة ربا وزرعا وحصادا ، او غزلا ونسجا ولبسا ، يأتي دوره في صيانتها من العبث بالبيئة التي التي عاش لها يرماها ويكلأها بعنايته . وخلاصة القول تظهر قيمة العلم الـذى انشـا الآلات التي افادت في تعمير الأرض باستحداث ادوات الحضارة التي يستخدمها ساكن هذه البيئة تظهر قيمته بان يصبح همه المحافظة على صحة الساكن والقيام على بقاء نوعه فيعدل ويبدل ويضيف الى الآلات اجهزة لمنع تلـوث الجو الـذى يستنشق هواءه واجهزة لمنع تلوث الارض حيث يشرب ماؤهـا ويؤكل زرعها ويقتات على لحم حيوانها .

ولحكمة نحصد خيرا كثيـرا عنـد ازالـة التلوث ، اذ استخرجت بعض المعادن النادرة من الدخان الذي يخرج من المداخن فترى قبل تنقيته لينتشر في الجو نظيفا ، وكذلك جرت عملية التنقية على عادم حافلات الطريق ليخرج ما يخرج منهـا من غير سوء لا يثير انفا ولا يؤذى صدرا .

السيارات والتلوث :

بحثت اضرار عـادم السيارات في « لوس انجلوس » احدى مدن الولايات المتحدة الامريكية ووجد ان في المدينة وقتذاك ٣ر٥ مليون سـيارة تستهلك في المتوسط ٧ ملايين جالون من البنزين يوميا ، وهي عبارة عن ٢١٥٠٠ طن من البنزين ، وينتج عن الاستهلاك استهلاك هذه الكمية مـن البنزين يوميا ينتج ١٨٠٠ طن من الكاربوهيدرات غير تامة الاحتراق ، وكذلك ٥٠٠ طن من اكاسيد الازوت بالاضافة الى ٩٠٠٠ طن من اول اكسـيد الكربون . تتولد هذه الكميات يوميا وتلوث جـو مدينة « لوس انجلوس » . . ولكن ما اثر كل هذا على الانسان . . اجريت ابحاث ووجد ان العـين تتأثر ، ويشكو سكان المدينة من التهابات في العين اذا وصل تلوث الهواء من المؤكسـدات ١٥ر. جزء من مليون جزء من هواء المدينة ، ويتعدى الاثر الضار الى التربة فترى النبات وقد اصابه الذبول .

واذا عدنا مرة اخرى الى الانسـان وحللنـا دمه على وجه التحديد نجد ان خمسـة في المائـة من هوموجلوبين دم كل فرد خمل وفقد نشاطه ، وذلك عندما يصل اول اكسـيد الكربون في جـو المدينة الى ٣٠ جزءا من بليون جزء من هواء المدينة ويبقي الاكسيد في الجو لثماني ساعات ، لـذا كان حتما واجبا ان يحاول البحاث التخلص من التلوث كلية او ازالته جزئيا الى حد لا يخشى معه الضرر وكان هذا موضع اهتمام القائمين على صناعـة السيارات ، وقد لاحظوا ان اكثر من ثلثي العادم يخرج من انبوبة العادم الخلفية يخرج نتيجة عدم كمال الاحتراق ، ويكون الاحتراق كاملا عندما تكون نسبة الوقود الى الهواء واحد الى ١٥ ، ولكـن تصمم السيارات بنسبة الوقود الى الهواء اعلى من ذلك لتصبح السيارة على الحركة اقدر ، ولكن النتيجة ان يخرج العادم غير كامل الاحتراق ، لذا رؤى لعلاج هذا الامر بقاء النسـبة عالية ومنـع التلوث او تقليلة ، ان يعاد احتراق العادم قبـل خروجه الى الجو المحيط حيث الهواء الطلـق . والعادم عبارة عن غازات الازوت والاكسـجين وثاني اكسيد الكربون وبخار الماء واول اكسيد الكربون وكربوهيدرات واكسيد الازوت واكسيد الكبريت .

وهنالك طرق مختلفة استحدثت لمعالجة العادم . اذكر منها طريقة الاحتراق المباشر ، وذلك بوساطة شمعة اشعال وينطق شكل (٨ أ) عن نفسه ولا يحتاج الى شرح ، والشيء بالشيء يذكر ، لذا اشير الى طريقة اخرى يستعمل فيها عامل مساعد لتحترق الغازات غير كاملة الاحتراق في درجة حرارة اقل منها في الطريقة الاولى ، وذلك بجعل العادم يحترق مع وجود عامل مساعد . ونظرة الى شكل (٨ ب) تغنينا عن الشرح .

معيار التلوث :

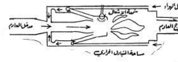
ترتاح النفس المائلة الى الدقة في القياس ، ولن يكون قياس بغير معيار ، ولقد اطمأن البحاث الى ثلاثة مناسيب عيارية للتلوث : منسوب استعداد ومنسوب انذار ومنسوب اخطار . ولكل منسوب علاماته ، فعلامة منسوب الاستعداد التهاب الحواس وحدوث ضرر للخضروات ، وعلامة منسوب الانذار حدوث تغير في وظائف اعضاء الجسم يؤدي الى مرض مزمن ، وعلامة منسوب الاخطار هي الموت او مرض مفاجيء حاد . ولو اردنا دقة في القياس وعبرنا عن المناسيب باجزاء من مليون جزء من الهواء من الملوثات في مدة ساعة من الزمان لسطرنا جدول (١) .

المادة	منسوب استعداد	منسوب انذار	منسوب اخطار
اول اكسيد الكربون	ـ	١٢٠	٢٤٠
اثيلين	٥ر.	ـ	ـ
كبريتيد الهيدروجين	١ر.	٥	ـ
ثاني اكسيد الكبريت	١ر.	٥	١٠
الكاربوهيدرات	١٥ر.	ـ	ـ
ثاني اكسيد الازوت	١٥ر.	ـ	ـ
مؤكسد	١٥ر.	ـ	ـ
اوزون	١٥ر.	ـ	ـ
دخان	١٥ر.	ـ	ـ

من مليون جزء من الهواء من الملوثات في مدة ساعة من الزمان لسطرنا جدول (١) .
على ان يستمر لمدة ساعة من الزمان ، وعشر جزء لو كان التلوث من غاز كبريتيد الهيدروجين ، ومنسوب الاستعداد في حالة الكاربوهيدرات هو عشر جزء ونصف العشر . وقد حرصنا أن لا نرصد رقما في الجدول (١) حيث لا اتفاق بين البحاث على رقم بعينه لذا جاء الجدول ادردا كاسنان العجوز .

ثاني اكسيد الكبريت

يظهر ثاني اكسيد الكبريت في دخان المصانع ومحطات القوى ، ونتخلص منه بتحويله الى ثالث اكسيد الكبريت ، ثم تحويل ثالث اكسيد الكبريت الى حامض كبريتيك ، حيث يمكن تخزينه والاستفادة منه .



شكل (٨ أ)

جهاز يضاف الى السيارة لاعادة احتراق غير المحترق من الغازات بالاستعانة بشمعة الاشعال .



شكل (٨ ب)

جهاز يضاف الى السيارة به عامل مساعد لاحتراق غير المحترق من الغازات عند درجة حرارة اقل من الدرجة بالشمعة في شكل (١) .

استحدثت طريقتان . نشأت احداهما وترعرعت عند تشييد المصنع ، اذ رأى القائمون عليه ان يتخلصوا من ثاني اكسيد الكبريت في مراحل عمل المصنع فيكون جهاز الازالة جزءا من المصنع اثناء تشييده ، ويؤخذ الغاز الملوث مباشرة من الغلاية شكل (٩ أ) اذ نرى وحدة التسخين للغاز الملوث جزءا من المحطة فيسخن الموقد ماء الغلاية وفي الوقت نفسه يسخن الغاز المطلوب تحويل ما به من ثاني اكسيد الكبريت الى ثالث اكسيد الكبريت ثم الى حامض كبريتيك .

ونجد في الطريقة الثانية شكل (٩ ب) ماخذ الغاز من المدخنة مباشرة ، فالعملية الثانية هي اضافة لما هو قائم من مصنع لتنقية ما هو خارج من ثاني اكسيد الكبريت ، ويلاحظ ان وحدة تسخين مستقلة وضعت لاعادة تسخين الغاز الخارج .

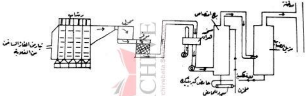
ووجد ان الطريقة الاولى تزيل ٩٠٪ من ثاني اكسيد الكبريت في حين ان الطريقة الثانية حيث وحدة تسخين اضافية مستقلة تؤدي الى ازالة في حدود ٨٥٪ .

ويفصل في كلتا الحالتين في الطريقة الاولى والطريقة الثانية يفصل الرماد والحبيبات شكل (١٠) اولا بوساطة عملية الفصل الميكانيكي ثم الترسيب الالكتروستاتيكي ثم يمر تيار الغاز بعد التخلص من الرماد بالمحول في شكلي (١٢ ، أ ب) حيث يوجد خامس اكسيد الفانديوم ، وهو عامل مساعد صلب يساعد في رفع اكسدة ثاني اكسيد الكبريت الى ثالث اكسيد الكبريت ، الذي يتحد بدوره مع بخار الماء ليصبح بخار حامض كبريتيك ، حيث يبرد في برج الامتصاص ويخرج سائلا هو حامض كبريتيك ، اما وظيفة مزيل الضباب فهي ازالة ما بقي من بخار حامض الكبريتيك ويحوله الى سائل .

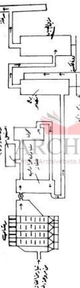
الانسان المتهم

غريب امر الانسان يلقي التهمة على الآلة وهو المتهم الاول المتسبب في التلوث فقد خلق مصدرا متحركا للتلوث فهو يلوث البيئة التي يعيشها حتى لو كان قعيدا لا يبرح فراشه من المهد الى اللحد .

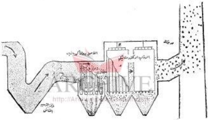
دع عنك افرازاته ، تراه يأخذ من الاكسجين ٣٥٠ سم ٣ شهيقا في كل دقيقة من الزمان ويطرد بديلا عنه ٢٠٠ سم ٣ من ثاني اكسيد الكربون . ولحكمة يعلمها الله اسكن الانسان الارض وابقى على نوعه وحفظ قدر الاكسجين الذي يحتاجه متنفسا ليعيش ويعيش ابناؤه واحفاده واحفاد احفاده الى يوم الدين ، اذ جعل النبات يزدهر نهارا باستهلاكه ثاني اكسيد الكربون من الجو في عملية تسمى التمثيل الضوئي ، وهي عملية عكسية لتنفس الانسان فحصيلة العملية ظهور مادة محببة للحياة هي الاكسجين الذي يخرج الى الجو المحيط بديلا عن ثاني اكسيد الكربون الذي اخذه النبات ، فكان النبات ينظف ما لوثه الانسان اثناء تنفسه فهو مسئول اولا واخيرا عن بقاء الانسان الى يومنا هذا دون اختناق ، ولكن لا يزال يعترينا بعض الخوف ، فنحن نلمس الانفجار السكاني وبالتالي انكماش الرقعة الخضراء من الارض ، ثم التقدم الصناعي وما تنفثه مداخنه من ثاني اكسيد الكربون . لذا كان هم الباحث في التلوث هو ضبط المقدار وتقنين ما يسمح به ،



شكل (٩-أ) جهاز التخلص من ثاني أكسيد الكبريت وهو جزء من المصنع



شكل (٩ - ب) جهاز التخلص من ثاني أكسيد الكبريت بعصارة المرشحة



شكل (١٠)

طريقة لإزالة الحبيبات من الغازات بعد خروج العادم من الأفران، تتأين ذرات الغاز وتلتصق بالحبيبات ويتخلص منها

والانسان طرف فى هذا الموضوع بحكم مولده وعمله وخبرته ، ومن الطريف ان بعض الابحاث تتحدث عن كفاية العمال وتقول انها تقل ويسوء الاداء كلما كثر التلوث فى الجو ، ويضيفون الى الملوثات المعروفة الاصوات المزعجة ، وعلى كل ليس هذا موضعه وتقول يخدع الانسان نفسه ويظن انه يتنفس هواء نقيا ، ولكن لو راجعنا التاريخ نجد ان ملك انجلترا ادوارد الاول حرم استعمال الفحم فى لندن لانه اعتبر ويحق الدخان غير صحي فهو نوع من انواع التلوث وكان ذلك عام ١٣٠٤ ميلادية .

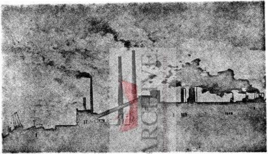
انـواع التلوث

قسم التلوث الجوي الى نوعين . نوع يسمى فصيلة « لندن » وتتكون غالبيته من مركبات الكبريت الناتج من احتراق الفحم . والنوع الثاني يسمى فصيلة « لوس انجلوس » ويتكون غالبا من احتراق البنزين ويسمى تجاوزا فصيلة « الكاربوهيدرات » .

ولعل نوع « لندن » هو اخطر النوعين واذكر ان آلافا من سكان لندن قد ماتوا عام ١٩٥٢ نتيجة اختلاط اكسيد الكبريت بالضباب . واني اترك الامر لاحساس القارىء وهو ينظر الى شكل (١١) حيث يرى المداخن وما يخرج منها ، ومن جهة اخرى لو نظرنا الى اثر حركة مرور السيارات فى مدينة لوس انجلوس بامريكا شكل (١٢) نرى فعل الكاربوهيدرات واكاسيد الازوت فى الجو مع حركة تيارات الهواء (ب) ومع الضباب (جـ) ثم نرى الفعل المضاد لاشعة الشمس (أ) ولكني ساكتفي بالتحدث عن بعض خصائص فصيلة لندن من التلوث وهي اخطر الفصيلتين .

لنـدن والتلـوث

البت علماء الانكليز ان التخلص من ثاني اكسيد الكبريت وغيره من ملوثات الجو هام لانقاذ الثروة القومية ، اذ اظهرت الاحصائيات ان انجلترا خسرت فى عام واحد نتيجة تلوث الجو اكثر من ٢٥ مليون يوم عمل وذلك بسبب مرض العمال لاصابتهم بالتهاب فى الشعب الهوائية ، وقد صنف علماء انجلترا التلوث فى جوها الى ثلاثة اصناف : **جزئيات غاز وجسيمات دقيقة جدا وجسيمات مرئية** ويبين جدول (٢) خصائص هذه الاصناف الثلاثة ، ومهما كانت العوامل الجوية التي تساعد على تخفيف تلوث الجو فان مقداره يحسب حسابه اذ يزن الهواء الجوي ٥ر٧ × ١٠ ^١٥ طن ويصل مقدار التلوث الى ١٠ ^٨ طن . ولعلماء الانجليز طريقة فى التعبير عن هذا التلوث سواء كان التلوث غازا او سائلا او جامدا اذ يقدر بالميكروجرام لكل متر مكعب ـ (١٠ ـ ٦ جم م ـ ٣) ويبين جدول (٣) مقارنة بين التلوث فى لندن فى ثلاث سنوات وهي ١٩٣٨ ، ١٩٦٠ ، ١٩٦٨ وعناصر التلوث فى هذا الجدول (جدول ٣) هي الدخان وثاني اكسيد الكبريت ، ولكن مقارنة التلوث من الغبار والحبيبات الخشنة فى السنوات الثلاث سابقة الذكر تظهر فى جدول (٤) .

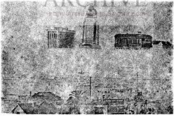


(شكل ١١)

منظر عام لمداخن المصانع وهي مصدر من مصادر التلوث .



(شكل ١٢ أ)



(شكل ١٢ ب)

يظهر صورة مدينة لوس انجلوس .

(أ) في يوم لا غبار فيه ولا تلوث .

(ب) في يوم حار ترتفع في الغازات الملونة الى اعلى .



(شكل ١٢ حـ)

(جـ) في يوم فيه ضباب مكثف .

ويرينا جدول (٥) التلوث من أول اكسيدالكربون عام ١٩٦٨ ويعطينا جدول (٦) بعض البيانات من حافلات الطريق . وهناك مقارنة بينالتلوث في العالم ككل والتلوث في المناطق الاكثر تقدما ، وهي بين خطي عرض ٣٠ ، ٦٠ ° ترافق جدول (٧) وتلاحظ من هذا الجدول ان التلوث من ثاني اكسيد الكبريت من صنع الانسان ولا دخل للطبيعة فيه فهي بريئة منه براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

جدول (٢)

اصناف التلوث	جزئيات الغاز	جسيمات دقيقة جدا	جسيمات مرئية
الملوثات المنتشرة في انجلترا البعد النموذجي خواص	ثاني اكسيد الكبريت تقاس يوميا ـ ١٠ ـ ٧سم تختلط مع الهواء غير مرئية اكالة	دخان تقاس يوميا ١٠ ـ ٤ سم تطفو في الهواء لاترى بالعين المجردة تلوث جميع السطوح	غبار وحبيبات خشنة تقاس شهريا ١٠ ـ ٢ سم ترسب في الهواء ترى تلوث مكان سقوطها
الصحة	مهيج سام اذا كان مركزا	يصل الى الرئتين عند الاستنشاق	يحبس في الانف والقصبة الهوائية
المصدر	الوقود كل انواع الاستخدامات	الاحتراق غير التام خاصة الاستخدامات المنزلية	كل ما يفضي الى رماد غبار الوقود سناج خاصة الاستخدامات الصناعية
ملوثات اخرى لها اهمية محلية	اكاسيد الازوت اول اكسيد الكربون في تراكمات راكدة المرور	رذاذ حامض كبريتيك ضباب دخان الديزل الابخرة في الصناعة	الاتربة في الصناعة من المصنوعات من التخزين

جدول (٣)

دخان وثاني اكسيد الكبريت فى ٦١٠ طن

السنة		←	١٩٣٨	١٩٦٠	١٩٦٨
دخان	من الفحم	منازل	١ر٧٤	١ر٢١	٠ر٧٥
		قطارات	٠ر٢٦	٠ر٠٧	ضئيل
		صناعات وغيرها	٠ر٧٥	٠ر١٩	٠ر٠٩
		مجموع	٢ر٧٥	١ر٤٧	٠ر٨٤
ثاني اكسيد الكبريت	من الفحم	منازل	١ر٢٣	٠ر٩٢	٠ر٦٠
		محطات قوى كهربائية	٠ر٤١	١ر٥٦	٢ر١١
		قطارات	٠ر٣٧	٠ر٣٦	٠ر٠١
		نقالات فحم المناجم	٠ر٣٢	٠ر١٤	٠ر٠٧
		صناعات وغيرها	١ر٣٥	١ر٢٢	٠ر٧٧
		افران كوك	٠ر٠٧	٠ر١١	٠ر٠٩
		صناعات الغاز	٠ر١٤	٠ر١٦	٠ر٠٧
		مجموع	٣ر٨٩	٤ر٢٧	٣ر٧٢
	من الزيت	منازل		ضئيلة	٠ر٠١
		صناعات وسوق التجارة	٠ر٠٥	١ر١٧	٢ر٠١
		طرق وقاطرات	٠ر٠١	٠ر٠٥	٠ر٠٩
		بواخر داخلية	—	٠ر٠٤	٠ر٠٢
		مجموع	٠ر٠٦	١ر٢٦	٢ر١٣
	من الكوك	منازل ووقود بغير دخان	٠و٠٦	٠ر١٠	٠ر١٤
		صناعات	٠ر١٨	٠ر٢٦	٠ر١٥
		مجموع	٠ر٢٤	٠ر٣٦	٠ر٢٩
المجموع	الكلي لثاني	اكسيد الكبريت	٤ر١٩	٥ر٩٩	٦ر١٤

جدول (٤)

الغبار والحبيبات الخشنة في ٦١٠ طن

السنة	١٩٣٨	١٩٦٠	١٩٦٨
مواقد منزلية	٠ر١٤٥	٠ر١	٠ر١٠
محطات قوى	٠ر١٤٥	٠ر٤	٠ر٣٢
قطارات	٠ر١٤٥	٠ر١	–
فحم وكوك يستعمل في الصناعة	٠ر٢١٥	٠ر٢	٠ر١
المجمـوع	٠ر٦٥٠	٠ر٨	٠ر٦٠
عمليات صناعية مختلفة	٠ر٥	٠ر٥	٠ر٥
المجموع الكلي	١ر١٥	١ر٣	١ر١

جدول (٥)

اول آكسيد الكربون في ٦١٠ طن

عام ١٩٦٨

من	
الصناعة	٠ر٦
المنازل	٠ر٥
الات بترولية	١ر٦
الات ديزل	١ر٠
المجموع	١٧ر٢

جدول (٦)

التلوث من حافلات الطرق فى ٦١٠ طن

عام ١٩٦٨

نوع الآلة	آلات بالبنزين	آلات بالديزل
اول اكسيد الكربون	٦ر١	٠١ر٠
كاربوهيدرات	٣٠ر٠	٠١٨ر٠
الدأهايد	٠١ر٠	٠٠٣ر٠
اكاسيد الازوت	٢١ر٠	٠٥ر٠
ثاني اكسيد الكبريت	٠٢ر٠	٠٣ر٠
المجموع	٦٤ر٦	٣٦٣ر٠

جدول (٧)

التلوث الكلي فى ٦١٠ طن

التلوث	طبيعي	صنع الانسان	العالم	مناطق متقدمة بين خطي عرض ٣٠ه ، ٦٠ه
ثاني اكسيد الكربون	٢ × ٥١٠	٢ × ٤١٠	العالم	ـــــــ
اول اكسيد الكربون	٢ × ٢١٠	٢ × ٢٢٠	العالم	ـــــــ
ثاني اكسيد الكبريت	مهمل	١ × ٢١٠	ـــــــ	مناطق متقدمة
اكاسيد الازوت	٢ × ٢١٠	٥٠	ـــــــ	مناطق متقدمة
كاربوهيدرات	٣ × ٢١٠	٩٠	العالم	ـــــــ
جسيمات	٢١٠	٢١٠	ـــــــ	مناطق متقدمة

التلوث في الميزان

تضاربت الآراء واصبحنا في احتياج الى المزيد من الابحاث حتى نصل الى راي حاسم عن مدى اثر التلوث على الصحة ، اذ يرى دكتور **باتريك لوثر** مدير وحدة تلوث الهواء في مجلس الابحاث الطبية بانجلترا ان مقدار ما يحويه دم الذين يدخنون السجائر بطريقة معتدلة وبغير افراط من اول اكسيد الكربون اكثر مما يحويه دم المعرضين لحركة المرور في لندن ولمدة ٣ساعات .

ومن الغريب اني قرات تقريرا لرابطة المستهلكين بانجلترا يعلن عن ابحاث اجريت في نوفمبر سنة ١٩٧٠ تقرر نقص الاداء الذهني لاربعة من الشبان اثناء استنشاقهم هواء على علو ٥ر٣٧ سم من رصيف الشارع ولم يفصح التقرير عن التجربة وكيفية اجرائها .

وكذلك اختلفت آراء الباحثين ، اذ يرى فريق ان جملة جرعات صغيرة من اول اكسيد الكربون على فترات متباعدة لا تحدث تسمما ، لان اثر الغاز لا يتراكم مع الزمن . ويرى فريق آخر غير هذا الراى ، وتسرب الشك ايضا الى ثاني اكسيد الكبريت ، وبدأ اليقين يهتز في سبب موت آلاف في لندن سنة ١٩٥٢ وقد نسب السبب حينذاك الى الضباب المكبرت ـ لو جاز هذا التعبير ـ وذلك لان الظاهرة تكررت سنة ١٩٦٢ وكان عدد الضحايا ٧٠ . فقط رغم تشابه الاجواء والاحوال .

ويحسن ان نثبت هنا انه قد صدر قانون انجليزي يعرف بقرار الهواء النقي عام ١٩٥٦ وهو عام يقع بين عامي ١٩٥٢ ، ١٩٦٢ وتقد القرار وكان من نتائجه تقليل الدخان القاتم ، حتى ادعى البعض ان لندن بلا دخان ، ورغم اختلاف الآراء فهناك اجماع على ان ثاني اكسيد الكبريت غير مقبول عند التنفس ، وان اول اكسيد الكربون سام ، وان البيئة تأثرت تماما بالتلوث . وان انس لا انسى رؤيتي من سنين مضت العديد من الاسماك الميتة الطافية على مساحة كبيرة في ميناء بيريه باليونان . .

وعلى كل فالابحاث لا زالت جارية في اغلب بلاد العالم ، بل اصبحت ابحاث تلوث البيئة عالمية ترعاها الامم المتحدة ، ونتمنى التوفيق للجميع لصالح الانسان والبشرية .

* * *

حسن صادق المرصفاوي

البيئة والجريمة

تشغل الجريمة فى عصرنا الراهن ــ كماشغلت دواما فى الازمنة السالفة ــ بال الكثيرين من الفلاسفة والمفكرين والعلماء ، لما تكشفت خطورتها وتفاقمت جسامتها وزاد انتشارها بين أفراد عديدين من مختلف الجماعات ، مهما تباينت اتجاهاتها أو اختلفت درجتها فى التقدم والرقى . والجريمة موجودة دائما وان تغيرت صورها ومظاهرها ، ويكفى للتدليل على هذا أن ينظر الانسان من حوله ، ويمد بصره الى فترة سابقة من الزمان عاشها ، ليتبين صورا من الجريمة خلقتمع الايام وليدة ظروف معينة، يستوى فى هذا الدول المتقدمة والاخرى النامية، لأن الحال لا يتعلق بالتقدم أو التخلف ، فاثرهذا يقتصر على تنوع الجريمة التي تختلف من مجتمع الى غيره . والتطور فى ذاته يؤدى الى صور جديدة من الاجرام ، لا سيما حين يكون التغيير بخطى سريعة قد لا تستطيع الافكار والتقاليد السائدة مسايرته ، فتختل القيم وتضطرب الموازين فى المجتمع ، مما يسفر عن صعوبة الاهتداء الى السبيل القويم فترتكب الجرائم . واذا اردنا أن نستقى من واقع الحياة دليلا لوجدناه فى الجرائم التى برزت حديثا بشكل ملموس ــ لا سيما فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ــ وهي التي تمس الجوانب الاقتصادية من الحياة .

ولا تعتبر الجريمة وليدة المجتمعات الراهنة او انها قاصرة عليها ، بل ان الجريمة قديمة قدم اجتماع الانسان بغيره من الافراد ، وكل ما في الامر ان الجريمة تختلف في مفهومها وفي مدى انتشارها وفقا لتقاليد ونواميس جماعة معينة في وقت معين وفي مكان معين . والعدوان هو الاساس في الجريمة ، بل هو الاساس في كل الافعال التي تلحق بالغير ضررا وتستوجب فعل هذا الضرر . والعدوان منشؤه بعض الغرائز التي قضت حكمة الله سبحانه وتعالى ايجادها في الانسان ، تلك الغرائز التي لن تزول الا بفناء الانسان وتحركه نحو كل ما من شانه ان يحافظ على وجوده ، ومن هنا ينشا تضارب المصالح . وفي سبيل البقاء ينشب العدوان الذى هو اساس كل نزاع ، عدوان مرجعه الغريزة . واذا اردنا تقصى اسباب الجريمة والبواعث عليها لانتهينا معها الى الغرائز البدائية في الانسان . ولهذا فمن الملاحظ انه كلما تهذبت غرائز الانسان قل عدوانه ، وتبعا لهذا انكمش نطاق الاجرام دون ان ينعدم .

واذا كانت الغرائز هي المحركة لكل عدوان فهي ايضا المحركة لكل دفاع في مواجهة العدوان ، فغريزة البقاء التى تدفع بالانسان الى السعى نحو المحافظة على كيانه مهما كان في تصرفه من مساس بغيره هي بذاتها التي تحرك هذا الغير الى دفع الاعتداء محافظة على بقائه ، ولو كان في هذا مساس بالمعتدى . وهذا هو الاصل في نظرية الدفاع الشرعي ، التي تقرها التشريعات جميعا على اساس ان المحرك للدفاع المتمثل في اعتداء هو الغريزة التي خلقها الله سبحانه وتعالى في الانسان . ومتى كان الامر كذلك فالجريمة مرتبطة بالانسان وجودا وعدما . فالجريمة والانسان كلمتان متلازمتان وجدتا سويا وتنتهيان سويا ، وبهذا فان تصور قيام مجتمع بغير جريمة ــ على اية صورة كانت ــ غير مقبول .

والعدوان في الصورة التي عرضناها ، هو الذى يقع من فرد ، والدفاع الموجه نحو العدوان يصدر عن فرد ، ولكن الفرد المنعزل عن غيره انعزالا كاملا لا وجود له ، بل ان من علماء الاجتماع من يرى ان الانسان وجد دائما في مجتمع خلال كل فترات التطور التاريخي التي مرت بها الانسانية . وعلى كل حال فان صور العدوان ــ مع تطور المجتمعات ــ بدات تتغير ، واثرها لم يعد قاصرا على من وجهت اليه افعاله ، بل اصبحت الجماعة ذاتها كوحدة متكاملة تحس بالعدوان ولو بصورة غير مباشرة ، وشعرت بان عليها واجبا ازاء ذلك العدوان . فالجماعة لها كيان ذاتي مستقل ، ومنذ وجودها خلقت فيها غريزة المحافظة على بقائها ــ وهي ذات الغريزة التى دفعت الانسان للمحافظة على نفسه ــ ووجهتها نحو طريق رد كل عدوان ، سواء وجه اليها بطريق مباشر ام وجه الى احد افرادها فلحقها بسبيل غير مباشر .

وبحثنا يتناول البيئة والجريمة ، الامر الذى يثير كثيرا من التساؤلات ، اولها تحديد مفهوم كل من الجريمة والبيئة في هذا النطاق . وغاية البحث هي تعرف مدى العلاقة بين البيئة والجريمة وتاثير كل منهما في الاخر ، وقدر ما تمثله البيئة في السلوك الاجرامي باعتبارها عاملا

من عوامله . فاذا أمكن التوصل الى هذه العناصر سهلت معرفة الطريق المؤدى الى مكافحة الجريمة (١) .

الجريمة فى موطن هذا البحث :

الانسان منذ مولده حتى نهاية حياته لا يكف عن الحركة، سواء فى ذلك بارادته، كالاكل والشرب والكلام ، او كانت الحركة مبعثها طبيعة خلقه دون أن يكون لارادته دخل فى ذلك ، كنبضات القلب او تردد التنفس . ولا يعنينا فى هذا المقام النوع الاخير ولكن يهمنا بالدرجة الاولى النوع الاول ، وهو ما يشمل التصرفات ذات الاثر فى المحيط الخارجي والتي قد تؤثر فى الجماعة المنتمى اليها الفرد بوجه من الوجوه .

وتصرفات الانسان المنبثقة عن حركته الدائمة كثيرة ومتنوعة ، وهي تمثل استجابة لحاجات او رغبات له ، يستوى فى ذلك الظاهرة منها للعيان والمفهوم امرها ، ام الخافية الناشئة عن انفعالات او خلجات قد يعسر فهمها وتحتاج الى تعمق فى شأنها للوصول الى غورها وتفسيرها . واذا كان الانسان فردا فى مجتمع فمما لا شك فيه أن تصرفاته تنعكس على المجتمع ، وقد يتأثر بها او يؤثر فيها . فالمجتمع قد يتأثر بها لما تحدثه فى نواميسه وقواعده من تغيرات على اية صورة كان التغيير ، كما ان المجتمع قد يؤثر فيها نتيجة لرد فعل ذلك التصرف سواء كان بالرضا عنها عند مواءمتها لطبيعة تكوينه او عدم الرضاء عند الاختلاف والمعارضة .

ونقسم تصرفات الانسان تقسيما بسيطا يرتبط بموقف المجتمع منها الى اقسام ثلاثة، تصرفات لا تعنى الجماعة بامرها كثيرا ، وتصرفات تتقبلها الجماعة بالرضى وتشجع عليها ، واخيرا تصرفات تستهجنها الجماعة وتنفر منها . والنوع الاول من التصرفات ينطوى تحته فريق يتم دون ارادة من الشخص ـ والقول بانه تصرف فيه نوع من التجاوز ـ وهو الناشىء عن التكوين العضوى لجسم الانسان . والفريق الآخر من التصرفات لارادة الانسان دخل فيه ، وهو الذى يقتضي بحث موقف الجماعة بصدده . والاصل فى هذه التصرفات كقاعدة عامة أن يقف المجتمع منها موقفا سلبيا ، بمعنى انه لا يتدخل فى امرها مادامت تتم فى حدود النواميس والقواعد والنظم التي تحكم المجتمع . والنوع الثانى من التصرفات هو ما يتفق مع النواميس والقواعد والنظم التي تضعها الجماعة ولايقف منها المجتمع موقفا سلبيا، بل انه يمتدحها ويشجع عليها لما تؤدى اليه من بقائه والعمل على تقدمه ، ومن هذا قيام الانسان بالواجبات التى تفرضها عليه طرق العيش الذى يرتزق منه ، فالسعى الى الرزق واجب على الفرد وهو من العمد الاساسية فى بناء الجماعة . وهناك نوع آخر من التصرفات ترضى عنه الجماعة لما فيه من معنى التآلف والتآخى بين افرادها ، والتعاون المثمر الذى ينعكس اثره على امر المجتمع وهدوئه ، ومن هذا القبيل التعاون على دفع الكوارث ومساعدة الغير واعانة المحتاج .

---

(١) يرى بعض الباحثين ان الاهتمام بظاهرة زيادة السلوك الاجرامي يوجب العناية التامة باظهار الحقائق ، وبدلا من الاندفاع فى سياسة عقابية يتعين النظر بعمق الى طبيعة المجتمع للتحرى عما اذا كانت هناك قوى ذات صبغة اجتماعية وبيئية مؤثرة فى السلوك يكون من الافضل الكشف عنها (جون مايز ص ٩) .

والنوع الآخير من التصرفات يتعارض معالنواميس والقواعد والنظم التى تقررها وتسير عليها الجماعة وتؤدى الى رد فعل مضـاد منالجماعة متنوع النوع والمقدار دفاعا منها عن كيانها ، وعملا على استقرار الأمن والهدوء فيها . فالمجتمع كالانسان خلق كل منهمـا وفيه غريزة البقاء التى تتحرك تلقائيا وتدفع عنه كل مايهددكيانه . فاذا كان الفرد العادى يرفع يده فيحركة غريزية لا ارادية ليتقى خطرا على وشك الوقوعبه يتهدده ، فالشأن كذلك بالنسبة الى المجتمع يتحرك غريزيا محافظة منه على كيانه لدرء كل مامن شأنه ان يؤثر فى بقائه واستمراره . واذا كان رد الفعل الغريزى لدى الانسان ازاء اى خطـريتهدده يختلف من وقت الى آخر ومن موقف الى آخر حسب ظروف ذلك الخطر ، بمعنى انتصرفهالغريزى ليس مطلقا من كل القيود وانما تحـدده اعتبارات عديدة ـ لعل اخصها درجة العـدوانوكيفية مقاومته والظروف التى يقع فيها كل من الخطر ودرئه ـ اذا كان الامـر كذلك بالنسـبةللانسـان فهو الحال ايضا بالنسبة الى المجتمع . فمتى كان كل خروج على نواميســه وقواعـدهونظمه يستوجب رد فعل معه ، فان تحديد هذا الاثر يختلف من حالة الى أخـرى وفقـا لقدرالعدوان وظروفه ومدى المساس الذى يلحـق الجماعة من جرائه .

ويمكن القول بصفة عامة انه لا يوجد تطابقكامل لتصرف وآخر من ناحية نوعه ومداه واثره، ومع هذا فانه تقريبا للأمور يمكـن ضم بعـضالتصرفات الى بعضها الآخر فى مجموعات تحوى نماذج يوجد بينها نوع من التناسق والتقـاربالذى لا يصل الى حد التطابق . وتمشيا مـع الفكرة آنفة البيان يمكن تقسيم تصرفات الفـردالتى لا تلقى رضاء من المجتمع الى عدة اقسـام استنادا الى درجة ردالفعل الذى يقابل بهالمجتمعتلك التصرفات ، وهو ما يتدرج فيبدأ بمجـرد الاستهجان ، ثم قد يصاحب هذا الاستهجانجزاءتأديبى ، أو قد يصل التصرف الى درجة الخطورة التى تستوجب فضـلا عن استهجان المجتمعللتصرف توقيع جزاء جنائى على مرتكبه ، وبهذا تتفاوت درجات عدم رضاء المجتمع ورد فعله عنالتصرف الذى يقع مخالفا لنواميســه وقواعـده ونظمه. فاذا وقفـرد الفعل عند مجردالاستهجاناعتبر التصرف جريمة تأديبية ، اما ان وصلالحد الى احد الجزاءات المنصـوص عليها فى قـانونالعقوبات كانت الجريمة جنائية ، ومن هذايتضح شمول مصطلح الجريمة لكل التصرفات التى تقعمنافية للمجتمع .

ويهمنا بالمقام الأول الجريمة الجنائية ،وهىالنشاط الذى يصدر من الشخص ايجابا كان او سلبا يقرر له القانون عقـوبة من بين المقـوباتالمقررة بقانون العقوبات . فالمجتمع قد يرى فى بعض التصرفات التى تصدر من الفرد ما مـنشأنه ان يخل بامنه ونظامه ، يستوى فى هـذا أن ترتب تلك التصرفات ضررا لفرد معين ، أم انآثرها يصيب المجتمع باعتباره شخصية قـائمة بذاتها تدفع عنها كل ما يهدد كيانها . وهو فىهذاالسـبيليتقدر بالعقاب كلمنتسـول له نفسـهمقارفة مثل تلك الأمور ، فان أتى الفرد واحدا منها ،رغمتحذير القانون ، وقع تحت طائلة العقوباتالمقررة فى هذا الشأن ـ بالتصرف الذى يشكل جـريمةجنائية مستهجنة من المجتمع ، ويتفق فى هذا مع الجريمة الدينية والخلقية والتأديبية ، بيد انخطورة التصرف تجعل المشرع يتدخل بتقـرير

احدى العقوبات الجنائية . وبهذا ايضا يتضح الفرق بين الجريمة الجنائية وغيرها من الجرائم، ويتمثل هذا فى التزام المشرع الجنائى والقاضى من بعده بقاعدة ان لا جريمة ولا عقوبة بغير نص فى القانون . ومعنى هذا انه ان انتفى وجود نص القانون الذى يعد نشاطا معينا فعلا معاقبا عليه باحدى العقوبات الجنائية ، فلا محل لمؤاخذة الشخص جنائيا .

وليس بالضرورة ان تنطوى دائرة الجرائم الجنائية داخل دائرة الجرائم الدينية او الخلقية، لان هناك من الافعال ما يثير النقاش حول مخالفتها لقواعد الدين او الاخلاق من عدمه رغم تدخل المشرع واعتبارها من الجرائم الجنائية ، ومن هذا القبيل كثير من المخالفات والجرائم المسماة بالجرائم المادية . ولهذا قيل بأن الجريمة قد تكون من خلق الجماعة السياسية فى الدولة فى وقت ما ولظروف معينة ، فان تغيرت الجماعة الحاكمة او تبدلت الظروف التى استوجبت تجريم فعل معين فان هذا قد يترتب عليه رفع صفة الجريمة عن النشاط ، بل يمكن القول بان سياسة التجريم فى ذاتها مصدرها سلطان الحكومة . على ان هذا القول ، وان كان فيه جزء من الصحة فانه لا يخلو من المبالغة ، فلا ينكر احد ان هناك من التصرفات ما تعدها الهيئة السياسية الحاكمة جريمة حماية منها لمكانتها وتثبيتا لاركانها او تحقيقا لسياسة معينة تنشدها . وهناك ايضا من الافعال ما يعد جريمة تقتضيها مصلحة المجتمع وان كان قد يغيب عن بعض الافراد الغاية من التحريم، كالجرائم التموينية او جرائم الضرائب . ولكن الى جوار هذا يوجد من الافعال ما قد يكاد يجمع على تجريمه لما له من مساس بالمجتمع فضلا عن المساس بالافراد، ومن هذا القبيل القتل والسرقة وخيانة الامانة والزنا ، وان كان من بينها ما لا يعد جريمة احيانا فى قليل من المجتمعات . وهذه الجرائم الاخيرة تنطوى داخل دائرة الجرائم الاخلاقية لان نواميس المجتمع وتقاليده تاباها . بل لقد ذهب البعض الى اعتبار مثل هذه الامثال جرائم طبيعية لانها تاتى ضد الطبيعة الموجودة فى المجتمعات ولا تتغير بالزمان ولا بالمكان . وهذا القول بدوره اثار الانتقاد لما يتسم به من طابع المبالغة ، اذ هناك من المجتمعات ما لا يعد القتل جريمة ، بل واجبا اجتماعيا ، وغيرها لا يرى فى فعل الزنا جريمة ، بل يراه تصرفا من جانب الفرد فى حريته الشخصية .

ويعنينا فى بحثنا الجريمة الجنائية ، ويمكن القول بان اضفاء صفة الجريمة على نشاط معين امر نسبى يتوقف على ظروف الزمان والمكان ، فهو يختلف من وقت الى آخر ومن مكان الى غيره. فمن المسلم به ان هناك من الافعال ما يعد جريمة فى دولة ما فى حين انه من الافعال المباحة فى دولة اخرى ، بل انه فى الدولة الواحدة قد يعد النشاط جريمة ثم يعدل المشرع فى سياسته وينقله الى قائمة الافعال التى لا يلحقها العقاب ولا يمنعه من هذا من بعد ان يعود الى الجريمة مرة اخرى .

وتختلف التشريعات فى تقسيمها للجرائم من حيث جسامتها ، فمنها ما ياخذ بالتقسيم الثنائى فالجريمة تكون على نوع من اثنين اما جناية او جنحة ، ومن القوانين ما ياخذ بالتقسيم الثلاثى للجرائم ــ الجناية والجنحة والمخالفة ــ ومن بينها التشريع المصرى . وكخطوة اولى نستبعد من نطاق البحث الجرائم المعدودة من المخالفات لانها من البساطة بمكان ، وهى تصرفات يمكن ان تقع

من كل فرد يكتفي القانون في الغالب بوقوعها لتقرير العقاب دون اشتراط توافر القصد الجنائي في مرتكبها ، اى انه لا يتمثل فيه او فيما وقع منه خطورة شديدة على المجتمع .

اما الجنايات والجنح فانه وان كانت خطورة الجنايات ظاهرة وكانت الجنح اقل منها في هذا المقام ، الا ان هذا لا ينفي ان اهتمامات البحث في عوامل الجريمة لا تسير دوما وراء تقدير المشرع لخطورتها . فجريمة تسليم بعض الأسرار الحربية الي دولة معادية اشد خطورة في نظر المشرع من جريمة قتل ترتكب اخذا بالثار مثلا ، ومع هذا فان الباحث في عوامل الجريمة تعنيه بالدرجة الأولى الجريمة الاخيرة وحدها . واذا كانت الجنايات والجنح لا تتساوى في اهميتها فان هناك من الجرائم مهما كان وصف القانون لها تخرج من البحث ، وذلك لما لها من طبيعة خاصة تجعل لها صفة الجرائم الاصطناعية ، ونسوق على سبيل المثال الجرائم الضريبية التى لا يشعر مقارفها احيانا بتأثيم الاجرام حين يأتي احد الافعال المكونة لها بسبب عدم ادراكه للفائدة التى يراد للمجتمع الوصول اليها بتحصيل الضريبة ، ولا يأخذ في اعتباره الا القدر من المال الذى يدفعه الى الدولة ولا يتقاضى عنه مقابلا محددا واضحا ، وكذلك الحال بالنسبة الى شعور الجمهور .

والغاية من الدراسة هي التى تحدد الجريمة التى تكون محلا للبحث ، ولا شك في أن الجريمة التى تثير الاهتمام تكون قد وصلت في المجتمع الى درجة من الكثرة تكشف عن ان لها من العوامل ما يمتد جذوره في الجماعة بما يمكن من متابعتها والاهتداء اليها اى ان يكون من شأن تلك العوامل تهيئة المناخ الصالح لوقوع الجريمة ، وكان الجريمة المعنية اصبحت آفة المجتمع يستحق الجرى وراءها للقضاء عليها . ولذا فان بعضا من الجرائم التى ترتكب بصفة عارضة تخرج من البحث ، ومن هذا القبيل جرائم الضرب البسيط والسب فهى جرائم – قلت ام كثرت – ليست لها سمة الثبات والتكرار ، تقع نتيجة لظروف طارئة من اى فرد وفي اى وقت دون ان يجمعها ضابط معين يمكن الاهتداء به او البحث عن اسبابها للعمل على مكافحتها .

واذا كانت التشريعات تعبر عن انعكاسات لمشاعر المجتمع ، وكانت الأبحاث المختلفة وليدة حاجاته ، فان تحديد الجريمة يهتدى فيه بالدرجة التى وصلت اليها والتى تقاس باستنكار المجتمع لها – كله تقريبا وفي كل وقت – واحساسه انها قد بلغت من كثرتها مرحلة يخشى منها على المجتمع ذاته . وليست المجتمعات كلها على نسق واحد ، والمقياس آنف البيان يوصل بالضرورة الى أن تكون الجريمة المعنية موجودة في كل الدول ، بل هي قد توجد في دولة ولا تتوافر في غيرها . وعلى سبيل المثال اذا اردنا تطبيق المقياس السابق على الجريمة في مصر لوجدنا ان اخطرها جريمة القتل ، لا سيما ما كان منها متصلا بالثار . ويزداد الاهتمام حاليا بجرائم الاختلاس والرشوة التى تنتشر في المجتمع بصورة مقلقة ، حتى حركت كثيرا من الاجهزة الباحثة وراءها . ولا تخلو جرائم التشرد والتسول بدورها من الاهمية ، كما لا يشك احد في خطورة جرائم المواد المخدرة . واخيرا تأخذ الجرائم التى تقع من الاحداث مكانا خاصا بين الجرائم التى تكون محلا للبحث ، لانه كما يقال **حدث اليوم هو رجل الغد** ، ورعايته وتنويره حفظ للبلاد برجال المستقبل .

البيئة في موطن هذا البحث :

الجريمة ظاهرة مادية نتيجة لعمليات متعددة ومعقدة ، وتضر بالمجتمع، وهو لا يقف منها عاجزا وانما حماية لنفسه يوقع الجزاء على مرتكبها وحتى يكون عنوانا يردع الغير عن الاقتداء به . ورد فعل المجتمع على هذه الصورة يقف عند الأثر الظاهر لتصرف الانسان ـ أى الجريمة ـ ولا شك فى انه من الأفضل العمل على منع الجريمة قبل وقوعها، وهو ما يقتضى البحث عن أسبابها لعل فى معرفتها ما يمكن من علاجها ودرء خطر الاجرام .

ولما كانت الجريمة نتيجة لعمليات بشرية واجتماعية ونفسية فان البحث فى امر مسبباتها شغل فريقا من العلماء مختلفى التخصصات . فلقد شارك فى الدراسة والأبحاث فلاسفة واطباء ورجال قانون وباحثون اجتماعيون وغيرهم ، ونظر كل فريق الى الجريمة من وجهة نظر تخصصه وتبعا لذلك تعددت الآراء واختلفت النظريات . . بل لقد تأثر كل عالم بالمنهج الخاص الذى يتبعه فى أبحاثه التخصصية ، وعلى سبيل المثال ارجع لومبروزو ـ الذى كان يعمل طبيبا ـ عامل الاجرام اساسا الى التكوين العضوى للفرد . وفضلا عن هذا فان اختيار الانسان لطريق معين فى بحثه يتوقف على امكانيات الأدوات التى تيسر له الاستعانة بها ، واقرب الأدوات اليه هو ما تمده به حياته العملية (٢) .

واذا كان الانسان فردا فى مجتمع ، وكانت الجريمة ظاهرة انسانية فقد لزم البحث عما اذا كانت هناك علاقة بين الجريمة ذاتها والمجتمع من عدمه . ويعتبر توماس مور (١٤٧٨ ـ ١٥٣٥)(٣) من أوائل من نظروا الى الجريمة فى ارتباطها بالمجتمع ، وبين ان عواملها تكمن فى المجتمع نفسه، وكان ذلك فى قصته الشهيرة (Wopia) وهى مستوحاة من المدينة الفاضلة لأفلاطون . ووصف توماس مور الظروف التى كانت تعيش فيها انجلترا آنذاك وانتشار الاجرام وقسوة القانون ، واشار الى وجوب تعرف عوامل الجريمة والتخلص منها بتوفير امكانية العيش للناس . ومن صور عوامل الاجرام ذكر الحروب المستمرة التى اسفرت عن المحاربين العاطلين . وقال ان العامل الأساسى يكمن فى ظروف الحالة الزراعية ، ذلك انه بعد انتاج المصنوعات الصوفية حول كثير من اصحاب الاراضى الزراعية املاكهم الى مراع للغنم ، وترتب على هذا تعطل آلاف من المزارعين الذين رحلوا واستقروا حول المدن وكانوا فريسة سهلة للوقوع فى وهدة الاجرام ، وفضلا عن هذا ظهر الثراء الفاحش الذى سرعان ما يزول ويؤدى بدوره الى طريق الجريمة .

ومن كتابات قادة الفكر خلال القرن الثامن عشر نجد اشارة الى الجريمة والظروف الاجتماعية المحيطة بها (٤) . فقد ذكر **منتسكيو** ان المشرع الناجح هو الذى يكافح الجريمة لمنع وقوعها اكثر منه بالعقاب عليها . وكتب **روسو** ان الفقر هو اهم الجرائم الكبيرة ، وان المجرمين قلة فى ولاية

---

(٢) راجع الدراسات الاولى لعلم الاجرام ، بينائل ، ص ٣٠ وما بعدها .

(٣) بونجر ، ص ٢٨ .

(٤) بونجر ، ص ٣١ وما بعدها .

منظمة تنظيما حسنا . كما ذكر **بكاريا** أن السرقة هي عادة جريمة الفقراء . وفي كتابات **بنتام** نظرة اجتماعية عميقة لأسباب الاجرام ، وهو يرجو ان تمنع الجريمة لا أن يعاقب عليها . وعدد صورا من العوامل الموصلة الى الجريمة ومنها الخمور التى اعتبرها من الاسباب الهامة . وفي صدد الجرائم الاقتصادية يحث على معاونة الافراد الذين ليست لديهم موارد كافية والا اصبحوا مجرمين ، ولن يقعدهم عن هذا الطريق اى تهديد بالعقاب .

وبعد ان ارسيت الدراسات الاحصائية على قواعد ثابتة استخدمت كأداة في الدراسات الاجتماعية ، وفي ضوئها درست الجريمة باعتبارها ظاهرة في الجماعة بطريقة علمية . وقد اوجد **اندريه جيري** في فرنسا (١٨٠٢ ـ ١٨٦٦) ما يسمى بالاحصاء الاخلاقي ، حيث تناول الرابطة بين الجنس والسن من ناحية ، والاجرام من ناحية اخرى . كما عنى بجغرافية الجريمة في فرنسا التي اتضح منها أن بالمناطق الغنية اكبر عدد من الجرائم ضد المال ، واستنتج عدم عدالة توزيع الثروة ، حيث الى جوار الثراء الفاحش هناك فقر مدقع . وصاغ قانون الحرارة للظاهرة الاجرامية ـ والذى ايده فري ـ حيث اكد ان الجرائم ضد الاشخاص تغلب في الاقاليم الجنوبية خلال اوقات الحر ، وان الجرائم ضد المال تغلب في الاقاليم الشمالية اثناء فترات البرد (٥) .

وابان اودلف **كاتليه** (١٧٩٦ ـ ١٨٧٤) ثبات ابة جريمة من عام الى آخر حتى في تفاصيلها او طريقة ارتكابها ، وبين ذلك بجدول احصائي عن الجرائم التى وقعت في فرنسا . وقال ان الارقام لا تتغير وهي ثابتة بشكل مطرد في كل ما يتصل بالجريمة حتى بالنسبة للجرائم غير المتوقعة للتقدير العادى ، كالقتل الذى يحدث فجأة وبلا اية بواعث مسبقة . وقال ان المجتمع يحوى بداخله بذور الجرائم المستقبلة ، وكل نظام اجتماعي يعد الظروف لعدد من الجرائم التي تنتج بالضرورة من تنظيمه . ويضيف بأن على كل مجتمع ان يعد نفسه على اساس وجود الظاهرة الاجرامية ، كما يعد نفسه لظاهرة طبيعية ، وهو ما يستنتج من قوله ان كفاح الجريمة تمكن تحقيقه بتغيير ظروف الحياة الانسانية . وبحث **كاتليه** ايضا بعض البواعث التي تؤثر على الاتجاهات العامة في الجريمة كالتعليم والمهنة والفقر والجو وتغير الفصول .

وربطت المدرسة الاشتراكية (٦) الظاهرة الاجرامية بالظروف الاقتصادية معتبرة ان الجريمة حصيلة فرعية للظروف الاقتصادية ، فعدم المساواة الاقتصادية هو العامل الاساسي في الجريمة التي تمثل رد الفعل لانعدام العدالة الاجتماعية ، وقامت الفكرة على اساس دراسات واقعية مبنية على الطرق الاحصائية التي اوضحت تغير معدل الجريمة ومدى ارتباطه بالظروف

---

(٥) ستيفانيه وآخرون ص ٨٠ بند ٨٨ ، واشار الى معارضة البعض لهذا الرأى حيث ان الجو يرتبط بظروف اجتماعية . ففى بعض البلاد حيث يطول النهار تمتد تبعا لهذا الحياة الاجتماعية وتكفى لزيادة فرص الاجرام ضد الاشخاص ، في حين ان الظلام في ليالى الشتاء الطويلة يساعد على زيادة الجرائم ضد المال . راجع ايضا بولا وبنتال ص ٨٩ وما بعدها .

(٦) بونجر ص ٨١ وما بعدها .

الاقتصادية ، وانتهت الى انه لن تكون هناك جريمة في المجتمع الاشتراكي ، ولن تكون الافعال التي تقع ضد رفاهية الجماعة الا نتيجة لحالة مرضية . وقد عكس التطور الاقتصادي صداه على تطور الجريمة ، بالانتقال من الاقتصاد الزراعي الى الاقتصاد الصناعي خلال القرن التاسع عشر ، صحبه انتقال من جرائم العنف الى جرائم الذكاء . وعدم الاستقرار الاقتصادي الناشيء من عدم استقرار الاثمان والاجور والاسواق والنقود كان له اثره في الاجرام الذي يقصد منه الكسب ، ويؤدي تحسن الظروف الاقتصادية الى تقلص الجرائم ضد المال وسوء هذه الظروف يؤدي الى زيادة تلك الجرائم .

ومن اشهر المدارس في بحث عوامل الجريمة المدرسة الايطالية (٧) وتقوم وجهة نظرها على ان الظواهر الاجتماعية – شانها شان الظواهر الطبيعية – تنشا وتتتابع وفقا لقواعد تحكمها وتربط بينها بعلاقة السببية الموصلة الى آثارها ، ولكن تحديد هذه القوانين من الدقة بمكان بسبب الظروف العديدة التي تتدخل في هذه الظواهر . وفي تقدير الظاهرة الاجرامية ينبغي الاعتداد بعنصرين الفرد والوسط . ويجمع علماء هذه المدرسة على ضرورة وجود شذوذ عضوي لوقوع الجريمة ، ثم اختلفوا بعد هذا في عديد من النقاط .

فلقد اعتد لومبروزو ابتداء بالمميزات العضوية في الانسان المسببة للجريمة ، ولكنه بعد ذلك وتحت تاثير النقد الشديد اعتد بالظروف الاجتماعية ، وقال ان لكل جريمة اسبابا عديدة ، ولما كانت تلك الاسباب تختلط ببعضها في الغالب فيجب الا يؤخذ كل سبب فيها على انفراد ، ومن بعد هذا اعتد لومبروزو بالاسباب الاجتماعية وقال ان المدنية لم تقلل من عدد الجرائم وان اتسمت بطابع خاص اقل شراسة (ه) وتميزت بانواع معينة ناشئة عن الروابط الاجتماعية والاسرية ، وكان للحالة الاقتصادية في نظره اثر محدد على الاجرام .

واعتد **فري** بالعوامل البيولوجية واضاف اليها العوامل الطبيعية والعوامل الاجتماعية ، وعلى وجه الخصوص العوامل الاقتصادية . ويختلف اثر العوامل البيولوجية والاجتماعية وفقا لاشخاص المجرمين وانواع الجرائم المرتكبة . وقسم المجرمين الى خمسة انواع ، المجرم بفطرته والمجرم المجنون ، والمجرم بالعاطفة ، والمجرم بالصدفة ، والمجرم المعتاد . والفكرة الاساسية لدى فري مبناها تساؤل هو انه **اذا كانت العوامل الجغرافية والاجتماعية تكون مصدر الاجرام فما يزال السؤال باقيا لمعرفة ما يدعو عدة افراد يسيرون في طريق الجريمة بينما لا يسير غيرهم فيه ، والجميع يخضعون لمؤثرات واحدة** . وفي رايه ان الجريمة ظاهرة ذات اساس معقد بين عضوي ونفسي واجتماعي ، ولها اشكال ودرجات تتغير حسب الظروف المختلفة للاشخاص والاشياء والوقت والمكان . وقد قسم فري عوامل الاجرام الى ثلاثة انواع انثروبولوجية وطبيعية واجتماعية . والاخير هو الظروف الاجتماعية للجريمة الناشئة عن الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه المجرم ، اي السكان والافكار العامة والمعتقدات الدينية والانتاج الصناعي والمنظمات

---

(٧) بونجر ص ٥٦ وما بعدها .

وجود الجريمة . فالجريمة لا تقع من مجرد الانسان الحي وانما من شخصية الانسان التي خلقتها الجماعة وشكلت صورتها . وقد وضع تارد نظريته في ان الجريمة مفتاح التقليد ، فلا شك في ان الاجرام كالشأن في كل نشاط اجتماعي يفترض وجود ظروف فسيولوجية وطبيعية ، ولكنه يفسر قبل هذا بالقوانين العامة في التقليد ، وذلك في صور الصفة الخاصة بالصيغة المحلية لكل وقت والتوزيع الجغرافي والتحول التاريخي وتنوع الدوافع وغير ذلك . وهذا التقليد يمتد من الطبقات العليا الى الطبقات الدنيا ، وقديما كان يجرى تقليد الطبقة الارستقراطية ، اما الآن فالملاحظ سير التقليد من العاصمة الى الريف . فكل الوقائع الاجتماعية تحدث تحت سلطان يحتذى به . ويذهب تارد الى ان الفقر لا يؤدي وحده الى الجريمة ، وانما عدم الرضا وعدم الشبع هو الذي يولده ، وهذا وذلك كما قد يوجد عند الفقير فانه قد يتوافر لدى الغنى .

ولا يختلف دوركهايم عن غيره من علماء مدرسة الوسط الاجتماعي في اعتبار الجريمة وليدة الظروف الاجتماعية واليها ترجع اسبابها . على انه يرفض اعتبار الجريمة ظاهرة غير عادية في المجتمع ، بل انه يؤكد صفتها الاجتماعية العادية ، فهي موجودة في كل مجتمع انساني ، وهي علامة من علامات صحته ، ولا يوجد مجتمع لا تحدث فيه يوميا انتهاكات لاخلاقياته . ويؤدى رايه الى انه لما كانت الجريمة ظاهرة عادية فهي لا تنشأ من اسباب استثنائية ولكن من ذات الهيكل الثقافي الذي تنتمي اليه . وانه لما كانت الجريمة ناتجة عن التيارات الاجتماعية الكبيرة في الجماعة فان وجودها وعلاقاتها بالهيكل الاجتماعي يحملان لها صفة الاستمرار والعمومية . وعلى هذا فانه لا يجب تفسير الجريمة ولا تحليلها الا بالثقافة الغالبة في وقت ومكان محددين .

ويرى سذرلاند (١٠) — وهو من المدرسة الاجتماعية في الولايات المتحدة الامريكية — ان السلوك الاجرامي هو سلوك انساني يشترك في الكثير مع السلوك غير الاجرامي . ويضع سذرلاند نظرية تكوينية للسلوك الاجرامي ، مبينا كيف تتم العملية التي تؤدى بشخص معين الى السلوك الاجرامي . وتتلخص في ان السلوك الاجرامي يتعلم ولا يورث ، وذلك بالتداخل مع اشخاص آخرين في عملية اتصال ، وهو يحدث في نطاق جماعات الاشخاص ذات العلاقة الودية الوثيقة ، وتعليم السلوك الاجرامي يتضمن فن ارتكاب الجريمة ، وينحرف الشخص حين ترجح له كفة الآراء التي تحبذ انتهاك القوانين على كفة الآراء التي لا تجيز انتهاكها ، وهذا هو مبدأ العلاقة التفاضلية . وحينما يصبح الأشخاص مجرمين فهم يقبلون هذا لاتصالهم بنماذج اجرامية من جهة ، وبسبب عزلهم عن النماذج التي تقاوم الاجرام من جهة اخرى ، واى فرد يتشرب حتما الثقافة المحيطة به الا اذا وجد حوله نماذج اخرى في صراع معها . والأسبقية هنا هامة بمعنى ان السلوك القويم الذي يكتشف في الطفولة المبكرة قد يستمر طول الحياة ، كما ان السلوك المنحرف الذي يكتشف في الطفولة المبكرة قد يستمر بدوره طول الحياة . وتبدو اهمية الأسبقية من خلال تاثيرها على الشخص عندما يقف موقف الاختيار .

---

(١٠) سذرلاند وكريسي — الترجمة الفرنسية ص٨٨ ، الترجمة العربية ص ١٠١ .

والنظرة الحديثة الى الجريمة هي اعتبارها مسالة اجتماعية، وتبدى الاهتمام بكل من العاملين البشرى والبيئى ، وهو ما يبدو من الأبحاث الأخيرة التى تقرر بانه لفهم الفرد يحتاج الأمر لفهم طبائعه وظروفه وقت ارتكاب الجريمة وكذلك الوسط الذى نشأ فيه والعوامل التى كان لها الأثر فى بناء شخصيته (١١) . ويتوافر عامل الجريمة فى النظام الكامل المعتاد للفرد فى مجتمعه الخاص . فربط الجريمة بعامل واحد يفتح الباب للنقد من اساسه ، فاذا قيل ان التعطل سبب الجريمة لصح القول بان التعطل يؤدى الى الحياة على نفقة الاقارب ، او قبول الاعانة العامة ، او احتراف التسول او التشرد او السرقة او الانتحار . فالعامل الاقتصادى قد يثير كل هذه الاحتمالات . فلماذا يختار الفرد المتعطل طريقا دون الآخر ؟ والجواب على هذا انه فى كل حالة على حدة يوجد طريق معتاد للحياة يجعل أيا من هذه العوامل يظهر عندما تحين له الفرصة . فالتعطل بديله ليس هو ارتكاب الجريمة وانما العامل الكامن فى طرق الحياة المحيطة بالفرد (١٢) .

ولقد اردنا بما سلف ذكره بيان ان محاولة اسناد السلوك الاجرامى الى عامل واحد ليس من السهل قبوله ، لأن الانسان منذ مولده حتى وفاته تحيط به عوامل عديدة مختلفة الأنواع هى التى تشكل سلوكه فى الحياة . حقيقة قد يكون لأحد هذه العوامل اثر اكبر من غيره ، ولكن لن يتأتى منفردا حتى يؤدى قطعا الى سلوك معين . فاذا قلنا ان المنزل المتصدع من العوامل المؤدية للاجرام فمما لا جدال فيه ان بعضا ممن نشأ فى منازل متصدعة لم يرتكب جريمة . وكل عامل من العوامل التى يتناولها العلماء بالبحث يمكن النظر اليه من وجهتى نظر مختلفتين ، اى باعتباره مؤثرا فى السلوك الاجرامى او غير ذى اثر عليه . واذا كان السلوك الاجرامى ينشأ عن تفاعل عوامل عديدة مع بعضها فقد حاول بعض العلماء وضع تقسيم لتلك العوامل بناء على اسس اتخذوها قاعدة للتقسيم . على انه لما كان من الصعب وضع ضوابط فاصلة بين مختلف عوامل السلوك الاجرامى، فكذلك الشأن بالنسبة الى التقسيمات، وعلى سبيل المثال اذا قلنا ان السلالة عامل يفصل بشخص الفاعل فلا شك ايضا انه يمكن ادراجها ضمن الظروف الاجتماعية اذا نظر اليها من ناحية تقاليدها .

ويوصل بنا كل ما تقدم الى السؤال التالى: ما هو المقصود بالبيئة (١٣) فى نطاق بحث علاقتها بالجريمة ؟ وهل يراد بها معنى واسعا ام نطاقا ضيقا ؟ اى هل يقصد بها المجتمع كله الذى يعيش فيه الفرد ، او المحيط العام الذى تجرى فيه حياته ام الوسط الخاص الصغير الذى ينشأ

---

(١١) نوروود ايست ص ٢١٩ .

(١٢) لنيوم ص ٢١٦ ، وقد ذكر حالة امرأة من متشجان حكم عليها بالحبس لمدة شهر وبدلا من تحمل الحبس قتلت اطفالها الثلاثة وانتحرت ، وهذه الاستجابة تحققت بسبب تحديدها لمعنى الشرف والمهانة وقيمة الحياة . فاذا كانت تؤمن بان الانتحار سوف يدمر روحها وروح اولادها لما كان الانتحار بدلا من المهانة . فالظروف الاجتماعية لوسيلة الحياة هى التى حددت الطريقة .

(١٣) وقد استمد علم البيئة اساسا من علم الاحياء حيث لفت الانتباه الى حقيقة ان مختلف انواع النباتات تتجه نحو النمو معا ــ كالشأن بالنسبة للمجتمعات البشرية ــ ولها بداية مؤقتة لم تتغير نتيجة للتطورات حتى تصل الى صورتها النهائية (برنس ص ٢٥) .

فيه ويتصل به ؟ وفي عبارة أخرى هل يراد بالبيئة الدولة أو جزء منها أم المنطقة التي يعيش فيها أم وسط ضيق سواء تمثل في أسرة أو مدرسة أو عمل ؟ ومما ينبغي التنويه إليه ابتداء من جميع الاتجاهات التي حاولت أن ترد الجريمة إلى عوامل محددة لم تغفل وجود مسحة من أثر الجماعة أو الظروف الاجتماعية على أي من تلك العوامل . فالعامل الجغرافي سواء تعلق بالشتاء أو الصيف لا يمكن نزعه من المجتمع الذي يعمل أثره فيه . وقد ينتهي بنا هذا إلى دراسة جميع عوامل الجريمة إما باعتبارها نتاج البيئة بوجه عام أو أن البيئة تؤثر فيه بشكل أو آخر . مع أننا في مجال هذه الدراسة نقتصر على عوامل الجريمة ذات الصلة المباشرة بالبيئة .

وقد حاول بعض العلماء تقسيم البيئة إلى بيئة جغرافية وأخرى اجتماعية وكذلك إلى بيئة عامة وأخرى خاصة . والبيئة الجغرافية هي التي يعيش فيها الانسان وتتعلق بالجو والفصول والرياح ، وأن أثرها بالنسبة إلى الانسان ثانوي، إلا أنه لا يمكن فصلها عن البيئة الاجتماعية . والبيئة الاجتماعية يقصد بها التعمق في الظروف المدرسية والثقافية والاقتصادية . وهذه البيئة قد تكون عامة ، أي تشمل الظروف العامة لوسط معين له تأثير على كل الأفراد في هذا الوسط ، وقد تكون بيئة خاصة يبين أثرها الواضح على الفرد بذاته بصورة جلية . والبيئة الخاصة يمكن تقسيمها إلى أقسام ثلاثة (١٤) ، **الأول** بيئة لا اختيار للفرد منها وهي التي تتصل بالأسرة ، فالطفل يتبع المكان الذي يوجد فيه . **والقسم الثاني** هو البيئة العارضة ومثالها المدرسة والمصنع وأداء الخدمة العسكرية والمؤسسة حين إدانة الشخص ، فحياة الانسان عبارة عن خطوات لا يستطيع التخلص منها كقاعدة عامة ، وتلك الخطوات تترك بصماتها على الفرد . وأخيرا **الوسط المختار** أو المقبول حيث يختارها الفرد في فترة المراهقة والبلوغ أو يرضى عنها حيث يقيم بها . ويدخل في هذا أيضا الأصدقاء الذين يختارهم الشخص وقد يكون لهم أثرهم في السلوك الاجرامي وعلى وجه الخصوص تكوين العصابات (١٥) .

وفي سبيل دراسة البيئة والجريمة يتعين علينا تحديد غاية هذه الدراسة والفكرة التي تقوم عليها . فالانسان بطبيعة الحال أينما كان لابد وأن يوجد في جماعة معينة يعيش معها أو يعايشها ، على أن ظروف الحياة قد تقتضيه التنقل من ذلك المكان ، ولكنه غالبا ما يعود إليه ، ومن هنا كان المكان أكثرها التصاقا بشخصه ، وهو يتأثر به ويؤثر فيه . ولما كان السلوك الاجرامي يعتبر نتيجة لعمليات انسانية ونفسية داخل الفرد فلابد أن يكون لها جذورها في حياته السابقة ، وهذه

---

(١٤) راجع في هذا الصدد ستيفاني وآخرين ص ٩٤ وما بعدها ، وكذلك بنائل ص ٥٧ وما بعدها وهو يقول إن البيئة في المعنى الدارج تفيد الوسط الخارجي المحيط بالشخص ولكن المتخصصين يؤكدون في تحديد البيئة على الدور الايجابي الذي يلعبه الوسط في صدد كل كائن يشعر لتحت سلطانه، وقد أدخل علم الاجتماع الحديث في تعريفه للوسط عنصرا جديدا يقتصر على الانسان دون غيره من الكائنات . ويذهب ارنست سيلج (ص٦ و ١٨٦) إلى أن الأسباب المباشرة للجريمة تتركز في عنصرين الأول البيئة والآخر شخصية الجاني ، والبيئة تعني الظروف القائمة وقت ارتكاب الجريمة وتؤدي إلى الفعل وتجعل تنفيذه ممكنا أو يمتنع عن التنفيذ ، أما شخصية الجاني حين ارتكاب الجريمة فإنها تتألف من مكونات شخصيته في الحياة .

(١٥) ستيفاني بند ١٠٠ .

الجذور تستوحى من المكان الذى يعيش فيه ، فهو يعرف عنه ما لا يعرفه عن مكان آخر ويتجاوب معه عاطفيا بما لا يحدث له فى غيره . ويلزم أن يكون هنالك نوع من الاتصال المستقر الثابت الذى يعطى فرصة كافية للقيم او النماذج السلوكية لترسخ فى نفس الفرد . وهذه القيم والنماذج السلوكية هى التى تحدد الطريق الذى يختاره الفرد فى حياته . وعند تحديد معالم المكان الذى يكون له ذلك الأثر فى الانسان فانه يعتبر بيئة له . على ان هذا لا يعنى أن تكون البيئة هى المكان الذى يقيم فيه الشخص دواما فلا يبرحه ، بل على العكس ان مقياسها هو درجة ما تتركه بصماتها على السلوك طالت مدة وجوده به أم قصرت . وعلى سبيل المثال يمكن اعتبار فترة الدراسة فى احدى مراحل التعليم بيئة للفرد خلال جزء من حياته لما تتركه من آثار فى نفسه تنعكس على سلوكه .

وتمشيا مع سير الأمور الطبيعى فى الحياة يمكن أن ينطوى تحت مصطلح البيئة ، الاسرة والمدرسة والعمل والطريق والحى الذى يوجد فيه الشخص والريف والحضر ، وجغرافية المنطقة من ناحية الجو وما يتبعه من مواسم زراعية أو تضاريس اليابس والماء ذاتها ؛ لأن كلا من هذه العناصر قد يترك بصمته بصورة أو بأخرى على سلوك الفرد بصفة عامة ، والذى قد يكون اجراميا .

واذا اردنا أن تكون لهذه الدراسة صورة واقعية ، فاننا نستعين بالأدوات المتاحة لذلك وهى الاحصائيات الجنائية التى ترسم حقيقة الجريمة وحجمها ، وعن طريقها يمكن الوصول الى العوامل المتصلة بالبيئة ، وفى معرفتها ما قد يسهل البحث بعد ذلك فى كيفية مقاومتها للتغلب عليها ، وبذا يكون الاقلال من حجم الجريمة . هذا مع التنويه بما يوجه الى الاحصائيات الجنائية من نقد ، حيث تعتبر ارقامها تقريبية وتعطى مجرد مؤشر للباحث (١٦) .

ولقد تناولت دراسات الجريمة فى البيئة صورتى الريف والحضر مع العناية بتحديد تلك الأماكن من الدولة وبيان صور الاجرام وحجمه وعوامله وخطورته فى المدن الصغيرة منها والكبيرة ، مع مقابلة بينهما على اساس من نسبة تعداد السكان .

ومشكلة الجريمة فى المدينة الكبيرة أكثر تعقيدا حيث لوحظ وجود مناطق خاصة ذات ثقافة اجرامية عالية لا سيما فى اطراف المدن بالقرب من المناطق الصناعية حيث يستقر المهاجرون ، كما تبين تنوع صور الجريمة حسب موقعها من المدينة . وهذه الدراسات تقوم على أساس من البيئة الخاصة التى يختارها الباحث . واهتداء بهذا الاتجاه فان البيئة العربية سواء فى جمهورية مصر العربية أو غيرها تختلف عن البيئة فى الدول الأجنبية المتقدمة ، وعلى سبيل المثال فان مصر ما تزال ـ رغم تقدم بعض الصناعات ـ تعتمد أساسا على الثروة الزراعية فى حين أن الصناعات متقدمة فى الدول الغربية بدرجة مذهلة ، وكان من الطبيعى ان تختلف صورة الجريمة عندنا عن تلك التى تتوافر لديهم .

---

(١٦) حسن المرصفاوي ـ ص ٥٤ .

ويذهب بعض العلماء الى القول بان الفوارق بين الاجرام في الريف والاجرام في الحضر سوف تقل بمرور الايام بسبب تقدم المدنية في الحياة الحديثة ، لسهولة المواصلات بين البلاد وانتشار وسائل الاعلام واثرها في العلاقات بين الناس وبالتالي في الاجرام . وهذا القول ان كان فيه بعض الحقيقة الا ان هذا التغيير يراد به ان يشتد التقارب بين الريف والحضر ، وهو يحتاج في مصر بالذات الى اجيال عدة . ويرجع هذا الى ان العماد الاساسي لغالبية الشعب في عمله هو الزراعة ، وهذه مسالة خلقتها الطبيعة ولن تغيرها الايام ، وقد نشأ الفلاحون وتربوا على تقاليد تمتد جذورها الى آلاف السنين ، وليس من اليسير تغييرها مهما امتدت وسائل المدنية الى اقصى القرى ، لان المطلوب هو تغيير النفس البشرية . وايّما نذهب اليه هو ما كشفت عنه الاحصائيات الجنائية بوضوح حيث تبين ان الجرائم الدموية التي يعتدى فيها على الأشخاص تمثلت في الريف في العشرينات والثلاثينات والأربعينات والسبعينات ، والجرائم التي يكون موضوعها المال ويراد بها الكسب هي سمة اجرام المدنية .

ويبين الجدول التالي جنايات القتل العمد والشروع فيه خلال السنوات ١٩٣٨ ، ١٩٤٨ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٤ ، وذلك وفقا لما وقع منها في محافظتي القاهرة والاسكندرية ، ثم محافظات الوجه البحري ومحافظات الوجه القبلي :

السنة / المكان	١٩٣٨	١٩٤٨	١٩٥٨	١٩٦٨	١٩٧٤
القاهرة والاسكندرية	٢٩٩	٢٦٣	١٩٢	١٧٨	١٢٩
الوجه البحري	١١٣٧	٧٧٩	٨٨٧	٢١٥	٣٥٣
الوجه القبلي	١٨٧٠	١٤٥٨	١٨٣٣	٧٢٩	٧٧١

ويكشف هذا الجدول من انه الى حوالي اربعين عاما مضت زادت جنايات القتل العمد والشروع فيه في الوجه القبلي عنها في الوجه البحري ، رغم تدرجها الى خاصية النزول في كل من الوجهين البحري والقبلي ومحافظتي القاهرة والاسكندرية . هذا مع ملاحظة ان تعداد سكان الوجه البحري يزيد على عدد سكان الوجه القبلي ، ويمكن رد النتيجة التي تتبين من الجدول الى عادة الثار التي ما تزال قائمة بين اهالي البلاد ، ويتضح هذا من الاحصاء الجنائي الذي يوضح الدوافع التي تبرز خلف جرائم القتل . وبمراجعة جدول جنايات القتل العمد والشروع فيه خلال السنوات ١٩٢٧ حتى ١٩٣٢ في بعض بلاد الحضر والريف ـ والذي يأتي بيانه ـ يتضح ان الجزء الاكبر من هذه الجرائم ما زال مسيطرا على المناطق الريفية . ونتناول فيما يلي عوامل الجريمة ذات الصلة المباشرة في البيئة .

•••

عوامل طبيعة البيئة .

نقصد بطبيعة البيئة ما تختص به منطقة معينة من ظروف خلقها الله سبحانه وتعالى ولا دخل لارادة الانسان فيها ، ويمكن اعتبار العوامل الطبيعية في ذات الوقت عوامل جغرافية . ويندرج تحت تلك العوامل جغرافية الارض من ناحية اليابس والماء والسهول والمرتفعات ، وتعاقب الليل والنهار ، وحرارة الجو وبرودته ، والامطار والجفاف بما يترتب على هذا من المواسم الزراعية .

ولقد استلفتت حرارة الجو وبرودته وآثارها على الجريمة انظار الباحثين ، وقيل ان الجو الحار يساعد على توتر الاعصاب ويضيف تحكم الانسان في ارادته لما يصنعه من ضيق في التنفس ، فتكون انعكاسات الظروف التي تتصل بالفرد سريعة دون ترو او تفكير ، وعنيفة تخرج عن التقدير المالوف ، هذا اذا كانت درجة الحرارة في حدود المعقول ، اما اذا زادت عما يتحمله الانسان عادة فان اثرها يكون عكسيا ، اذ يترتب عليها الخمول وقلة الحركة ، وقليلا ما يسلك الفرد سلوكا عدوانيا ، وفي الجو البارد تنعكس الآية فتكون اعصاب الانسان اكثر هدوءا وتصرفاته اكثر اندفاعا ، بل ان البرد في حد ذاته ، اذا زاد عن المالوف ، يدفع الفرد الى الانزواء في الاماكن الدافئة ، ومن ثم يقل اتصاله بالناس ، وتبعا لذلك يقل الاحتكاك الذي قد يؤدي الى السلوك الاجرامي .

وهذا الذي سقناه انما يخص الجرائم التي تمس سلامة الجسم ، كالقتل والضرب ، وتنعكس الآية بالنسبة الى جرائم الاعتداء على المال ، فهي تقل في الجو الحار وتزيد في الجو البارد ، وبمعنى آخر تقل في شهور الصيف وتزيد في شهور الشتاء ، ذلك ان حرارة الجو من شانها ان تقلل من نوم الافراد ، الامر الذي يجعل الظروف غير مواتية لارتكاب الجرائم ضد المال ، وعلى وجه الخصوص جرائم السرقات . اما برودة الجو في الشتاء فان الليل وانكماش الناس طلبا للدفء يتيح الفرصة للمجرمين ـ لا سيما اللصوص ـ لارتكاب جرائمهم .

ومع هذا فانه لا يمكن القطع بان حرارة الجو او برودته عامل اساسي في الاجرام ، وانما قد تكون طرفا مساعدا له يرتبط بغيره من الظروف التي تؤدي الى الجريمة . فاذا كانت بعض الابحاث قد اثبتت زيادة الجرائم ضد الاشخاص في الصيف وزيادة الجرائم ضد الاموال في الشتاء بما يتفق مع اثر الحرارة في خط سير الجريمة ، فهناك من يقول بان الجرائم تزيد في الصيف لان الناس اكثر اتصالا في الصيف مع بعضهم ، الامر الذي يدعو لبحث ما اذا كانت للحرارة آثار على البناء الانساني ، ثم ياتي بعد هذا البحث الاكثر اهمية وهو قيام الصعوبة في وسيلة التغلب على هذا التاثير على البناء الانساني (١٧) .

واذا نظرنا الى واقع مصر وجدنا ان جوها بصفة عامة معتدل ، ومع هذا فان جو الصيف يعد حارا نسبيا في حين ان الشتاء متميز بالبرودة نسبيا ، هذا فضلا عن ان الجو في بلاد الوجه

---

(١٧) برنس ص ٢٥ .

البحري أقل حرارة عن بلاد الوجه القبلي . ولا ينبغي علينا ان نغفل في هذا المقام عادات اهل البلاد من تركهم لدورهم في الصيف والمبيت على اسطحها مما يترتب عليه سهولة اقتناص الفريسة في جرائم القتل اخذا بالثار ، وصعوبة ارتكاب السرقات حيث يصعب على اللص الوصول الى داخل الدار، كل هذا بعكس الشتاء .

ولو اردنا ترجمة اثر حرارة الجو في ارتكاب جريمة القتل العمد على اساس ما يقع بالمحافظات في مصر بالوجهين البحري والقبلي من جرائم لتبين من الاحصائيات الجنائية ان جنايات القتل والضرب المفضي الى الموت ، والضرب الذي تنشأ منه عاهة مستديمة غالبا ما تقع في شهور الصيف ، كما أن نسبتها في محافظات الوجه القبلي اعلى منها في محافظات الوجه البحري . الا انه لا يمكن اسناد هذه الظاهرة الى حرارة الجو وحدها ، ذلك ان هناك من الزراعات خلال شهور يوليو واغسطس وسبتمبر ما يكون عاليا ويساعد على اقتناص المجني عليه كما يساعد على هروب الجاني ، بعكس باقي شهور السنة ، ولايجب ان ننسى عواقب الثار وما يقتضيه من ارتكاب جرائم القتل في المواسم والاعياد الدينية ، وعرف الثار هو الذي جعل جنايات القتل العمد تزيد في الوجه القبلي عنها في الوجه البحري . اما بالنسبة الى جرائم المال فلا يمكن ان يستشف من الاحصائيات قاعدة عامة يمكن ربطها بحرارة الجو او برودته ، ومما يستلفت النظر في الاحصائيات ارتفاع نسبة الجرائم الجنسية في الجو المعتدل .

ولعل اقل عوامل الطبيعة تاثيرا في وقوع الجريمة هو وقت وقوعها ، فهي تحدث في اية ساعة من ساعات الليل او النهار . ومع هذا فان هناك من الجرائم ما يكون اختيار الجاني لوقت ارتكابها ليلا مما يساعده على اتمامها في الخفاء والافلات من يد العدالة ، فالليل هو وقت الهدوء والنوم للناس بعد عنائهم من العمل ، يعمل فيه المجرمون وهم في مامن كبير من اعين الرقباء ، وليست الجرائم على درجة واحدة من اختيار الليل لارتكابها وانما يختلف الامر وفقا لموضوع الجريمة . فالجرائم التي يراد منها الاعتداء على الاشخاص لن يوفر الليل لها ظرفا خاصا الا في صور مستثناة ابرزها القتل اخذا بالثار او انتقاما ، ولهذا يستوى ان يقع في الليل او في النهار . أما الجرائم التي يكون موضوعها الاعتداء على المال فان الجاني غالبا ما يتخذ من الليل ستارا لارتكاب فعلته ، وهو ما حدا بالمشرع الى اعتبار الليل ظرفا مشددا في تلك الجرائم .

ويبين من الاحصائيات الجنائية في مصر عن السنوات من ١٩٦٧ حتى ١٩٧٤ ان جنايات القتل العمد والخطف تزيد نهارا منها ليلا ، وان جنايات السرقة وجنايات الحريق وجنح السرقة تزيد ليلا منها نهارا ، وهو امر ملاحظ بصفة مضطردة خلال الخمس سنوات السابقة . على ان هذا لا يقطع باثر ظرف الليل على تلك الجرائم ، فلقد كان الأمر مغايرا لما تقدم في الثلاثينات بالنسبة لجرائم القتل العمد ، فلقد بلغ مجموع ما وقع فيها ليلا في السنوات العشر من ١٩٣٠ حتى ١٩٣٩ أكثر من ضعف مجموع الجنايات نهارا ، ثم انه فضلا عما تقدم فان النهار ـ ونقصد به فترة انتشار الضوء ـ يطول كثيرا بالنسبة الى الليل ـ اى وقت الاظلام ـ خلال شهور الصيف ، على العكس من شهور الشتاء ، وهو ما ينبغي ان يؤخذ في الاعتبار عند حساب عدد الجرائم .

ويعنينا على وجه الخصوص العلاقة بين طبيعة البيئة والجريمة في المواسم الزراعية والطبيعة الجغرافية للأرض .

المواسم الزراعية :

تعتمد مصر في الجانب الأكبر من اقتصادها على الانتاج الزراعي، وغالبية سكانها من الفلاحين الذين يعتمدون في حياتهم على الزراعة ، وتتم الزراعة في مصر في ثلاث دورات رئيسية : الصيفي والقبلي والشتوي ، وتعتمد الأراضي الزراعية في ريها على مياه النيل ، واذا كان عماد الفلاح في حياته على الزراعة ، وحياة الزراعة متوقفة على الماء ، لتصورنا مدى اثر الزراعة والمياه في حياة الفلاح . والزراعة في مصر قد تكون سببا مباشرا للجريمة ، وهي كذلك ظرف مهيء لارتكاب الجرائم .

فالفلاح المصري يحرص على زراعته حرصه على حياته، واي ضرر او اذى يصيبها انما يصيبه في قوام معيشته ، والعدوان على زراعة الفلاح يتمثل في قطعة الأرض التي يقوم بزراعتها والحياة التي تستخدم في ريها . والرقعة الزراعية في مصر محدودة ولا تتجاوز ٤ ٪ من مساحة الدولة كلها . ولهذا فان ما يضع الفلاح يده عليها منها يحرص ويتفانى في المحافظة عليه ، واي مساس بالأرض التي يزرعها يدفع به الى حمايتها لدرجة ارتكاب اخطر الجرائم . ويتمثل ذلك المساس في صورة من اثنتين **الاولى** منهما محاولة من جانب المالك او نحوه رفع يده عن ارضه لأي سبب من الاسباب المشروعة وغير المشروعة ، **والصورة الاخرى** محاولة بعض الجيران الافتئات على الحدود للأراضي الزراعية ، وضم بعض الأرض الى الجزء من الأرض الذي يحوزه .

اما بالنسبة الى مياه الري فانه الى ما قبل اقامة السد العالي كان هناك موسم فيضان النيل حيث تتوافر المياه فيستطيع كل فلاح ري ارضه في يسر وسهولة ، وهناك الموسم المقابل الذي تقل فيه المياه وتقوم فيه الحكومة بتوزيع مياه الري على البلاد في فترات محددة، في خلال تلك الفترات التي كثيرا ما تكون قصيرة فيحصل التزاحم بين الفلاحين حول اسبقية الري ، ومن الطبيعي ان يحصل الخلاف حول هذا الامر الحيوي الهام الذي قد يتطور الى معارك تنشأ عنها اخطر الجرائم .

هذا عدا ما يمكن ان يحدث من جرائم لأسباب اخرى ، كالخلاف حول قيمة الايجار او المزارعة ، او طرد مستأجر من ارضه ، او توقيع حجوزات على المحصولات الزراعية ، او الخلاف حول استخدام ادوات الزراعة او ادوات الري كالآلات الميكانيكية او ادوات رفع المياه . وقد تكون الماشية التي تستخدم في الزراعة سببا لبعض الجرائم ، لا سيما عند الخلاف على استعمالها ؛ بل قد تكون هي بذاتها موضوعا لجريمة ، كالاضرار بها ضررا جسيما او قتلها .

والمواسم الزراعية هي بدورها عامل مهيء للاجرام، ففي شهور الصيف على وجه الخصوص يكون انتاج بعض المحصولات الزراعية والاعداد لانواع اخرى من الزراعة . ولهذا فانه اذا كان

قد سبق القول بأن حرارة الجو فى شهورالصيف من عوامل الاجرام فان الظروف الزراعية بدورها تعد من عوامله . ففى شهر مايو يكون حصـادالقمح ووضعه فى الأجران تمهيدا لعملية فصـل حبه من قشه ، وتكون الفرصة موائية حينئـذلارتكاب جرائم الحريق ، لا سيما ما كان منهـا انتقاما ، وسرقة المحصولات ، بل والقتل ، حيث يتيسر اقتناص المجنى عليهم بسبب عادة الفلاحين بالمبيت فى الأجران اثناء جمع المحاصيل . وفى شهر مايو ايضا تكون شجيرات القطن قد اخـذت تكسو الأرض ويكون اشد ما يصيب الفلاح اتلافها انتقاما . وفى اغسطس وسبتمبر يجنى القـطن ويحصد الذرة ، مما يسفر عن ارتكاب اخطـرجرائم السرقات بالنسبة الى محصول القطـن ، وكثيرا ما تكون مصحوبة بجرائم القتل نتيجـةللمقاومة . وفى فترات بذر البذور يكون الخلاف بين الفلاحين ، لا سيما حول الحدود ، بما يؤدى الى اخطر الجرائم ، فيبذر الذرة الشـامى فى سبتمبر ويبذر القمح والفول والبرسيم فى اكتوبر . ومما يلاحظ ايضا ان الذرة الصيفية خلال يونيو ويوليو واغسطس تكون متكاثفة الاعـواد طويلةالسيقان ، ويقابلها فى موسم الشتاء زراعةالقصب الذى يغرس فى مارس وابريل ويحصد فى ديسمبرفى الوجه القبلى . فالسيقان الطويلة تساعد على ارتكاب جرائم القتل حيث يتيسر للجناة الاختفاءبها والهرب بعد ارتكاب الجريمة ، كما ان هـذه الحقول تكون موضوعا لجرائم الحريق .

ويعطى الجدول التالى صورة عن جنايات الحريق العمد خـلال السنوات ١٩٧٢ و ١٩٧٣ و ١٩٧٤ (١٨) :

السنة	مجموع الجرائم	وقت الجريمة		الاتهام		أعلى شهور السنة مرتبة تنازليا			مكان الحريق تنازليا			محل وقوع الجريمة تنازليا		
		نهارا	ليلا	مجهول	معلوم	١	٢	٣	١	٢	٣	١	٢	٣
١٩٧٢	٧٨	٣٥	٤٣	٤٦	٣٢	مايو	يونيه	يوليو	مسكن	مزارع	شركة	أثاث	محاصيل زراعية	مسكن
١٩٧٣	٦٦	٢٢	٤٤	٤٣	٢٣	مايو	ابريل	يوليو	مسكن	مزارع	شركة	أثاث	محاصيل زراعية	مسكن
١٩٧٤	٣٧	١٣	٢٤	٢٥	١٢	مايو	يناير	يونيه	مسكن	شركة	مزارع	أثاث	مدارسية	بضائع

واعلى نسبة لحرفة المتهمين هي للمشتغلين بالاعمال الزراعية والصيد فى البحر والبر واعمال الغابة ومن اليهم ، ويعدهم اصحاب الحـرف والصناع والعمال والمشتغلين فى عملية الانتـاج والفعلة والعتالين ، والذين لم يصنفوا فى مكان آخر .

---

(١٨) راجع تقارير الامن العام فى مصر عن السنوات المشار اليها بالمتن .

يتضح من الجدول آنف البيان ان صورجريمة القتل العمد تحتل المزارع بالنسبة الى المكان المركز الثانى او الثالث ، وان موضوع الجريمة وكونه محاصيل زراعية يحتل بدوره المركز الثانى ، وان الجريمة غالبا ما تقع فى شهور الصيف ، الأمر الذى يدل على وجود علاقة كبيرة بين المواسم الزراعية وانتاج الحاصلات وجريمة الحريق .

ولا تختلف الصورة بالنسبة الى جناية اتلاف المزروعات وفق الجدول التالى :

السنة	مجموع الجنايات	وقت الجريمة: ليلا	وقت الجريمة: نهارا	الاتهام: مجهول	الاتهام: معلوم	أعلى شهور السنة تنازليا: ١	٢	٣
١٩٧٢	٧	٧	–	٦	١	يوليو	أغسطس	سبتمبر
١٩٧٣	١٧	١٦	١	١٥	٢	يوليو	يونيو	ابريل
١٩٧٤	٧	٦	١	٦	١	أغسطس	يوليو	مايو

ويتضح من هذا الجدول ان شهور المواسم الزراعية هي التي تقع فيها جرائم اتلاف المزروعات ، وان المتهمين ان لم يكونوا كلهم ممن المشتغلين بالاعمال الزراعية فانهم يمثلون الغالبية، والجزء الاكبر من جنايات اتلاف المزروعات يتم ليلا ، ولذلك فان الاتهام فيها يكون نادرا او غالبا ما تحفظ القضايا مؤقتا لعدم معرفة الفاعل .

وضيق رقعة الارض الزراعية ، وما يتركه من اثر فى الحياة الاقتصادية ربط بينه وبين نوع من الزراعات طويلة السيقان ، وافرخ نوعا معينا من الجرائم هي جرائم الخطف ابتغاء الحصول على فدية من ذوى المجنى عليه . وقد تركزت جنايات الخطف فى مصر فى محافظات المنيا واسيوط وسوهاج وقتا بوجه خاص ، حيث تكونت عصابات الخطف المسلحة التي يهدف افرادها الحصول على المال ، وغالبية المجنى عليهم فى تلك الجرائم من البالغين، وتتراوح الفدية للافراج من المخطوف بين مائة والف جنيه . وقد ساعدت انواع معينة من الزراعات ذات السيقان الطويلة على نشأة ما يسمى بالعصابات الموسمية حيث توجد فى مواسم زراعية معينة وتنتهي بانتهاء الموسم . ويسهل اختفاء الجناة واخفاء المجنى عليهم فى تلك الزراعات ، كزراعات القصب فى محافظة قنا وزراعات الذرة فى محافظتى اسيوط وسوهاج (١٩) .

والى جوار هذا توجد العصابات المحترفة التى تتكون من بعض الخارجين على القانون وتبقى بصفة دائمة ، يستغلون بدورهم المواسم الزراعية فى ارتكاب جرائم الخطف ، ويعتصمون بالجبال حيث يقيمون اقامة دائمة . وهي تتركز فى محافظتى اسيوط وسوهاج . ويحول مكان اقامتهم

(١٩) زكريا مصطفى طه ـ ص ١٩ ، ٢٥ .

دون وصول رجال الشرطة اليهم بسبب وجود المغارات والدروب التي يجهلونها ، والتي يعتصم بها المجرمون ويقيمون في أعلى الجبال ، حتى تستهلك مطاردتهم جهدا كبيرا من رجال الامن ، ويستطيعون من أماكنهم السيطرة على كل قوة مهاجمة لهم (٢٠) .

جغرافية البيئة :

الانسان هو الشق الاصلي في الظاهرة الاجرامية وهو العامل المحرك للحدث المكون للشق الثاني ، اي الجريمة حسبما وقعت في المحيط الخارجي، والانسان وليد البيئة والظروف المحيطة به، بمعنى ان ظروف البيئة هي التي تهيء السلوك الانساني على نحو معين ، لدرجة انه يمكن القول بأن تغير الظروف من شأنه ان يؤدي بدوره الى تغير السلوك الانساني سواء في هذا أكان سلوكا حميدا او سلوكا غير قويم . والانسان في هذا الصدد شأنه شأن بذرة النبات فانها ان وضعت في الارض فقد تصادف تربة صالحة تتفاعل معها وتنبت وتستوي نباتا سليما ، او لا تصادف هذه التربة فتنشأ معتلة ان لم يقدر لها عدم النبت اطلاقا بسبب عدم ملاءمة الظروف التي وجدت فيها . وكما يقال ان لكل بيئة او مجتمع الجريمة التي تتوافق معه .

واعمال القاعدة آنفة البيان لا بد وان ينتهي بنا الى ان الانسان لو شاء له قدره ان يسلك سبيل الجريمة فان اختيار نوعيتها يكون متوائما مع طبيعة المكان الذي يوجد فيه والظروف المحيطة به . فمثلا اذا كان الفرد يشتغل بالاعمال الزراعية فان الجرائم التي يرتكبها تكون في نطاق تلك الاعمال ، ومن هذا القبيل بالنسبة الى جرائم الاعتداء على المال جرائم اتلاف المزروعات وطريق المحصولات . واذا كان الشخص عاملا فنيا ذهبت جرائمه نحو الاعمال الصناعية التي تتعلق بالمصانع الصغيرة والورش ، واذا كان يعمل بالخدمة لدى الافراد كانت جريمته في غالب الاحيان سرقة مال مخدومه .

ومما يتصل بالبيئة في صدد تحديد السلوك الاجرامي الذي يتخذه الشخص هي الطبيعة الجغرافية للبيئة التي يوجد فيها ونقصد بها طبيعة الارض، وما اذا كانت زراعية ام صحراوية او مسطحات من المياه (٢١) ، وكذلك يراد بذلك الموقع من حدود الدولة لما يساعده من وقوع نوع خاص من الجرائم . ولقد سبق ان اشرنا عند الكلام على جريمة الخطف كيف يتخذ الجناة من البيئة الزراعية السيقان الطويلة لارتكاب الجريمة، ومن الجبال والمغارات اماكن اخفاء المجني عليهم واختفائهم هم عن اعين رجال الامن ومقاومة كل من يتصدى لقهرهم . وقد لاحظنا ان جريمة الخطف استيفاء اقتضاء فدية تتركز في المحافظات المتاخمة للمناطق الجبلية .

---

(٢٠) ومن بين تلك العصابات عصابة الخطف في اسيوط سنة ١٩٤٥ ، وعصابة حامد الاعمى بمحافظة سوهاج سنة ١٩٤٦ ، وعصابة مصطفى هاشم رشيد الصعيدي بمحافظة سوهاج سنة ١٩٥٦ الى سنة ١٩٦١ (المرجع السابق ص ٢٩).

(٢١) فعلى ما سبق القول لفت كاتليه النظر الى جغرافية الجريمة وطريقة الحياة والتفكير العام وانها تختلف في الجبال عنها في السهول الزراعية او المناطق البحرية حيث يوجد جمهور الصيادين (ستيفاني وليفاسير ص ٨٠) .

واذا كانت غالبية سكان جمهورية مصر العربية يعتمدون فى وادى النيل – اى فى الارض الزراعية على شاطىء النيل – والجرائم التى ترتكب من بعض افراده اما ان تتسم بطابع الريف او تكون من جرائم الحضر ، فانه الى جوار هذا يوجد فريق من السكان يقيمون فى الصحراء أو هم على حدود المناطق الزراعية ، وكذلك يقيم فريق آخر على شواطىء البحيرات الواقعة فى شمال الجمهورية ، وتطبع الطبيعة الجغرافية لتلك المناطق نوعية الجرائم التى ترتكب فيها ، وآية هذا دراسة من سمات الجريمة فى محافظة البحيرة واخرى لسمات الجريمة فى بحيرة المنزلة.

تتميز محافظة البحيرة بجمهورية مصر العربية (٢٢) بانها تضم داخل حدودها منطقة ساحلية متصلة بالبحر الابيض المتوسط ، واخرى زراعية تتصل بباقى الاراضى الزراعية الدلتا ، وثالثة صحراوية كمدخل للصحراء الغربية ، ولهذه المحافظة خاصية اخرى حيث تعتبر منطقة هجرة داخلية حيث يجرى فيها استصلاح الاراضى القابلة للزراعة ، ويوجد بها بحيرتان متسعتان هما بحيرتا ادكو ومريوط . ومن الطبيعى ان يترتب على هذه الطبيعة المختلفة فى جغرافية الارض وجود فئات من السكان يختلف عمل البعض منهم من الآخر ، فكما يوجد الفلاحون يوجد البدو ، وكذلك نجد من يشتغل باعمال الصناعة المختلفة التى قامت فى هذه المنطقة .

ويعنينا فى محافظة البحيرة الاقليم الصحراوى منها الذى يقطنه نوعان من القبائل ، قبائل مستقرة وقبائل رحل ، وهم جميعا يغلب عليهم الفقر بسبب ضيق مصادر الرزق ، ومن ثم فهم غالبا لا يستقرون فى مكان وان كانوا يتمسكون دواما بانتسابهم القبلى وخضوعهم لعرف القبيلة وبعدهم عن اجهزة الدولة ، ومن ثم تتسم جرائمهم بالطابع القبلى والمتفق مع جغرافية الصحراء . هذا وقد ظهر من استقراء الحوادث فى تلك البيئة الصحراوية (٢٣) ان جرائم القتل والشروع فيه ترجع دوافعها الى السرقة او الثأر او النزاع الطارىء او النزاع على الارض ، وغالبيتها من نوع الجرائم الانتقامية . وكانت طبيعة هذه المحافظة ومشروعات استصلاح الاراضى الصحراوية وزراعتها مما دعا الى تهجير عديد من الافراد وعمال التراحيل اليها لاسيما بعد حرب ١٩٦٧ ، وادى هذا الى ازدياد مستمر فى معدل جرائم القتل العمد والشروع فيه والضرب المفضى الى الموت والذى ينشا عنه عاهة مستديمة والسرقات بالاكراه والحريق العمد والاختلاس .

وابرز الجنايات وضوحا فى جغرافية محافظة البحيرة هى جنايات سرقات الاسلاك والكابلات ، حيث كان عددها ست جنايات عام ١٩٧١ واصبحت ١٥ جناية عام ١٩٧٢ و ٢٠ جناية عام ١٩٧٣ ثم نقصت الى ٥ جنايات عام ١٩٧٤ . وترجع تلك الجرائم الى اتساع رقعة المحافظة ومتاخمة حدودها لخمس محافظات ، وامتداد الاسلاك التليفونية والكابلات لمسافات طويلة فى مناطق

---

(٢٢) عبد العزيز محمد القطنى ص ٣٦ .

(٢٣) عبد العزيز محمد القطنى ص ٤١ .

غير آهلة بالسكان ، ويصعب وضع حراسة عليها بالامكانيات المحلية ، ودخول الكهرباء لبعض قرى المحافظة مما دفع بعض العمال الى سرقة الاسلاك التليفونية واستخدامها فى توصيل الكهرباء لمنازل بعض المقيمين بتلك القرى .

ويبدو الرجغرافية المحافظة على وجه خاص فى صدد اتصالها بحدود الصحراء الغربية ، حيث تكون هى المدخل لارتكاب جرائم المخدرات لا سيما جلب المواد المخدرة ، ويبين هذا بوضوح من مقارنة تقريبية لجنايات المخدرات فى محافظات البحيرة والشرقية والاسكندرية لاتصالها بالحدود ، وبين محافظات القليوبية وكفر الشيخ والمنوفية وبنى سويف والمنيا خلال عامى ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ .

السنة / المحافظة	١٩٧٣	١٩٧٤
البحيرة	١١٤	١١٤
الشرقية	٣٤٤	٢٩٨
الاسكندرية	٤٠٢	٤٠٣
القليوبية	١٢٨	٨٣
كفر الشيخ	٥٣	٣٠
المنوفية	٧٠	٦٦
بنى سويف	٤١	٣٨
المنيا	٨٩	٥٩
قنا	٦١	٦٢

والمثال الثانى لاثر البيئة فى السلوك الاجرامى يتضح من دراسة سمات الجريمة فى بحيرة المنزلة . فهذه البحيرة التى تزيد مساحتها على ثلاثمائة الف فدان تم تجفيف جزء صغير منها ، وتدخل فى حدود خمس محافظات بمصر الشرقية والدقهلية ودمياط وبورسعيد والاسماعيلية ، ويوجد داخل البحيرة العديد من الجزر الطينية والرملية . وتنمو النباتات بكثرة فى الاراضى المحيطة بالبحيرة فى حزام عريض يغطيه الماء على شاطىء البحيرة ومثبتة فى القاع فضلا عن نباتات طافية على سطح البحيرة . وهناك عديد من انواع الطيور المائية وهذه قد تكون من عوامل السلوك الاجرامى بسبب التنافس على صيدها باعتبارها موردا للرزق كالشان بالنسبة لاسماك البحيرة . ونظرا للطبيعة الخاصة لبحيرة المنزلة كان من الضرورى ان تكون سمات الجريمة متوائمة مع تلك البيئة وهو ما يتضح من النقاط التالية .

ترتكب أغلب جرائم القتل على سطح الماء حيث يتم اخفاء الجثة فى باطن البحيرة بعد تنفيذ القتل . وتنتشر جرائم الخطف حيث يسهل اخفاء المجنى عليه فى الجزر العديدة المنتشرة داخل البحيرة والتى لا يمكن حصرها او كشفها بسبب حجبها بالحشائش والنباتات المائية ، وتجعل من العسير الوصول اليها . ولذات السبب يسهل ارتكاب جرائم السرقات وعلى وجه الخصوص اخفاء المسروقات . وكذلك الحال بالنسبة الى الجرائم الخلقية حيث يسهل تهيئة المكان لها فى البحيرة بعيدا عن مراقبة الشرطة ، وكذلك بالنسبة لتعاطى المخدرات ، واخطر الجرائم التى ترتكب

في البحيرة هي جرائم التهريب سواء كان موضوعها الاسلحة والذخائر او المخدرات او المحصولات والسلع التموينية (٢٤) . ومن ابرز الجرائم كذلك ما يخالف احكام قوانين الصيد وتراخيص الوحدات المائية لجرائم صيد الاسماك بالمخالفة لمواصفات المقاس والطول واستعمال مراكب الصيد بدون ترخيص ، ومزاولة صيد الطيور بدون ترخيص . ومن اهم الجرائم سرقات الماشية بمعرفة عصابات مسلحة حيث تجرى سرقتها من القرى المتاخمة للبحيرة ، ثم اخفائها في الجزر داخل البحيرة حتى لا يسهل الوصول اليها . ويبين هذا من الجدول التالي الذى يبين جنح سرقة المواشى في مركز المنزلة بالنسبة الى جملة الجنح به خلال المدة من ١٩٧١ الى ١٩٧٥ (٢٥) .

السنة	جنح سرقة المواشي	مجموع الجنح عامة
١٩٧١	١٦	٣٦
١٩٧٢	١٢	٤٣
١٩٧٣	٩	٤٠
١٩٧٤	١	٤
١٩٧٥	٩	١٥

وللموقع الجغرافي لبحيرة المنزلة اثره في السلوك الاجرامى والحد من قدرة رجال الأمن على مكافحته ، حيث يساعد هذا الموقع على صعوبة الوصول اليها وخاصة في فصل الشتاء نتيجة عدم صلاحية الطرق المؤدية الى هناك ، وكثرة الأمطار والأوحال التى كثيرا ما تعرقل عمل رجال الحفظ عن مطاردة المجرمين والقيام بالدوريات ، فضلا عن انعدام الوسائل لدى الشرطة للتعامل فوق السطح المائى ، الامر الذى يشجع المجرمين على ارتكاب الجرائم والاختفاء داخل جزر واحراش الجزيرة (٢٦) .

وقد اسفر موقع بحيرة المنزلة وطبيعتها الجغرافية عن اعتماد غالبية الأهالى في معيشتهم على الصيد ، وهي مهنة غير ذات مورد ثابت ، وقد لا تفى بالاحتياجات الضرورية للمعيشة ، وقد ارتبط هذا بالجهل الذى لا يقف حائلا امام النزعات الاجرامية للفرد ، وآية هذا ان غالبية المحكوم عليهم في القضايا من الفقراء المعدمين (٢٧) .

وتركزت عوامل الاجرام في بحيرة المنزلة حول عوامل ساعدت عليها البيئة الجغرافية للمنطقة (٢٨) ، ذلك بسبب سعة مساحة البحيرة التى يقع بها اربعمائة وخمسون جزيرة آهلة

---

(٢٤) المرجع السابق ص ١٦ وما بعدها .

(٢٥) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٢٦) المرجع السابق ص ٦٠ .

(٢٧) المرجع السابق ص ٦٢

(٢٨) المرجع السابق ص ٦٢

بالسكان ، يتنافس الأهالي فيها على وضع اليد على تلك الجزر واستغلالها استغلالا غير مشروع، بما يسفر عن ارتكاب جرائم القتل والشروع فيه، هذا بالاضافة الى التنافس على مناطق الصيد ، وسهولة السطو على المراكب بواسطة العصابات المسلحة واخفاء المسروقات واختفاء الاشقياء .

ولا شك في ان الموقع الجغرافي لحدود الدولة يساعد على ارتكاب انواع معينة من الجرائم ، وعلى سبيل المثال في الجمهورية العربية الليبية تقع محافظة غريان في الجنوب الغربي من الجمهورية ، وتشترك في حدودها مع تونس والجزائر ، وقد ترتب على هذا ان ظهرت فيها جريمتا التهريب ودخول البلاد بوجه غير شرعي. فيعمد البعض الى اتخاذ التجارة في السلع المهربة موردا لهم ، خصوصا بالنسبة الى مواد التموين والسلع الكهربائية والملابس الى آخره . وهم يستخدمون في ارتكاب الجرائم السيارات ، بل يستخدمون الدواب في المناطق الجبلية. ومن ناحية اخرى فان توافر فرص العمل وارتفاع الأجور يحمل على مخالفة القانون رقم ١٧ لسنة ١٩٦٢، بشان دخول البلاد . وبالاضافة الى ما تقدم فان منافذ الخروج او الدخول الى البلاد تكون محلا لارتكاب نوعيات خاصة من الجرائم تقع جرائم جلب المواد المخدرة عن طريق الموانيء والمطارات (٢٩) .

بيئة الريف والحضر :

قلنا في اكثر من مناسبة ان الانسان كائن حي ينفعل ويتفاعل مع الوسط الذي يوجد فيه والبيئة المحيطة به بما تحويه من كائنات وعوامل طبيعية . ومن المشاهد دائما ان كل مجموعة من الافراد توجد في مكان ما وتربط بينها ظروف متقاربة يتسم سلوك افرادها بقواعد متقاربة نتيجة لما استقر في نفوسهم - ومن قبلهم اصولهم - من مجابهة مختلف شئون الحياة بتصرف معين ، ومن هنا تنشا لكل بيئة تقاليد خاصة تحكم العلاقة بين افرادها تلقائيا دون اجتهاد من جانبهم لمعرفة الطريق الذي ينبغي سلوكه . ولا شك في اختلاف كل بيئة عن الاخرى في بعض ظروفها وتبعا طريق سلوكها، فليس هناك من بيئة تطابق غيرها مطابقة تامة ، على ان هذا لا يمنع من التقارب بين بعض البيئات مادامت تتحد في السمات الاساسية لكل منها .

وابرز انواع التفرقة البيئية بمصر هي البيئة الريفية والبيئة الحضرية بما ينعكس اثره على سمات الاجرام في الريف وفي المدن ، بسبب التقاليد الراسخة في الريف والصبغة المادية التي يتسم بها السلوك في المدن (٣٠) . هذا بالاضافة الى وجود البيئة الصحراوية او البدوية التي تحكمها تقاليد خاصة . وللتفرقة بين القرية والمدينة اثرها في جرائم القتل بوجه خاص وعادة

---

(٢٩) منصور غيث قنديل ، وقد اورد ان جرائم المخدرات في عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٣ في طرابلس هي ٧ ، ٢٤ وفي بنغازي هي ٢٤ و ٤٤ على التوالي .

(٣٠) راجع ما سبق لنا ذكره عند الكلام عن المقصود بالبيئة في موطن البحث .

الثار المتاصلة فى نفس اهل الريف ، وكذلك فيمايتسم به اجرام المرأة والأحداث فى كل من البيئتين .

وتذهب آراء الباحثين فى الغرب الى تأييدالتفرقة بين اجرام الريف واجرام الحضرسواء من ناحية النوعية أو طريقة التنفيذ ، فطابعالاجرام فى الريف هو الاعتداء على الأشخاص فى حين ان طابع اجرام المدينة هو جرائم المال ؛فضلا عن الوسائل المستخدمة فى طريقة تنفيذ الجريمة فى كل من المنطقتين . ويقف بعضالعلماء من هذه النتائج موقف المعارضة ، ومع هذا فليست هناك أدلة علمية قاطعة علىذلك(٢١)

ان الحياة فى القرية المصرية تختلف عنالحياة فى المدينة اختلافا كليا ويرجع هذا فى اساسه الى اختلاف تكوين كل منهما ، ففىالقرية المصرية يسيطر على العلاقات بين افرادها الى اليوم مبدأ التعاون ، وذلك للروابط الوثيقةبين عائلاتها والمصالح المشتركة التى تجمعهم وطبيعة الحياة التى يعيشونها ، ولعلنا نلحظهذا فى تضافر أبناء القرية نحو اى خطب يقع بواحد منهم . اما فى المدينة فالأمر على خلافذلك حيث تسيطر النزعة الفردية على العلاقات بين افرادها وتقل الصلات حتى بين افراد العائلةالواحدة ، وكلما اتسع العمران وزادت مشاغل الناس فى المدينة وهنت العلاقات والاتصالات .هذا من ناحية ، والى جوارها يقوم الجهل او التعليم كعامل هام فى التفرقة ، فلا شك أننسبةالجهل التى تسود مجتمع القرية اكبر بكثير من نسبتها فى المدينة،ومن اجلهذا كانت هناك سماتتميز اجرام الريف عن اجرام المدن .

وطبيعة الاجرام فى الريف تختلف عنه فىالمدينة ، فالأول تحركه العلاقات الشخصية فى حين تدفع الاخر العوامل المادية . ففى القريةنادرا ما يكون الدافع الى الاجرام هو الكسب المادى ، وذلك بسبب التضامن بين افرادها ممالا يجعل للحاجة الملحة وجودا، ولان الفلاحبطبيعته قانع صابر يرضيه اقل القليل . وعلى هذا فانالاجرام فى الريف تدفعه عوامل أخرى تجعل موضوعه دائما الأشخاص كالقتل والضرب ،وهووان وقع فى بعض الأحوال على المال فلا يكون الغرض منه الكسب المادى . وفى المدينة ـ حيثلا روابط ولا تقاليد ـ يكون الصراع على كسب العيش ، ولا يجد قوت يومه من لا يعمل ، وانأعوزه المال فقديلجأ الىالجريمة وهدفهالحصول عليه وتدفعه المغريات الشديدة فى المدينة وسائروسائل المتعة الى طلب المزيد من المال ، ولهذا تكثر الجرائم ضد الآداب .

واذا كانت عواصم المحافظات فىمصرتدخلفى حدود المدينة ويطلق عليها البندر أو القسم وكانت البلاد الريفية المحيطة بها يطلق عليها بلادالمركز فان الاحصائيات التالية تبين لنا سمة طبيعة الاجرام فى الريف والمدن .

---

(٢١) ستيفاني ص ٨١ وما بعدها حيث يعرض لقياسالتفرقة بين الريف والحضر ، ويشير الى المناطق الريفية المتحضرة ، وضواحى المدينة والمناطق المقامة خارجها ،وتقسيمات المدينة فى ذاتها ، والتفرقة بين المدن الكبيرة والمدن الصغيرة . وراجع كذلك بوزا وبناتل ص ٩٣ ومابعدها .

عدد جنايات القتل والشروع فيه فى بعض الجهات
من سنة ١٩٢٧ الى سنة ١٩٣٣

السنة / اسم الجهة	١٩٢٧	١٩٢٨	١٩٢٩	١٩٣٠	١٩٣١	١٩٣٢	١٩٣٣
بندر طنطا	٨	١٥	٦	٦	٦	٤	٧
مركز طنطا	٤٩	٥١	٥٠	٥٠	٥٣	٥١	٦٣
بندر الفيوم	٨	٤	١٢	٦	٩	٦	٩
مركز الفيوم	٣٦	٣٥	٣٨	٥٣	٤٨	٥١	٥١
بندر اسيوط	٧	٦	١١	٦	١٢	٧	١٠
مركز اسيوط	٣٥	٣٤	٢١	٤١	٣٥	٢٣	٣١

ويبين من هذا الجدول ان جنايات القتل والشروع فيه هي فى المراكز دائما ـ سواء فى الوجه البحرى ام فى الوجه القبلى ـ وهى اعلى منها فى البنادر ؛ بل ان الحد الادنى دائما فى المراكز اعلى من الحد الاقصى بالنسبة للبنادر . ولم تتغير النتيجة بالنسبة الى الدراسة التى اجريت (٣٢) من توزيع الجنايات والجنح فى المناطق الحضرية والمناطق غير الحضرية سنة ١٩٤٧ .

جدول بيان ما يخص كل مائة الف نسمة من
السكان فى جرائم الجنايات موزعة حسب المناطق
الحضرية وغير الحضرية فى مصر عام ١٩٤٧

انواع الجرائم	المناطق الحضرية	المناطق غير الحضرية
قتل وشروع فيه	١١ر٢٨	١٧ر٥٠
ضرب افضى الى موت	ر٩٦	١ر٦١
ضرب نشأت عنه عاهة	٧ر٥٠	٨ر٥٠
سرقة وشروع	٨ر٨٦	٦ر٢٠
حريق واتلاف وتسميم مواشى	٢ر٨٤	٥ر٩٢
فسق وهتك عرض	٣ر٧٢	ر٦٥
رشوة وتزوير	٩ر٣٤	١ر٩٥
عـود	٨ر٧٠	١ر٤٧

(٣٢) دراسة التحضر والجريمة فى الاقليم المصرى ـ ص ١ وما بعدها .

جدول بيان ما يخص كل مائة الف من السكان من جرائم الجنح موزعة حسب المناطق الحضرية وغير الحضرية عام ١٩٤٧

نوع الجرائم	المناطق الحضرية	المناطق غير الحضرية
تزوير	٣ر٨٦	٢ر٨٠
هتك عرض وفعل فاضح	٤ر٥٦	٠ر٣٧
سرقة	١٠٤ر٥٦	١٩٩ر٠٧
نصب وخيانة امانة	١٣٩ر٢٦	٧٠ر٥٩
تسميم مواشي	٠ر٥٠	١ر١١
اتلاف مزروعات	١ر٩٤	١٧ر٤٣
تشرد	١٥٤ر٧٢	١٥ر٥٨
رشـوة	٤ر٤٦	٠ر٧٥

وهذا ايضاحيين من بعض الجنايات والجنح في البنادر والمراكز سنة ١٩٧٠ حسب ما ورد في تقرير وزارة العدل .

الجنـايات

نوع الجريمة البندر والمركز	قتل وشروع	ضرب لموت	ضرب لعاهة	سرقة وشروع	حريق	رشوة	فسق وهتك عرض	اختلاس	عود	مخدرات
البنادر	٩٣	١٦	٦٨	١٣	٣	٩	١٧	٨٠	٢٦	٤٠٥
المراكز	١١٥	٢٧	٨٩	١٩	١٢	٢	٩	١٣	٥	٢٠٠

الجنـح

الجريمة البندر والمركز	تزوير	هتك عرض وفعل فاضح	سرقة	تسميم مواشي	اتلاف مزروعات	تشرد
البنـادر	١١٠	٨٣	٥٢٨٩	١١	٥٢	١٦٧٥
المـراكز	٥	١٠	٢٩٤٦	٤	١٨٩	١٨٥

ومما ورد بتقرير الأمن العام بمصر عن سنة ١٩٧١ عن الجنايات في البنادر والمراكز البيـان التـالي :

الجريمة البندر او المركز	قتل وشروع فيه	سرقة وشروع	حريق عمـد
المراكز	١٢٤	١١	٧
البنـادر	٤٣	١١	٤

والبيانات آنفة البيان تكشف بجلاء عن ان سمة الاجرام فى الريف تغلب عليها جرائم الاعتداء على الاشخاص ، وان سمة الاجرام فى المدن هى المادية برغم مرور السنين .

ومن دراسة عن المحكوم عليهم فى سجون طنطا والقاهرة والاسكندرية يوم ١٩٦٠/٨/٣١ تبينت الحقائق التالية (٢٢) : ان نسبة الجرائم للمهاجرين تزيد ١٠٪ عنها للمهاجرين الريفيين . لا اختلاف فى متوسط سن مرتكبى الجرائم الحضريين ونظرائهم الريفيين ، ولا علاقة بين السن وبين ارتكاب الجريمة بالنسبة للريفيين والحضريين . نسبة الجنايات لمجموع الجرائم المرتكبة من اهل الريف ٨٨ ٪ بينما تبلغ هذه النسبة ٨٣ ٪ بالنسبة للحضريين ، كما يتضح ان نسبة الجنح من اهل الريف اقل من هذه النسبة فى الحضر . الجرائم ضد النفس وهى الجرائم التى تتسم بطابع العنف تكثر فى المجتمع الريفى عنها فى المجتمع الحضرى ، فجرائم القتل والضرب المفضى الى موت واحداث العاهات المستديمة تبلغ فى الريف ٣٦ ٪ تقريبا من مجموع جرائمه ، بينما لا تزيد هذه النسبة عن ١١ ٪ فى القطاع الحضرى . ومعنى ذلك ان هناك ارتباطا بين منطقة الجريمة وبين انواع الجرائم المرتكبة ، ففى المجتمع الحضرى تقل نسبة الجرائم العنيفة وتتضاءل عدد الجرائم ضد النفس . جريمة هتك العرض تحدث فى المناطق الحضرية بنسبة اعلى منها فى المناطق الريفية ، ٦٠ ٪ من العينة يقيمون فى احياء شعبية . ٢٨٫٥ ٪ يقيمون فى احياء متوسطة ، ١١٫٥ ٪ فقط هم الذين يقيمون فى احياء راقية . ويدخل فى هذه النسبة الخدم والسائقون والمكوجية وغيرهم ممن تحتم عليهم الاقامة فى هذه الاحياء . وقد قسمت الاحياء الى شعبية ومتوسطة وراقية على اساس طرق الحياة والمعيشة فى هذه الاحياء ومن الواضح ان الامية والفقر وقرب المساكن بعضها بجوار بعض سمات تميز الاحياء الشعبية عن غيرها من الاحياء ، وقد تكون لهذه العوامل مجتمعة علاقة وثيقة بزيادة نسبة مرتكبى الجريمة فيها . ان ٢٨٫٥ ٪ من مجموع افراد العينة بسجن القاهرة كان محل ميلادهم الحضر بينما كان ٧١٫٥ ٪ محل ميلادهم الريف . وقد يرجع ذلك الى ان المولودين فى الريف وهاجروا الى المدينة لم يستطيعوا التكيف مع طرق الحياة والمعيشة فيها وقوة العادات والتقاليد وتماسك الاسرة سمات تختلف فى المجتمع الريفى عنها فى المجتمع الحضرى . ويتبين ان هذا التباين بالاضافة الى اختلافات فى القيم والنظم قد ادى الى الصراع بين هذه السمات وتلك مما ترتب عليه ان تكون نسبة مرتكبى الجريمة من المهاجرين الريفيين اعلى منها بالنسبة لمرتكبى الجريمة من الذين ولدوا فى الحضر . تبين ان الهجرة ترجع الى عوامل اقتصادية وتعليمية كما ترجع الى اختيار المدينة منطقة الحياة منها بالاضافة الى صعوبات كثيرة فى الوطن الاصلى ، وتكون الهجرة اما مع اقارب او مع اسرة المهاجر نفسها . المهاجرون يقيمون عند حضورهم وقت الهجرة فى الاحياء الشعبية ، اذ يشير الجدول الى ان ٩٢٫٤ ٪ من مجموع مهاجرى العينة قد اقاموا

(٢٢) محمد خيري ، ص ١٣٦ وما بعدها .

عند هجرتهم فى احياء شعبية ، وتبرير ذلك ان الاحياء الشعبية قد تكون قريبة الشبه لقرية المهاجر من حيث المستوى الاقتصادى ، كما قد يرجع ذلك الى ان الاحياء الشعبية غالبا ما تتسم بالطابع الدينى وهي سمة تشترك فيها هذه الاحياء مع مجتمع القرية . وقد يرجع ذلك ايضا الى ان الاقامة فى الاحياء الشعبية ـ حيث يتيسر تأجير الغرفة الواحدة الى عدة اشخاص ـ أيسر من الاقامة فى الاحياء المتوسطة او الراقية التى لا توجد فيها هذه الظاهرة . ان اسباب ارتكاب الجريمة طبقا للمعلومات التى ادلى بها المجرمون هي قلة الدخل وعدم وجود عمل ، وهما العاملان الرئيسيان لارتكاب الجريمة .

ويبين الجدول التالى ما يتميز به اجرام المدن الكبيرة من الطابع المادى عن غيره من المدن او الريف . ويتضمن جنايات تزييف المسكوكات وتزوير الاوراق المالية (بنكنوت) والرشوة والاختلاس سنة ١٩٧٤ ، وسوف تضم محافظات الوجه البحرى فى مجموعة ومحافظات الوجه القبلي فى مجموعة اخرى .

الجريمة / الجهات	التزييف	تزوير اوراق مالية	الرشوة	الاختلاس
القاهرة	١	—	٣٧	٤٤
الاسكندرية	١	—	٩	٤٣
الوجه البحرى	—	٧	٣٧	٨٠
الوجه القبلي	١	١	١٥	٣٢

هذا وتكشف الاحصاليات بسبب المادية التي تطغى على حياة المدينة والامكانيات المتاحة لذلك عن ازدياد مطرد فى جنايات الرشوة والاختلاس . وكذلك الشان بالنسبة للجرائم التى تتعلق بالآداب العامة ، فالحياة فى المدينة الكبيرة بما فيها من مغريات تجعل هذه الجرائم اكثر وقوعا فيها ، اما فى الريف فنظرا للتقاليد المرعية يكاد يكون وقوع تلك الجرائم قاصرا على عواصم المحافظات ، وهو فى الوجه القبلى اقل عددا منه فى الوجه البحرى ، كما يبين من الجدول التالى عن احصاء الامن العام سنة ١٩٥٢ .

الجرائم / الجهات	منازل للعهارة السرية	تحريض على الفسق من النساء	معاكسة بالطريق من شبان	القوادون	جرائم تنادى وبنسيونات	جرائم محال عامة	العاب قمار	مراهنات خيل	مطبوعات مخلة بالآداب	زنا	فعل فاضح علني	تسول
القاهرة	١٢٣	٣٧٦	١٢٢٢	٤٩	٨٦	٤٨	١٢٠	٢٣	١١	٦	٢١	٢٠٠١
الاسكندرية	٣١	١٢٩٦	—	٧	٥٤	١٥	١٠	١٠	١	—	—	١٧
الوجه البحرى	٩	١٦٦	٣	—	٣	٧	٣٢	—	—	—	—	٢٣٥
الوجه القبلي	١٦	٥٩	—	—	١	٨	١٣	—	—	—	—	١٩١

ونظرا للتقاليد الاخلاقية الموجودة فى الريف نجد ان نسبة قتل الاطفال مجهولي النسب الى مجموع جنايات القتل بكل محافظة مرتفعة فى القاهرة والاسكندرية والجيزة ودمياط ومنخفضة فى باقي المحافظات . فالنسبة سنة ١٩٧٤ فى القاهرة ١٨٪ والاسكندرية ٢٠٪ والجيزة ٣ر٢٣٪ والغربية ٧ر١٠٪ والدقهلية ٤ر٢٪ والقليوبية ٨ر٣٪ واسيوط ٣٪ وقنا ٢ر٦٪ . وقد لوحظ ان اسوان ٥ر١٢٪ ولكن هذا يرجع الى قلة جنايات القتل ذاتها اذ هي ٧ وجنايات قتل الاطفال اثنتان فقط .

ويترتب على التضامن الاسري الموجود فى الريف ان هناك بعض الجرائم لا توجد فى القرية الا نادرا ، وتتركز فى المدينة ، ويتبين هذا من قضايا التشرد ومن قضايا الاحداث ، فالشخص المتشرد قانونا هو من ليست لديه وسيلة مشروعة للعيش . وفى الريف لا تتصور جريمة التشرد الا فيما ندر ، فالاعمال الزراعية كثيرة تستوعب كل الايدي العاملة لاسيما بعد هجرة الكثير منها الى المدينة ، اما التشرد فى المدن ـ لاسيما الكبيرة منها ـ فهو امر عادي ، وقد يكون هذا نتيجة للهجرة الى المدينة جريا وراء كسب اكبر وعيش افضل ثم مواجهة لصعوبات البحث عن عمل ، فالتعطل فالتشرد ، وآية ما تقول الجدول التالي :

قضايا التشرد عام ١٩٧١

المحافظة	عدد القضايا	المحافظة	عدد القضايا	المحافظة	عدد القضايا
القاهرة	٢٥٣٧	البحيرة	٥	الفيوم	٥٠
الاسكندرية	٢٠٤٠	الغربية	٨	المنيا	١
دمياط	٢	كفر الشيخ	٢	اسيوط	١
الدقهلية	١٨	الجيزة	٥٨٣	قنا	١١
الشرقية	١	بني سويف	٢٣	اسوان	٢

وكذلك الشأن بالنسبة لاجرام الاحداث ، فالروابط العائلية فى الريف يجعل انحراف الحدث وسيره فى تيار الجريمة امرا بعيد الاحتمال ، لان شئون الحياة يتولاها الكبار الذين يجعلون تصرفات الصغار تحت اشرافهم . ويبين هذا ايضا من الجدول المقارن التالي : ـ

بعض جنح الاحداث التي وقعت سنة ١٩٧٤

القسم او المركز / الجريمة	سرقة	اتلاف	ضرب
قسم المنصورة	٧٥	٣	٦١
مركز المنصورة	٢	١	١٧
قسم الجيزة	٧٣	٢	٩
مركز الجيزة	١	—	٢
قسم المنيا	٦٦	—	٤
مركز المنيا	٦	—	٤

ومن تقرير الامن العام لسنة ١٩٦٢ عن ظاهرة الاجرام في مصر :

١ ــ ان محافظات المدن تتميز عن غيرها بانحصار الظواهر الاجرامية في جنايات التهديد والاختلاس والرشوة وتزوير الاوراق الرسمية وتزييف المسكوكات وتزوير الاوراق المالية وهتك العرض .

٢ ــ في محافظات الوجه البحري تنحصر الظواهر الاجرامية التي تتميز بها في جنايات الضرب المحدث عاهة والحريق العمد واتلاف المزروعات ، يضاف اليها جنايات القتل في محافظتي الشرقية والقليوبية وجنايات السرقة في محافظة الشرقية وحدها .

٣ ــ في محافظات الوجه القبلي تنحصر الظواهر الاجرامية التي تتميز بها في جنايات القتل العمد والضرب المحدث عاهة والخطف . واذا كان تقرير الامن العام سنة ١٩٦٢ يشير الى خطورة جرائم القتل في الوجه القبلي فالحال لم يتغير ابدا الى الان حتى سنة ١٩٧٤ ، وقد كان كذلك في السنوات ١٩٢٧ و ١٩٣٢ و ١٩٣٣ كما يتبين من الجدول التالي ، وهذا من اكبر الادلة على ما يتميز به الاجرام في الريف عنه في المدن ببلادنا ، لما هو معدود من بسط التقدم الحضاري في بلاد الوجه القبلي والتمسك بالتقاليد .

نسبة جنايات القتل والشروع فيه لكل
عشرة الاف نفس في السنوات ١٩٢٧ ، ١٩٣٢ ،
١٩٣٣ في بعض مديريات مصر

اسم المديرية / السنة	١٩٢٧	١٩٣٢	١٩٣٣
القليوبية	٢ر٠٤	٢ر٦٠	٢ر٦٥
البحيرة	١ر٤٢	١ر٤٧	١ر٢٢
الغربية	١ر٤٨	١ر٦٨	١ر٥٩
المنوفية	١ر٢٣	١ر٣٥	١ر٤٦
الشرقية	١ر٠٧	١ر٤٠	١ر٧٧
الدقهلية	٠ر٨٧	٠ر٨٨	٠ر٨٣
بني سويف	٢ر٦٧	٣ر٢٤	٢ر٨٦
الفيوم	٣ر١٢	٣ر٦٢	٤ر٠٢
المنيا	٢ر٣٨	٢ر٥٩	٢ر٥٩
اسيوط	٤ر٤٣	٣ر٠٥	٣ر٥٥
جرجا	١ر٦٠	٢ر٠٢	٢ر٢٢
قنا	٠ر٨٨	٠ر٧٧	١ر٤٥

واذا كان اختلاف بيئة القرية عن بيئة المدينة ادى الى تمييز الاولى بالجرائم ضد الاشخاص ، والاخرى بالجرائم التي تكون غايتها الكسب المادى ، فان هنالك تفرقة اخرى مترتبة على ذلك هي اختيار الوسيلة المستخدمة في ارتكاب الجريمة . فجرائم القرية يجرى تنفيذها بوسائل

تتسم بالعنف والقسوة وتمثل انعكاسا لغريزة العدوان البدائية . فالقتل يتم بالاسلحة النارية على اختلاف انواعها ، او بالآلات الحادة التي يستخدمها الفلاحون اساسا فى اعمالهم اليومية كالفاس وما اليها ، وهي ايضا تتم غدرا وغيلة دون أن يتنبه اليها المجنى عليه سلفا ولا يستطيع لها دفعا ، اما الجرائم التي ترتكب فى المدينة فلا تحتاج الى استخدام العنف وانما وسيلتها ذكاء المجرم الذى يستغل مختلف الظروف للوصول الى المال ، فلا يصدر منه اعتداء على الاشخاص الا اذا اوصلته وقائع الحال الى ذلك ، وتكشف الاحصائيات الجنائية عن ان غالبية جرائم القتل والشروع فيه يستخدم فيها الاسلحة النارية والآلات الحادة ، فى حين ان جرائم القتل تنتشر فى المدن والاماكن المزدحمة والسرقات من المساكن فى غالبيتها جنح وان لا يسبقها بعض الظروف المشددة كالكسر والتسور .

البيئة والتقاليد :

تحرص بعض الجماعات على تقاليد خاصة بين افرادها وتحترم القواعد الخاصة بها وتقوم مقام القانون المكتوب . وبالاضافة الى هذا هناك مجتمعات صغيرة متماسكة تتخذ من الجريمة حرفة لها حتى انها لا تشعر بالاثم حين مقارفتها. ومن هذه الظاهرة ما يشاهد فى تجارة المخدرات، حيث يقوم افراد جماعة معينة ـ وعلى ما هو معروف ـ باتخاذ حي معين تمارس فيه تجارتها ويلتزمون فيما بينهم بقواعد سلوكية خاصة يعتبر الخروج عليها جرما فى حق الجماعة وتوقع هي العقاب الذى تراه فى مواجهته .

على ان اخطر التقاليد الموجودة فى البيئة المصرية هو ما كان متعلقا بالثار (٣٤) . فلقد تبين لنا فيما سبق أن اكثر الجرائم وقوعا فى الريف هو ما كان موجها ضد الاشخاص وهي القتل والشروع فيه والضرب المفضى الى الموت والضرب الذى تنشاعنه عاهة مستديمة . وتاتي بعد هذا جرائم اتلاف المزروعات والحريق ولا نكون مبالغين اذا قلنا أن الجهل هو العامل الاساسى وراء الاجرام فى الريف تحت ظله تبقى المعتقدات سائدة وفى قوة المقيدة . فاخذا من الاحصائيات يكاد يكون كل المتهمين من الاميين ، ولا نعنى بهذا ان الجهل يؤدى الى الاجرام ، وانما المراد هو انه لا يساعد على وجود النماذج المعادية للاجرام ، فالفلاح فى الريف يعيش اسيرا للتقاليد والمعتقدات التي اصبحت راسخة فى نفسه ولا قوة اعلى من القانون .

وفكرة الثار تتمثل فى ان الاعتداء الذى يقع على فرد فى الجماعة يعتبر وكانه قد وقع على جميع افرادها ، ولا ينبغي أن يستريح لهم بال الا اذا اقتصوا من المعتدى أو جماعته ، وكانت النتيجة المنطقية لهذا هو عدم الاعتراف بسلطان آخر يجازى الفاعل على جرمه . وكان من الطبيعى كذلك ان تقع احدى جرائم القتل فيبلغ عنها ولكن دون أن يسند الاتهام الى أحد ، مع العلم

(٣٤) احمد ابو زيد ـ الثار ـ دراسة انثروبولوجية باحدى قرى الصعيد ، وقد تناول الموضوع كاملا .

بان كلا من الطرفين ــ اهل القتيل واهل القاتل ــ يدرى بتبين من هو مرتكب الجريمة ، وعائلة القتيل تتحين الفرصة المواتية للانتقام من الجاني، وعائلة القاتل تحترس من وقوع العدوان عليها ، ولا زلنا الى اليوم نسمع ان الثار ما يزال متواراثاً بعض العائلات من عشرات السنين .

وللثار تقاليده المعروفة من ناحية من يقع عليه عبء واجب الاخذ بالثار ، بل ان من يكون موضوعا له يعرف نفسه كما يعرفه الجميع . ولا يجوز ان يكون موضوعا لها الاطفال ، وما كانت تقام المآتم الا اذا تم الاخذ بالثار ، ولقد كان هذا التقليد هو الدليل الوحيد فى قضية قتل (٢٥) حكم فيه بالادانة ، حيث لم يشاهد القاتل أحد وقت ارتكاب فعلته ، ولكن فى اليوم التالى للجريمة اقيم المآتم وانتعل القاتل حذاءه وغطى رأسه ورفع القناع عن وجهه ، واذ درست المحكمة قانون الثار وفقا للتقاليد اقتنعت بارتكاب الجانى لفعلته .

ومن بين الاسباب التي ساعدت على تاجيل عادة الثار قصص البطولة التى تحكى فى مختلف المناسبات ، وتصور الامر على انه واجب مقدس يعتبر القعود عنه تقصير يتسم بالجبن ، ويبقى واجب الاخذ بالثار قائما مهما امتد الوقت ولو لعدة سنوات . والاعتقاد السائد ان روح المجنى عليه لا يستقر لها قرار الا اذا أريق دم الجاني ويكون ذلك على يد اهل القتيل ، ومن ثم فلا ينبغي للحكومة ان تتدخل فى الامر لان الواجب يقع على عاتقهم هم .

وترتب على تمكن عادة الثار لدى الفلاحين ، ان وجد فريق من المجرمين الذى احترفوا الاجرام الانتقامى وعلى وجه الخصوص جرائم القتل ، فقد لا يوجد من افراد اسرة القتيل من يتمكن من الاخذ بالثار لصغر السن مثلا ، فتلجأ الاسرة الى من يقوم عنها بهذا الواجب مقابل مبلغ من المال . وهذا يثير جدال اخطر انواع الاجرام ، ولا شك فى ان الجهل هو الذى يوصل الى هذه الحالة حيث ابقى كثيرا من المعتقدات سائدة فى اوساط الفلاحين الذين يرون ان القتل لا جزاء له الا القتل اما احكام المحاكم دون الاعدام ــ ولو بالاشغال الشاقة المؤبدة ــ فانها لا ترضى مشاعر اهل المجنى عليه . ومن ناحية اخرى فان استخدام الاشقياء يبعد عن اهل المجنى عليه من فرص الاتهام ، اذ يستطيعون اعداد دفاعهم سلفا ، كما ان الاشقياء انفسهم يحترفون اعداد ادلة النفى قبل اقدامهم على ارتكاب الجريمة ، وآية هذا ان نسبة كبيرة من جنايات القتل والشروع فيه ينتهى فيها الامر باصدار قرار بان لا وجه لاقامة الدعوى .

وقد عنيت الاحصائيات الجنائية ببيان عدد جرائم القتل التى يكون الدافع اليها الثار ، فبمراجعة الجداول الخاصة ببواعث ارتكاب جنايات القتل تبين ان الغالبية منها كما يلي : ــ

الانتقام والثار ، رفع العار ، استفزاز ، نزاع على حد أرض . واذا استعرضنا فى ذاكرتنا تاريخ القضاء المصرى لوجدنا ان هذه البواعث كانت غالبة دائما . ويؤيد هذا ان جنايات القتل

---

(٢٥) محمد البابلي ص ٧٤ ، د العللي ص ١٥٨ وما بعدها

التي وقعتمع سبق الاصرار والترصد كانت اعلىمما وقع منها بدون سبق اصرار وترصد ، وهذه الظاهرة توصل بنا الى القول بانه رغم كل تطورق اساليب الحياة فى مصر الا ان التقاليد ما زالت مسيطرة على البيئة فى كثير من النواحي . واكثرمن هذا ما زالت الوسائل المستعملة فى جريمة القتل على ما هى عليه . الاسلحة النارية الآلاتالحادة ، الخنق ، العصا .... الخ .

جدول خاص بالبواعث لجريمة القتل

السنة / الباعث	الثأر	الانتقام	الاستفزاز	رفع العار	نزاع على حد أرض
١٩٦٨	٢٩٨	١٩٧	١٤٢	٨٣	٧٨
١٩٧١	٢٤٤	٣١٧	٧٨	٨٢	٧٠
١٩٧٤	٣٠٣	٣٣٦	٦٦	٧٦	٥٤

جدول خاص بالقصد

السنة / القصد	مع سبق الاصرار والترصد	بدون سبق اصرار وترصد
١٩٦٨	١٠٩١	٤٥٤
١٩٧١	٨٥٨	٣٦٢
١٩٧٤	٩٢٦	٣٣٥

هذا مع التنبيه الى احتمال ان يكون الانتقام احيانا مختلطا بالثأر .

وقد قام المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية فى مصر بدراسة لظاهرة الجريمة فى قرية طهواى (٣٦) ، حيث تبين أن سكان القريةتتكون من فئتين ، الفلاحين وهـم الغالبيـة ، والغجر وهم بنسبة ٧٪ من مجموع السـكان . ويعيش جميع افراد مجتمع الغجر ذكورا واناثا من احتراف الجرائم خاصة سرقات الماشيـة ، والسرقة بطريق النشل ، ويتوارثون هذا العمل جيلا من جيل ، ولا يتحرجون من ذكر انهـم يحترفون السرقة ، وهم يحترفون السرقة دون غيرها من الجرائم ، ولا يميلون الى اسـتخدام العنف عند ارتكابها ، ويفضـلون اختيـار مكان جريمتهم بعيدا عن المنطقة التى يقيمون فيها .

ويرتبط احتراف الغجر للسرقة بالتنشـئة الاجتماعية حيث اعترف ٩٥ ٪ بان ارتكابهم للسرقة كان نتيجة لضغط الاسر عليهـم ، وانممارستهم لها قد تمت عن طريق المشـاركة . وتستفيد الغالبية العظمى منهم (٩٢ ٪) من المسروقات شخصيا او فى نطاق الاسرة ، ويتميز مجتمع الغجر بالترابط والتكامل بين الافـراد ،حيث انهم يتعاونون بعضهم مع البعض اذاما قبض على احدهم او اودع السـجن فانهم يقدمون لهولاسرته العون سواءكان فىصورة عينية او مالية .

(٣٦) احمد المجذوب ص ١٦٢ وما بعدها

البيئة واجرام المراة :

انه وان كان اجرام المراة لم يلق نفس الدرجة من الاهتمام التى لاجرام الرجل ـ كما هو واضح فى جلاء من الاحصائيات الجنائية ـ الا ان علاقة البيئة باجرام المراة لها مظاهر واضحة تستدعى الدراسة والعناية ، وآية ما تقدم ان كثيرا من نشاط المراة الذى يشكل جريمة ينتهى الأمر به الى الحفظ نظرا لظروفها فى البيئة المحيطة بها ، وعلى سبيل المثال بعض صور الاجهاض التى يراد منها رفع العار . بل ان طبيعة المراة ووضعها فى الاسرة العربية يجعل اجرامها ودواما مما يتسم بالجبن والحذر ، ولذا فهو يتم فى خفاء وينتهى الامر فى كثير من وقائعه الى قيده ضد مجهول .

ووضع المراة بالنسبة الى البيئة التى تعيش فيها جعلت حجم اجرامها اقل بكثير من حجم اجرام الرجل ، سواء دلت على ذلك احصائيات محل ثقة او كان هذا هو الشعور والاحساس العام . وهذا امر لا تختلف فيه الدول العربية عن غيرها . وعلى سبيل المثال يبين من تقرير الامن العام عن مصر عام ١٩٧٤ أن عدد المتهمين فى الجنايات هو ٤٩٩٠ منهم ٤٨٧٩ من الرجال و ١١١ من النساء .

واذا كان مرجع تلك الظاهرة يتعلق بطبيعة المراة كانثى ، الا انه بوجه خاص يتصل بالبيئة التى تعيش فيها ، فالمراة اقل من الرجل فى قوة جسمها ، حتى لقد قرر بعض الباحثين مداها بنصف قوة الرجل ، ووصل الى ان حجم اجرام المراة لا ينبغى ان يتعدى نصف حجم اجرام الرجل ولقد ترتب على هذا الفرق فى القوة الجسمانية ان الجرائم التى ترتكبها المراة لا تحتاج فى تنفيذها الى العنف . بل ان جريمة القتل غالبا مايستخدم فيها السم لتنفيذها . ولقد خلق الله سبحانه وتعالى المراة لتكون اما ، اذ زودتها الطبيعة بعاطفة الحنان والرحمة والشفقة مما يتمشى مع رسالتها، وهو ما يتناق مع الجريمة ، اذ لا يتوافر لها اى معنى من هذه المعانى، فان هى اقدمت على ارتكاب الجريمة فلا يكون ذلك الا تحت ظروف خاصة ، ومن ثم كان اجرامها قليلا .

وفى خصوص المجتمع المصرى بالذات نجد ان الظروف الاجتماعية ومكانة المراة من الاسرة تحول بينها وبين طريق الاجرام . فتحرص المراة على سمعتها فى مجتمع تغلب فيه القيم الدينية والخلقية يدفعها الى الابتعاد عن طريق الجريمة تامينا لمستقبلها .

والمراة فى الريف تحتل السواد الأغلب من النساء ، وتعتمد فى حياتها على الرجل ، سواء أكان ابا او اخا او زوجا او اى عائل آخر ، بل ان كثيرا من الرجال يابون نزول نسائهم الى ميدان العمل ، وقد ادى هذا الى بعد المراة عن الاحتكاك بالناس ، واصبحت اكثر ميلا للعزلة ، مما يبعدها عن الاسباب التى تدفعها الى الاجرام . والملاحظ فى الريف المصرى ان المراة تعتمد على الرجل فى حياتها اعتمادا كليا . اما فى المدينة فانه وان كانت المراة قد نزلت الى ميدان العمل ، وزاد احتكاكها بالناس، الا انها مازالت تحكمها طبيعتها الخاصة التى تناى بها عن ارتكاب الجريمة ، بل ان الملاحظ هو ان الغالبية العظمى من النساء المجرمات من الاميات . اى انه كلما تعلمت المراة

وتتقفت بعدت عن الجريمة . ويتضح من بحث نزيلات السجون المصرية فى مايو ١٩٥٦ الذى قام به المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية (٣٧) ان اغلب النزيلات موضوع الدراسة لم يشتغلن باى مهنة او عمل ، وان هذا لايخرج عن كونه انعكاسا للوضع الخارجي فى المجتمع الحر حيث لا يزال اقبال النساء على الاشتغال بالمهن المختلفة قليلا .

هذا الوضع الاجتماعى للمراة فى مصر والبيئة التى تعيش فيها جعل اجرامها متميزا عن اجرام الرجل ، وانه وان كانت تنقصنا الاحصائيات الخاصة بالمراة فانا نحاول ان نحيط بصورته على قدر الاحصائيات المتوافرة لدينا . والامر الذى تكشف عنه تلك الاحصائيات هو ان نسبة الجنايات التى تقع من المراة كبيرة وتتركز بوجه خاص فى جرائم الاعتداء على الاشخاص ، اى القتل العمد والضرب المفضي الى الموت والضرب الذى تنشأ عنه عاهة مستديمة . فعلى سبيل المثال ارتكبت المراة عام ١٩٧٤ (١١١) جناية بينها (٣٥) قتل عمد و (٢٦) ضرب افضى الى الموت ، و (٢٣) ضرب نشأت منه عاهة مستديمة ، اى ان جملة جرائم الاعتداء على الاشخاص بلغت (٨٤) من مجموع الجنايات . واذا اردنا تعليل هذه الظاهرة لوجدناه فى امرين ، الاول منهما هو ان المراة فى غالب الاحيان لا تحتاج الى المال لوجودها فى كنف رجل يكفل لها حاجياتها ، اما اجرامها ضد النفس فاساسه الطبيعة البشرية التى تدفع بعواطفها تحت تاثير الانفعالات الى اقصى مدى ويسهل لها خيالها طريق ارتكاب الجريمة معتقدة ان فى هذا راحة لها لا سيما مع الجهل الذى يحيطها . والاخر يتمثل فى باعث المراة على ارتكاب الجريمة ، وهو غالبا ما يتعلق بحياتها ومستقبلها الذى تكرس له كل جهودها ، فاذا قام فى سبيله عائق فانها تزيحه عن طريقها .

وظروف البيئة التى تعيش فيها المراة بالريف جعلت اخطر دوافعها للاجرام هو الانتقام الذى يكون منشؤه الغيرة ، ذلك انها بمجرد ان تنتقل الى منزل الزوجية ترى انه لا مقام لحياتها الا فى كنف الزوج ، وانها بغير الاعتماد عليه لن تجد من يرعاها ومن ثم فان اى تهديد يمس كيان حياتها يحرك فيها غريزة الدفاع عن نفسها وبقائها وتدفعها الرغبة فى المحافظة على نفسها الى ارتكاب اشد الجرائم خطورة ، وتتحرك غيرة المراة على منزلها اذا ما اتخذ الرجل له زوجة ثانية لاى سبب من الاسباب ، وهي حينئذ لا تستطيع ان تصب غضبها على زوجها لانها فى قرارة نفسها تعتقد انه يستعمل حقا مشروعا له فضلا عن انفاق حقيقتها ليس بمقدورها ان توجه اجرامها اليه . ومن ثم فلا يبقى امامها الا المراة الدخيلة على حياتها وتبقى صورتها ملازمة لخيالها ، ولا ترى سبيلا لاستعادة منزلها الا بالتخلص منها ، وفى صور اخرى قد يكون انصراف زوجها عنها بسبب عدم انجابها ورزقه بولد من الزوجة الثانية فتوجه اجرامها للصغير للتخلص منه ، واحيانا قد تندفع المراة الى ارتكاب جريمة قتل الزوج اذا ما احست انه قد ينصرف عنها الى الزواج من

(٣٧) سمير الجنزوري – ص ٢٠٥ وما بعدها

اخرى . ويندر فى مصر ان ترتكب المراة جريمةالقتل لاسباب عاطفية ، كصورة لتخلى الشخص عنها وانصرافه الى غيرها لان التقاليد ما زالت لا تقر العلاقات الخاصة بين الشباب ، ولهذا نرى ان الاسباب العاطفية ان دفعت الى المساس بالحياة فانما يكون هذا فى صورة انتحار .

واذا كنا قد اوضحنا اثر البيئة وتقاليدها فى ارتكاب جريمة القتل ثارا فان المراة لا تختلف من الرجل فى هذا الصدد وتعتبره واجبا عليها . ولقد تضمن القضاء المصرى كثيرا من جرائم القتل التى لعبت المراة فيها دورا هاما تحت تاثير عادة الثار ، سواء بنفسها او بتلقينها اياها لاطفالها مهما امتد الاجل وتحرضهم على القتل .

وقد ترتكب المراة احيانا الجريمة ضد النفس تجنبا للفضيحة فى البيئة كما فى حالة جريمتى الاجهاض وقتل المولودة حيث ان الحمل سفاحا يمثل عيبا خطيرا هو فى الريف اشد منه فى المدن ، حيث تعرف الفتاة ان جزاءها اذاما كشف امرها لن يكون الا ازهاق روحها ، لا سيما وان سبيل اخفاء امرها ليس بالامر السهل حيث لا توجد اماكن لايواء اللقطاء ، كما هو الحال فى المدن – وقد تقارف المراة الجريمة قتلا دفاعا عن العرض وذلك ان تفريط المراة فى عرضها يمثل مساسا خطيرا بالشرف لا سبيل الى ازالته الا بقتلها ، وقد تاصلت هذه التقاليد فى نفوس الكثيرين حتى تبينه من بعض الوقائع ان الام تتغلب على عاطفة الامومة وتقتل ابنها دفاعا عن عرضها ، بل قد تقتل الام امها او الاخت اختها لهذا السبب .

اقتصاديات البيئة والجريمة :

ليس من المقبول ونحن فى صدد بحث الجريمة وعلاقتها بالبيئة ان تغفل اثر العامل الاقتصادى فى هذا الصدد . ذلك لان البيئة ذاتها تتلون ظروفها وفقا لسلوك افرادها ووفقا لاقتصادياتها ، وانه وان كان العامل الاقتصادى من ادق واهم ما تتصل به الظاهرة الاجرامية ، وهو فى حاجة لدراسة مستفيضة مستقلة ، الا اننا هنا استكمالا لجوانب البحث نعرض لما يتصل بهذا العامل كمؤثر فى البيئة وقتيا فى السلوك الاجرامى فلا جدال فى ان هناك علاقة وثيقة بين الظروف الاقتصادية والجريمة على الاقل بالنسبة الى الجرائم التى تكون الغاية منها الكسب . وقد عكس التطور الاقتصادى صداه على تطور الجريمة فالانتقال من الاقتصاد الزراعى الى الاقتصاد الصناعى خلال القرن التاسع عشر صحبه انتقال من جرائم العنف الى جرائم الذكاء ، وعدم الاستقرار الاقتصادى الناشىء عن عدم استقرار الاثمان والاجور والنقود كان له اثره فى الاجرام الذى يقصد منه الكسب .

ودراسة العلاقة بين العوامل الاقتصادية والاجرام يثير مشاكل عديدة ليس من السهل ايجاد حل لها . فينبغى تحديد المراد بالعوامل الاقتصادية ، هل ينظر اليها بالنسبة الى الموضوع الذى تتعلق به او بالنسبة الى وقت حدوثها ، وبمعنى آخر هل ينظر الى العوامل الاقتصادية

باعتبارها متعلقة بالفرد الذى يجرم ، ام بالنسبة الى الوسط الصغير الذى يعيش فيه ، ام البيئة التى تحويه ، ام بالنسبة الى ظروف الدولة كلها. وكذلك فى تقدير الظروف الاقتصادية هل يعتد بوقت ونوع الجريمة ام تقرر خلال فترة طويلة مناسبة . ثم اخيرا هل ينظر الى تلك العوامل والأوقات العادية ام يكون الاعتبار لفترات الازمات واوقات الرخاء (٢٨) وبالاضافة الى ما تقدم فان جزءا كبيرا من الجرائم لا يدخل فى الاحصاليات الجنائية والتى تدخل تحت الأرقام المظلمة ، واخصها جرائم ذوى الياقات البيضاء او جرائم الخاصة ، وتكاد تكون هذه الجرائم كلها من نوع الجرائم الاقتصادية التى يكون للبيئة فيه دخل كبير فتنعكس آثارها عليها .

ولقد اصبح الشائع ربط الجريمة من الناحية الاقتصادية بالفقر (٢٩) ، ولكن هل يؤدى الفقر حقيقة الى الجريمة ؟ ثم ما هو المقصود بالفقر ؟ ونشير ابتداء الى احتمال ان يكون ربط الفقر بالجريمة مرجعه الى ان غالبية المجرمين من الطبقات الفقيرة ، وليس من السهولة وضع تعريف للفقر ، فالمعنى المتعارف عليه هو ان الفقير هو الشخص الذى لا يجد ما يسد به ضرورات العيش ، وهذا المعنى فى رأينا لا مكان له فى مصر ، فيكاد لا يوجد فى المجتمع المصرى من لا يجد قوت يومه ، وذلك بسبب علاقات التعاطف الاجتماعى الموجودة لدى الشعب المصرى ، ولكن الانسان الفقير فى مفهومنا هو من يرتزق يوما بيوم ، وينطبق هذا بوجه خاص على طبقة العمال . واذا نظرنا الى سواد الشعب المصرى لوجدناه من الفلاحين وهم فقراء ومع ذلك فهم لا يقعون فى طريق الجريمة ، فاذا قيل بان الانسان الفقير هو من لا يوجد لديه ما يفى باحتياجاته لكانت المسالة نسبية تختلف من حالة الى اخرى ، ومن ثم لايمكن اتخاذ الفقر مقياسا للسلوك الاجرامى .. ولكن مهما كان تحديد معنى الفقر فهل هناك دليل على وجود رابطة بينه وبين الجريمة ؟ فى رأينا انه من الخطورة بمكان التسليم بهذه النتيجة لان مؤداها اعتبار جميع الفقراء مجرمين ، وهم وان كانوا لم يدخلوا السجن بعد فانهم فى الطريق اليه ، حقيقة ان بعض المجرمين من الفقراء ولكن كم من غير الفقراء والمجرمين وان لم يدخلوا السجون !!

ولقد حاول البعض ربط الفقر بالاجرام فى صلته بالبيئة التى يوجد فيها الفقير ، اذ من شأن الفقر ان يوصل الى عوامل اخرى كثيرة متداخلة فى التكوين الاجتماعى ، وهى التى تؤدى الى الجريمة ، ولا يقتصر الامر حينئذ على جرائم الاموال وحدها . والفقر تكون له مصاحبات اكثر من الحاجات الاقتصادية التي تؤدى الى السلوك الاجرامي . والفقر فى المدنية الحديثة يعنى عادة انفصال مناطق الايجار المنخفض ، حيث يعزل الناس الى درجة يعتد بها عن النماذج المعادية للاجرام والجيران على الاتصال بكثير من نماذج السلوك الاجرامي . والفقر بوجه عام يعني مركزا

---

(٢٨) راجع اثر الازمات الاقتصادية والرواج الاقتصادي ـ ستيفاني واخرين ص ٨٧

(٢٩) راجع دراسة حديثة فى هذا الصدد عن الطبقة الاجتماعية والاجرام (جون كلازل واخرين ص ٥١ وما بعدها)

اجتماعيا ضئيلا ليس فيه ما يبعث على الاحترام او ما يخشى عليه من الضياع اما ما يشجع على بذل الجهد لتحقيق حياة افضل ، وهو بوجه عام كذلك يعني ظروفا منزلية سيئة وصحية صعبة ومقارنة تثير الحقد بالنسبة الى غيرها من الظروف المالية والصحية ، يعني ان الوالدين يبعدان عن المنزل خلال اغلب الساعات التي يستيقظ فيها الاطفال ، ويعودان اليه وهما متعبان متوتران . وهو يعني بوجه عام ايضا ان الطفل يؤخذ من المدرسة في سن مبكرة لا تسمح له الا بالتحاق لعمل لا يتطلب مهارة ، بل غير مسل وغير مجزولا يمنحه فرصة التقدم الاقتصادى . وقد يصحب الفقر في المدينة الصغيرة قليل من المساحيات .

ويعرض برنس (٤٠) الى ان الدراسات الاجتماعية لفتت النظر الى انه اذا كانت الجريمة من الناحية النظرية تقع في كل الاوساط الا انها اكبر وقوعا في اوساط الجماعات الضعيفة اقتصاديا واجتماعيا . ويتساءل عن السبب في هذا هل هو النقص في اخلاقيات هؤلاء الافراد ؟ ، هل فرصة الحياة الشريفة اقل لديهم ؟ او ان هناك جرثومة اجرامية اسهل انتشارا في هذه الاوساط عن الاوساط الاعلى اجتماعيا واقتصاديا وهذه التساؤلات شغلت كثيرا من المفكرين في اوائل القرن العشرين ، وذهبوا الى ان الزيادة في الاجرام تأتي من التعلم من الاصدقاء والجماعات وهو راى مسترد لانه في الجماعات السارقة . وباختصار فان هذا يعني انه اذا عرض فرد الى مؤثرات اكثر اجرامية من غيرها في الوسط الذي يعيش فيه فان فرص مخالفته القانون تكون اكبر . ويرى برنس (٤١) ان اعتبار الجريمة اكثر وقوعا في الطبقات الدنيا هو تعميم مبالغ فيه ، وهناك حقيقة متفاوتة للجريمة في الطبقات الدنيا ، ومع هذا فالجريمة موجودة في الطبقات كلها ولكن جزءا كبيرا منها غير معروف . وفي دراسة اجريت سنة ١٩٦٧ ثبت ان المذنبين الصغار في لندن كانوا من جميع الطبقات ، وان الجرائم لم يختلف نوعها من طبقة الى اخرى . ومع هذا فالمتفق عليه بصفة عامة هو انه لا بد من عمل طويل قبل تاكيد ظهور الجريمة ومداها في مختلف طبقات الجماعة .

والدراسات التي اجريت بالنسبة الى علاقة الفقر كعامل اقتصادي بالجريمة ــ رغم ما فيها من قصور وما قد يوجه اليها من انتقادات ــ قد وصلت الى نتائج متضاربة. ففي احدى الدراسات وجد ان معدل نسبة الانحراف الى مجموعة من الاطفال في مكان يعد منخفضا جدا ، مع انهم من اسر كانت في فقر اشد من فقر السكان في المناطق المحيطة بهم والذين كان لاطفالهم معدل نسبة كبيرة للاسراف . . . وفي دراسة اخرى اكتشف عدم وجود علاقة وثيقة بين المركز الاقتصادي وانحراف الاحداث عندما تبقى العوامل الاخرى ثابتة . بينما وجدت علاقة واضحة بين التنظيم الاجتماعي وانحراف الاحداث عندما تبقى العوامل الاقتصادية ثابتة .

---

(٤٠) برنس ص ٣٦ ، وقد اشار الى الدراسات في الولايات المتحدة الامريكية وفي انجلترا عن مناطق الانحراف .

(٤١) برنس ص ٣٩

في المجتمع المصري – لاسيما المجتمع الريفي – لا يمكن القول بان الفقر يعد عاملا على ارتكاب الجريمة ، لان البناء الاجتماعي والثقافي يقف عائقا ضد ارتكاب الجريمة في هذه الحالة (٤٢) . وفي اعتقادنا ان تقاليد أهل الريف تمنع من اقتراف الجرائم مهما كانت الحالة الاقتصادية . وذلك سواء بالنسبة الى مصر او غيرها . ولقد ثبت في دراسة بامريكا ان سكان المناطق الريفية يقل ميلهم نحو الجريمة مع انهم قد يكونون في فقر مدقع .

ومن الدراسات الحديثة في مجالنا بحث مرجحيم مشكلة جنح الاحداث واتجاهاتها وعواملها في مصر اذ جاء به انه من المؤكد ان المستوى الاقتصادي الذي تعيش فيه اسرة الحدث تؤثر بشكل فعال ؛ بل انه يكاد يسيطر على كل العوامل الاخرى التي تشارك في توجيه الحدث نحو السلوك الجانح . فان المستوى الاقتصادي هو الذي يحدد المستوى التعليمي والمهني والمستوى المعيشي للاسرة ، ويحدد كذلك المسكن الذي تتخذه الاسرة مأوى لها وبالتالي الحي الذي تقطنه ؛ كما يحدد المستوى الاقتصادي والمستوى الاجتماعي والبيئي الذي تنتمي اليه اسرة الحدث بحكم مقدرته الاقتصادية . وكل هذه العوامل مجتمعة هي التي تؤدي الى سلوك الحدث سلوكا جانحا او تكيفه مع المجتمع الذي يعيش فيه . وقد ظهر ذلك من نتائج البحوث التي اجريت في هذا المجال. ففي دراسة عن اثر العوامل الاجتماعية في تشرد الاحداث (٤٣) وضحت الفروق بين متوسط افراد مجموعة الاحداث جانحي الاعقاب والمتشردين ومجموعة الاحداث الاسوياء من الدخل الشهري للاسرة ومن باقي المصروفات المخصصة للحاجات الضرورية للانفاق على الاسرة . وقد تأكد ان هذه الفروق لها دلالة احصائية ، فقد كان متوسط النسبة منخفضا في المجموعة الاولى عنها في المجموعة الثانية ، وفي بحث السرقة عند الاحداث (٤٤) الذي اجراه المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ثبت ان الحالة الاقتصادية لاسر الاحداث المتهمين بالسرقة في مستوى منخفض جدا .

ولا بد لنا من التسليم بان للعوامل الاقتصادية اثرها في الظاهرة الاجرامية سواء بطريق مباشر أو غير مباشر ، على ان الذي لا يمكن تحديده هو مقدار تأثر سير الاجرام بالعوامل الاقتصادية لصعوبة فصل تلك العوامل وعزلها عن غيرها ولانها متشابكة يؤثر بعضها في البعض الاخر ، وليس من السهل وضع ضوابط محددة لها . وعلى هذا فان الظروف الشخصية المحضة قد تؤثر بدورها في العوامل الاقتصادية ، بمعنى انه اذا توافر عامل اقتصادي معين فان هذا لا يعني انه يؤدي بالضرورة الى ارتكاب الجريمة ، وانما يتعين ان تتوافر ظروف أخرى تهيىء لتأثيره في ارتكاب الجريمة (٤٥) . فمثلا قد تحل بالفرد ضائقة مالية ، ومع هذا فانه مهما بلغت شدتها لا يتخذ من الجريمة سبيلا للتغلب عليها ، وهو امر ملحوظ في حياتنا العادية . وقد يكون للجو

(٤٢) سيد عويس ص ١٧٧ وما بعدها

(٤٣) اثر العوامل الاجتماعية في تشرد الاحداث

(٤٤) السرقة عند الاحداث

(٤٥) ستيفاني وآخرون ص ٨٩ ويضيف بان عدم وجود عمل لا يكفي بذاته لان يكون سببا في انتفاء السلوك الاجرامي او وجوده ، بل هو وجود او عدم وجود العمل المناسب لامكانيات الشخص ويكون متوائما معه .

العام الذي يحيط بالفرد عاملا له على ارتكاب الجريمة ، وعلى سبيل المثال كان من اثر الحرب العالمية الثانية في مصر ان قفزت بعض الثروات في وقت قصير الى ارقام مذهلة مما اغرى البعض ويسر الوصول الى الثراء السريع من اي طريق، وكان سبيله في هذا ارتكاب الجريمة . ولقد ذهب البعض الى القول بان للاحوال الاقتصادية تاثيرا كبيرا في تحويل مجرى الاجرام ، فبينما يدفع الفقر لارتكاب بعض الجرائم كالسرقة ، نرى الثروة ــ على الاخص الفجائية ــ تدفع للجريمة ايضا لانها تفسد الاخلاق ، بالانغماس في الشهوات وفي الغلو في جمع المال . فالعوامل الاقتصادية كثيرا ما تكون كالسلاح ذي الحدين فتحدث في كلا الاتجاهين ازديادا في الاجرام . ويقال احيانا ان جرائم التسول تعتبر من مظاهر الضيق الاقتصادي، ولكن البعض ينفي هذه الفكرة ، وان المسألة ترجع الى الاستعداد الشخصي للفرد ، وان المتسولين المحترفين لا يستطيعون الاقلاع عن حرفتهم ولو عرض عليهم عمل شريف يرتزقون منه .

البيئة وجرائم الاحداث :

ان تاثير البيئة في سلوك الحدث بوجه عام ، وسلوكه الاجرامي بوجه خاص امر لا ينازع فيه احد ، والاهتمام بدراسة سلوك الحدث امر مشاهد في كل المجالات سواء على المستوى المحلي لكل دولة او على المستوى العالمي ، فتعقد له المؤتمرات والحلقات الدراسية من فترة الى اخرى ، والدافع الى هذا هو ان حدث اليوم هو رجل الغد ، ويقدر تنشئة الحدث تنشئة صالحة يستفيد منه مجتمعه .

وفضلا عن هذا فان الحدث في سنوات عمره المبكرة يخرج الى الحياة المليئة بالمتناقضات ، ولا تكون مداركه قد اكتملت بعد ليتبين الطريق الذي يسلكه في مستقبل ايامه ، ومن ثم فهو يختار النماذج السلوكية التي تحيط به ، وهو كالعجينة اللينة التي يسهل تشكيلها على اية صورة .

وتكشف الاحصائيات الجنائية عن ان اخطر انواع السلوك الاجرامي بالنسبة للاحداث يتمثل في جنح السرقة (٤٦) ، وذلك لكثرتها العددية ، لان هذه الجريمة ان بدات في سن مبكرة وجد احتمال العود الى الاجرام ، ثم ان هذه الجريمة قد يؤدي الحكم فيها الى ايداع الصغير السجن ، حيث يجد مجتمع الجريمة بما لا يقومه وانما يخرج منه اشد اتقانا للاجرام .

وظروف البيئة المصرية توجب التنبيه الى امرين ، الاول ان هناك نوعا من الاجرام له ذاتية خاصة ولم يشكل اية مشكلة بعد ، هو اجرام الاحداث في الريف ، فطبيعة الحياة في القرية المصرية تبعد في غالبية الاحوال الاحداث عن طريق الجريمة نظرا لان ظروف الحياة التي توصل الى الاجرام في المدينة تنتفي في القرية ، نظرا للترابط العائلي بين سكانها . هذا فضلا عن ان الجرائم التي تقع من الاحداث في الريف يجري نظرها وتسوية ضررها وفقا لعادات وتقاليد مرعية ،

---

(٤٦) يبين من تقرير الامن العام لسنة ١٩٧١ عن الجنح التي تقع من الاحداث بين سن السابعة والخامسة عشرة مرتبة تنازليا كالاتي : الضرب ، السرقة ، ركوب المواصلات بدون اجرة ، الاتلاف ، القتل والاصابة الخطأ ، ولا شك ان السرقة هي اخطر تلك الجنح .

ومن ثم لا يدرك شيء من امر الجريمة . والامرالاخر هو ان الارقام المظلمة في الاحصائيات الجنائية اشد ظهورا بالنسبة الى الاحداث ، فالملاحظ في البيئة المصرية بصفة عامة هوالسكوت عن البلاغ عن جانب كبير من جرائم الاحداث ،يدفع الى ذلك اسباب عديدة ومن بينها سوء حالة الحدث ورأفة المجني عليه ، وقلة الضرر الناشئ عن الجريمة ، وتدخل الجمهور لتخليص الحدث من قبضة المجني عليه . (٤٧)

والبيئة الطبيعية التي ينشأ فيها الحدث ويتفاعل معها هي الاسرة ، وهي اول ما يواجهه الحدث في حياته ومن بعدها المدرسة ، وقد ينتقل بعد المدرسة الى مجتمع العمل او قد يصله مباشرة ، وهو في كل دور قد يؤثر فيه مجتمع الطريق . ولا نستطيع ان نعرض بافاضة لهذه العوامل المختلفة ، لان كلا منها يصلح لان يكون موضوعا لدراسة كاملة ، ومن ثم نعرض لتلك العوامل بالقدر الذي يسمح به مجال البحث .

تلعب الاسرة اخطر الادوار في تنشئة الحدث وتربيته ، حيث يتأثر بها وبنماذجها السلوكية ، سواء أكانت معادية للنماذج الاجرامية او متوائمة معه . فلكل اسرة تقاليدها وعاداتها وانماط سلوكها تسير عليها في مراحلها ، الامر الذي قد يختلف فيه اسرة عن اخرى مهما قربت المسافة بينهما . وهذا من آثار الفردية في المجتمعات الحديثة ، خلافا لما مضى ولما عليه الحال الان في القرى .

واول النماذج السلوكية التي يتلقاها الطفل في حياته هو ما يسير عليه الوالدان ، فبحكم غريزة التقليد الفطرية يقتدي الطفل بالامثلة التي يشاهدها . وعلى هذا اذا كانت النماذج السلوكية للوالدين من المواقف التي تعتبر معادية للاجرام فان الحدث سوف يقتدي بها وتتأصل فيه غالبا الا اذا تدخلت عوامل اخرى تغير السير الطبيعي للامور . ولكن قد تكون المواقف السلوكية للوالدين من غير المواقف الحميدة ، ومن ثم فانها سوف تنطبع في ذاكرة الحدث ، ويعتبرها من التصرفات الطبيعية فيما قد يواجهه من امور الحياة . فالوالد قد يكون سلوكه اجراميا ، اى منغمسا في الجريمة ، ومن ثم فهو قدوة للصغير . وقد يخلق هو السلوك الاجرامي في ولده وان لم يرتكب هو الجريمة ، واخيرا فقد يتخذ الاب موقفا سلبيا ان وقع من الحدث ما يعد سلوكا اجراميا (٤٨) .

---

(٤٧) راجع في هذا الصدد دراسة مقارنة عن اجرام الاحداث في الشرق الاوسط ص ١٤ وما بعدها .

(٤٨) دراسة عن اجرام الاحداث في الشرق الاوسط ص ٣٦ . ويذكر جون ماير ان الاب او الام يكافيء الصغير او يعاقبه حسب ما يرى في تصرف الصغير من حسن او سوء وفقا لتقدير ايهما بصرف النظر عن المقاييس العامة في المجتمع الخارجي . والطفل يستجيب لها لانه في مراحل عمره الاولى يروم علاقة متينة بينه وبين والديه حيث يبحث عن الحب . وبهذا يمكن ان ينشأ الشخص عدوا للمجتمع ، على ان هذه ليست القاعدة حيث يحتمل ان يبعد الوالدان عن الصغير حقيقة سلوكهما ، فمثلا البغي قد تقوم بتربية صغيرها في وسط بعيد عما هي فيه ، وتغرس فيه احترام القانون (ص ١١٩) فلا يمكن دراسة المؤثرات الاجتماعية على السلوك الاجرامي دون دراسة نوع وطبيعة العلاقات العائلية (ص ١٢٠) والاسرة هي اول مؤسسة لصياغة السلوك الاجتماعي ، عن والديه يتلقى القانون الاخلاقي وسلوكه في الحياة ، فاذا كانت القيم والمواقف في المنزل تتوائم مع العالم الخارجي فسلوك الصغير يكون متفقا والقانون وقد يكون العكس صحيحا (ص ١٢٠) .

وللقواعد السلوكية فى تربية الصغير اثر عميق فى سلوكه واحتمال او عدم احتمال انحرافه، اننا لو نظرنا الى الاسرة المصرية لوجدنا ان تربية الصغير تكاد تسير على تقاليد يتلقاها الخلف عن السلف ، وهي وان دخل عليها بعض التعديل فهو الذي يقتضيه تطور الحياة المدنية . ويرجع هذا الى قلة الكتب التي تتناول اسلوب معاملة الطفل ثم قلة من يقرأ هذه الكتب ، ثم قدرة من يتتبع ما جاء بها ، والتصرف ازاء الصغير يكون دائما من وحي الساعة . ومن اخطر العوامل المؤثرة فى سلوك الصغير هو جهل احد الوالدين بان من شان بعض التصرفات ان تكون من عوامل انحراف الحدث . ومن هذا القبيل القوة الشديدة التي لا مبرر لها حين ارتكابه لخطأ وقد يصل الحال الى المروق من سلطة الوالدين ، وتقابل القسوة اللين المتناهي لاى سبب كان ؛ لان التغاضي عن اخطاء الصغير او التهوين من امرها قد يكون من اثره استمرار الصغير فى سلوك يؤدي الى انحرافه . وقد يكون الاهمال بدوره من عوامل الانحراف ؛ لان معناه افتقاد الصغير للرعاية والتوجيه ويسفر عن انعدام الرقابة على السلوك، يستوي فى هذا ما يجري داخل المنزل او العلم بما يتعلق بحياة الصغير خارجه . وفى بعض الاحيان قد تؤدي التفرقة بين الابناء واختلاف معاملاتهم الى حقد من جانب بعضهم تجاه البعض الآخر ، وهو شعور اذا عززته عوامل اخرى قد يؤدي بالحدث الى الانحراف .

ولقد سبق ان عرضنا للظروف الاقتصادية وعلاقتها بالبيئة ، ولا شك فى ان القدرة الاقتصادية للاسرة تكون سهما فى تحديد كثير من العوامل المؤثرة والتي قد تؤدى الى اجرام الاحداث (٤٩) . واول ما يتأثر بالظروف الاقتصادية هو المسكن الذى يقيم فيه الحدث ، ذلك أن رب البيت يتخير المكان فى الحي الذى يتماشى مع اقتصادياته وموارده ، وتؤثر القدرة الاقتصادية فى تحديد مدى صلاحية المكان للسكن من ناحية اثاثه واتساعه وكونه صحيا من عدمه ؛ ولهذا اكبر الاثر فى استقرار الصغير داخل المسكن او الثورة عليه والهرب منه الى الطريق لا سيما فى اوقات الفراغ . ولعلنا نلحظ هذا فى انطلاق الاحداث فى كثير من الاحيان الى الشوارع فى تجمعات لقتل الوقت وهي فى ذاتها قد تكون بؤرة لتكون جرثومة الاجرام . وقد ثبت من البحث الخاص بجرائم السرقة عند الاحداث (٥٠) ان حالة أسر الاحداث المهنية فى مستوى منخفض جدا .

والعلاقة بين الاب والام لها اثرها الكبير فى سلوك الطفل ، فالخلاف بين الزوجين قد يميل بالصغير الى جانب آخر ، وقد لا يستطيع الكشف عن مشاعره فى صورة صريحة فينعكس هذا فى صورة تمثل انحرافا يقود الى الجريمة . وقد يرجع انتفاء الهدوء فى المنزل الى ضعف احد الزوجين ازاء الآخر ، على ان احد الطرفين ــ لاسيما اذا كان الاب ــ يعطى امثلة للأولاد فتطبعهم باحدى الصورتين الضعف او التحكم ، وهو أمر لا تحمد عواقبه . ومن الامور الملحوظة فى حياتنا

---

(٤٩) دراسة مقارنة عن الاحداث فى الشرق الاوسط ص ٢٤

(٥٠) بحث السرقة عند الاحداث .

ان ضرورات الحياة اضطرت كلا من الأب والأم الى الانطلاق فى سبيل الحياة كسبا للعيش . ويترتب على هذا ان يفقد الطفل الرعاية الاسرية له ، ويترك فى بعض الاحيان فى مجتمع الطريق لدى بعض الجيران ، بل انه حتى بعد عودة الوالدين من العمل لا يكون لديهما من الوقت أو الجهد ما يكفي لرعاية الصغير ، ومن المعروف انما يؤثر فى سلوك الصغير المشاكل التي تنشأ اما عن وفاة احد الوالدين او هما معا أو الانفصال بينهما بالطلاق ، ثم حياة احد الزوجين مع بديل للأب أو الام .

وللتعليم اثره العميق فى الارتفاع بالمستوى الفكرى والثقافى للانسان ويساعد على تكوين شخصيته المستقلة وعلى حسن تقديره الأمور . وتدل الاحصائيات الجنائية سواء فى مصر أم فى الخارج على أن النسبة الغالبة من المجرمين - احداثا وبالغين - هى للأميين ولمن لا يحسنون القراءة والكتابة ، ومن شأن التعليم خلق نماذج السلوك المعادى للاجرام . والمدرسة من أولى الجماعات المنظمة التي ينضم اليها الطفل فى خارج منزله فى السنوات الاولى من حياته ، واذا كان الصغير يجد فى المنزل نماذج سلوكية محدودة ، فان مجتمع المدرسة الجديد يلتقي فيه بنماذج عديدة متآلفة أو متنافرة ، وهو فى حداثته قد يجد نفسه ازاء تلك النماذج ، ولا بد له ان يختار بعضها سواء بمجرد دافع التقليد او انسياق تيار الجماعة . ومع هذا قد يعينه غيره فى عملية الاختيار (٥١) . وتأتى اثر هذا اهم مشاكل التربية السلوكية ، وهى تحديد دور كل من البيت والمدرسة فى تربية الصغير ، ويمكن لنا القول بأن قصر الواجب على البيت وحده او على المدرسة وحدها امر غير مقبول ، وانما الخير فى المعاونة بينهما فى تعرف عيوب الصغير الذي يحتمل ان تؤدي الى انحرافه والعمل معا على ابعاده عنها .

وقد ينتقل الصغير من البيت الى العمل مباشرة ، لاسيما فى الاسرة التى تحتاج اقتصاديا الى دخل الصغير ، وقد يمضى الحدث فترة فى المدرسة ثم لا يتم تعليمه لسبب أو لآخر ويلتحق بأحد الاعمال ، وفى العمل يلتقى الحدث بأفراد عديدين لهم نماذج سلوكية معينة . ويختلف مجتمع العمل عن مجتمع المدرسة ، فالاخير يحوي الحسن الى جوار السيء ، واذا كانت المدرسة تهتم بالناحية السلوكية فان رب العمل لا يعني الا بالناحية النظامية ولا يعنيه من السلوك الا ما يؤثر فى سير العمل . والتجمعات المختلفة التي تفرضها طبيعة مجتمع العمل لها اثر كبير فى النماذج السلوكية التي يتخيرها الفرد ، سواء اكانت اجرامية او معادية للاجرام ، وقد تفرض ظروف العمل على الحدث ان تكون له صلة بأفراد معينين لاخيار لهم فى انتقائهم . ومن هنا قد تبدا بذرة الجريمة فى الانبات ، ويتصل بها الحدث متأثرا بغريزة الجماعة دون ان توجد نماذج اخرى معادية للاجرام تساعده على مقاومة عوامل الاجرام .

---

(٥١) فالبيئة المدرسية تمنح وسطا يعمل اما للخير او للشر ، سلوك الفرد (برنس ص ٢٠)

واخيرا فقد يجتمع الاحداث خارج نطاق المنزل او المدرسة او محل العمل ، ويكون هذا فيما يسمى بمجتمع الطريق . ومن هذا القبيل الشارع والسينما والمقاهي والحدائق العامة .

واجتماع الحدث مع غيره من الرفقاء امر تدفع اليه الغريزة ، ويؤدي انطلاق الحدث الى الطريق الى اجتماعه بغيره ، سواء من كان في سنه او يكبره او يصغره ، فتكون الجماعات الصغيرة . ولا شك في ان افراد تلك الجماعات تحوي نماذج سلوكية مختلفة تتقارب حتى لتكاد تتحد مع مرور الوقت ، والحدث في المجموعة يؤثر او يتأثر بها حسب قوة شخصيته ومدى الاستعداد المهيأ له . ولما كان السلوك غير المعادي للاجرام يشجع عليه التجمع فان احتمال انزلاق بعض جماعات مجتمع الطريق الى الجريمة امر متوقع .

البيئة والتغير الحضاري :

يتبادر الى الذهن التساؤل عما اذا كان للتنمية الاجتماعية والاقتصادية من اثر على حجم الجريمة واتجاهاتها ، وبمعنى آخر هل هناك علاقة بين التحضر والجريمة من ناحية ، والتصنيع والجريمة من ناحية اخرى ؟ والاجابة على هذا السؤال ليست من البساطة بمكان ، لانها تقتضي ابتداء تحديد المراد من لفظي التحضر والتصنيع . ولا نستطيع القول بان هناك ضابطا محددا يمكن معه التفرقة بين المناطق الريفية والمناطق الحضرية على انه بالنسبة الى مصر وفقا للاحصاء السنوي الذي تصدره الدولة (٥٢) ، يعتبر مناطق حضرية المحافظات وعواصم المحافظات وبنادر المراكز ، اما غير هذا فيعتبر من المناطق الريفية . واذا كان مفاد التصنيع هو انقلاب كامل في سياسة الدولة الاقتصادية ، بمعنى ان تعتبر الصناعة العمود الاساسي في اقتصادها الا انه بالنسبة لمصر فان الاساس هو الزراعة ، وسياسة التصنيع ما تزال في بدايتها ، ولا يمكن ان يعتبر المجتمع المصري بالمنشآت الصناعية المستحدثة مجتمعا صناعيا .

ومع هذا فبقدر التحول الموجود في مصر هل يوجد تغير في خط سير الاجرام؟ ان هناك صعوبة لا يسهل الافلات منها ، وهي ربط الجريمة بالتحول القائم في المجتمع ، بمعنى اعتبار التحول سببا في ظاهرة معينة تتعلق بالجريمة . فالسلوك الاجرامي نتيجة لعوامل عديدة تتفاعل مع بعضها وتوصل اليه . على ان هذا لا يمنع من ملاحظة بعض التغيرات التي تطرأ على الاجرام في المجتمع وتكون مرتبطة بسياسة التحول . ومن ناحية اخرى يفتقر الحال الى الاحصائيات التفصيلية الدقيقة التي يعتمد عليها في هذا الصدد . واذا رجعنا الى مختلف بيانات الاحصائيات في مصر لا نجد اي تغيير جوهري قد دخل عليها نتيجة للتنمية الاجتماعية والاقتصادية ، حتى ان كثيرا من الجرائم المنتشرة والمعروفة حاليا لم تدرج بها . واكثر من هذا تأتي الاحصائيات الحالية

(٥٢) راجع الكتاب السنوي للاحصائيات العامة لمصر الذي يصدره الجهاز المركزي للتعبئة .

صامتة فيما عدا اشارات عابرة عن سير الاجرام في مقدمة تقرير الامن العام ، في حين ان الجداول الاحصائية السابقة كانت تحتوي دراسة عنها وتعليلا للنتائج التي توصل اليها ، فضلا عن ان تقارير الامن العام كانت تشمل ملاحظات رجال الامن في كل محافظة من حالة الاجرام والاقتراحات الخاصة بمكافحة الجريمة .

واذا نظرنا الى الاحصائيات الجنائية ـ لاسيما الخاصة بتقارير الامن العام ـ لوجدنا ان الجرائم ـ وعلى الاخص الخطيرة منها ـ تتجه نحو النقصان ، وهي نتيجة تلفت النظر لاسيما مع ازدياد تعداد السكان ، وتدعو لدراسة خاصة لمعرفة ما اذا كان هذا النقصان ظاهريا ام يطابق الواقع . وحتى لو ثبتت حقيقة هل يرد هذا الى التحول الذي طرا على المجتمع او الى تقدم المدنية الطبيعي في كل الدول مع مرور الايام ؟ والدراسة الحقة لآثار التحول يجب ان تبدأ بالريف اولا .

والبحث فيما اذا كانت التنمية الاجتماعية والاقتصادية يؤديان الى ازدياد الاجرام من عدمه لا يقتصر على المجتمع المصرى ، بل هو يتناول كل الدول التي تمر بهذه المرحلة من دول العالم الثالث . وقد كان الموضوع من بين ما طرح على المؤتمر الدولي الثاني لمكافحة الجريمة ومعاملة المذنبين الذى عقد في لندن سنة ١٩٦٠ وتبين من المناقشات التي دارت حوله ان الراى لم يستقر على اثر التحول الاجتماعي والنمو الاقتصادي في حجم الاجرام ونوعه . فبينما عرض بعض الاعضاء تجارب بلادهم الفعلية كانت هناك آراء مغايرة لذلك .

وقال المدير العام انه من الواضح انه لا تتوافر لدينا المادة العلمية الكافية للوصول الى نتائج على قدر كاف من الوضوح ، وفي مقدمة هذا النقص عدم دقة الاحصائيات الجنائية المتاحة ، ويبدو هذا جليا في ان الارقام عن الحضر والارقام عن الريف لا يفصل بينهما خط واضح ، اذ ان ما هو حضرى وما هو ريفي في ذاته ليس شيئا محددا ، بل حتى ولو كانت الارقام مما يمكن الاعتماد عليه فانها لا تفصح عن المضمون الاجتماعي وراء هذه الارقام ، وهو مضمون شديد الاختلاف من جماعة الى اخرى مما يجعل من الصعب الوصول الى تفسير دقيق لهذه الارقام ، او امكان اتخاذها اساسا للمقارنة من جماعة الى جماعة .

وقد كان من اهم التوصيات التي اقرها المؤتمر ما ياتي (٥٢) :

١ ـ ليس الاجرام نتيجة لازمة للتغيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادي في الدول الاقل نموا . فالتغيرات الاجتماعية ، وكذلك النمو الاقتصادى ، كلاهما امر محتم ومقبول ، وقد يؤديان في ظروف مناسبة الى نقص الجريمة . وتعبير الدول الاقل نموا انما يشير الى حالة من النمو الاقتصادى فحسب .

---

(٥٢) احمد خليفة ص ٣٦ .

٢ ـ الاجرام الذى قد ينشأ من التغيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادى فى البلاد الاقل نموا لا يعتبر الآن من صور السلوك التي لم تكن معروفة من قبل . ولذلك ينبغي تركيز الاهتمام على صلة زيادة الاجرام بوجه عام بالتغيرات الاجتماعية ، لا قصره على صورة خاصة من الاجرام .

٣ ـ قد ظنّ خطأ ان الهجرة ، وخاصة الهجرة الداخلية ، التي تقترن عادة بالتغيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادى فى البلاد الاقل نموا ، من أسباب الاجرام . والواقع ان الهجرة فى ذاتها ليست سببا للاجرام ، بل ان عدم الاستقرار الحضارى وضعف الضوابط الاجتماعية التقليدية والتعرض لمستويات متضاربة من السلوك الاجتماعى مما يرتبط بالهجرة ، كل ذلك من شأنه ان يتسبب فى الاجرام . وهذا النظر يصدق ايضا بالنسبة الى ظاهرتى التحضر والتصنيع .

٤ ـ ويلاحظ انه عند بحث مشكلة الاجرام وعلاقته بالتغير الاجتماعى يتجه النظر بصفة عامة الى المناطق الحضرية ، وهو امر وان كان من الممكن تبريره الا ان الحكمة تقتضى ايضا ان يوضع موضع النظر والاعتبار أثر التغير الاجتماعى فى المناطق الريفية ذاتها ، اذ ان ذلك قد يكشف عن جذور الجريمة التى تعلن عن نفسها فيما بعد فى المجتمع الحضرى .

وقد قام المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بدراسة التحضر والجريمة فى مصر(٥) معتمدة على احصائيات وزارة العدل لما تتوافر فيها من تحديد وتقريب للجرائم المختلفة كما جاءت فى قانون العقوبات ، ومن استمرار نفس التبويب والتصنيف للبيانات المختلفة فى المدة الزمنية المحددة للدراسة ، وهى من عام ١٩٤٧ الى عام ١٩٥٧ . واتضح من هذه الدراسة ان جرائم الجنايات والجنح تزيد بصفة عامة فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية . وبالنسبة الى الجنايات تزيد جرائم العنف المرتكبة ضد الاشخاص لاسباب انتقامية ، وجرائم الانتقام بالحرق العمد ، او قلع المزروعات ، او تسميم المواشي فى المناطق غير الحضرية عنها فى المناطق الحضرية . اما جرائم السرقة والرشوة والتزوير والاختلاس والفسق وهتك العرض والنقود تزيد فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية . وبالنسبة الى الجنح تزيد الجنح التالية فى المناطق غير الحضرية عنها فى المناطق الحضرية ، تسميم المواشي واتلاف المزروعات . اما الجنح الآتية فتزيد فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية : السرقة ، التشرد ، النصب ، خيانة الامانة ، الضرب ، القتل الخطأ ، الهروب من المراقبة .

---

(٥) بحث التحضر والجريمة فى مصر ـ ص ١ ومابعدها .

وفي محاولة معرفة اتجاه الجريمة في المناطق الحضرية والمناطق غير الحضرية خلال المدة من ١٩٤٧ الى ١٩٥٧ اتضح الآتي :

١ ـ ان جرائم الجنايات بصفة عامة اخذت في الانخفاض تدريجيا حتى ١٩٥٢ ، وكانت نسبة انخفاض الجنايات في المناطق غير الحضرية اكبر من نسبة انخفاضها في المناطق الحضرية باستثناء عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٢ .

٢ ـ بدأت جرائم الجنايات بصفة عامة في الزيادة ابتداء من عام ١٩٥٢ الذي زادت فيه بشكل كبير حول الانخفاض التدريجي الى ارتفاع تدريجي .

٣ ـ كانت جرائم الجنايات بصفة عامة اكثر ميلا للارتفاع بشدة في المناطق الحضرية عنها في المناطق الحضرية ، بينما تميل الى الانخفاض بشدة في المناطق غير الحضرية عنها في المناطق الحضرية .

٤ ـ جرائم الجنح بصفة عامة اخذت في الارتفاع التدريجي عام ١٩٤٦ وانخفضت بشكل كبير عام ١٩٥٧ . وايضا تبين ان الجنح بصفة عامة اكثر ميلا للارتفاع بشدة في المناطق غير الحضرية عنها في المناطق الحضرية .

والذي يمكن استخلاصه من هذه الدراسات الجرائم التي يمكن أن يطلق عليها الجرائم الانتقامية ـ لا سيما ما كان منها متعلقا بالاعتداء على الاشخاص ـ تغلب دائما في المناطق غير الحضرية عنها في المناطق الحضرية . وان جرائم الاعتداء على المال، والتي تكون الغاية منها الكسب تغلب في المناطق الحضرية عنها في المناطق غير الحضرية . وقد لوحظ ايضا ان مختلف انواع الجرائم ـ الجنايات والجنح ـ تتجه دائما نحو الارتفاع. هذا وانه وان كانت الدراسة قد تناولت حجم الجريمة منذ عام ١٩٤٧ حتى ١٩٥٧ الا انها لا تكشف عن اثر التحول الذي حدث في المجتمع على سير الاجرام ، لانها اعتمدت على احصائيات وزارة العدل التي لم تتغير جداولها وبياناتها للجرائم خلال هذه الفترة .

وقام المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بدراسة اخرى عن ظاهرة الجريمة في اسوان (٥٥) وذلك في المدة من ١٩٥٩ حتى ١٩٦٤ . وقد جاء في مقدمة هذه الدراسة ان مجتمع اسوان كان ـ الى حين تنفيذ مشروع السد العالي ـ مجتمعا محتفظا باصالته الريفية وبالعلاقات الاجتماعية التي تنمو في كل مجتمع زراعي ، وقد ترتب على تنفيذ مشروع السد العالي ورود عدد كبير من العمال والمهندسين والموظفين من جميع انحاء الجمهورية بمنطقة السد

(٥٥) سيد عويس وشهيرة الباز ، ص ١٧٩ وما بعدها.

العالى ، وقيام بعض الصناعات التى يحتاجها المشروع : ولما كان هؤلاء العمال والموظفون يرتبطون اساسا بالصناعة ، فقد كانت تسودهم قيم واخلاقيات وعادات اجتماعية تختلف اختلافا كبيرا عن القيم والاخلاقيات والعادات الاجتماعية التى تسود سكان اى مجتمع زراعى .

وانه بشكل عام يمكن القول بان مجتمع اسوان قد تحول بعد بدء العمل فى مشروع السد العالى الى مجتمع صناعى تتضح فيه كل السمات الاساسية التى يتسم بها هذا النوع من المجتمعات، ومن الظواهر التى تأثرت تأثرا كبيرا بالتغيير الجذرى الذى حدث فى تلك المنطقة ظاهرة الجريمة .

ويمثل الجدول التالى جرائم الجنايات التى وقعت خلال المدة من ١٩٥٩ حتى ١٩٦٤ :

الجريمة / السنة	قتل وشروع	سرقة وشروع	خطف	حريق	جنايات أخرى	جملة
١٩٥٩	٤	٢	١	٢	٣٤	٤٣
١٩٦٠	١٠	١	—	٢	٢٥	٣٩
١٩٦١	٥	٢	—	—	٢٧	٣٤
١٩٦٢	٥	١٠	—	١	٢٠	٢٧
١٩٦٣	٤	٢	—	١	٣٩	٤٦
١٩٦٤	١٤	٢	١	—	١٥	٦٩

اما جنح السرقة فقد بلغت نسبتها الى مجموع الجنح خلال السنوات ١٩٦١ حتى ١٩٦٤ على التوالى كما يأتى : ٣١٫٩ ٪ ، ٢٧٫٢ ٪ ، ٢٥٫٥٦ ٪ ، ٣٢٫٣ ٪ .

واتماما لعقد المقارنة يمكن اضافة الجدول التالى عن جرائم الجنايات :

الجريمة / السنة	قتل وشروع	سرقة وشروع	خطف	حريق
١٩٣٨	٩	١٢	—	١٧
١٩٤٨	١١	٨	—	١٣
١٩٥٨	٦	١٠	١	٨
١٩٦٨	١٢	٦	—	٢
١٩٧١	١١	١١	١	١
١٩٧٤	٧	٤	—	١

فهل يمكن ان نستنتج من الجدولين السابقين الخاصين بجرائم الجنايات اثر تحول المجتمع فى اسوان على ظاهرة الجريمة ؟ ، وراينا انه لم تتوافر بعد البيانات الكافية لاستخلاص نتيجة يعتمد عليها . فالجدول المستخلص من بحث المركز القومى لم يبين النسبة المئوية للجريمة

بالقياس الى عدد السكان فى محافظة اسوان الذى تزايد بدرجة كبيرة بما قد يؤدى الى الانخفاض فى نسبة الاجرام لا فى زيادته ، لا سيما اذا رجعنا الى الجدول الثانى حيث تكاد تكون جنايات القتل والشروع فيه متقاربة . هذا ومن المسلم به انه لا يمكن تحديد الآثار الناشئة عن تحول المجتمع فى سنة محددة اثر سنوات تالية ، وانما يحتاج الأمر الى دراسة كل جريمة على حدة . وعلى سبيل المثال اذا كانت جريمة القتل ترتكب للثار فهل يؤثر التحول الاجتماعى عليها ؟ والأمر لا يختلف بالنسبة الى الجنح حيث تكاد تكون نسبة جنح السرقة خلال سنوات الدراسة متقاربة ، والمهم هو مقارنة هذه النسب مع ما كان عليه الحال قبل تطور المجتمع . وخلاصة قولنا ان الامر يحتاج الى مزيد من الأبحاث والدراسات .

ومما يتصل بالتغير الحضارى وله اثر بالغ فى سلوك الفرد على اية صورة كان سواء كانت اجرامية او سوية ، هو اثر اجهزة الثقافة والترفيه فى الاجرام ، ذلك ان هذه الوسائل تعتبر جزءا من الوسط الذى يعيش فيه الفرد ويتاثر به [٥٦]. فوسائل الاعلام المختلفة تلعب دورا خطيرا فى الحياة الثقافية لافراد الشعب ، فاذا قدمت نماذج صالحة كان لهذا اثره على المستوى السلوكى ، اما ان عرضت لصور من الاجرام بشكل يثير الغرائز الكامنة فى الانسان ، فانها بهذا تشجع السلوك الاجرامى . ولقد تناول كثير من الباحثين دور وسائل الاعلام فى نشر الجريمة او مكافحتها ، حيث يسعى بعضها الى مجرد الكسب المادى دون نظر الى ما قد يسفر عن ذلك من نتائج ، فتصوير المجرمين فى صور البطولة ، وجلب عطف القراء عليهم ، وايضاح سبل ارتكاب الجريمة ، والهرب من ادلتها واعداد نتائجها سلفا ، كل هذا قد يكون من العوامل المساعدة على السلوك الاجرامى .

ونستطيع القول بان الاثار الخطيرة التى ظهرت لوسائل الاعلام فى بعض البلاد الاجنبية لم تصل الينا بعد ، وذلك للصورة المقبولة التى ينشرها عن الجريمة . وان كانت هناك بعض الوقائع التى اعترف فيها المتهمون بانهم رسموا طريقهم فى ارتكاب الجريمة وفقا لما شاهدوه فى بعض الافلام ، الا ان تلك الوقائع مازالت فردية لا تمثل خطورة . ولم تستطع نتائج الأبحاث التى اجريت قديما وحديثا بيان تاثير ادوات الاعلام فى السلوك الاجرامى لا سيما بالنسبة الى الاحداث .

خاتمة :

رأينا فيما تقدم أن الجريمة تعتبر احدى الظواهر الاجتماعية ، وانها موجودة دائما منذ خلقت البشرية الى ان يرث الله الارض ومن عليها ، فلا مجتمع بغير جريمة . والجريمة وان كانت ضرورة فهي فى ذات الوقت شر ، يقتضي مداومة البحث عن مختلف السبل للاقلال من ضررها على المجتمع ، واقتضى الامر تحديد الجريمة التى تستحث الباحث على الاهتمام بها

---

(٥٦) ستيفاني واخرون ، بند ١٠١

ومتابعتها وتقصي عواملها وتتبع آثارها ، لم لزم تبعا لهذا ان يحدد نطاق البيئة ، وهو أمر من الدقة بمكان ، ذلك لأن اى حدود لمعنى البيئة ـ اتسعت ام ضاقت ـ لابد وان يدخل عليها او يخرج منها بعض العناصر ، لانها على اية صورة تتفاعل مع مختلف الظروف والعوامل المحيطة بها . وعلى هذا فقد رأينا ان كل ما يراه العلماء عاملا من عوامل الاجرام له صلة بالبيئة من قريب او بعيد ، واقتضانا هذا ان نتناول تلك العوامل واحدا بعد الآخر لنتبين مدى ما يتركه من اثر في السلوك الاجرامى على وجه الخصوص . ولا شك في ان كل عامل من العوامل يمكن تناوله مستقلا وبالتفصيل ، سواء من الناحية النظرية او من الناحية التطبيقية ، ولكنا اردنا في هذا البحث ان نلم بتلك العوامل مجتمعة حتى تتضح معالم صورة البيئة كاملة ، ويستطيع من يتناول دراسة عامل معين ان يكون في اعتباره قيام كل او بعض العوامل الأخرى .

* * *

المراجـع

اولا ــ اللغة العربية :

١ ــ احمد ابو زيد — الثار ، دراسة انثروبولوجية باحدى قرى الصعيد ، من منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ــ القاهرة ١٩٦٥ . المجلة الجنائية القومية ، نوفمبر ١٩٦٣ .

٢ ــ احمد على المجدوب — ــ دراسة لظاهرة الجريمةفىقرية طهواى ــ المجلة الجنائيةالقومية ــ يولية ١٩٧٢ .

٣ ــ احمد محمد خليفة — ــ الوقاية من الجريمة الناشئةعنالتغير الاجتماعى المصاحب للتنميةالاقتصادية فى البلاد الاقل نموا ــ المجلة الجنائية القومية . مارس ١٩٦١ .

٤ ــ حسن الرصفاوى — ــ الاجرام والعقاب فى مصر ــ الاسكندرية ــ ١٩٧٢ .

٥ ــ حسن الرصفاوى ومحمودالسباعى ــ مبادء علم الاجرام ، مترجم (سذرلاندو كريسى) القاهرة ١٩٦٩ .

٦ ــ زكريا طـه — ــ جريمة الخطف فى جمهورية مصر العربية ــ معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة ــ القاهرة ١٩٧٤ .

٧ ــ سمير الجـزورى — ــ النزلات المحكوم عليهن بسجون الاقليم المصرى ــ المجلة الجنائية القومية نوفمبر ١٩٥٩ .

٨ ــ سـيد عويس — ــ حجم مشكلة جناح الاحداث واتجاهاتها وعواملها فى الجمهورية العربية المتحدة ــ المجلة الجنائية القومية ــ يولية ١٩٦٥ .

٩ ــ سيد عويس ، شهرة الباز — ــ ظاهرة الجريمة فى محافظة اسوان ــ المجلة الجنائية القومية ــ يوليو ١٩٦٦ .

١٠ ــ عبد العزيز محمد القطنى — ــ سمات الجريمة فى محافظة البحيرة والتخطيط لمكافحتها ــ معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة ــ القاهرة ١٩٧٤ .

١١ ــ محمـد البـابلى — ــ الاجرام فى مصر ــ اسبابه وطرق علاجه ــ القاهرة ١٩٤١

١٢ ــ محمد خيرى محمد على — ــ الريف والحضر وظاهرة الجريمة ــ القاهرة ١٩٦٥ .

١٣ ــ محمود عبد الرزاق عبد العال — ــ نوعية الجريمة فى بحيرة المنزلة ــ معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة ــ القاهرة ١٩٧٥ .

١٤ ــ منصور غيث قنديل — ــ الامن العام فى الجمهورية الليبية ــ معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة ــ القاهرة ١٩٧٥ .

١٥ ــ الأمم المتحـدة — ــ دراسة مقارنة عن اجرام الاحداث (الجزء الخاص بالشرق الاوسط) ١٩٦٦ .

١٦ ــ المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية — دراسة التحضر والجريمة فىالاقليمالمصرى ــ المجلة الجنائية القومية ــ مارس ١٩٥٩ .

١٧ ــ المركزالقومى للبحوث الاجتماعية والجنائية — السرقة عند الاحداث ــ من منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية .

١٨ ــ المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية — العوامل الاجتماعية فى تشرد الاحداث ، المجلة الجنائية القومية ــ نوفمبر ١٩٦٥ .

ثانيا ـ اللغة الأجنبية :

1. Bonger W. T. : An Introduction to Criminology, 1936.
2. Bouzat Pierre et Jean Pintil : Traité de droit pénal et de criminologie, T. III, 1968.
3. East Norwood : Society and the Criminal, 1951.
4. Kolaly, El-Mohamed : Essai sur les causes de la criminolilé astuelle en Egypte, 1929.
5. Mays, John Barron : Crime and Social Strecture, 1963.
6. Pinatel, Jean : La Criminologie, 1960.
7. Prins, Hershel : Criminal Behaviour, 1973.
8. Seeling, Ernst : Traité de criminologie, 1956.
9. Stefani, J. & G. Levasseur & R. Jambu Marlin : Criminologie et sience penitentiaire 1970.
10. Sutherland, Edwin H. & Donald Cressey : Principes de criminologie, 1966.
11. Tannenbaum Frank : Crime and the Community, 1963.
12. Wolfgang, Marion & Leonard Sairta & Norman Johston : The Sociology of Crime and Delinquency, 1970.

* * *

محمد عبد الرحمن الشرنوبي *

بيئة العصر: بين البقاء والفناء

منذ ملايين السنين وعوامل التعرية الهوائية والمائية والتغيرات المناخية تعمل على تغيير العديد من مظاهر البيئة الطبيعية ، ولم يكن يخطر ببال احد ان جنسا واحدا من اجناس الكائنات الحية العديدة التي تحيا حياة الارض ،يمكن ان يعمل بجد - سواء كان ذلك بقصد او بغير قصد - على دمار هذا الكوكب او تخريبه والعمل على تدهور ظروفه الطبيعية الا منذ ٨٠٠٠ سنة مضت في صورة هذا الانسان الجوال المطارد ، الذي يطوف أجزاء الارض بحثا عن الطعام ، ثم تطور الى فلاح يزرع الارض ، ثم جاءت المدنية فحياة المجتمعات الصناعية التي ضوعفت فتضاعفت المخاطر التي تتعرض لها بيئة هذا الكوكب .

لقد كانت الاسرة البشرية الاولى تعمل بجهد لا يعرف الكلل على جمع طعامها بمطاردة الحيوانات خلال ما يعرف بالعصر الحجري القديم . وكانت في هذا متفاعلة تماما مع

* دكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبي ، استاذ الجغرافيا المساعد بكلية الآداب والتربية بجامعة الكويت .

المجتمعات البيولوجية المحيطة بها . ولقد اسهمت الادوات التي استخدمها الانسان آنذاك في تكوين اسرة مدربة تدريبا راقيا على مطاردة الحيوانات والايقاع بها ، ومع ذلك فلم يكن تأثير هذا الانسان على تلك المجتمعات البيولوجية يختلف حقيقة عن تأثير اى نوع من انواع الكائنات الاخرى كالحيوانات آكلة اللحوم وآكلة العشب ، ولكن الصورة تغيرت تماما مع مسيرة التاريخ الانساني الطويلة .

لقد جاء أول تغير على العلاقة بين الانسان والبيئة مع اكتشاف النار . ولقد كان ذلك الحدث الخطير في حد ذاته من اهم الاحداث التي عاصرت خروج الانسان من اسر الطبيعة من حوله او من تفاعله الهادىء مع عناصرها . فليس هناك اى كائن آخر يستطيع ان يشعل النار ويستخدمها . وعندما بدأ الانسان يتحكم في هذه الظاهرة الخطيرة ــ النار ــ ازداد استخدامه لها ، فاحدث بذلك الكثير جدا من التاثيرات الايكولوجية ذات المدى البعيد والخطير . (١)

ولقد مرت علاقات الانسان بعناصر البيئة من حوله آنذاك بتغيرات هائلة ، ولكنه كان في كل تصرفاته وعلاقاته وتفاعلاته مراعيا للمبادىء الايكولوجية ، كما نجح في استمرار بقاء الجسور ممدودة بينه وبين البيئة بعناصرها المختلفة من حوله . كذلك نجح في استغلال هذه العناصر بحكمة متناهية وبصيرة نافذة ، ربما عن غير قصد ، الا ان اثبات ذلك يعتبر امرا عسيرا ، وان كان من الثابت ان ذلك الانسان لم يكن يميز ــ كما يفعل انسان العصر ــ بين ذاته كانسان ، وبين العالم الطبيعي المحيط به .

لقد اطلق علماء الانثروبولوجيا على تلك التغيرات اصطلاح ثورة العصر الحجرى الحديث Neolithic Revolution ، رغم ان اصطلاح «ثورة» هنا ربما لا يتلاءم تماما مع التغييرات التي حدثت على امتداد ملايين السنين ، ولكونها حدثت في ازمنة متباينة ، وفي تلاحق مستمر ، وفي اجزاء مختلفة من العالم . واستطاع الانسان آنذاك ــ رغم اعداده البسيطة ــ ان يتدخل في بيئته .

ومن خلال ممارسة هذا الانسان لنشاطاته المختلفة خلال ذلك العصر ، تمكن من تطوير ادوات صيده واسلوب مطاردته لفريسته . ولقد كان مسرفا في ذلك الى حد كبير . (٢) فكان يقود قطعان الحيوانات الى الشراك المختلفة والى الجروف ليسهل القضاء عليها في جماعات . وعلى الرغم من ذلك ، ونتيجة لقلة اعداد السكان خلال ذلك العصر ودوام حركتهم ، كان تأثير الانسان في البيئة تأثيرا محليا ومؤقتا . فالارض كانت تعطى الفرصة لاستعادة ما فقدته من غطاء نباتي ، وكان الانسان يعود اليها ليمارس نشاطه من جديد وكانها ارض جديدة حل بها .

---

(١) Marston Bates : „ The Human Ecosystem ", Firm Resources and Man, by the Committee on Resources and Man of the Division of Earth Sciences, National Academy of Sciences — National Research Council, 1969, and, Ecological Crisis, Edited by G.A. Love & R.M. Love, N.Y., 1970, P. 3 .

(٢) محمد عبد الرحمن الشرنوبي : « جغرافية السكان » القاهرة ــ مكتبة الانجلو ، ١٩٧٢ ، ص ص . ٥٥ ــ ٥٩ .

ولا نملك الدليل حقيقة على ان ثمة ثورةاقتصادية قد حلت مع بداية العصر الحجرى الحديث ، فقد ظهرت الزراعة واستئناس الحيوان بالتدريج منذ العصر الحجرى الاوسط Mesolithic ، وتجمعت هذه الاتجاهات خلال العصر الحجرى الحديث عندما ظهر الانسان بوضوح كحيوان « سيد » شرع فى غزو بيئته النباتية والحيوانية واخضاعها ، بدلا من التكيف معها .

وتدخل انسان العصر الحجرى الحديث فى البيئة عن طريق زراعة المحاصيل واستئناس الحيوانات، ومن ثم عمل على اجتثاث الغابات، مما تسبب فى ازالة التربة وتلوث الانهار بالرواسب كما عجل بعمليات التعرية الطبيعية بالتدريج . وكان اعداد الحقول وزراعة المحاصيل والعناية بالحيوانات واعداد المواد الغذائية ومنتجات الحيوانات ، يتطلب حياة جماعية فى قرى اكثر من حياة القبائل الرحل . وازداد نظام القرى تعقيدا عندما كانت تحصل قرية ما ، على مورد طيب من الاحجار ، فتصنع فؤوسها وتطورها ، وكانت الاخرى تلجا الى الطمى لصناعة الاوانى ، وثالثة تلجا الى الالياف النباتية لعمل السلال . وكانت مثل تلك المنتجات المتنوعة توزع وتنتقل من مكان الى آخر عن طريق التجارة ، الامر الذى استلزم تمهيد بعض الطرق لتيسير الانتقال .

ولقد كان الامتداد المنطقى لهذه الميول ، هو ما انتهت اليه حياة المدن الآن ، ودمار الغابات الطبيعية ، وامتداد الرقعة الصحراوية ، ونظرتنا الى الطبيعة الآن على اعتبار انها شىء ينبغى اخضاعه لكافة متطلباتنا فى الوقت الحالى ، وليس شيئا ينبغى ان نتعايش معه فى وفاق .

وحينما بدأ الانسان يمتلك القدرة على اتخاذ القرار الذى يناسبه ويقرر به مصيره ، استطاع ان يسيطر على كثير من مقدراته ومقدرات بيئته ، وهنا فقط بدأ يحطم كل القواعد الايكولوجية التى سبق أن تعايش معها وفى ظلها ، بل قدسها وعبدها احيانا ، (٢) فلقد حطم مسالك تدفق الطاقة ، ومزق نسيج الطعام الطبيعي واخل بسلاسله ، وحقق لبعض جماعاته العزلة ، واخل بكثير من التفاعلات الاجتماعية ، ولم يتمكن من تحقيق التوازن بين موارده واعداد جنسه ، وتمادى فى استغلال الارض والغابات ومصايد الاسماك فى البحار والمحيطات ، ونشر الامراض ، وادخل نظما غريبة للحياة ، فى الوقت الذى استاصل فيه النظم الاصلية وغير ملامحها بدرجة خطيرة .

ويرى العالم الانثروبولوجي البريطاني **جوردن تشيلد** Gordon Childe أن ما حدث بعد العصر الحجرى الحديث انحصر فى حدود ثورتين : الأولى هى الثورة الحضرية Urban Revolution ، والتي اهتمت بنقل وتخزين المواد الغذائية ، مما عجل فى الامكان ظهور المدن والتخصص فى العمل

---

(٢) يرى العالم الانثروبولوجي كون Carlton S. Coon **ان حضارة العصر الحجري الحديث اثر بكثير من موضوع بحث علماء ما قبل التاريخ ، وان التباعد عنها ربما يكون من اصعب المشاكل فى العالم . (راجع :**
Marston Bates, O .Cit. (P. 36, 37.

والمعارف . اما الثانية فهي الثورة الصناعية Industrial Revolution ، والتي قامت على اساس استخدام الطاقة بدلا من استخدام عضلات الانسان والحيوان . وان كان سنو C.P. Snow يضيف ثورة ثالثة اسماها بالثورة العلمية Scientific Revolution وهي تلك الثورة الحديثة المعاصرة التي جاءت عن اتحاد العلم والتكنولوجيا لحل المشكلات العملية المختلفة ، وهي الثورة التي اتاحت للانسان زيادة درامية محزنة في الطاقة خلال هذا القرن بما في ذلك الطاقة النووية الرهيبة، وتطور الأجهزة الالكترونية . وتعتبر هذه الثورة الاخيرة بالذات ، سببا رئيسيا في تلك التغيرات الايكولوجية على نطاق عالي اكثر من اي تغيرات اخرى .

• • •

ترابط الغلاف الحيوى :

الغلاف الحيوى Biosphere مصطلح يشتمل على كافة المجتمعات التي تزخر بها بيئة هذا الكوكب في حياة ذات نظم وقوانين محكمة ايما احكام . ولقد انصب اهتمام العلماء لفترة قريبة على « اغلفة » الكرة الارضية الاخرى دون الاهتمام بالغلاف الحيوى كغلاف يمثل وحدة واحدة مترابطة اثبتت الثورة العلمية المعاصرة ان له تأثيرا بالغا على سائر الأغلفة الاخرى . (٤)

واهمية هذا الغلاف تتمثل في ان الانسان ، وهو احد عناصره الرئيسية ، قد اصبح يدرك جيدا الآن ان هناك نوعا من « التكافل » الفريزي بين مجتمعاته . وهو يمثل نظاما فريدا مترابطا رغم تنوعه الذي لا حد له . هذا التنوع لا يمكن لاحد ان ينكره ، فالصحراء والغابة على سبيل المثال ، نوعان من الاماكن مختلفان ، رغم انه من الصعب وضع خط يحدد حدود كل منهما . غير ان الانواع المختلفة والعديدة للمجموعات البيولوجية التي تكوّن الغلاف الحيوى توضح وحدة حقيقية بالفعل . فالحياة في كل موقع منظمة وقائمة على مبادىء اساسية واحدة .

ومن المؤكد علميا ان الاحياء جميعا ـ من نباتات وحيوانات وكائنات اخرى ـ والتي تعيش في منطقة ما ، وتكوّن مجتمعا بيولوجيا مميزا ، تترابط فيما بينها في شبكة من العلاقات المعقدة. ولكل مجموعة من هذا المجتمع دور هام يؤديه لافراد المجموعات الاخرى . ويميز علماء الايكولوجيا بين هذه المجموعات ، فهناك الكائنات المنتجة Producers ، والحيوانات التي تتغذى عليها ، وتسمى بالكائنات المستهلكة Consumers ، وهناك الحيوانات التي تحيا مباشرة على النباتات

(٤) اغلفة الارض تبدا حول نواة مركزية صلبة يطلق عليها الباريسفير Barysphere يحيط بها الغلاف الصخري Lithosphere ، ثم الغلاف المائي Hydrosphere ممثلا في البحار والمحيطات ، ثم الغلاف الغازي Atmosphere ، وامكن تمييز ثلاث طبقات جوية فيه اطلق عليها تروبوسفير Troposphere وستراتوسفير Stratosphere وايونوسفير Inosphere ونلاحظ ان الغلاف الحيوى Biosphere قد سقط من هذه التقسيمات في شتى الدراسات رغم اهميته وارتباطه بالاغلفة الاخرى .

وتسمى بحيوانات الصناعة الرئيسية Key Industry Animals لاعتماد عالم الحيوان كافة عليها ، ثم هناك المحللات Decomposers كالبكتيريا والفطريات لدورها في تحلل الأحيان بعد موتها .

وهذه المكونات البيولوجية متعاونة « مع العناصر الفيزيائية وتكون ما يسميه علماء البيولوجيا بالنظام الايكولوجي Ecosystem . ويؤكد المفهوم الخاص بهذا النظام على العلاقات الوظيفية فيما بين الكائنات الحية فيما يعرف بنسيج الطعام Food Web ، وبين تلك الكائنات وبين البيئة الطبيعية الخاصة بها . وتتمثل هذه العلاقات الوظيفية في سلسلة الغذاء التي تتدفق من خلالها الطاقة ، كما تتمثل كذلك في الطرق أو المسارات التي تتحرك على امتدادها العناصر الكيميائية الضرورية للحياة في ذلك النظام البيئي او ذاك .

ولا شك ان الالمام بظروف هذه العلاقات والوظائف امر حيوى للغاية لفهم الآثار التى يحدثها الاخلال بالتوازن البيئي الضرورى من اجل بقاء ذلك « التكافل » بين عالم الأحياء . واذا كان الاقدمون قد تصرفوا بوعى بيئي من غير قصد ، فليس اقل من ان نتصرف بنفس المنطق، ولكن عن قصد . وحتى يعود التوازن الى حالته بينبغي الا نظل على اسرافنا في اتلاف البيئة وتلويثها والعبث بقوانينها الأزلية ، مهما كانت الغاية : استثمارا او استغلالا او ثراء او رفاها . ان كل ما يلصق بزيادة السكان او بالثورة التكنولوجية كعوامل ساهمت في تلف البيئة لا بد ان يوضع تحت المجهر ، ولا شك ان الادراك الواعى للانسانية ، والذى لن يتحقق في عالم لا يسوده السلام ، هو وحده السبيل الى اعادة الصداقة اللازمة لبقاء الانسان مع الطرف الاخر . . . البيئة .

• • •

انفجار البشرية :

يبلغ عدد سكان العالم الآن حوالى ٣ر٦ بليون نسمة بزيادة سنوية متوسطها ٧٠ مليون نسمة . الا ان هذه الأعداد الهائلة تكاد تقف على حافة عصر انقراض كامل ، نتيجة لتدهور البيئة المعاصرة . وليست هناك ظاهرة جيولوجية خلال البليون سنة الماضية (مثل ظهور سلاسل الجبال الالتوائية الشاهقة وانخفاض كتل يابسة شبيهة بقارات باكملها) قد هددت او عرضت الحياة على سطح الارض للفناء ، مثلما تفعل الآن ظاهرة الانفجار السكانى الذى نشهده منذ فترة .

وقد يمكن ان نميز بين نمو سكان مجموعة من الدول ونمو سكان مجموعة اخرى ، لكن الحقيقة تقول بعالم واحد . فليست المشكلة في تزايد سكان منطقة بمعدلات كبيرة فتتعرض لمشكلة ما ، وتزايد سكان منطقة اخرى بمعدلات اقل فلا تتعرض لمثل هذه المشكلة .

وليست هنالك بيانات تاريخية مدونة ، نستطيع على اساسها ان نقدر عدد السكان الذين عاشوا على وجه الأرض قبل عام ١٦٥٠ . الا انه من المعتقد ان جملة عدد السكان في زمن السيد

المسيح عليه السلام كان يتراوح بين ٢٠٠ الى ٣٠٠ مليون نسمة ، وقد ازدادت اعداد السكان حتى بلغت ٥٠٠ مليون نسمة في عام ١٦٥٠ ، ثم بلغت ١٠٠٠ مليون (بليون) نسمة في عام ١٨٤٠ ، ثم تضاعفت اعدادهم فبلغت (٢٠٠٠) مليون في عام ١٩٣٠ . ولقد حدثت عدة مضاعفات سابقة لمضاعفة اعداد السكان من عام ١٨٤٠ الى عام ١٩٣٠ الأخيرة هذه . فقد تضاعف السكان من قبل مرة خلال ١٥٠٠ سنة ، ثم جاء التضاعف الثاني خلال ٢٠٠ سنة ، وكان الثالث خلال ٨٠ سنة ، ولو استمر معدل زيادة السكان ٢٪ (كما كان في عام ١٩٦٨) فسوف يتضاعف عدد السكان خلال ٣٥ سنة فقط . (٥) ويعني هذا المعدل ان هناك اضافات للسكان كل عام تقدر بحوالي ٢٠ نسمة لكل الف من السكان . ويلاحظ انه باضافة ٢٠ نسمة لكل الف من السكان كل عام سيتضاعف السكان خلال ٥٠ سنة . ولكن من المعروف ان تضاعف الزمن اقل بكثير من تضاعف السكان ، ويرجع ذلك الى ان نمو السكان ينمو بنفس طريقة نمو راس المال عند حساب فوائده بطريقة الربح المركب ، اى كما يربح المال من ذاته ربحا معينا ، ثم يربح هذا الربح ربحا آخر ، وهكذا . ومن هنا كان التضاعف المنتظر يستغرق ٣٥ عاما وليس ٥٠ عاما . فكل اضافة من السكان ينتج عنها اضافة اخرى ، ومن ثم يختزل الزمن المتوقع ويواجه العالم بان الزيادة التالية ستتم في فترة أقصر(٦) (انظر الشكل رقم ١) .

ولقد كان **توماس مالتوس** اول من اهتم بزيادة السكان عندما نشر مقالته عن السكان في عام (١٧٩٨) اى في الوقت الذي كان فيه عدد سكان العالم اقل من ثلث عدد السكان الآن . ولقد كان مدخل مالتوس مدخلا ايكولوجيا سليما . فقد اعتقد ان السكان من البشر يمتلكون قدرة حيوية لمضاعفة اعدادهم كل ربع قرن ، في الوقت الذي لا تحقق فيه الموارد المتاحة زيادة مماثلة . ولذا فان السكان ، ما لم يتحكموا في هذه الزيادة ، فان اعدادهم سوف تتجاوز حدود الموارد الغذائية ، وتكون الترجمة المنطقية لما سماه Dismal Thorem هي بؤس الانسان . (٧)

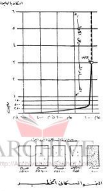
ولقد سخر بعض الناس من هذه النظرية بسبب موجة التفاؤل التى سادت القرن التاسع عشر ، وما زال هناك متفائلون . والحقيقة ان نظرية مالتوس قد ثبتت صحتها اكثر من مرة ، ففي ايرلندا ساعد ادخال زراعة البطاطس وزيادة ورخص الطعام ، على زيادة سكانية كبيرة . ولقد توقفت هذه الزيادة نتيجة لاصابة محصول البطاطس بآفة زراعية تسببت في مجاعة كبيرة عام

---

(٥) محمد عبد الرحمن الشرنوبي : « المشكلة السكانية في الربع الاخير من القرن العشرين » محاضرات الموسم الثقافي للجمعية الجغرافية الكويتية عام ١٩٧٥ (مجلة الجمعية ـ العدد الاول ـ ١٩٧٦ ـ الكويت) .

(٦) Ehrlich, P.R. & A.H., : "Population, Resources, Environment," Issues in Human Ecology, San Francisco, 1970, PP. 14-30.

(٧) Warren S. Thompson, : Population Problems, London 1963, PP. 20-23 & 47-54.



شكل رقم (١)

يمكن تتبع الزيادة التدريجية فى اعداد السكان منذ الاف السنين حتى حدوث الانفجار السكانى الهائل فى الوقت الحاضر والمنتظر عام ٢٠٠٠ لو ظلت الزيادة الطبيعية الحالية على ماهى عليه . ففى خلال القرن الماضى تضاعف عدد السكان فى العالم ، وفى مدى نصف قرن آخر تضاعف عددهم مرة اخرى حتى وصل الى تلك الصورة المروعة ، ومع هذا النمو الخطير اصبحت كثافة السكان العامة فى العالم ١٢٥ نسمة فى الميل المربع مقابل ٦ نسمة فى العام المسيحى الاول . والحالة تبعا لذلك لاتبشر بالخير ، فالاراضى التى يمكن زراعتها على سطح الكرة الأرضية لا تتجاوز ١٠٪ من مساحتها الكلية ، كما ان معظم اراضى الحاصلات الزراعية تقع خارج قارة آسيا التى يتركز فيها نصف سكان العالم .

١٨٤٥ . كما تشير المجاعة الدائمة فى الهند فى الآونة الاخيرة ، الى عجز البيئة عن مسايرة النمو السكانى هناك ، ولقد بلغ عدد الموتى جوعا أو بسبب سوء التغذية فى العالم عشرة الاف نسمة يوميا . وعلى الرغم من التقدم الزراعى والرى واستصلاح الصحارى ، الا انه ما زال أكثر من نصف سكان العالم يعانون من الجوع .(٨) (انظر الصورة رقم ٢)

ويمكن القول بان المجتمعات الغربية المتقدمة فقط هى التى استطاعت ان تتخلص من نتائج ما اسماه مالتوس Dismal Thorem على ما يبدو، وربما كان ذلك بسبب وفرة الانتاج الزراعى فيها فى الوقت الحاضر . ورغم هذا فان نظرية مالتوس لم ترفض من التكنولوجيين الغربيين . ولقد أصاب الذهول الشعب الامريكى الذى يقود بوجه الحضارة والمدنية الحديثة الآن عندما نشر تقرير الكونجرس عن حالة الغذاء فى الولايات المتحدة ، فقد اثبت هذا التقرير ان ملايين عديدة من المواطنين ينامون جوعى كل ليلة فى قلب الولايات المتحدة الامريكية .

ان حسم مستقبل سكان البشرية امر لا يزال عسيرا . فلا احد يدرى تماما الى أى مدى تستطيع الثورة التكنولوجية زيادة ما يمكن ان نسميه « سعة حمل » Carrying Capacity كوكبنا . كما لا نستطيع التأكد من ان نمو السكان فى المستقبل سوف يزيد عن التقدم التكنولوجى ذاته .

ومن المعروف ان للنظام الايكولوجى العام حواكم او ضوابط . هذه الحواكم يخضع لها السكان من البشر او من غير البشر من سائر الأحياء الاخرى . فهى فى غير الانسان تبدو على شكل منافسة او صراع ناجم عن غريزة حب البقاء ، فهناك جوع ومرض وافتراس . ولكن الانسان يبذل جهدا جهيدا من اجل منع تلك الضوابط الايكولوجية من النيل من اعداد سكانه . ومن هنا كانت معاناة الانسانية . فهناك محاولة لمنع تفشى الامراض حتى لا تتعرض أعداد السكان الى تقلبات عنيفة كتلك التى حدثت فى العصور الوسطى ، عندما ادى مرض الموت الاسود Black Death الى وفاة ربع سكان اوروبا . ولقد تغلب الانسان منذ زمن طويل على افتراس الحيوانات له ، لان ذلك كان يعد عاملا من عوامل التحكم فى اعداد البشرية . والانسان يحاول دائما القضاء على المنافسة بين افراد جنسه عن طريق تحريم الحروب او على الأقل الحد منها . كما يعتمد الانسان على التكنولوجيا الحديثة بدرجة كبيرة لامداد اعداده المتزايدة باستمرار الغذاء . الا ان الفرص المتاحة امام التكنولوجيا، مثل التحكم فى الظروف المناخية ، ونمو الطحالب اللازمة للغذاء فى البحيرات الصناعية ، وازالة املاح البحر ، لها حدود . وهى على أحسن الافتراضات مجرد محاولات ابتدائية ناجحة .. ومجرد أمل نفتدى به الزمن حتى نجد مخرجا للتحكم فى اعداد البشرية .

---

(٨) Peter Farb, : Man Versus Nature in " Eco-Crisis ", London, 1970, P. 19.



صورة رقم (٢)

بلغ عدد الموتى جوعا او بسبب سوء التغذية فى العالم عشرة الاف نسمة يوميا ، ان اكثر من نصف سكان العالم اليوم يعانون من الجوع (الصورة عن وكالات الانباء من اقليم بيافرا خلال المجاعة التى حلت به اخيرا) .

ان سكان العالم اليوم يعيشون حالة من الفزع امام هذا التزايد الفريد ، وبديهى اننا فى ذروة دورة من الدورات السكانية المؤثرة فى تاريخ البشرية ، اهم ما يميزها معدلات زيادة سنوية مرتفعة(٩) . ولا شك ان رحلة النمو هذه تتداخل فيها عوامل عديدة بحيث تعطى مردودها بعد تصفية الحساب بين معدلات المواليد ومعدلات الوفيات . وهذه وتلك مقاييس ديموجرافية ذات ضوابط عديدة متداخلة ، بعضها سيكولوجي والاخر ايكولوجي والثالث تاريخي والرابع حضاري وغيره تاريخي ووراثي وهكذا . وليست هذه العوامل بؤرة بحثنا ، وانما اهتمامنا اساسا بالظواهر الناجمة من هذه الزيادة والتي انعكست على ذلك التلف الذى اصاب اركان كوكبنا ، وليست هذه الظواهر خبيئة ولا هى خافية .

ان نمو السكان الانفجاري الاخير قد ساهم ، مع ما واكب ذلك من مظاهر حضارية تمثلت فى حركة التصنيع ونمو المدن والثورة العلميــة الحديثة ، فى التدهور العام الذى اصاب العديد من عناصر البيئة . ولا شك ان اساس هذا التدهور كان تدخل الانسان بلا روية فى النظم الايكولوجية المحكمة النسيج . وينعكس هذا التدهور على كل شيء فى الوجود تقريبا الآن . فقد لوثنا مياهنا وارضنا وهواءنا وحياة مدننا وهدوءها . فهل يبقى الانسان حقيقة هو ذلك «الحيوان القذر»(١٠) الذى لوث كل شيء حوله ؟ ونجح فى استعداء الطبيعة ثقة منه فى قوته وعلمه ؟ وهل سيمضى فى ذلك بغير حساب من الطرف الآخر ؟

مظاهر التلف البيئى :

فى القرن التاسع عشر عبر الشاعر الانجليزى **توماس بيدوس** Thomas Beddoes عن ماساة عصره آنذاك بحسه المرهف تعبيرا عن حالة اليأس والاشمئزاز عندما يتامل فى عالمه المحيط به ، والذى غيرته يد الانسان فيقول :

Nature'spolluted.
There's man in every secret corner of her,
Doing damned wicked deeds,
Thou Art, old world
A hoary, Atheistic, murdering star.

---

(٩) U.N. : The Determinants and Consequences of Population Trends (A Summary of the Findings of Studies on the Relationships between Population Changes and Economic and Social Con itions), Population Studies No. 17, N.Y. 1953, P. 240.

(١٠) منذ ست سنوات (عام ١٩٧٠) كتب Jseph L. Myler وهو احد علماء الفضاء والطاقة مقالا بعنوان The Dirty Animal Man ونشر بتصريح من United Press International فى كتاب Eco-Crisis ص (١١٦ ـ ١٢٢) انظر المرجع .

هكذا .. كانت الطبيعة تتلوث ، لان الانسان اصبح يعبث فيها فسادا ، فى كل ركن من اركانها ، يقتل بأعماله الشريرة كل نزعات الجمال والفن فيها . انه مما لا شك فيه ان ذلك كله حقيقى ولا مغالاة فيه أو مبالغة ، ولكن كيف يمكن ان نتصور أبيات ذلك الشاعر الآن لو قدر له ان يعيش حياة الربع الاخير من القرن العشرين ؟ اننا نعيش الآن عصرا يحاول الانسان فيه جاهدا ان يقطع تلك العرى الوثيقة بينه وبين العالم الطبيعي من حوله . ولم يكن غريبا ان تتوالى « الصرعات » المخيبة للآمال فى كثير من اركان العالم الغربى المتقدم ، تلك التى انعكست على تصرفات شبابهم وسلوك هذا الشباب وفنونه . انهم يتوقون توقا شديدا الآن الى الماضى البدائي البسيط ، او يعبرون بشوق عن مظاهر حضارات زائلة او نائية منعزلة ، ما زالت ترتبط فى توافق وثيق بالطبيعة .

ومن هذه الحضارات من يعيش افرادها فى صداقة قوية بالبيئة حتى الآن . وهناك مذاهب **كالمذهب البوذى** يصون الحيوانات ولا يقدم على ايذاءها بأى صورة من الصور ، لان **« بوذا »** كان يحترم كافة اشكال الحياة ولا يسمح بالقسوة عليها . ومن هنا كانت الاراضى المحيطة بأديرة الرهبان البوذيين ، عبارة عن مساحات رائعة من الارض التى تحتضن فملأ الحياة البرية بعناصرها نباتا أو حيوانا على اختلاف صنوفها . بل ان **مذهب اليانية** Jainism (١١) يلزم الراهب باحترام كافة اشكال الحياة بما فيها الحشرات ، الى الحد الذى يلتزم فيه بحمل (مكنسة) صغيرة معه دائما لازاحة ما يصادفه من حشرات خشية ان يدهمها صدفة . ان هذه الصلة بعالم الطبيعة ظلت قائمة حتى الآن رغم سخرية البعض منها عندما سخر الغربيون من الهنود الذين تركوا الفئران ترتفع فى المخازن واصروا على ترك المياه لها لكى تشرب منها . (١٢)

وفى هذا المقام يردد العالم الانسانى الدكتور البرت شفاتيزر Albert Schweitzer نداءه الى العالم بضرورة تبجيل الحياة الطبيعية وتقديم فروض الاحترام لكافة الكائنات النباتية والحيوانية ، ويذكر ان الخطأ الاكبر الذى ارتكبته كافة علوم الاخلاق اليوم هو اعتقادها بأنها تعالج فقط علاقة الانسان بالانسان .

فالى اين ذهب ذلك الانسان فى تماديه وتحديه للروابط والنظم الايكولوجية التى يعيش حلقة من حلقاتها ؟ ان الحقائق كلها تشير الى ان حالة الانسان الراهنة فى العالم قد أصبحت خطيرة . ويمكن مراجعة عناوين متزايدة لكتابات ودراسات مثيرة . وقد نشرت خلال الخمس

---

(١١) « اليانية » مذهب هندي نشأ فى القرن السادس قبل الميلاد ، وتعتمد فلسفة هذا المذهب على تحرير الروح بالمعرفة والايمان وحسن السلوك .

(١٢) Peter Farb, : op. cit. P. 15.

عشرة سـنة الماضيـة ، والتي كتبهـا العلمـاءالمتخصصـون وخبراء الشئون الانسانية ، ومن هذه العناوين على سبيل المثال لا الحصر :

Road to Survival

The Rap of the Earth

Our Plundered Planet

The Geography of Hunger

The Limits of the Earth

The Prevalence of People

Man Versus Nature

The Dirty Animal Man

لقد غير الانسان بدرجة ملحوظة فى البيئةالطبيعية ذاتها ـ كما تفعل كل الكائنات الحية الاخرى . ولكن بينما تشجـع التغيرات التـى تحدثها الكائنات الاخرى الحية على التجديد ، فان الانسـان فى حالات كثيرة مزق فرص التجديدبعده . وعندما كان الانسان جامعا للطعام بدائيا فى هذا الجمع ، استطاع ان يحـدث تعديـلاتطفيفة ، ويمكن اعتباره متوافقا مع بيئته ككل آنذاك . وعندما وصل الانسان الى مستوى من الرقى سمح له باستئناس الحيوان والزراعة بدا فى تغيير البيئة تغييرا فيزيائيا . فقد جاهدضد اعادة نمو النباتات الطبيعية ، فمنع المراحل المتتابعة للنبات من الوصول الى الذروة .

وبزراعته للمحاصيل وتربيته للحيوانـاتجعل هناك انواعا معينة من الكائنات يعتمد عليها فى بقائه . فالقمح الآن لا يمكن ان ينتج من تلقاءنفسه ، والبقرة التى تهجر السهول تقع فريسة فى وقت قصـير للحيـوانات المفترسـة خـارجالسـهول . ولقد حول الانسـان البقرة من حيوان برى قادر على الدفاع عن نفسه وعن صغاره الىمصنع متحرك للالبان .

وعندما وصل الانسان لمستوى اكثر تقدمافى عصره الصناعى ، ذهب الى مدى بعيد ، وعمل على خلق نظام ايكولوجي جديد تماما ليحل محلالنظـام الطبيعي ، ولقـد ارتكبـت التكنولوجيا الحديثة التي يمتلكها العالم منذ القرن التاسععشر خطأ فادحا عندما بدا تطويـر الصناعـات المختلفة ، والتي كانت سـائدة فى ذلك الحين ،وخاصة صناعة قطع الاخشاب والتنجيم . وهذا الخطا يتمثل فى نهب موارد الثروة الطبيعية فىالعالم . ولقد ترتب عليها تغيـيرات خطـيرة فى مظاهر الخريطة الطبيعية للعالم . فلقـد خلـقالانسان صحارى جديدة تماما مثـل الصحـراء الموجودة فى جنـوب شرق تينيسـى Tennessee بسببمناجم النحاس ، وصـحـراء سدبـرى Sudbury فى انتاريو بسبب دخان النيكل . وفىسعيهلتوفير الكهرباء واعادة توزيع المياه استحدث السـدود التى تقام عبر الانهار ، فغـيرت نظـامالصرف الطبيعي كلية ، فقلب بذلك سطح المياه الباطنية راسا على عقب ، بالاضافة الى العديدمن مظاهر الخلل البيئي الصارخ .

ولقد وفرت صناعات الانسان الحديثة المواد الرخيصة حقا ، وساعدت على تكوين مجتمع صناعي حديث ، ولكنها ساعدت على تراكم عبء ضخم لاستنفاذ موارد الثروة التي كان ينبغي ان توفر للاجيال القادمة . فنحن الآن « نسرق » حق الاجيال القادمة ليس فقط في الاخشاب والفحم ، بل ايضا في ضرورياتهم الاساسية في الحياة : الماء والهواء والتربة . ان العالم اليوم في حاجة ماسة لحركة « صيانة » لحفظ للحياة استمرار مسيرتها .

• • •

ماذا عن المياه :

لم تنشا الحضارات وتنمو وتعطى بسخاء الا مع وفرة المياه ، وما توارت عبر سطور التاريخ الا بتاثير الجفاف ، او على الاقل بمساهمة منه ، قلت او كثرت . وكم من حروب طاحنة لصارع الناس من خلالها من اجل المياه في كل اجزاء العالم : غرب امريكا الشمالية في القرن التاسع عشر ، بلاد الرافدين ، مناطق انهار الصين والهند والنيل والاردن ، مياه الينابيع في آلاف الواحات المبعثرة على بحار الرمال تطويها الصحراء المحرقة ، فلا سبيل لحياة بدونها ، ولا محل لاستقرار بعيدا عنها . وحديثا اصبح مستوى المعيشة يقاس بنصيب ما يتوفر للشخص او الدولة من المياه العذبة . ولماذا نذهب بعيدا وهناك ست كلمات قرآنية كريمة تحدد بايجاز واعجاز قدر الماء وقدره : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » . فبدونه لا يمكن ان تكون هناك حياة على سطح هذا الكوكب . فهو اكثر اهمية من الاكسوجين الذي يطلق عليه غاز الحياة Gas of Life فبدونه لا يمكن ان تكون هناك نباتات خضراء هي المصدر الاول للاكسوجين في الهواء الذي نحيا به ونتنفسه .

ويعتقد العلماء ان الحياة على سطح الارض انما نشات اصلا في البحار القديمة او الاولية Primitive Seas قبل ان يكون هناك اي اثر للاكسوجين في الغلاف الجوي ، ولم يظهر هذا الاخير الا بعد تطور ونمو النباتات . وما زال دم الكائنات الحية بما فيها الانسان ــ عبارة عن محلول ملحي مشابه الى حد كبير لمياه البحار ، كما ان مياه البحار هي المورد الاساسي للمياه العذبة للارض والاكسوجين في الهواء . وياتي ٧٠٪ من الاكسوجين كما يقول كول Dr. Lamon Cole من النباتات الدقيقة الخضراء في البحار التي تستهلك ــ شانها في ذلك شان نباتات الارض ــ غاز ثاني اكسيد الكربون بمساعدة الطاقة الشمسية ، وتقذف بالاكسوجين كناتج اشبه ما يكون بنفاية له . (١٢)

تتوفر للكرة الارضية كمية هائلة من المياه تقدر بحوالي ٣٢٦ مليون ميل مكعب ، منها ٣١٧ مليون ميل مكعب تستقر في احواض البحار والمحيطات التي تغطي ٧١٪ من مساحة الكرة

(١٢) Joseph L. Myler op. cit., P. 119.

الارضية ، اما الباقي فيتمثل في المياه المجمدة بصورها المختلفة وتتركز حول القطبين . وتعمل الشمس على تقطير مياه البحار ، فيعمل ذلك الاتون المتقد المسلط عليها على تبخير ٨٠ الف ميل مكعب تصبح مياها عذبة كل عام ، بالاضافة الى ١٥ الف ميل مكعب من المياه المتوفرة على سطح الارض بعيدا عن البحار والمحيطات . ومن ثم تصبح هناك كمية مقدارها ٩٥ الف ميل مكعب تتحرك منذ الازل في حركة سرمدية رائعة بين السماء والارض فيما يعرف بالدورة الهيدرولوجية .

ولو وزعنا المياه على سكان هذا الكوكب لبلغ نصيب الفرد الواحد ٤٠٠ مليون طن يوميا ، واذا كانت مياه البحار والمحيطات لا تصلح لمن يدب باقدامه على سطح الارض عامة او يضرب بجذوره في تربتها ، الا انه لكائنات اخرى حيوي وهام ، تلك الكائنات هي لنا حيوية كذلك وهامة ، فالبحار والمحيطات كانت وستظل مجالا يحقق للبشرية الكثير من المصالح انتقالا وغذاء ودفاعا . فماذا اعد لها الانسان لكي تبقى نظيفة منتجة ، وماذا فعل بمياه انهار الارض وبحيراتها . لا شك ان الكثير الكثير قد كتب في هذا المجال . فالانسان يضخ من النفايات والملوثات الى مصادر المياه الطبيعية ما لايتسع المجال للحديث عنه في مقال كهذا . (١٤) ولكن ما احدثه الانسان لاتلاف وتلويث هذه المصادر تتعدد صوره ، فقد وجه الى هذه المصادر مياه البالوعات ومخلفات الاسمدة الكيميائية وروث الحيوانات ، والاحماض والسموم الناتجة عن الصناعة ، والاملاح المتخلفة عن المناجم ، ونفايات الشوارع والمزارع والمصانع ، والمنظفات ومبيدات الاعشاب والمبيدات الحشرية ، بالاضافة الى الملوثات الاشعاعية من المناجم والمصانع الذرية ومولدات الطاقة . ان كل هذا وغيره كثير يؤكد حقيقة ان الاستعمال الرئيسي للمياه الجارية الحرة في الدول الصناعية ليس في الصناعة كما تؤكد الاحصاءات ، وانما تستعمل كصندوق قمامة للتخلص من النفايات ، حتى اصبحت انهار مثل هذه الدول مجرد بالوعات مفتوحة الآن .

ولقد اشار دكتور جلين سيبورج Dr. Glenn T. Seaborg **رئيس لجنة الطاقة الذرية الامريكية ، ان نظم الانهار الاثنى والعشرين في الولايات المتحدة الامريكية ، سوف تنتهي من الناحية البيولوجية (اى ستموت) في نهاية هذا القرن اذا استمر التلوث على معدلاته الحالية** . اذ بسبب التلف الذي تتعرض له هذه المجاري المائية بتأثير المواد الصناعية المتخلفة ، والتي يلقى بها الى هذه المجاري في توليد بعض الكائنات التي تؤدي الى استنفاذ الاكسوجين من المياه والقضاء على الاسماك ، ومن ثم تتحول البحيرات الى مستنقعات ثم الى مناطق جرداء من بعد ..

---

(١٤) لدراسة الموضوع بتفصيل اكبر يرجع الى :

محمد عبد الرحمن الشرنوبي : « الانسان والبيئة » القاهرة ، مكتبة الانجلو ١٩٧٦ ، ص ص ٣٢٩ – ٩٣٢ .

وليس غريبا أن نتحدث عن تلوث المحيطات، فهذا حادث بالفعل : فلقد وجدت مادة الـD.D.T بتركزات مختلفة فى الكائنات البحرية فى كل مكان. ولو حدث ان تعرضت نباتات المحيطات لخطر التلوث ، فسوف نفقد موردا هاما من موارد الاكسجين كما قدمنا من قبل .

ولقد حدثت عدة كوارث معروفة كحادث سانت بربارة فى كاليفورنيا ، وكارثة اصطدام ناقلة البترول « توري كانيون » ببعض الشعاب المرجانية قرب الشواطىء الانجليزية وهي محملة بشحنة من بترول الكويت عام ١٩٦٧ . ولقد تسببت هذه الحادثة فى تدفق ١٢٠ الف طن من البترول الخام نتج عنه تلوث مساحات كبيرة على امتداد ٣٢٠ كيلو مترا على طول الشواطىء الانجليزية الغربية والجنوبية ، ولقد هدد ذلك الحادث كافة مراكز العمران البشري على طول هذا الامتداد ، وتطلب حماية هذه المراكز انفاق ٢ر٥ مليون جنيه استرليني انفق معظمها كتكاليف للكميات الهائلة من المذيبات التي أخفت التلوث الظاهر لهذه الكميات الهائلة من البترول ، ولكنها احدثت تلوثا خطيرا للمياه أسفل السطح واعلاه ، واستقرت هذه المذيبات بحجم هائل فى قاع المحيط محدثة خللا بيولوجيا محققا لكونها سموما خانقة وقاتلة لكثير من الاحياء البحرية .

ولقد أخذت شبه جزيرة اسكنديناقيا تعاني من تلوث المياه ، وبدأت أسراب الاسماك تموت فى انهارها وبحيراتها بتأثير القاء النفايات البشرية فيها ، وكذلك قتلت نفايات مصنع مبيد البارانيون فى الدانمرك الاسماك على شواطىء البحر ، والقت بجثثها على الشاطىء على امتداد عدة كيلو مترات . اما نهر الراين الذي يخترق المانيا حتى يصل الى هولندا فهو اكبر انهار العالم تلوثا ؛ لدرجة ان الهولنديين اطلقوا عليه فى سخرية مريرة عبارتهم المعروفة : انه صندوق قمامة العالم . اما فى اليابان فقد ظهرت اعراض ارتخاء عضلات السكان وفقدان للبصر وتلف فى المخ والاعصاب مصحوب بشلل واحيانا بغيبوبة ووفاة، ذلك فى خليج « ميناماتا » بتأثير القاء احد مصانع الزئبق بمخلفاته فى ذلك الخليج : مرض ميناماتا!! . وفى السويد حرم صيد الاسماك فى اربعين نهرا وبحيرة لتركز مركبات الزئبق فيها .. كما يمكن ملاحظة ان الالتهابات الكبدية المعدية قد اخذت تتفشى بدرجة مزعجة حقا فى كثير من الدول الاوروبية والامريكية بسبب ضعف معالجة مياه دورات المياه ، ووصولها ملوثة بفيروسات هذا المرض المعدي الى انابيب مياه الشرب . اما فى الوادي الاوسط بكاليفورنيا، فان الاطباء ينصحون دائما بان يشرب الاطفال الماء العذب المقلي فقط .
ولقد اضطرت مدينة الجن Elgin بمنيسوتا ان تبحث عن مصدر آخر جديد لمياه الشرب بعد ان تلوثت المياه بالنترات التي تتراكم بتركز شديد فى المحصولات الزراعية ، والنترات فى حد ذاتها ليست خطيرة ، ولكن عندما توجد انواع معينة من البكتريا فى الجهاز الهضمي ، فانها تحول النترات الى نتريت (ملح حامض النتري) وهي مادة سامة للغاية ، ولو امتصها الدم لتفاعلت مع المادة الملونة (الحاملة للاوكسجين) لخلايا الدم الحمراء ، وبالتالي يتكون الميثيموجلوبين الذي لا يستطيع حمل اكسوجين الهيموجلوبين فينتج عن ذلك الاصابة بمرض الميثيموجلوبينيميا ، واهم اعرض التنفس غير الطبيعي ، وكثيرا ما يتعرض المصابون به الى الاختناق .

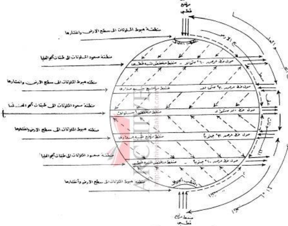
• • •

وماذا عن الهواء : (انظر الشكل رقم ٣)

ان التسليم بحقائق الحركة التي يخضع لها الغلاف الهوائي ، تجعلنا نعمل فكرنا فى كيفية الوقوف بحزم امام تلوث الهواء . ونحن فى تلك الوقفة لا بد ان نؤمن بان تلوث الهواء فى المناطق الصناعية ليس قصرا عليها ، فالعالم يخضع لظروف وقوانين طبيعية كما كررنا من قبل . ومن تلك القوانين فيما يرتبط ارتباطا وثيقا بموضوعنا هنا ما يعرف بالدورة الهوائية العامة . فهناك مناطق للضغط المنخفض تتركز حول خط الاستواء وخطي عرض ٦٠ درجة شمالا وجنوبا . كما ان هناك مناطق للضغط المرتفع حول خطي عرض ٣٠ درجة شمال خط الاستواء وجنوبه ، وحول القطبين . والمعروف ان مناطق الضغط المرتفع يخرج منها الهواء الى مناطق الضغط المنخفض فى حركة سطحية نحسها ونلمسها ممثلة فى الرياح السطحية . كما تغذي مناطق الضغط المنخفض مناطق الضغط المرتفع بالهواء ولكن فى نطاق الرياح العلوية . ويتم هذا وذاك فى دورة محكمة لا تؤثر فيها الا بعض الظاهرات المحلية كسلاسل المرتفعات والمسطحات المائية الكبرى ، بالاضافة الى التغييرات الموسمية لموقع الشمس فى حركتها السرمدية بين المدارين .

من هنا يمكن القول بانه لا يوجد حدود او حواجز يمكن ان تحدد مناطق التلوث لتعزلها عن المناطق « النقية » ان كان ثمة مناطق نقية حقا . ويعتبر تلوث الهواء من اقرب المظاهر التي يمكن ان يحسها الانسان العادي ويلمسها ، فنحن نشعر به عندما يلهب الهواء عيوننا او يهيج رئاتنا ، ويشعر سكان المدن ـ والمدن الصناعية بصفة خاصة ـ بوطأة ذلك التلوث من خلال حياتهم اليومية ، التي سريعا ما يضيق بها سكان المناطق الاخرى . والامثلة على تلوث الهواء عديدة ، بل ان الكوارث التي تحيق بسكان المدن بتاثير ذلك التلوث تفوق الحصر : نهار ميناء سدني الكئيب المظلم بتاثير سحب الدخان المتحد بالضباب هناك ، كمية ضوء الشمس التي لا تتجاوز ٢٥٪ فى نيويورك و ٤٠٪ فى شيكاغو ، ٦٦ مليون طن من اول اكسيد الكربون تفثتها الى الهواء ٩٠ مليون سيارة فى الولايات المتحدة ، غير ملايين اخرى من اكاسيد الكبريت والهيدروكربون ورابع اثيل الرصاص وغيرها هناك ، الانقلاب الحراري الذي تعرضت له مدينة دونورا عام ١٩٤٨ ولندن عام ١٩٥٢ وما نشا عنه من كوارث اودت بحياة الالاف بسبب احتجاز الضباب متحدا بالدخان ، ونفس الظاهرة تتكرر فى وادي الميز ببلجيكا وبوزاريكا فى المكسيك ، آلاف التقارير المعلنة الرسمية وغير الرسمية مع آلاف اخرى سرية مرفوعة الى المستويات العليا فى الدول المختلفة حول هذه القضية ، عشرات المقالات فى الصحف والمجلات العلمية ، وغير ذلك كثير يصعب حصره .. ما هي المشكلات الاساسية . ؟ انها باختصار شديد تتمثل فى العطاء السلبي للصناعة .. وعدم وجود النظرة العقلانية التي ينبغي ان تظلل خطوات النهضة الصناعية .

ان تلوث الهواء باول اكسيد الكربون ـ وهو امر قائم ما بقيت السيارة والطائرة واية آلة فى اي مصنع و مزرعة ـ يعمل على اتحاد هذا الغاز بهيموجلوبين الدم فيعمل على طرد الاكسوجين



دورة الرياح العامة

"أحد أهم العناصر الرئيسية في حركة الملوثات على سطح الارض وفي غلافها الجوي" (شكل رقم ٣)

الذي ينقله الهيموجلوبين عادة ، لان اتحاد هذا الغاز بالهيموجلوبين اقوى من اتحاد الاكسوجين . ويسبب اول اكسيد الكربون اختناقا وتسمما لانه يحل في جهاز النقل (العالي السرعة) في الكائن البشري ، وهذا الجهاز يضمن التجدد الدائم للاكسوجين لحفظ ما يعرف بالايض (Metabolism) ـ او مجموعة العمليات الخاصة ببناء البروتوبلازما في الخلايا . وعندما يقل امداد الخلايا بالاكسوجين فان القلب يرفع معدل خفقانه وكذلك الجهاز التنفسي ، ولا شك ان هذا وذاك يتسببان في توترات واجهاد شديد يؤدي الى كثير من امراض القلب والصدر . (شكل رقم ٤) .

وعندما يتعرض الشخص لهواء يتنفسه ويحتوي على ٨٠ جزء في المليون من غاز اول اكسيد الكربون لمدة ٨ ساعات ، فان الجهاز الدوري لحمل الاكسوجين تقل سرعته بنسبة ١٥ ٪ ويتسبب ذلك في ان يفقد الجسم جزءا من الدم . وعندما تشتد حركة المرور وتزدحم الشوارع بوسائط النقل المختلفة في اوقات الذروة ، فان محتوى الهواء من اول اكسيد الكربون يبلغ ٤٠ جزءا في المليون . لذلك كثيرا ما يصاب سكان المناطق المزدحمة بالمرور باعراض التسمم الحاد ، والصداع ، وضعف الرؤية ، ونقص في تناسق العضلات ، والغثيان ، وكثير من الالام الباطنية ، وفي الاحوال الاكثر حدة قد تكون هذه الاعراض مصحوبة بفقدان للوعي ، ووفاة احيانا .

وهناك غازات اخرى تلوث هواء المدن خاصة مثل ثاني اكسيد الكربون الذي يعتبر مسئولا عن زيادة معدلات الاصابة بامراض الربو المزمن والالتهاب الرئوي وانتفاخ الرئتين ، اما تلوث الهواء بالمواد الهيدروكربونية فان من اهمها مضاعفات الاصابة بالامراض السرطانية المؤدية الى الوفاة . كما ان هناك غازات اخرى مثل ثاني اكسيد الكبريت واكاسيد النيتروجين وغيرها كثير كثير وهي في تزايد مستمر في الهواء .. ولقد قدرت وزارة الصحة الامريكية على سبيل المثال ان انبعاث غاز ثاني اكسيد الكبريت في الولايات المتحدة الامريكية سوف يرتفع من ٢٠ مليون طن (١٩٦٠) الى ٣٥ مليون طن عام ٢٠٠٠ ، وسترتفع بالنسبة لاكاسيد النيتروجين من ١١ الى ٣٠ مليون طن في نفس الفترة ، وذلك بتاثير مضاعفة اعداد السيارات وما تنفثه من عوادم الى الهواء ، والذي يقدر باربعة اضعاف خلال الفترة المذكورة .

وملوثات الهواء عديدة ومتنوعة في الواقع[١٥] ولا يزال الكثير منها لم يكتشف بدقة حتى الان ، كما ان تركز هذه المواد الملوثة للهواء يختلف اختلافا جغرافيا ، ولكنه كما سبق ان قدمنا

---

(١٥) هناك ملوثات اخرى للهواء ولكن لا دخل للانسان فيها كما ان التحكم فيها صعب ومنها كلوريد الايدروجين المتصاعد من البراكين والاسيد النيتروجين الناتجة عن التفريغ الكهربائي من السحب الرعدية ، وكبريتيد الايدروجين الناتج من تسرب الغاز الطبيعي من جوف الارض او بسبب البراكين او تواجد البكتيريا الكبريتية ، وغاز الاوزون المتخلف ضوئيا في الهواء الجوي ، او بسبب التفريغ الكهربائي في السحب ، وتساقط الهباء المتخلف عن احتراق الشهب والنيازك نتيجة لاحتكاكها بطبقات الجو ، والاملاح المنتشرة في الهواء بفعل الرياح والعواصف والاشعاعات الشمسية على المحيطات والبحار والبحيرات الملحة ، والاتربة التي تثيرها الرياح والعواصف او تاتي بها الجبهات الجوية وتيارات الحمل الحرارية من التربة المفككة ، وحبيبات اللقاح والفطريات والبكتيريا المنتشرة في الهواء منبعثة من التربة او لتعفن الهواء والطيور الميتة والفضلات الادمية ، واخيرا المواد ذات النشاط الاشعاعي كتلك الموجودة في بعض اتربات وصخور القشرة الارضية او الناتجة عن بعض الغازات الجوية بفعل الاشعة الكونية ، وكل هذه الملوثات ليست ذات اضرار جسيمة لان معظم الوان الحياة قد تاقلمت عليها بسبب تواجدها في الهواء منذ بدء الحياة .



شكل رقم (٤)

تلقى الطائرات بعثات الإطنان من الوقود المحترق بلوث الهواء بغازات سامة اهمها اول اكسيد الكربون . فتساهم مع وسائط النقل الاخرى على الارض في تلوث الهواء .

ليس قصرا على مكان ، ولكنه اكثر تركزا في مكان من مكان آخر . كذلك فان وسائل مراقبة التلوث والكشف عنه لا تزال في كثير من المناطق غير كافية بالمرة ، كما ان التسجيل لهذه الظواهر ولفترات دورية منتظمة امر غير قائم حتى الآن .

وتعتبر درجات تلوث الهواء ذات ارتباط وثيق بعوامل اخرى تختلف من شخص الى آخر ، فهي تختلف باختلاف درجات التعرض للارهاق على سبيل المثال ، وعلى السكان في مراحل العمر المختلفة حيث يشتد تاثير التلوث على كبار السن والاطفال ، كذلك على الشعوب ومقدار ما تتمتع به من مستوى غذائي معين ، وكل هذه وغيرها من عوامل لا بد من اخضاعها للتحليل العلمي ، كذلك فان البحث العلمي في حد ذاته معقد للغاية في موضوع كهذا ، لان عنصرا واحدا من عناصر التلوث قد لا يعطي مردودا سيئا ، او يسبب مشكلة في حد ذاته لو وضع تحت الاختبار كعنصر مستقل ، في حين انه لو ارتبط بعناصر اخرى لاعطى مردودا في غاية الخطورة ، ولهدد حياة الافراد والمنشآت في منطقة ما . لذلك كان عزل تاثير العناصر المختلفة من الملوثات الهوائية امر صعب للغاية ، بل لسنا مبالغين لو قلنا ان العلم لا يزال عاجزا عن علاج مثل هذا الموضوع ، الامر الذي يزيد من المضاعفات السيئة كلما مر مزيد من الوقت .

• • •

التلوث بالنواتج الصناعية الثانوية :

من البديهي انه مع تطور الصناعة وتقدمها يكتسب الانسان مزيدا من الكم الحضاري الماضي الذي ـ من المفروض ـ ان يعود عليه وعلى مجتمعه بمزيد من الرفه المادي الذي ييسر له الحياة بشكل او بآخر . الا انه كلما تقدمت الصناعة القت بالمزيد من النواتج الثانوية ، سواء كانت في شكل غازات او نفايات صلبة او نصف صلبة او سائله ، الى الهواء او على الارض او في المياه ، لان الصناعة كما نعلم تحول المواد الخام الى منتجات صناعية كاملة او نصف كاملة، وهي حينما لا تجد في هذه النواتج الثانوية قدرا من النفع على المستوى الاقتصادي ، فانها تلقي بها الى اي مكان . ومن اهم تلك النواتج تلك النفايات الصناعية ، خاصة اذا لم تكن قد عولجت قبل القائها خارج المصانع . وليس من المعقول ان تظل هذه النفايات بجوار المصنع بلا حراك لو قدر لها ان تلقى قريبا منه ، فالرياح تحملها او تحمل غازات الى اماكن بعيدة ، ومن هذه الغازات ما هو سام ، كما ان النفايات السائلة التي يلقى بها في الماء ، تحملها المجاري المائية الى مناطق بعيدة فتحمل اليها متاعبها وشرورها .

وقد تكون غازات هذه السوائل ملوثات هوائية ، كما قد تكون سوائل هذه النواتج ملوثات مائية او ارضية ، لكن النفايات الصناعية الصلبة والتي تتنوع تنوعا كبيرا بين صناديق مهشمة وآلات معطوبة واوراق ونواتج ثانوية اخرى تتخلف عن المواد المصنعة ، كقشور الفاكهة والخضروات وغير ذلك من مخلفات ، انما تعمل على خلق مرتع خصيب للجراثيم والحشرات

والامراض ، تنقل البؤس والموت الى الاماكن المزدحمة بالسكان ، كما تشوه جمال القيم الانسانية وتقتل مظاهر الجمال التي تتوق النفس البشرية المتحضرة الى توفرها حيثما كان الانسان. ومن اهم هذه النواتج مساحيق اكاسيد الحديد الحمراء التي تنقلها الرياح الى المناطق المحيطة بالمصنع فتكسوها بغبار احمر كما هو الحال بجوار مصانع حمض الكبريتيك بكفر الزيات ، او بغبار الاسمنت الرمادي اللون الدقيق الذي يأتي على النبات بالدمار فيقتل خلاياه ويعطي لونا رماديا للمساكن القريبة كما هو الحال بمناطق طره والمعصرة بمدينة القاهرة . (انظر الشكل رقم ٥)

اما النفايات الصناعية السائلة فهي ما تلقيه مصانع منتجات الالبان من مواد دهنية وبروتينية ناتجة عن عمليات التصنيع ، اومخلفات تنظيف الاواني ، ومخلفات مصانع التقطير بما فيها من مواد نشوية وخمائر ، ومخلفات مصانع النسيج والصباغة بما تلقيه الى المياه من مواد قلوية واملاح واصباغ ومواد دهنية مستخلصة من بعض الالياف الحيوانية ، وكذلك مخلفات مصانع الدباغة وما يتخلف عنها من مواد حمضية او قلوية ومحاليل التنظيف والصابون ، بالاضافة الى مخلفات مصانع الكيماويات والمطهرات والورق التي تعتبر من اخطر مصادر تلوث المياه .

كما تعتبر المخصبات الزراعية الكيمائية والنتروجينية التي تصل الى مجاري الصرف ذات تأثير بالغ الخطورة على هذه المياه ، فهي تعمل على زيادة نمو النباتات المائية الخضراء التي تمثل احد مصادر التلوث العضوية للمياه ، كما تتسبب في كثير من المشكلات المتعلقة بالملاحة والانتقال في هذه المجاري المائية ، كما ترتفع من نسبة النترات في هذه المياه ، الامر الذي يعيق استخدامها في كثير من الاغراض .

اما تأثير النواتج الثانوية الصناعية الغازية فذات تأثير بالغ الخطورة كذلك على صحة الفرد والجماعة ، وهذا النوع من النفايات ينطلق مباشرة من كثير من العمليات الصناعية ، وربما يتخلف عن النفايات الصلبة او السائلة من نواتج هذه العمليات فتنطلق الى الهواء قبل ان تترسب على الارض او في المياه . ولا تكاد تخلو اي عملية صناعية من عوادم غازية تنطلق منها لتغطي مساحات واسعة حولها .

ولقد أصبحت تعاني كثير من الدول الصناعية مشكلة تراكم هذه النواتج الصلبة فيما يعرف « بالمقالب » المكشوفة ، فتلك المناطق حينما تتعرض للامطار او تصلها المياه من اي مصدر لفترة طويلة – تعمل – بما يتحلل عنها ويتسرب منها الى التربة – على تلوث المياه الجوفية . وفي دولة كالولايات المتحدة ، يحتاج امر التخلص من مثل هذه النفايات الى ٥٥ بليون وعاء متوسط الحجم ، و٢٦ مليون قنينة زجاجية ، و ٦٥ بليون وعاء معدني وبلاستيكي وادوات تعبئة اخرى تبلغ قيمتها نصف بليون دولار هي في حد ذاتها نفايات صلبة ايضا (!!) .

• • •



شكل رقم (٥)

(من نتائج تلوث الهواء بالنواتج الثانوية للصناعة)

هباء الاسمنت المتصاعد يقتل الحياة فى الاشجار على طريق القاهرة ـ حلوان

(التقطت الصورة عام ١٩٧٥ بواسطة كاتب المقال)

اخطار المبيدات الحشرية ومبيدات الاعشاب :

امدتنا الصناعات الحديثة بقائمة طويلة مـن المركبات الكيميائية التى اسرفنا فى استخدامها ايما اسراف ، حتى اننا اصبحنا نعمل على تدمير ذاتنا بخطى حثيثة كل يوم، فهناك المواد الهيدروكربونية المعالجة بالكلور والرصاص والزئبق والفلوريدات، وهذه تصل الينا فى مجموعها كملوثات للبيئة ، ومن هذه المـواد تلك المـادة التى اصطلح على تسميتها Decloro-dephenyl Trichlorethane ، ولقد عرفت هذه المادة منذ عام ١٨٧٤ ، وشـاع تداولها تحت اختصارها وهو الـ D.D.T. وهى اخطر ما حل بالزراعة التقليدية ، ولقد توصل الى مفعولها العالم السويسرى بول مولر فنشطت مصانعه الضخمة فى انتاج العديد مـن الانواع والمشتقات . ولقد اسرف الانـسان فى استخدام هذه المنتجات منذ اواخر الحرب العالمية الثانية.

وتوجد هذه المادة على هيئة تركزات قـد تبلغ ١٢ جزءا فى المليون فى الدهون البشرية ، واكثر من خمـسة اجزاء فى المليون فى لبن الامهات، رغم ان التركزات العادية تتراوح بين (٠٫٠٥) جـزء فى المليـــون و (٠٫٢٦) جــــزء فى المليون . ويحتوى لبن الامهات في كافـة الدول الان على تركزات تختلف باختلاف استخدام هذه المادة فى المنتجات الزراعية التى تستخدمها(١٦) . كذلك تتركز فى البان الابقار لدرجة اصبح معها ما يصل الى الاطفال منها يزيد عن ضعف المعدل المسموح به حسب تقديرات منظمة الصحـــة العالمية.

ولا شك ان مجموعة المبيدات الحشرية الان قد اصبحت دون الحصر ، ومشكلة هذه المواد انها تستخدم وتتداول وتخزن بطرق غير سليمة . فالاسراف منها فى ابادة حشرات الزراعة امـر مقبول الى حد ما ، ولكن ان يقوم بعض الجهلاء من اصحاب محال البقالة والفاكهة برش منتجاتهم بالمبيدات الحشرية على الارفف جنبا الى جنب مع المنتجات الغذائية ، فهذا وذاك من الامور الغريبة التى تضاعف مـن احكام الحصار حولنـا بهذه السموم . وبسبب العديد من مشاكل تسرب او تداول هذه المبيدات فقد اصبح من الصعب تقدير مدى التاثير الذى تحدثه هذه الملوثات . (الشكل رقم ٦)

ومن السهل على سكان اى منطقة ان يدركوا آثار ما يمكن ان تحدثه السموم من آثار مباشرة عليهم ، ولكن من العسير عليهم فى كثير من الاحيان، ان يدركوا مقدار التغيرات الفسيولوجية الدقيقة والبطيئة التي تحدث نفس الاثر ، ولكن على المدى الطويل ، ولا شك تعطينا الدراسات التى أجريت على الحيوانات ادلة قاطعة على خطـورة تاثير تركزات هذه المواد فى جسم الاحياء . فقد دلت الدراسات على ان الجرعات الكبيرة من مادة الـ D.D.T تتسبب فى الاصابة بالسرطان ، خاصة سرطان الكبد لدى الفئران ، وفى حالة وجود نسبة تركز تبلغ ١٠ اجزاء فى المليون يحدث تنشيط

---

(١٦) هناك مواد اخرى هيدروكربونية مثل الالدرين Aldrin والديلدرين Dieldrin وكلوريد البترول السداسى قد وجدت بتركزات مختلفة فى لبن الامهات .



شكل رقم (٦)

تقذية الحاصلات الزراعية الغذائية بالسموم هل يحول ذلك الحجاب على الوجه دون الاصابة بخطر المبيدات الحشرية بعد العودة الى المنزل لتناول الطعام ؟

لأنزيمات معينة في الكبد وبنسبة عالية ، الامر الذى يؤخر بل ويعرقل العلاج بكثير من العقاقير، وكثيرا ما افقدت هذه الانزيمات تلك العقاقير مفعولها . ويذكر **ريتشارد ويلك** RichardM.Welch احد علماء العقاقير بمعهد البحوث العلمية الأمريكى ان مادة الـ .D.D.T تتسبب فى زيادة وزن الرحم وتحفز على انتاج هرمونات الجنس (الايستروجين) لدى الاناث . ولقد ثبت فعلا ان مادة الـ د.د.ت تؤثر فى هرمونات الجنس عند الفئران والطيور ، الا اننا لا نعرف تماما اذا كان هناك حث للتغيرات الهرمونية فى الانسان ، ومقدار تاثير هذه التغيرات ان وجدت ، وهناك ما يدل من الدراسات الحديثة على ان هذه المادة والمواد الشبيهة مثل الـ .D.D.E و لـ .D.D.D توجد بتركزات عالية فى دهون الانسان وقد تسببت فعلا فى وفاة بعض المرضى . ويذكر **ستينباك** Alan Steinbach طبيب الامراض العصبية بجامعة كاليفورنيا ان مادة الـ د.د.ت« عبارة عن سم عصبى من المتعذر التخلص منه او شفاء المصاب به »(١٧) .

ان تاثير هذه المبيدات ليس فقط لتركزه فى النباتات التى تقاوم آفاتها من اجل المزيد منها ، بل ينتشر ويتزايد لاستخدام مركباته فى مكافحة البعوض ، ولقد اثر ذلك فى اختفاء هذه الحشرة فعلا فى بحيرة كلير بكاليفورنيا الذى كان يتكاثر فيها لتلوثها بالنفايات الادمية والصناعية ، ولكن ذلك الامر قد تسبب فى اختفاء اسراب من الطيور كانت تتغذى على اسماك هذه البحيرات بعد ان ثبت وجود تركزات شديدة فى انسجة الطيور الميتة من هذه المبيدات . كما نشرت ادارة الصحة الامريكية بيانا اعلنت فيه ان هذه المبيدات قد ابادت ٣٢٪ من اسماك المياه العذبة فى كل الولايات المتحدة عام ١٩٦٠ . والاكثر خطورة من ذلك ، ان هناك العديد من الحشرات التى اكتسبت مناعة شديدة ، حتى اننا اصبحنا فى انتظار ان تعطى هذه الحشرات السيادة على كثير من امورنا وتشجيعنا . ويقول ايرلش ان الزراعة الحالية تتعرض لهزة عنيفة قد تحول دون استخدامنا للمبيدات مستقبلا ، كما يذكر العالم الايكلوجي فوجت William Vogt فى كتابه « الطريق الى البقاء » ان ١٠٪ من النباتات الزراعية فى الولايات المتحدة تتلف كل عام ، وان الأمل ضعيف فى استمرارنا على معدلات ما نلقى به من اطنان المواد المبيدة للحشرات على الاراضى الزراعية ، وان الفدان الواحد من الاراضى القريبة من مستنقعات مصب لونج آيلاند بالولايات المتحدة والتى تم رشها بمادة الـ د.د.ت منذ ربع قرن ، يتوفر به ٢٣ رطلا من هذه المادة يمكن الحصول عليها من الطبقة السطحية .

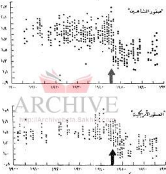
وتتدخل هذه المواد المبيدة للحشرات بدرجة خطيرة فى مقدرة الطيور على انتاج (الأيض) الخاص بالكالسيوم ، ومن ثم تضع بيضها فى اغلفة رقيقة للغاية لدرجة لا تتحمل معها وزن الطائر عندما يرقد فوقها تمهيدا للفقس فتكسر . ولقد اجريت التجارب على بيض الطيور الجارحة ووجد انخفاض شديد فى سمك قشر البيض فى الفترة من عام ١٩٤٥ الى عام ١٩٤٧ وهى الفترة التى

(١٧) Ehrlich, P.R. & A.H. op. cit. pp. 176-190.

انتشر فيها استخدام مادة الـ .D.D.T كذلك فان اسماك السلمون فى بحيرة متشجن تضع بيضا يحتوى على هذه المادة ، كما وجدت تركزات منها فى عينة اخذت من اسراب هذه الاسماك والتى ماتت باعداد كبيرة (٧٠٠٠ من صغار السلمون) فى عام ١٩٦٨ لامتصاصها هذه المادة . وحدث نفس الشيء لبعض الاسماك البحرية التى تصطد مثل التونا والماكريل والقد . لقد عملت هذه المبيدات على حل او تبسيط النظم الايكولوجية واختزالها، فلقد حررت الآفات فعلا من القيود الطبيعية . فالآفة او الحشرة التى تبدو فى بادىء الأمر وقد وقعت تحت تأثير هذه المبيدات او حتى قد ماتت بتأثيرها ، سرعان ما تعود باعداد اكبر بكثير من ذى قبل . (شكل رقم ٧)

وعلى سبيل المثال فقد ازداد محصول القطن زيادة كبيرة عند رشه بخليط من مادة الـ .D.D.T والـ .B.H.C والتوكسافين فى وادى كانيت الساحلى فى بيرو عام ١٩٤٩ ، فزاد تبعا لذلك محصول القطن من ٤٩٤ كيلو غراما للهكتار عام ١٩٥٠ الى ٧٢٨ كيلو غراما عام ١٩٥٤ ، ومع فرحة الفلاحين خيل اليهم ان مزيدا من هذا المبيد يمكن ان يعود عليهم بمزيد من القطن ، ومن ثم استخدموا هذا المركب ليشمل الوادى كله وليس مناطق القطن فقط ، كما قطعت الاشجار لكى يتمكنوا من رش المبيد بالطائرات فماذا حدث ؟ لقد اختفت الطيور بطبيعة الحال من هذه الاشجار حيث كانت تلجأ اليها ، كما اختفت انواع من الكائنات كانت ذات فائدة محققة مثل طفيليات الحشرات، وكانوا يقومون باستخدام هذا المبيد فى فترة مبكرة عن فترة رشه فى العام الأسبق نظرا للهجوم المبكر الذى كانت تتعرض لمحصولاتهم من الآفات، وفقدت مادة التوكسافين مفعولها فى عام ١٩٥٤ عندما فشلت فى القضاء على دودة ورق الطباق . وبلغ البلاء اقصاه من دودة القطن فى موسم عام ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ عندما ظهرت لأول مرة ستة انواع جديدة من آفات لم تكن معروفة من قبل فى هذا الوادى ، بالاضافة الى زيادة فى مقاومتها لهذه المبيدات ، فانخفض الانتاج تبعا لذلك فى الموسم المشار اليه الى ٣٣٢ كيلو جراما للهكتار رغم الكميات الهائلة التى استخدمت من المبيدات ، وبالتالى حلت كارثة بالوادى في عام ١٩٥٧ . والصورة ذاتها تتكرر عند استخدام السكان لمادة الأزودرين المبيدة لدودة لوزة القطن عندما اعطت نتائج عكسية تماما .

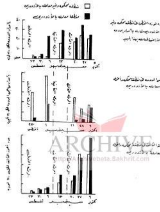
وتحدث هذه المبيدات تأثيرات اخرى على التربة فتزيد من الخلل البيئي وتعرض التوازن الايكولوجى المحكم الى مخاطر شديدة ، وتقضى هذه المبيدات على كثير من الكائنات الحية الدقيقة المسئولة عن تحويل النيتروجين الى صورة ملائمة لتناول النبات له ، وهى مسئولة عن انتاج اشكال معينة من الفوسفور والكبريت حيوية ولازمة للنبات . ولا شك ان الاخلال بمثل هذه النظم يؤكد الخلل او التلف الذى تتعرض له بعض الدورات اللازمة لبقاء الحياة عامة كدورة النيتروجين والفوسفور والكربون فى الطبيعة . .انه توازن الحياة كلها والوجود باسره . . اى خلل يتعرض له ذلك التوازن بتأثير هذه المبيدات . . . (انظر الشكل رقم ٨) .



(تأثير المبيدات على الطيور الجارحة)

التغيرات التي تطرأ على سمك قشرة بيض الصقور (في بريطانيا) وتشير السهام إلى فترة الاستعمال الأول لمادة د . د . ت .

شكل رقم (٧)



شكل رقم (٨)

ماذا حدث في محاولة القضاء على دودة لوزة القطن ؟

تدل نتائج التجارب التى اجريت لاستعمال مادة الازودرين المبيدة لدودة لوزة القطن على ان لهذه المادة فاعلية وتأثير واضح على مهاجمي هذه الدودة اكثر من فاعليتها وتأثيرها على دودة لوزة القطن ذاتها ، ومن ثم فكلما ازداد استعمال الازودرين كمبيد حشري ازداد تلف المحصول .

اما مبيدات الاعشاب Herbicides فقدزاد استخدامها في السنوات الاخيرة كبديل للالات الزراعية الميكانيكية والايدى العاملة ، وذلك للمحافظة على جوانب الطرق والسكك الحديدية، وارتفع معدل استخدامها حتى عن معدل استخدام المبيدات الحشرية ، ويتلخص تاثيرها على قتل النباتات اما عن طريق التغيرات التي تحدثها في خلال هذه النباتات فتموت وتسقط اوراقها ، او عن طريق حرمانها من مقومات اتمام حصولها على الطاقة والبناء الضوئي ، ومن ثم تموت ايضا . ومن اهم هذه المبيدات مادة (2-4-D) ومادة (2,4-T) . ولقد استخدمتهما القوات الامريكية المسلحة في فيتنام لابادة الاعشاب التي كان يلجأ اليها الوطنيون ، فبدت مساحات هائلة الآن وقد تجردت تماما من اوراقها او هي في طريقها الى الموت . وينبغي ان نلاحظ ان ذلك يقضي على التوازن البيئي عندما يعمل على انقراض الحشرات والطيور والزواحف والثدييات المحلية التي تعيش على هذا النمط من القطاعات النباتية .

• • •

مدننا : هل هي هادئة آمنة ؟

يتجه العالم اتجاها واضحا وسريعا الى عالم يسوده سكان المدن . ويعرف هذا الاتجاه بعملية التحضر Urbanization **ولقد قام كنجزل ديفز باجراء عدة دراسات خاصة باتجاهات التحضر واسقاطاته ، وتوصل الى ان نصف سكان العالم سوف يصبحون من سكان المدن مع حلول عام ١٩٨٤ لو استمر معدل نمو الحضر على ما كان عليه عام ١٩٥٠ . اما لو استمر هذا الاتجاه حتى عام ٢٠٢٣ فان سكان العالم كافة سيكونون سكان مدن ، بل ان حوالى نصف سكان العالم سوف يكونون سكان مدن مليونية ، وفي عام ٢٠٤٤ لن تكون هناك مدينة دون المليون نسمة ، ومن المتوقع في ضوء هذه التوقعات ان يصبح تعداد اكبر مدينة في العالم ٤ر١ بليون نسمة.(١٨)**

قد تكون هذه الارقام مزعجة في الواقع ومثيرة . لكن الاكثر ازعاجا واثارة حقا هو تصور بيئة هذه المدن مع هذا المستقبل في ضوء ما هي عليه مدن العالم . لقد فقد سكان المدن كثيرا من مقومات الحياة الرغد في الواقع . ولقد انتشرت في السنوات الاخيرة عدة دراسات حول ما يعرف **بالتلوث الضوضائي** Noise or Sound Pollution كاحد عناصر تلوث البيئة ، كما سادت الفوضى بعض القيم الاخلاقية التى انحدر بها بعض سكان هذه المدن فاضفت على المدينة ستارا كئيبا من الحياة ، واصبح السكان في كثير من المدن الكبرى اليوم في حالة قلق دائم ، مع تزايد الجريمة وتشويه حياة المدن بالاصوات المزعجة لوسائل النقل والموسيقى الصاخبة وغيرها ، والتخريب الذى يعم المرافق العامة فيها .

---

(١٨) الشرنوبي ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ ، ١٢٩.

اما عن الضوضاء ، فما اقبح ان يمزق سكون المدينة زئير سيارة على الطريق او هدير طائرة متجهة الى المطار او مغادرة له . من المعروف ان الضوضاء تقاس عادة بالديسيبل Decibel وهو وحدة قياس التفاوت في الشعوريين شدة صوتين . ويمثل السكون على هذا المقياس الرقم صفر . ويتراوح الصوت تبعا لذلك بين صوت التنفس العادى وهو ١٠ ديسيبل ، وصوت نهوض الطائرة النفاثة وهو ١٢٠ ديسيبل اى نفس الدرجة التى يسجلها صوت قذيفة المدفع عندما تكون قريبا منه عند الاطلاق .

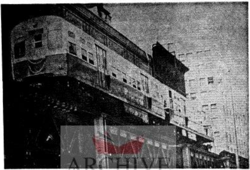
وقد يسبب التعرض للضوضاء الشديدة فقدانا مؤقتا لحدة السمع ، اما عندما تكون مستويات الضوضاء اقل من ٥٥ ديسيبل ، فانها قد تؤخر نوم الانسان ، او تؤدى الى الشعور بالارهاق عند اليقظة . وهناك دليل واضح على ان الضوضاء عند مدى ٩٠ ديسيبل قد تكون الضوضاء عاملا هاما من عوامل الاصابة بالامراض الناجمة عن التوتر ، مثل القرحة وضغط الدم ، كذلك فقد اثبتت الدراسات التي اجريت ان المناسيب العالية للصوت لها تاثير ملحوظ على الناحية النفسية للانسان . (انظر الشكل رقم ٩) .

وتزدحم المدن اليوم باصوات السيارات بشتى احجامها وانواعها مختلطة باصوات الدراجات البخارية واجهزة الانذار البوليسية وصفارات عربات الاسعاف والمطافىء ، مع خليط فريد من اجهزة الراديو او التلفزيون في المحلات العامة ، كل هذا مع مطارق اوناش آلات البناء ، كل هذا خارج المنزل . اما في داخله ، فبالاضافة الى صوت الراديو او التلفزيون هناك العديد من الاجهزة المنزلية الصاخبة التى قد « تيسر » حياة الاسرة ، ومن هذه الاجهزة المكانس الكهربائية والخلاطات والغسالات وماكينات الحلاقة والحياكة والتجفيف وغيرها .

ان تاثير الصوت يختلف من شخص الى آخر ، ويتوقف هذا على مستوى ضغط موجاته وترددها ، كما تختلف التاثيرات السيكولوجية تبعا لمغزى الصوت بالنسبة للسامع وظروفه . فصوت محرك الدراجة ربما يكون من الناحية البدنية مرهقا ومدمرا للاذن ، ولكنه في نفس الوقت قد يعطى تاثيرا نفسيا مغمورا بالنشوة والسعادة لسائق الدراجة ، تماما كما يتعمد الشباب رفع صوت سياراتهم باحداث ثقب في مجرى العادم ، ان ذلك يعطى تاثيرا فريدا عليهم حقيقة .

ـ اما وسائل النقل الجوية ممثلة في الطائرات ، فان الطائرات النفاثة الاسرع من الصوت تعتبر من اكبر المنغصات لسكان المدن القريبة مساكنهم من الموانىء الجوية التي تستقبلها . ولقد ثبت فعلا ان الصدمة التي يحدثها صوت اختراق الطائرة لحاجز الصوت ، تعتبر تهديدا مباشرا وخطيرا للأسماع . كما ثبت فعلا اصابة السكان بالقرب من المطارات بكثير من الاضطرابات النفسية والعصبية ، خاصة في مواسم الطيران الزائد .

وبالاضافة الى هذه المظاهر ، هناك اصوات الوسائط التى تجوب الانهار والبحيرات كالنشات وغيرها من وسائط النقل الميكانيكية ، ولها تاثير سيىء على السكان القريبين منها ، كما ان اصوات





شكل رقم (٩)
(التلوث الضوضائي بمدن اليوم)
لاشك ان وسائل النقل داخل المدن تجاوزت حدود المعقول في تاثيرها الضوضائي .

موسيقى الجاز الصادرة من اجهزة الصوت المجسم تعتبر هى الاخرى ، وقد بدات تجذب المزيد من الشباب الى سماعها وقد تصل الى ١٢٥ ديسيبل وهو مستوى مدمر للاذن لو تعرض لها الانسان لفترة طويلة ، وهكذا .. حتى الموسيقى التى هى فن وجمال ، تنسى تاثيراتها الضارة مع غمرة البهجة الظاهرية الانية .

ويؤكد **صامويل ردزن** احد رواد البحث العلمى فى الاصوات ، ان هناك علاقة بين الاجهاد الناجم عن شدة الصوت والاضطرابات القلبية ، وان رد فعل التعرض المستمر للصوت الشديد يؤدى الى تضييق الشرايين وعدم انتظام ضربات القلب ، وتؤثر الضوضاء فى الانسان اما عن طريق اصابته بالصمم نتيجة لتلف الخلايا الشعرية المجهرية الناقلة للصوت من الاذن الى المخ ، الامر الذى قد يسبب انفجارا مفاجئا فيها ، واما بضعف السمع ضعفا مزمنا ..

وبالاضافة الى هذه الصور المزعجة لحياة الصخب والضوضاء التى تجتاح مدن العالم اليوم هناك العديد من الصور الانسانية الموسعة التى بدات تضيف مزيدا من التدهور الى بيئة المدن . وتتضح هذه الصور فى الميئات والاحياء الفقيرة حيث يصل معدل الجريمة الى اقصاه . وهناك اكثر من دليل يؤكد ان حياة المدن عامة ، وتلك النماذج المنتشرة لانماط عديدة للجريمة والعادات السيئة فى المدن ، انما يؤدى الى عدم تقارب الافراد والاسر ، وضعف فى العلاقات العامة والتعارف بين الافراد ، مما يتسبب فى توترات نفسية .

وفى هذا المجال يقول العالم السيكولوجى زمباردو P. G.Zimbardo **ان الضغوط الحضارية فى المدن انما تعمل على تحويل الامريكيين الى جماعات من القتلة وسفاكى الدماء . وقد توصل الى هذا الاستنتاج عن طريق الدراسات التى اجراها حول العلاقة بين ما يعرف بالغفلية** Anonymity **والاعتداء** Aggression **، وعن طريق الدراسات الميدانية لما يعرف بالوندله** Vandalism **وهى التخريب المتعمد للممتلكات والمرافق العامة والخاصة بغير ما سبب واضح . فلقد رصد فى الفترة من عام ١٩٦٤ الى عام ١٩٦٩ حوالى ٢٣٠ ثورة عنف اجتاحت المدن ، وذكر ان المخربين قد قاموا فى عام ١٩٦٧ بتدمير (٣٦٠٠٠٠) جهاز تليفون عمومى فى نيويورك فقط . بالاضافة الى تحطيم (٢٠٢٧١٢) شباك مدرسة ، واتلفوا العديد من المواقف العامة للسيارات . وحدثت اعتداءات على السيارات فى نيويورك فقط بلغت ٢٣ اعتداء خلال ثلاثة ايام بلا سبب وامام المارة وفى وضح النهار(١٩) .**

ومن دراسات اخرى تبين ان معدلات جرائم العنف ترتبط ارتباطا كبيرا بالكثافات العالية فى المدن ، ولقد اوضحت الاحصائيات التى جمعت على مدى ثلاث سنوات من المدن الامريكية (وهى اعوام ١٩٤٠ ، ١٩٥٠ ، ١٩٦٠) ان جرائم الاعتداء والسرقة والقتل والجنس ذات ارتباط واضح بمناطق الكثافات العالية فى هذه المدن . هذا بالاضافة الى ان هناك اعراضا اخرى ذات ارتباط وثيق بالازدحام السكانى فى المدن .

---

(١٩) Ehrlich, P.R. & / .H., : Op. Cit. pp. 12 -136.

ففى أواخر الستينات اجريت عدة دراساتفى مانهاتن عن تأثير الازدحام على السكان ، فوجد انهناك حوالى ١٨,٥٪ من السكان يعانون بدرجةاو باخرى من الاضطرابات العصبية او النفسية ، ولم تشمل هذه الدراسات السكان فى الاحياءالفقيرة او المرضى فى المستشفيات .

ويعتبر الفقر والتمييز العنصرى او الطائفىمن اهم العوامل التى تقترن بالاضطرابات النفسية خاصة بين المراهقين . ومن اهم اعراض هذهالاضطرابات تعود حالات الطلاق فى المدن ،واساءة معاملة الاطفال ، وحالات الانتحار وغيرها ، هذابالاضافة الى ما تسببه هذه التوترات من امراض للقرحة والشريان التاجى وارتفاعات ضغط الدم. ويمكن تجنب مثل هذه الظواهر بتشييد منازل واحياء اكثر ابداعا وجمالا وتشجيرا وان كان ذلكيستغرق مالا وجهدا ووقتا ليس بالقصير .

• • •

البيئة وتهديدات التسلح النووى : (انظر الشكلرقم ١٠)

يشكل السباق النووى الرهيب الذى يجتاح القوى العظمى فى العالم اليوم ، انتهاكا خطيرا للنظم البيئية كافة فى هذا العالم . وتضيفالاشعاعات الناتجة من مفاعلات الطاقة النووية ومن التجارب المختلفة مزيدا من الملوثات التى تترك آثارا مخيبة لكل رجاء فى بيئة نظيفة . ولقد تركت التجارب النووية قبل عام ١٩٦٣ آثارالا تزال نتائجها تتكشف يوما بعد يوم ، وذلك نتيجة لتلك التجارب على تفجيرات القنابلالهيدروجينية الضخمة (H-Bomb) وما اعقبها من ترسب لسحابتها المحدبة الضخمةعلى سطح الارض .

ولقد تركت عملية الانشطار النووى الناتجةعن هذه التجارب انواعا جديدة من الذرات الاشعاعية غير موجودة فى الطبيعة من قبل (٢٠) وتبددتفى الهواء والمياه ومصادر الغذاءواستقرت فى اجسامنا . وتبعا لخواص بعض هذه الموادفقد تركزت فى اجزاء حساسة من اجسامنا محدثة فيها تلفا لا يزال العلم عاجزا عن علاجه . فالجرعة الاشعاعية قد ترتفع بنسبة ولو قليلة نتيجة للغبار الذرى المتساقط عن تجارب القنابلالذرية ، غير ان التلف البيولوجي الذى تسببه خطير لدرجة غير متكافئة بالمرة .

وخلال التجارب النووية التى اجرتهاالولايات المتحدة الامريكية ، استنكر المتحدثون الرسميون عن الحكومة الفيدرالية حظر عنصرمعين من عناصر الغبار الذرى المتساقط عن هذه التجارب وهو الاسترونشيوم – ٩٠ (Strontium-90) الا ان الذى كشف عن خطورة هذا العنصر جهد اساتذة الجامعات هناك فى بحوثمستقلة لهم . ولقد اثبتوا ان لهذا العنصر فاعلية اشعاعية ذاتمدى زمنى طويل ، وهو من الناحيةالكيميائية يشبه الكالسيوم ، اى انه يتركز فى

---

(٢٠) يتعرض الانسان عادة ومنذ بدء الحياة الىنوع من الاشعاعات الكونية والاشعاعات الناتجة عنالصخور بدرجة طفيفة تاقلم معها جسم الانسان والحيوان والنبات .



شكل رقم (١٠)

تفجير لقنبلة نووية حديثة ... سحب هائلة من الغبار الذرى سوف تجد طريقها الى سطح الارض ولو بعد حين ...

العظام وبالذات في العظام السريعة النمو ، كعظام الأجنة في الارحام والاطفال الصغار ، ويصل الى هذه العظام عن طريق ترسبه في الاعشاب والنباتات التي تتغذى عليها الابقار ، وبالتالي يتركز في البانها. وقد يسبب عنصر الاسترونتيوم - ٩٠ هذا مرض اللوكيميا احد انواع الامراض السرطانية ، فهو - اى هذا العنصر - يهاجم الاجنة فيسبب تشوهات خلقية للاطفال عند ميلادهم ، كما يتسبب في وفاتهم احيانا . ولما كانت مثل هذه الاعراض تحدث نتيجة لاسباب اخرى ، فان تحديد الحالات الناجمة من هذا العنصر ربما كان صعبا .

وعلى الرغم من صعوبة ملاحظة الغبار الذرى المتساقط ، ورغم تحريم التجارب النووية الجوية ، الا ان من بين التجارب العديدة التي اجرتها الولايات المتحدة الامريكية تحت الارض ١٧ تجربة (من مجموعها وقدره ٢٠٠ تجربة) تسربت منها الفاعلية الاشعاعية ، ومنها تجربتان وصلت هذه الفاعلية لهما الى كندا. (شكل رقم ١١)

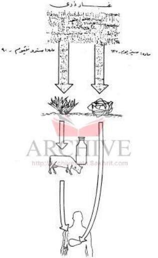
ولو فرض وامتنعت هذه التجارب تماما ، فان سباق التسلح النووي سيظل له تاثير خطير على البيئة من خلال تجهيز المواد النووية. فمخلفات مناجم اليورانيوم ومصانعه انما تشكل في حد ذاتها خطرا محليا جسيما . فهي تعرض المواد الخام تحت الارض للتلوث بها بعد ترشيح مياه الامطار لها الى باطن الارض ، ومن ثم تتسرب الى مياه الانهار لتلوثها بالاشعاعات .

والاخطر من ذلك تلك العناصر المشعة الجديدة الناتجة عن المنتجات الجانبية للمفاعلات الذرية التي تصنع البلوتونيوم والتريتيوم . وتستمر بعض هذه العناصر لفترات قصيرة ، ولكنها قد تحدث اخطارا اشعاعية مباشرة وكثيفة ، ولكني في نفس الوقت لخلق اخطار تستمر عشرات السنوات ان لم تكن مئات . فعنصر الاسترونيوم - ٩٠ والسيزيوم - ١٣٧ يتحلل ٥٠٪ من قيمتها على مدى ثلاثين عاما ، اي ان ١٠٪ من قيمتها سيظل بعد مرور ١٠٠ سنة متبقيا كمادة اشعاعية ذات اخطار جسيمة . (٢١)

ويظل معظم النشاط الاشعاعي الذى ينتج عن المفاعلات النووية داخل عناصر الوقود المعدنية في قلب المفاعل . وبعد سنة او سنتين يوقف المفاعل مؤقتا ويزال الوقود منه ليوضع غيره ، ويرسل الوقود المستعمل الى مصنع معالجة المواد المعادة لاستخلاص النفايات الاشعاعية منه في محلول حمضي . ويظل هذا المحلول ساخنا - ربما الى درجة الغليان - بسبب عملية التحلل الاشعاعي، لهذا فلا بد من تبريده بصفة مستمرة. وينبغي عدم نفاذ هذه المواد الى البيئة . وتخزن الولايات المتحدة الامريكية مثل هذه المواد في حوالي ٢٠٠ خزان مبني من الخرسانة المسلحة ومدفونة تحت سطح الارض ، ويتسع كل خزان منها لحوالي مليون جالون ، ولو ان ثلاثة جالونات فقط من هذه المواد قد وزعت بالتساوي على كافة سكان الارض لوصلتهم جميعا ، وعرضت اجسامهم الى نقطة الخطر الاشعاعي . ومع هذا فان مائتي مليون جالون منها مخزون في الولايات

---

(٢١) David R. Inglis, Neuclear Pollution and Arms Race, From Crisis Survival, N.Y. 1973, . 145.



شكل رقم (١١)

الى اين يتجه الغبار الذرى المتساقط ؟

ان جوهر مشكلة الغبار الذرى المتساقط لا تكمن اساسا في الكمية الساقطة بل تكمن بالدرجة الاولى في الطريقة التي تصبح فيها الجزئيات الاشعاعية مركزة في مجرى السلسلةالغذائية ، ومن هنا فان مادة الاسترونشيوم ـ ٩٠ للنظير الاشعاعي تمتصة الماشية اثناء تغذيتها بالاعشاب الملوثة ، لوتتجه هذه المادة الى الانسان من خلال تناوله اللبن والجبن ، ثم يتسبب في اصابة الانسان بسرطان العظام . اما مادة السيزيوم ـ ١٣٧ الاقل ذوبانا ، فتنتقل مباشرة من الخضراوات الى الانسان حيث يتركز في الاعضاء والانسجة الدقيقة مثل الكبد والغدد التناسلية وفي هذا خطر جسيم على كل المورثات (الجينات) .

المتحدة فقط تحت حراسة مشددة ودائمة ويقظة. بل تحتاج هذه الخزانات لتبديلها بخزانات أفضل مرة كل ٢٠٠ سنة على مر العصور . ولقد حدث من قبل خلل فى احد هذه الخزانات ترتب عليه انسكاب ٦٠ الف جالون من تلك المادة المهلكة اخذت طريقها المجهول في التربة . (٢٢)

وتحدد وكالة الطاقة الذرية الكمية السنوية التي تتسرب من العناصر الاشعاعية الخطيرة . وتحدد كذلك الجرعات الاشعاعية المسموح بها للعاملين فى المصانع الذرية وللعامة من الشعب بالولايات المتحدة الامريكية ، وهي للفئة الاخيرة لا تتجاوز ١٠٪ من المسموح به للفئة الاولى ، وهو بذلك أقل من مستوى الخطر الاشعاعي . الا ان الدلائل تشير الى انه فى حالة استمرار العامة من الشعب الامريكي للتعرض لهذا القدر المحدد للغاية من الاشعاعات ، فان ١٠ الاف مواطن سوف يموتون سنويا بسبب السرطان . وان كان هذا العدد ضئيلا بالنسبة لسكان الولايات ، الا انها نسبة كبيرة لافراد من الجنس البشري يموتون بسبب تغيرات متعمدة فى الظروف البيئية .

اما السكان بالقرب من المفاعلات النووية فان الاخطار ستظل تتهددهم ، كما ان انتاج المواد النووية مثل البلاتونيوم والترتيوم واليورانيوم تنطوي على انتاج نفايات اشعاعية تستعمل فى انتاج الطاقة ، والتي تنتهي عادة بتسخين مياه الانهار والبحيرات بدرجة تؤثر فى الحياة المائية . ولا شك ان التخلص من هذه النفايات الاشعاعية انما يعد من اخطر المشاكل التي تقدمها الطاقة النووية للبيئة .

والواقع اننا لم نتحدث فى كل هذا عن اخطار الحرب النووية لو انها ــ لا قدر الله ــ قامت . ويبدو ان المجتمعات الحديثة قد اعدت نفسها لهذا النوع من الصراع !. او هكذا تتوهم . فبالاضافة الى القتل الفوري للارواح البشرية ودمار الممتلكات ، فانها سوف تؤدي الى كوارث بيئية ووراثية تفوق الخيال .

ان ما يمكن ان يحدث للعالم نتيجة صراع نووي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي والصين ودول اوروبية نووية اخرى لـه تاثير خطير على كل اجزاء العالم . سوف تتوقف فورا مساعدات الغذاء والمساعدات التكنولوجية التي تقدمها الدول المتقدمة الى الدول الاخرى . وسوف تمتنع الاولى عن مد الدول الاخرى بالبذور ذات الانتاجية العالية والاسمدة والحبوب الغذائية . والجرارات والات التنقيب على المياه ، وبالتالي سيجد العالم نفسه على شفا كارثة رهيبة لكون العالم اليوم فى ترابط محكم من حيث هذا النوع من العلاقات .

وفى حالة نشوب حرب نووية على هذا المستوى سوف تستحيل زراعة المحاصيل فى مناطق عديدة ، كما ان اندلاع النيران الهائلة فى نصف الكرة الشمالي ، سوف يؤدى الى ارسال كميات هائلة من الحطام والهباء الى الغلاف الجوي الى حد يفوق التلوث البركاني الذي يعقب ثوراناته الفاجئة ، وسوف تحدث تبعا لذلك تغيرات جذرية للظروف المناخية فى سائر انحاء العالم ، وحيثما توفرت مواد قابلة للاحتراق كنطاقات الغابات الهائلة فى عروضها المختلفة

---

(٢٢) David R. Inglis, op.cit. P. 147.

شمالا وجنوبا ، ولتولدت مواصف نيران رهيبة ،تلك العواصف التي عرفها العالم بدرجة محدودة للغاية في مساء يوم ٢٧ يوليو عام ١٩٤٣ . حينماقامت قاذفات القنابل اللانكستر والهاليفاكس من السلاح الجوي الانجليزي بالقاء ٢٤١٧ طنا مـن القنابل المحرقة شديدة الانفجار علـى مدينـة همبورج . لقد التحمت كافة النيران الانفرادية في عاصفة من اللهب غطت ستة اميـال مربعـة ، وارتفعت السـنة النيران الى ١٥ الـف قـدم ،وبلغت درجة حرارة المناطق المغطـاة بالعاصفـة ١٤٥٠ درجة فهرنهيت ، وبلغت سرعة الرياح التي تولدت نتيجة للتيارات الهوائية الصاعـدة والتي تهب نحو مركز النيران الى اكثر من ١٥٠ ميلا في الساعة ، وسخن هواء الملاجيء المحفـورة تحت الارض لدرجة كانت تشتعل فيها المواد القابلـة للاحتراق بمجرد فتح هذه الملاجيء لدخـول الاكسوجين وهو امر لازم لها حيث كانت تفتـح للتهوية مرة كل عشرة أيام عـادة في الظـروف العادية .

لا شك ان حربا كهذه سـوف تتسبب في احتراق الجزء الاكبر من نصف الكرة الشمالي ، وسوف لا يكون دمار الغطاء النباتي هـو الاثر الوحيد لهذه الكارثة ، بل ان التربة سوف تصبح عقيمة عقما جزئيا او كليا ، كما ستعمل الامطار على جرف الطبقة العليا منهـا . ولنتخيل مثـلا تجرد تلال كاليفورنيا من غطائها النباتي وسقوط الامطار الشتوية عليها . وكذلك الاحمال الهائلة من الطمي والحطام المشع الذي سينجرف مـن القارات الشمالية الى المياه بعيدا عن الشاطيء . ولنتخيل كذلك مصير الحياة المائية التي سوف تتأثر تماما بتلوث المياه . كما ينبغي ان نفـكر في آبار البترول الموجودة في البحار ، لا شك سوف تنفجر وتدمر بتأثير الاحداث على اليابس المجاور ، وسيتدفق محواها الى مياه المحيطـات وسوف يستحيل اغلاقها ، كما لا بد ان نتخيل مقـدار التسرب الذي سيحدث للمذيبات والوقود والمواد الكيميائية الاخرى وما ستتعرض له انابيب نقل الخامات المختلفة . (٢٢)

اما الاحياء الذين سيبقون بعـد اي حرب كهذه فسوف يعيشون في بيئة محطمة منهـارة فاسدة ، كما سيتركزون في نصف الكرة الجنوبي الضيق ، وسوف يتخلفون ثقافيا وحضـاريا لاختفاء التكنولوجيا ، وستتحـول الجماعـات البشرية الى اشتات مبعثرة عليهـا ان تواجـه المشكلات الوراثية المعقدة ، لان كلا منها سوف يمتلك جزءا ضئيلا فقط من المتغيرية الوراثية للجنس البشري ، كما انها سوف تتعرض الى تقداكثر لهذه المتغيرية ، ولقد اظهرت الدراسات التي اجريت على بعض سكان اليابان ان هذه المشكلات تؤثر بشكل خطير على معدل وفيات الاطفال وزيادة التلف العضوي للانسان والتشوهات الخلقيـة التي سوف تصيبهم قبل الميلاد ، باختصار فان تاثير هذه الحرب لن يكون قاصرا على قتل جزء كبير من الجنس البشري ، بل سيظل اثرها باقيا ومدمرا لمن سيبقى على الارض من بعدها .

---

(٢٢) الشرنوبي ، المرجع السابق ، ص ص ٤٤٦ـ ٤٥٠ .

ان موارد الثروة الطبيعية التي تكونت في احقاب التاريخ الجيولوجي محدودة . وفي خلال الربع قرن الاخير استنفدنا من الوقود الحفري ما يعادل كمية الوقود الذي استنفد في كل التاريخ من قبل (٢٤) ، فنحن فعلا في ازمة طاقة ، تلك الطاقة التي يتضاعف احتياجنا لها مرة كل عشر سنوات . فاذا استطعنا توفير كل جالون من الوقود ، وكل رطل من النحاس واليورانيوم من تلك التي تستهلكها في سباق التسلح النووي حاضرا او مستقبلا ، فسوف نجني ثمار ذلك بالتخطيط لتلك الموارد المنهوبة عمدا في ظل شراهة القرن العشرين .

ان كل ما تقدم من حديث عن تلف البيئة المعاصرة او التهديد باتلافها ليس وحده هو الممكن حصره في هذا المجال . فهناك تهديدات اخرى عديدة متشعبة ومتفرعة ، فهناك تلوث ناتج عن مركبات الرصاص بسبب تصاعد ايثيل الرصاص وتتعرض له البشرية من خلال المبيدات الحشرية والدهان واللحام وبعض أواني الطبخ وانابيب المياه المصنوعة من الرصاص . وهناك التلوث الجرثومي والبكتيري والفلوريدي Fluoride Pollution حيث يتلوث الهواء من مادة الفلوريد المنبعثة من مصانع الحديد والالمنيوم والفوسفات والزجاج والخزف والطوب ، كل هذا بالاضافة الى الخلل الذي يمكن ان يحدث في دورات العناصر الطبيعية كدورة الكربون ودورة النيتروجين ودورة الفوسفات ، يجعل من الصعب طرق كافة جوانب تلك المشكلة البيئية في مقال واحد او لمتخصص واحد . (٢٥)

ان اخطار الملوثات المعاصرة غير مدركة بصفة عامة حتى الان خصوصا في الدول غير الصناعية ، ولكن سوف نجد ، وبطريقة غير ملحوظة ، بحيراتنا فاسدة وانهارنا ملوثة واطفالنا وشيوخنا مرضى ، ورغم خطورة التحلل من الهجوم على موارد الثروة الذي حدث في القرن التاسع عشر ، الا اننا لا زلنا ننظر باستخفاف الى ما يجري اليوم ، فهل فشل العلم في ارشادنا عن كيفية استغلالنا للبيئة ، ام ان الزمام قد فلت من ايدي العلماء الذين تقع على عاتقهم المسئولية لكونهم بمثابة الاوصياء على استقامة ونزاهة هذا العلم ؟ ان السرية حول كثير من الامور العلمية التي تجرى في المعامل والمؤسسات العلمية ، قداعاقت المناقشات الحرة ، وهناك الكثير من المؤسسات العلمية الهامة قد تحكمت فيها الاهداف القومية المحدودة ، بل في بعض الحالات كان العلماء مرتبطين ارتباطا وثيقا بالاهداف السياسية ومن ثم بعدوا عن المناقشات العلمية المفتوحة .

• • •

(٢٤) David R. Inglis, Op.Cit. P. 149, 150.

(٢٥) See Ehrlich, P.R. & A.H., : Op. Cit. Chaps. 4,5,6.

نظرة اخلاقية للمشكلة :

يبدو ان العلماء اليوم لا يجدون طريقهم لتقديم الترشيد الدقيق للتكنولوجيا ، وهم مطالبون حقيقة بايجاد طرق جديدة لحماية العلم ذاته من انتهاكات الضغوط السياسية ، وهذه ليست مسالة جديدة ، فكثيرا ما تعرض العلم للهجوم والطغيان عندما يصبح جريئا في المناقشة، نزيها في البحث عن الحق . ولقد كانت القوة الكامنة للعلم وقدرته على فهم الطبيعة تضعف عندما كانت المبادىء الحرة للمناقشة العلمية تتعرض للكبت او الخطر ، وكانت هذه القوة تسترد عندما يكون هناك دفاع عن هذه المبادىء . ولقد تعرض العلم فعلا للقمع والكبت في العصور الوسطى ، كما تعرض لضلال النظريات العنصرية النازية وسخف السرية المفروضة على المعامل العسكرية النووية والجرثومية .

ولقد اعتدنا في الماضي ـ وخاصة في نظمنا الاخلاقية المنظمة وبخاصة في الدين ان نضرب المثل بمبادىء الحياة الاخلاقية ، وكان ذلك في مصر خلال الحكم الفرعوني ، وفي روما تحت حكم الاباطرة ، وفي الجزيرة العربية في صدر الاسلام ، ومن قبل ذلك من خلال دعوة السيد المسيح عليه السلام . وكانت قيم هذه الاديان تعمل فعلا على تغييرات ملائمة في المجتمع . وحديثا ـ وللاسف ـ اصبحت هناك هوة سحيقة بين المبادىء الاخلاقية التقليدية وحقائق الحياة العصرية بدءا من الكنيسة الكاثوليكية والمذاهب الدينية الاخرى، خاصة في الغرب الذي يمارس الاساليب التكنولوجية على اعلى مستوى ، ولقد اصبح من العسير في هذا العالم ادراك جوهر الموضوعات الاخلاقية في حدود السرقة او الايذاء بحجر ، فالموضوعات الاخلاقية للعالم المعاصر لا بد ان تنحصر في الجوهر المركب للعلم والتكنولوجيا . فممارسة الاخلاق اصبحت الان تتطلب تحديد الحق بين الفلاحين الذين يعملون بمبيداتهم الحشرية على تلويث المياه ، وبين صيادي الاسماك الذين تتوقف حياتهم على تلك المياه ، وهذا نفسه يدعو الى حكم سليم بين مزايا احلال مولد للطاقة غير نووي ينبعث منه الدخان محل مولد نووي خال من الدخان ولكنه ينطوي على كوارث خطيرة .

ان الحرب النووية الرهيبة لا يمكن وصفها الا في الحدود العلمية ، فهي توصف بلغة الرونتجينات والميجاطينات ، ويفهمها جيدا من لديهم ادراك بالتنظيم الصناعي وبعلم البيولوجيا البشرية ، ومن لهم ادراك بتعقيدات الايكولوجيا على المستوى العالمي ، فالتدمير الذاتي للحرب النووية ما زال يستتر خلف قناع العلم والتكنولوجيا ، وان الجريمة الاخلاقية الكبرى في وقتنا هذا اخفاء طبيعة هذه الحرب لان ذلك يحرم البشرية من حقها في تقرير مصيرها .

ان مشاكل العصر تحتاج الى اعمال اجتماعية وسياسية بعيدة المدى ، وسوف يؤثر حل المشكلات المرتبطة بالتلوث البيئي في البناء الاقتصادي الى حد بعيد ، كما ان هذا الحل لا شك سيحتاج الى تغييرات اساسية في تنظيم المدن ، ولكي تقضي على تهديد الكوارث النووية لابد من حل او علاج للصراعات الدولية التي تسبب الحروب المدمرة على مر الاجيال .

وهكذا نصبح فى حاجة لمظلة عقلية او غلاف عقلي Noösphere تتفحصه جيــدا ؛ لانه سوف يعطينا الفرصة للوصــول الى حـل لمشكلات العصر التي تهدد بقاءنا . الا ان توقف عقارب الساعة لا يحل المشاكل الايكولوجية ، بل ان ذلك يعتبر غلقا للمصارف او البنوك التي تحل المشاكل الاقتصادية ، ففي الايكولوجية لا توجد جنات عدن ، ولا المدن الفاضلة ، ولا يمكــن ان نعيد عقارب الساعة الى الوراء للعيش فى مجتمع ابسط وحياة اكثر اشراقا ، بل ان طبيعة الانسان هي التي تدفعه الى التغيير ، وهذا ما دفعه الى الورطة الراهنة حيث اصبح سيدا على الارض دون معرفة لقواعد السيادة .

اننا فى الختام لا نستطيــع ان نعبث لفترة طويلة بالقواعد التي تتحكم فى نظم البيئة والمجتمع، تلك النظم التي هي اساس التوازن فى تنوع الحياة من حولنا . وهناك ذلك المبدأ الذي يقف جنبا الى جنب مع العديد من المبادىء الايكولوجية الاخرى، المبدأ الاساسي الذي ذكره الفيلسوف فرانسيس بيكون فى القرن الســابع عشر عندما ذكر انــــالا نملك حق اصدار الاوامر الطبيعة، بقدر ما نملك من تقديم فروض الولاء والطاعة لها .

(٣٦) We cannot command nature except by Obeying her.

ان الحكمة التي نحتاج اليها يجب ان تنبثق عن المجتمع بكل افراده ، ومن الحكومات والاجهزة التي تصدر التشريعات والقوانين والبرامج اللازمة لتثبيت حجم السكان عند مستويات يمكن اعالتها فى مستوى معيشي مقبول ، ولتنظيم استعمـــال موارد الثروة فى ضوء احتياجات المستقبــل .. وهذا يعيدنا الى السطور الاولى من هذا المقال لكي ندرك الى اي رقم يمكن ان يصل تعداد سكان العالم .. فهل يكون الحل فى الحد من تزايدنا .. ام فى ثراء مداركنا بابعاد المشكلة الايكولوجيــة والنظم البيئية التي تعمل فى توازن دقيق .... ؟

* * *

(٣٦) Peter Farb, : Op.cit. P. 23.

أهم المراجـع

اولا : مراجع عربية :

ـ جـوزويـه دى كاسترو « جغرافيـه الجـوع »ترجمة زكى الرشـيدى ، القاهرة (الالف كتاب ـ رقم ٣٦٦) بدون تاريخ .

ـ عبد المحسن صالـح (دكتور) : « المدنية الحديثةومشكلات التلوث » مجلة عالم الفكر (ديسمبر ١٩٧١) .

ـ محمد عبد الرحمن الشرنوبى (دكتور) ، « المشكلة السكانية فى الربع الاخير من القرن العشرين » ، مجموعة محاضرات الموسم الثقافى للجمعية الجغرافيةالكويتيةالكويت (١٩٧٥) .

ـ « جغرافية السكان » القاهرة ـ مكتبة الانجلوالمصرية ، (١٩٧٢) .

ـ « الانسـان والبيئـة » القاهرة ـ مكتبة الانجلوالمصرية ، (١٩٧٩) .

ثانيا : مراجع اجنبية :

— Barry commoner : To survive on the Earth, in : Science and Survival, by Commoner, N.Y. 1966.

— Cecil E. Johnson : Eco-Crisis, N.Y. 1970.

— David R. Englis, : "Nuclear Pollution and the Arams Race," in : The Crisis of Survival, N.Y. 1973.

— Ehrlich, P.R. & A.H. : Population, Resources, Environment, San Francisco, 1970.

— Joseph L. Myler : "The Dirty Animal-Man", in Eco-Crisis, N.Y. 1970.

— Marston Bates, : "The Human Ecosystem," in : Ecological Crisis, N.Y. 1970.

— Peter Farb : 'Man Versus Nature', in: Eco-Cris, N.Y. 1970.

— Rhoda M. Love & G.A. Love, : Ecological Crisis, Readings for Survival, Chicago, 1970.

— United Nations : "The Determinantseon Consequ nces of Population Trends", Population Studies No. 1 , N.Y. 1953.

— Warren S. Thompson : Population Problems, London, 1970.

* * *

الـدوافـع والحوافـــز بين النظريـة والتطبيق

منصور أحمد منصور *

مفهوم دوافع العمل

نادت نظرية العلوم السلوكية، طبقا لتجارب عملية بضرورة الاخذ بمبدأ دوافع العمل او الترغيب فيه، باعتباره اسلوبا انسانيا يحث العامل ويدفعه الى تكريس جهوده، وبذل طاقاته العملية، والعلمية، والفنية لتحقيق اهداف المنظمة[1].

ويدور موضوع دوافع العمل Motivation to Work **حول دراسة طبيعة الانسان العامل** Human Nature **وسلوكه او تصرفاته** Human Behavior**. والغرض من هذا هو التعرف على حاجات الانسان، ورغباته، ثم محاولة اشباع هذه الحاجات او تحقيق تلك الرغبات. والهدف الامثل** Ultimate Opjective **الذي ترمي اليه المنظمات العاملة، هو**

---

* دكتور منصور احمد منصور استاذ مساعد بقسم ادارة الاعمال ـ كلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية ـ جامعة الكويت. له العديد من الدراسات والبحوث في الادارة العامة والقوى العاملة.

١ ـ تنادي النظرية المذكورة بخمس مبادىء :

(١) مبدأ اعتبار المنظمة نظاما اجتماعيا، (٢) مبدأ القيادة، (٣) مبدأ دوافع العمل (٤) مبدأ الاتصالات (٥) مبدأ تدريب وتنمية قدرات العاملين.

تحقيق اهدافها عن طريق اشباع حاجات القوى العاملة ، وتحقيق رغباتها الامر الذى يدفعها الى العمل والانتاج Productivity وهذا يعنى سد حاجات العاملين ، وتحقيق رغباتهم بالاسلوب الذى يحرك قدراتهم الفنية والعلمية والعملية ووضعها في خدمة الاهداف .

وقد عرف بعض الكتاب مفهوم دوافع العمل ، او ترغيب العامل في العمل والاستمرار فيه بانه **الرغبة الانسانية** Willingness في الاستجابة الى متطلبات المنظمة ، اى تحقيق رسالتها او اهدافها (٢) (The Accomplishment of Organizational Missions).

واخذا بالمفاهيم العالمية المختلفة لدوافع العمل او ترغيب العاملين في العمل والاستمرار فيه ودراسة هذه المفاهيم وتحليلها فانها جميعها تدور حول الاجابة على الاسئلة الآتية :ـ

الاول : ماهي الوسائل الفنية او العلمية التي تتمكن المنظمة بمقتضاها من اختيار وترغيب الاكفاء من الناس للالتحاق بوظائف المنظمة ؟

الثاني : ماهى الحوافز ، المادية أو المعنوية التى تتمكن المنظمة من تطبيقها للابقاء على الاكفاء من العاملين ، وكسب ولائهم ورغبتهم في تحقيق الحد الامثل من الكفاية والانتاجية Productivity ؟

ولاشك أن السؤال الاول يعنى الاهتمام بدراسة السياسة الادارية الخاصة بتوظيف العاملين الجدد وتعيينهم . على أن هناك ارتباطا وثيقا بين هذه السياسة وبين الحوافز التي تقدمها المنظمة للعاملين لديها . اذ ان اختيار وترغيب الاكفاء من الناس ، يقتضى «اغرائهم» بما تقدمه المنظمة من مزايا او حوافز مادية كانت او معنوية ، في الحال وفي المستقبل ، ومن ثم فان الاجابة عن السؤال الثاني يرتبط موضوعها بالاجابة عن السؤال الاول ، من وجهة نظر الحوافز التى تحرك دوافع الانسان نحو الالتحاق بالعمل والاستمرار فيه ، وتكريس جهوده الفكرية والفنية والعملية لتحقيق اهداف المنظمة .

السلوك الانساني

ان دراسة السلوك الانسانى Human Behavior في العمل ترتكز أساسا على قدرة الرجل الادارى في فهم طبيعة الانسان ويفرض توافر هذه القدرة ، فان فهم طبيعة الانسان تتطلب ان نعطى المدير قدرا من الوقت او الزمن . ومن ثم فان الجهود التى تبذل في اختيار الافضل من الناس مقدرة وسلوكا ، لا تكفى في حد ذاتها للتنبؤ بسلوك الانسان وتصرفاته في الوظيفة . وهذا لا يتأتى الا بالممارسة الفعلية لواجبات ومسئوليات الوظيفة من جانب الموظف . ولهذا اخذت الدول عامة بمبدأ تعيين الموظف الجديد تعيينا « تحت الاختبار » (Probationary period) وفي خلال هذه الفترة (من ٣ اشهر الى سنة) يمكن دراسة سلوك الانسان وتصرفاته في الوظيفة وخلالها ، يكون للمنظمة ابقاؤه او ابعاده دون مسئولية في تعويضه او التزام بقبوله عاملا .

وتدل التأملات الفكرية ، والدراسات الانسانية على ان نشاط الانسان هو تعبير مادى لسلوكه ، ومن ثم فان السلوك الانسانى يعبر عنه بمجموعة من الانشطة الانسانية . وتتمثل هذه الانشطة في طريقة سير الانسان

---

٢ ـ Billy J. Hodge & Herbert J. Johnson, **Management and Organizational Behavior** (New York : John Wiley & Sons Inc., 1970), p . 193 — 213.

وتعبيره بالحديث وتصرفه مع زملائه فى العمل، واسلوبه فى اداء الواجبات والمسئوليات الخاصة بعمله ، وقد يؤدى الانسان اكثر من نشاط في وقت واحد ، كالتحدث مع زميل فى العمل اثناء تدوينه بعض البيانات الخاصة بعمله .

ولا شك ، أن الانسان له قدرة على احداث تغيير مفاجىء في سلوكه ومن ثم فى نشاطه ، كما انه يستطيع التوقف عن نشاط أو انشطة معينة وتبديلها بغيرها .. كما ان للانسان قدرة على الابطاء فى ممارسة نشاط معين ، او تاجيله او انهائه بصورة او باخرى . هذه الحرية السلوكية تثير تساؤلات هامة منها : ما هوالدافع او الدوافع التي تجعل الفرد يقوم بنشاط معين دون غيره ؟ ما هى الاسباب فى تغيير الانسان لسلوكه او تصرفاته ، ومن ثم في نوع نشاطه او الانشطة التى كان يزاولها ؟

وتكون هذه التساؤلات اكثر اهمية ، اذا ارتكزت على سلوك الانسان وتصرفاته فى العمل . ومن ثم فان مناط الصعوبة ، يتمثل فى ايجاد الوسيلة او الوسائل التى تمكن الرجل الادارى من فهم سلوك العاملين تحت رئاسته او اشرافه ، وفي قدرته على توجيه هذا السلوك واخضاعه لمسيرة معينة لتحقيق اهداف المنظمة ، والطريق الى هذا الفهم ، وخلق هذه القدرة او تنميتها لدى المديرين يتمثل فى ضرورة الالمام بالدوافع او الحافز او الحاجات Motives or Incentives or Needs البشرية التى تؤدى الى تكوين السلوك المرغوب فيه فى وقت معين .

ولا شك ان هناك صلة وثيقة بين دوافع الانسان واشباع رغباته او حاجاته. فالدوافع تدفعه الى سلوك او تصرف معين ، ويقوم الانسان بالتعبير عن السلوك بنشاط او اداء عمل معين ، الامر الذى يؤدى الى اشباع حاجاته أو رغباته او اهدافه . ويمكن تصوير ذلك بالشكل (رقم ١) .

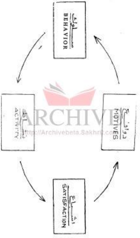
من الشكل رقم (١) نرى أن الدوافع هى الاسباب (whys) الحقيقية للسلوك ، والقوى المحركة للانشطة ، وبها يتحدد مسار هذا السلوك ، وتلك الانشطة . ولهذا كانت الدوافع مرتعا للابحاث السلوكية باعتبارها القاعدة التى ينطلق منها انواع السلوك ومساره (Mainsprings of action) .

ومن ناحية اخرى نرى من الشكل السابق، ان الرغبة او الحاجة (A Need or Desire) تمثل الغاية او الهدف (Target) الذى يسعى الانسان الى تحقيقه او الحصول عليه بالدرجة او المستوى الذى يراه كافيا لاشباع نفسه منها . ومن ثم يمكن القول بان الرغبة الى اشباع حاجة ، او تحقيق غاية هى بدورها المحركة لدوافع الانسان لتخطيط سلوكه وتحديد نشاطه ، الذى قد يحقق له اشباع الحاجة او تحقيق الغاية .

الحوافز

وتطبيقا لما تقدم فان موطن الصعوبة يتمثل فى كيفية اختيار «الحافز» او الحوافز Incentives التى تحرك دوافع الانسان نحو سلوك معين وادائه لنشاط او انشطة محددة ، بالشكل او بالاسلوب الذى يحقق له اهدافه او رغباته. وبمعنى آخر يتعين اقامة صلة مباشرة ووثيقة بين الحافز وتحقيق الهدف او الرغبة .

ومن ناحية أخرى فان اشباع حاجات الانسان العامل او تحقيق رغباته او آماله فى المنظمة يقتضى ان يحدد مسارها بحيث تؤدى



شكل رقم (١)
اشباع حاجات ورغبات الإنسان

الى تحقيق أهداف المنظمة ، ومن ثم فانه يتعين اقامة صلة اخرى وثيقة بين اهداف المنظمة واهداف العاملين بها . ومعنى ذلك أن تكون الحوافز المتاحة كافية لخلق الظروف المناسبة والاقتناع الانساني بأن تحقيق أهداف المنظمة ضروري لتحقيق اهداف الجماعة في المنظمة ويمكن تصوير ذلك بالشكل الاتي رقم (٢) .

يشير الشكل رقم (٢) الى ان اشباع حاجات الانسان العامل وتحقيق رغباته مرهون بتحقيق أهداف المنظمة ، ومرتبط بها ، بمعنى أن تحقيق الاهداف شرط لازم لامكان اشباع حاجات الانسان ورغباته . واذا اردنا اعادة صياغة هذا في اسلوب اكثر دقة وسهولة، فانه يمكن القول ان الحد الامثل لانتاجية العامل هو الغاية والهدف ، وتحقيقه امر جوهري في اشباع الحاجة او تحقيق رغبة الانسان العامل .

على أن ما تقدم لا يعني قيام المنظمة بوقف اشباع الحاجة او تحقيق الرغبة ، حتى يتحقق لها هدفها في الوصول الى الحد الامثل في الانتاجية . بل انه تجب التفرقة بين ما يسمى بالحاجات او الحوافز الضرورية او اللازمة (Primary Incentives) وبين الحوافز المساعدة (Auxiliary Incentives) .
ويتمثل النوع الاول في الاجر المحدد للوظيفة ومشتملاته ، ويتمثل النوع الثاني في كل المزايا او الحوافز ، التي تقررها المنظمة مادية أو معنوية بالاضافة الى النوع الاول تشجيعا للعاملين ، وحثا لهم على تحقيق الحد الامثل في الانتاجية ومن ثم فان النوع الاول من الحوافز ، يمثل حاجات العمل الضرورية التي يتعين اشباعها بصورة منتظمة، ومستمرة الا في الاحوال التي يجوز فيها ، أو يتعين معها اتخاذ امر يؤثر على صفة الاستمرار أو الانتظام في ادائها ، اما الحوافز المساعدة ، فهي التي تقررها المنظمة لجميع العاملين او لبعضهم بشروط معينة ، تشجيعا لهم ، لتوجيه نشاطهم وقدراتهم الفنية والعمية والعملية في تحقيق أهداف المنظمة (الانتاجية) ، توصلا الى تحقيق رغباتهم وآمالهم الذاتية .

ولهذا فانه قد يكون من الضروري للمنظمات العاملة ، تحديد نوع Kind ، وطبيعة Nature) ، وقوة فاعلية (Intencity) الحوافز التي تقررها للعاملين لديها . كما انه من الضروري اختيار الوقت لادائها ، وارتباطها باهداف العاملين وتغييرها او تنوعها تبعا للتغيير في رغبات الافراد . وهذا لا يتأتى الا عن طريق اجراء الابحاث العلمية بصورة مستمرة .

وتدل الدراسات العديدة على انه يتعين توافر شروط محددة في تقرير هذه الحوافز (بالنسبة للاجر مثلا فانه يتعين تحديده وهو احد الحوافز الضرورية) ارتكازا على عوامل ثلاثة ، العدالة ، والمساواة والكفاية . اما الحوافز المساعدة او الاضافية ، فيجب توافر ما يلي عند اختيارها واقرارها :ــ

١ ـ سهولة فهم السياسة التي تقررها المنظمة في تقريرها للحوافز
(Easily Understood).

٢ ـ عدالة الحوافز وكفايته (Equitable)

٣ ـ ارتباط الحوافز ارتباطا وثيقا مباشرا بالجهود الذهنية او البدنية او السلوكية التي يبذلها العامل في تحقيق الحد الامثل للانتاجية
(Directly related to effort)

٤ ـ اقرار صرفها او ادائها للعاملين في مواعيد محدودة ومتقاربة
(Based on short Payback period)

٥ ـ ارتكاز الحوافز على اسس او مستويات مقبولة .
(Based on relevant standards)

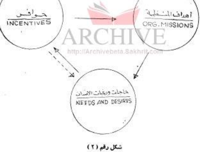
٦ ـ تأخذ شكل الاستمرار او الانتظام فى ادائها .
(Continuous rather than Sporadic)

٧ ـ ارتباطها ارتباطا مباشرا ووثيقا برسالة او هداف المنظمة
(Related to Organization Mission)

٨ ـ ارتباطها ، واتصالها اتصالا مباشرا بدوافع العامل Motives وبواعثه Drives (٣) .

وقد اتسع نطاق تطبيق المزايا الاضافية فى الدول النامية عامة ، والدول المتقدمة خاصة، تشجيعا للعاملين واستمالة لجهودهم فى تحقيق الحد الامثل في الانتاجية ليتكامل نجاح اهداف المنظمة . وقد تمنح هذه المزايا ، الى جانب الحوافز الاخرى ، بصورة جماعية (Group Incentives) او بصورة فردية (Individual Incentives) (٤) .

ويصور الجدول (رقم ١) اهم المزايا الاضافية التي تمنحها المنظمات العاملة فى الدول المتقدمة ويمكن استخدامه كاطار لقطاع الخدمات في تخطيطها لسياسة الحوافز .



شكل رقم (٢)
تحقيق اهداف المنظمة

٣ ـ Robert A. Sutermeister, **People and Productivity** (New York : McGraw-Hill, Company, 1963), and Billy J. Hodge & Herbert J. Johnson, Ibid., pp. 193-213.

٤ ـ David W. Belcher & R. H. Leukert, **Job Evaluation** (Englewood Cliffs, N. J. Prentice Hall, Inc., 1954), pp. 379-514.

جدول رقم (١)
اهم المزايا الاضافية التى تمنحها بعض المنظمات العامة

مسلسل	نوع المزايا الاضافية	امثلة
١	مزايا اضافية مقابل عمل يؤدى	ـ البدل النقدى للاجازات الرسمية ـ المزايا المالية الاضافية فى النوبات الليلية . ـ المزايا المالية عن عمل وقت اضافى ـ البدل النقدى للعمل فى الاجازة الاسبوعية
٢	مزايا نقدية غير مرتبطة بالانتاج	ـ مكافآت الاعياد السنوية ـ مكافآت المواظبة على الحضور ـ مكافآت الجودة فى الانتاج ـ مكافآت اتباع تعليمات الامن والصيانة ـ مكافآت الخدمة الممتازة ـ مكافآت تقديم اقتراحات بناءة . ـ مكافآت نهاية السنة المالية
٣	مزايا نقدية غير مرتبطة بساعات العمل :	ـ البدل النقدى للاجازات غير الرسمية ـ الاجر المدفوع للوقت الذى يقضيه العامل خارج المنظمة باذن مثل الذهاب للادلاء بصوته فى الانتخابات أو الادلاء بشهادة فى المحكمة . . . الخ ـ الاجر المدفوع عن اوقات الراحة اليومية . ـ الاجر المدفوع عن اوقات تناول الغذاء ـ المزايا المالية المدفوعة فى حالات وفاة احد افراد الاسرة . ـ المزايا المالية المدفوعة للوقت الذى يستغرقه العامل فى تغيير ملابسه أو الاستعداد للعمل .

تابع جدول رقم (١)

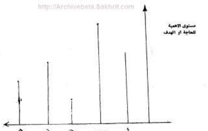
مسلسل	نوع المزايا الاضافية	امثلة
٤	المزايا الاضافية في نطاق حماية العامل :	ـ اقساط التامين التى تدفعها المنظمة لصالح العامل . ـ المزايا المالية الاضافية فى حالات العجز ـ المزايا المالية الاضافية في حالات الرعاية الصحية ، والعلاجية والجراحية . ـ اقساط التامين المدفوع لصالح العامل ضد السرقات . ـ الضمانات المالية التى تؤديها المنظمة لصالح العامل .
٥	مزايا اضافية للخدمات	ـ توفير المطاعم في مكان العمل ـ توفير الوسائل الرياضية والاجتماعية ـ توفير المساكن للعاملين ـ تقديم منح دراسية وتدريبية ـ تقديم استشارات فنية وقانونية

وموجز القول انه يتعين اختيار الحافز او الحوافز التى تتوافر فيها الشروط السابقة ، وعلى الاخص تلك التى تمثل الحاجة او الرغبة الملحة والهامة والقصوى لدى العاملين . ومعنى ذلك أن حاجات الفرد العامل متعددة . الا ان الرغبة فى اشباعها تتفاوت فيما بينها من حيث اهميتها لديه . ومن ثم ، فان على المنظمة ان تختار الحاجة او الهدف الذى يمثل الدرجة القصوى لدى العاملين فى وقت معين .

ويبين من الشكل رقم (٣) أن الحاجة او الهدف (ب) يمثل اعلى مستوى من الاهمية لدى الانسان فى وقت معين ، ومن ثم يكون اشباع هذه الحاجة او تحقيق هـذا الهدف طريقا لتحقيق اهداف المنظمة . ويعني هذا ان معرفة وتحديد حاجات الفرد ورغباته تمثل الخطوة الهامة نحو التاثير على سلوك العامل ونشاطه ، بحوافز مناسبة Appropriate Incentives واشباعها فى وقت الحاجة اليها .

وقد تثار صعوبة حول ضمان التاثير على سلوك الفرد العامل ، وتوجيه نشاطه فى اتجاه تحقيق أهداف المنظمة . وتتمثل هـذه الصعوبة في ثلاث نقاط :

الاولى تتمثل فى اشباع حاجات العاملين او تحقيق رغباتهم الفردية . ولاشك انه من الصعوبة بمكان الوصول الى هـذه النتيجة نظرا لتعدد حاجات الافراد فى وقت واحد ، وعلى الاخص بالنسبة للمنظمات التي يعمل بها عدد كبير من الافراد . ولهذا ، فان هناك من الدلائل العلمية ما يشير الى اشباع هذه الحاجات او تحقيق تلك الرغبات التي تمثل



شكل رقم (٣)
اهمية الحاجة او الهدف

آمال واهداف النسبة الغالبة من الافراد . وهذا لا يتأتى الا عن طريق الابحاث العلمية في مجال الحوافز .

الثانية تتمثل في ضرورة خلق الشعور العام والطمأنينة لدى الافراد بتوقع (Expectancy) قيام المنظمة باشباع هذه الحاجات أو تلك الرغبات وضمان ذلك في المستقبل . ولا شك في ان هذه الصعوبة تقع مسئولية حلها على الادارة العليا بالمنظمة .

الثالثة تتمثل في الشعور العام للجماعة او الافراد بتوافر امكانيات المنظمة الكفيلة بالوفاء بالتزاماتها في مجال الحوافز (Availability of Incentives) ولا شك في ان السياسة المعلنة في مجال الحوافز ، والسوابق التاريخية للمنظمة في مجال علاقات العمل من شأنهما خلق هذا الشعور بين العاملين بالمنظمة .

وتدل الدراسات العديدة في مجال سلوك الافراد في المنظمات العاملة على أن البحث العلمي يمثل المشعل الذي ينير للادارة المعرفة الموضوعية في مجال دراسة طبيعة الانسان وسلوكه واهدافه ووسائل تحقيقها

ابحاث الدوافع :

تعددت الابحاث النظرية والميدانية في مجال الدوافع والحوافز ، لكن القليل منها لا يعتمد على تجارب ناجحة تمنحها الصحة العلمية ، وتعطيها ركيزة الاعتماد عليها في المجالات المختلفة في المنظمات العاملة . وقد يرجع هذا الى أسباب عديدة منها ان هذه الابحاث تحتاج الى وقت لوضعها موضع الاختبار العملي في مجالات العمل المختلفة ، وعدم الاهتمام بالابحاث السلوكية في الدول عامة والنامية خاصة ، وقلة الاعتمادات المخصصة للابحاث والتجارب في ميدان العلوم السلوكية (٥) .

على انه مما لاشك فيه ان هذه الابحاث قد ارست مبادىء هامة واساليب فنية ، وافكارا ترتكز على تأملات فكرية ، وفروض علمية ، ونتائج موضوعية في مجال العلوم السلوكية ، هذا فضلا عن ان بعض هذه الابحاث نجحت حينما وضعت في مجال التجربة ، وما زال الوقت متسعا للمزيد من هذه الابحاث وتلك التجارب (٦) .

وتعتبر نظرية الحاجات التي بداها **ماسلو** (Maslow) من النظريات التي اخذت مسارها في التطبيق وارتكز عليها كثير من المفكرين والكتاب في ابحاثهم وابتكاراتهم في مجال الدوافع والحوافز . ويعتقد ماسلو ان هناك خمس حاجات للانسان لها اهمية تصاعدية او هرمية . هذه الحاجات تتمثل في :

(١) الحاجات المادية او الضرورية

(٢) الحاجة الى الامان والضمان

(٣) الحاجات الاجتماعية (٤) الحاجة الى التقدير (٥) الحاجة الى الاحراز او تحقيق اقصى الآمال او الطموحات .

---

٥ ــ د . منصور احمد منصور ، البحث العلمي واهميته في مجال الادارة ، الادارة ، المجلد الخامس ، العدد الثاني ، اكتوبر ١٩٧٢ (يصدر مجلة الادارة اتحاد جمعيات التنمية الادارية بجمهورية مصر العربية) .

٦ ــ تدل الدراسات على ان اهم نظريات الدوافع والحوافز خمسة هي :

(١) النظرية الكلاسيكية ، (٢) نظرية الحاجات ، (٣) نظرية العلاقات الانسانية ، (٤) نظرية التفضيل والتوقع ، (٥) نظرية العاملين ، راجع :

د . منصور احمد منصور ، المبادىء العامة في ادارة القوى العاملة ، (الكويت : وكالة المطبوعات ١٩٧٢) الباب الخامس .

وتدل الشواهد العلمية ، والدراسات الحديثة في الستينات من هذا القرن على ان نظرية ماسلو (نظرية الحاجات) اتخذت نموذجا رائدا في مجال دراسة طبيعة الانسان وسلوكه وحاجته ورغباته . ونتيجة لهذا الاتجاه ظهرت دراسات وابحاث بناءة في مجال الدوافع والحوافز ارتكازا على الحاجات الانسانية الخمسة التي جاءت في النموذج الذي قدمه ماسلو نعرض بعضها في ايجاز .

الحاجات المادية : اجري العديد من الابحاث لمعرفة مدى واهمية الحاجات الضرورية او المادية لحافز او دافع للعمل . وقد اشارت هذه الدراسات والابحاث الى انه غالبا ما يرتبط اشباع الحاجات المادية (الطعام ، والملبس .... الخ بوفرة النقود . على ان الافراد لا يهتمون بالنقود في حد ذاتها ولكن نظرا لكونها اداة (Tool) تمكنهم من اشباع مثل هذه الحاجات ، لذا فاشباعها بهذه الوسيلة يكمن في قوة النقود الشرائية (Purchasing Power) . الا انه مما لاشك فيه ان للنقود وظائف اخرى قد تكون اكثر اهمية ، واعظم ضرورة في استعمالها .

وقد دلت الابحاث التي اجريت في مجال النقود كاداة لاشباع الحاجات الضرورية ، انها باعث او دافع معقد ومتشابك . كما ان اهميتها قد تتضاءل كلما تقدم الفرد ساعيا لاشباع حاجات اخرى طبقا للنموذج الذي قدمه ماسلو . ومعنى هذا ان النقود تلعب دورا هاما وحيويا في اشباع الحاجات الضرورية ، ثم تأخذ هذه الاهمية في التناقص كلما ارتفعنا في سلم درجات الحاجات .

واجريت دراسة ميدانية في الستينات من هذا القرن بهدف وضع نظرية ماسلو موضع الاختبار . وارتكزت هذه الدراسة على عينة من ٤٩ موظفا عينوا بالادارة المتوسطة Management-Level Employees في شركة التليفونات والتلغرافات الامريكية عام ١٩٥٧ ، واستمرت هذه الدراسة خمس سنوات اعتبارا من تاريخ التحاق هؤلاء الموظفين بالخدمة ، واجريت لهم مقابلات شخصية بحضور متخصصين في العلوم النفسية .

وتتلخص اهم النتائج التي توصلت اليها هذه الدراسة فيما يلي :

١ ــ يتطلع الانسان لاشباع حاجاته ، عند بداية عمله ، بصورة تسلسلية طبقا للنموذج الذي قدمه ماسلو ، بادئا بالحاجات الضرورية (الاجر والامان والطمانينة في العمل) .

٢ ــ ليس بالضروري ان يستمر هذا الاتجاه ، اي تسلسل اشباع الحاجات ، عندما تطول مدة خدمة الموظف . فقد يتطلع الموظف لاشباع نوع معين من الحاجات لا تتفق في تسلسلها مع نموذج ماسلو .

٣ ــ بعد انقضاء مدة خدمة معينة (وهي هنا خمس سنوات) ، يتطلع اولئك الذين حققوا نجاحا في عملهم ، لاشباع المستويات العليا من الحاجات (الرغبات) تاركين او غير عابئين بالمستويات الدنيا منها (كالاجر والامان والطمانينة في العمل) ، وهذا يرجع اساسا الى ان هذه الفئة تضمن بقاءها في الوظيفة ، وتقدمها في التسلسل الاداري ، ما يضمن لها الاجر والامان والطمانينة في العمل . وينطبق نفس الحكم على المديرين الذين لم يحققوا نجاحا ملموسا في العمل ، الا ان الفرق بينهم وبين الذين حققوا نجاحا ، يتمثل في ان الفئة الاولى تكون اشد حماسا واكثر اهتماما باشباع هذه الحاجات .

٤ ــ اظهر المديرون (الناجحون منهم والاقل نجاحا) اهتمامهم باشباع الحاجات المتمثلة في احترام النفس ، وتحقيق الذات ، والانجاز ، وكانوا اقل اهتماما بالاجر والامان والطمانينة في العمل مثلما كان الامر عند بداية خدمتهم .

الطمأنينة الى الامان : تمثل هذه الحاجة الخطوة او المرحلة الثانية فى اهميتها وتسلسلها للانسان بصفة عامة . وتتمثل هذه الحاجة فى محاولة او رغبة الانسان فى ضمان عمل دائم ودخل دائم يعينه على مواجهة التزامات الحياة له ولافراد اسرته . كما تشمل هذه الحاجة الرغبة فى حماية الانسان من الاخطار الطبيعية او المهنية او الاقتصادية .

ويعتقد بعض الكتاب ان ميول الانسان واتجاهاته تجاه اشباع الحاجة الى الامان تلعب دورا هاما فى اختيار الوظيفة . على ان الاجابة على اهمية حاجة الانسان الى الامان واثرها على اختياره للوظيفة تحتاج الى ابحاث علمية عديدة حتى يمكن التوصل الى نتائج موضوعية وواقعية .

وخلاصة القول ان حاجة الانسان الى الامان والطمانينة امر يرتكز على الواقع وتؤيده الدلائل . ولاشك في أن الدول عامة توفر للانسان العامل اشباع حاجته الى الامان والطمانينة . وتتمثل وسائل اشباع هذه الحاجة فى التامينات الاجتماعية (Social Insurances) والمساعدات العامة ؛ وعقود العمل مدى الحياة (كما هو الحال فى اليابان) ، وعدم جواز فصل العامل الا بشروط خاصة (كما فى بعض الدول الاشتراكية مثل جمهورية مصر العربية) . كما تعمل المنظمات الخاصة ، ومنها النقابات العمالية ، على اشباع مثل هذه الحاجة عن طريق المساومات او المفاوضات الجماعية مع اصحاب الاعمال (كما هو الحال فى الدول المتقدمة وعلى الاخص الراسمالية منها .)

الحالة الاجتماعية (الانتماء الى الجماعة) :
ذكرنا من قبل ان حاجة الانسان الى الانتماء الى الجماعة Affiliation ترتفع الى الاهمية القصوى عندما يعتقد الانسان أو يشعر انه قد اشبع حاجته المادية وحاجته الى الامان والطمانينة ، وعندما تصبح حاجة الانسان الى الانتماء الى الجماعة فى اهميتها القصوى فان عدم اشباعها قد يؤدي الى مقاومة الفرد (Resistance) للمنظمة التي يعيش فيها ، والى عدائه لها (Antagonistic) والرغبة او التصميم على عدم التعاون معها (Uncooperative) .

وتشير هذه الدراسات الى ان الانسان يسعى لاشباع حاجته الى الانتماء الى الجماعة لا باعتبارها هدفا فى حد ذاتها (A Goal In Itself) بل باعتبارها وسيلة لتحقيق رغبات او اهداف اخرى ؛ فقد يرغب الانسان فى الانتماء الى جماعة معينة حتى يستطيع كسب تأييدها ، ومساندتها فى مسائل او آراء او معتقدات معينة . ومن ثم فغالبا ما يتجمع الافراد الذين يؤمنون بآراء او معتقدات واحدة ، محاولين استمالة غيرهم ، وتطويع الجماعة للانضمام اليهم تحت ظلال هذه الآراء او تلك المعتقدات . ولاشك ان تكوين هذه الجماعات التي قد تختلف فيما بينها من حيث المبادىء التي تؤمن بها ، ربما يحول المجتمع الى جماعات متنافرة مسببة فى خلق مشاكل اجتماعية تعوق المجتمع عن تحقيق اهدافه .

ودلت هذه الدراسات ايضا على ان الافراد الذين يشعرون باليأس او القلق او الملل ، يميلون الى صحبة من يشاركهم نفس الشعور ، وقد اكد هذا الاتجاه بعض الدراسات الدالة

---

٧ ـ راجـع :

— Saul W. Gellermen, **Motivation and** Productivity (New York : American Management Association, 1963).

على ان تطور الجماعات غير الرسمية (Informal Groups) انما يرجع اساسا الى شعور الجماعة بالسأم (Boredom) واحساس افرادها بعدم اهميتهم في العمل (Insignificance) وافتقارهم الى الخبرة او المهارات الفنية فتكون لديهم الاعتقاد بانهم ضحايا المجتمع الذي يعيشون فيه ، او نظام العمل الذين يرتبطون به .

على ان الجماعات غير الرسمية المشار اليها لا تضم جميع الافراد الذين يعملون في المنظمات العاملة . فقد دلت الدراسات على ان هناك من الافراد من لا توجد لديهم الرغبة في الانتماء الى جماعة معينة (Loner) وقد يرجع عدم الرغبة في الانتماء الى الشعور بالشك (Suspicion) في هذه الجماعة او نظرة الفرد نظرة الازدراء حيالها contemptuous او ان يكون على درجة من الكفاءة تسمح له بحماية نفسه ، وتحقيق اهدافه دون حاجة الى الانتمائاليها .

وهناك من الدلائل ما يشير الى ان الادارة في المنظمات العاملة تنظر بعين الشك الى الجماعات غير الرسمية التي تتكون وتنمو في المنظمة . وقد اشارت بعض الدراسات الى ان القيود التي تفرضها تلك الجماعات على الانتاج ما هي الا نتيجة طبيعية لشعورهم بتفاهة اعمالهم ، لاسيما اذا كانت الادارة لم تمنحهم الفرصة للمشاركة في اصدار القرارات الخاصة بهذه الاعمال، ويبدو ان مثل هذا الشعور يبدو واضحا (Materiaized) عندما تكون اعمال هذه الجماعة مملة ، او روتينية (Routine) لا تحتاج الى اية مهارات . وقد يزداد تاثير هذه الجماعة على الانتاج سواء اذا احكمت الرقابة عليها ، او حرم افرادها وسائل الاتصال المناسبة مع ادارة المنظمة .

في مثل هذه الظروف المشار اليها تبدا الجماعات غير الرسمية في الظهور والتكوين بالمنظمات ، وتأخذ في النمو . وتكتسب قوة لها تاثيرها على الانتاج . والانتماء الى مثل هذه الجماعات يعتبر اشباعا لحاجة الانتماء (الحاجة الاجتماعية) . والقيود التي تفرضها هذه الجماعات على الانتاج (Restriction of Output) ما هي الا احد الامثلة لنشاطها في مجال الانتاج . على انه ليس بالضروري ان تكون هذه القيود وليدة كراهية اعضاء هذه الجماعات لطبقة المديرين او لادارة المنظمة بل هي وسيلة (Means) للمحافظة على اعضاء الجماعة ، وشخصيتها والوصول الى اهدافها .

وجدير بالملاحظه ان الجماعات غير الرسمية تلفظ من بين اعضائها من لا يلتزم بشروطها وينفذ حدود معدلات انتاجها او ادائها ، ذلك ان مثل هذا العضو يضعف من قوتها ، ويؤدى الى تحطيم وجودها ، وذهاب طمأنينة افرادها والاهمية التي يجب ان تكون عليها .

وخفض الانتاج ليس بالضرورة ان يكون نتيجة ظهور الجماعات غير الرسمية . اذ انه يمكن للادارة الواعية ان توجه نشاط هذه الجماعات لصالحها واستخدامها كركيزة تنطلق منها لتحقيق اهدافها ، وذلك اذا استطاعت الادارة فهم وتوجيه مثل هذه الجماعات . ومثال ذلك انه اذا ساد الشعور لدى اعضاء هذه الجماعات بأن هناك تعارضا بين اهداف المنظمة واهدافهم الذاتية ، فان انتاجهم تميل الى الانخفاض . اما اذا كان تحقيق اهداف المنظمة سيعمل على تحقيق اهدافهم الشخصية فان انتاجية الجماعة سوف تميل الى الارتفاع . وكنتيجة لهذا فان المنظمة سوف تتمكن من تحقيق اهدافها .

وبهذا يمكن القول بأن ظهور الجماعات غير الرسمية ونموها ، ليس بالضرورة اعتباره مرضا يؤثر على حركة المنظمة او مسيرتها نحو

تحقيق اهدافها ، اذا ما اتجهت الادارة الى فهم طبيعة وسلوك ورغبات او اهداف هذه الجماعات ، ثم محاولة تحقيق هذه الاهداف وجعلها مرتبطة ومتصلة باهداف المنظمة .

الحاجة الى التقدير : بعد أن يشبع الانسان حاجته بالانتماء الى الجماعة يتجه محاولا اشباع الحاجة الى التقدير . هذه الحاجة تضم هدفين للانسان :

١ ـ حاجته الى الاعتزاز بنفسه ، وقيمته واعتباره كعضو في جماعة (Self-esteem) وتشير هذه الحاجة او الرغبة الى الثقة بالنفس (Self-Competence) واستقلال الشخصية (Autonomy) والكفاءة او القدرة الذاتية (Competence) في الانجاز .

٢ ـ حاجة الانسان الى الشهرة او السمعة الطيبة او المكانة المرموقة (One's reputation) وتتمثل في احقية الانسان في أن ينال من الجماعة تفضيلا او تمييزا عن غيره لخدمات اداها او مساهمة قام بها (Recognition) كذلك تشير هذه الحاجة الى رغبة الانسان في تحقيق منزلة معينة او مرتبة مرموقة لدى الجماعة (Status) او تقدير معين لنشاطه وانجازاته (Appreciation) .

وموجز القول ان الحاجة الى التقدير تتمثل في رغبة الانسان في ان يرى صورة ما يجول في نفسه ، متمثلة في اعتراف وتقدير الجماعة لها . ويمكن اجمال حاجة الانسان اليها في تحقيق امرين (١) احترام الجماعة للانسان ، ومكانته لديها لاعمال اداها او خدمات ساهم في انجازها Prestige (٢) القوة التي يملكها الانسان في شخصيته او لقدراته العلمية او الفنية او العملية (Power)

ويسعى الافراد لاشباع هذه الرغبة او الحاجة بطرق مختلفة . فقد يسلك الانسان طريق اداء خدمات مرموقة او انجازات ذاتية لتكون رمزا ماديا لاجتذاب الآخرين الى احترامه وتقديره ، وقد يحاول آخر تحقيق منجزات فردية (Personal Achievement) كالوصول الى اعلى درجات العلم والمعرفة ، كوسيلة للوصول الى مركز او مكانة مرموقة في المجتمع الذي يعيش او يعمل فيه .

ومهما تكن اساليب اشباع الحاجة الى التقدير فان حاجة الانسان اليها امر يرتكز على الواقع ، وتؤيده الدلائل ، مع ملاحظة أن بعض الافراد يميلون الى المبالغة Over-emphasis في تقييم انفسهم . ومن ثم فانه يمكن القول بوجوب ايجاد توازن Balance بين تقييم الفرد لنفسه وتقييم الجماعة له .

ومن نتائج ما تقدم فان تقييم الفرد لذاته قد يرتكز على مستويات مقبولة تتفق واقصى ما يمكن ان يحققه من مكانة او مركز في المجتمع . وعندما يحقق الفرد ما تطلع اليه طبقا لهذه المستويات فانه يحاول جاهدا المحافظة عليها بدلا من التطلع لتحقيق مستويات اعلى . وذلك هو السبب في رضاء بعض الافراد عما حققوه من احترام في المنظمات التي يعملون بها ، على اعتبار انهم وصلوا او حققوا ما كانوا يتطلعون اليه في الماضي (Preconceived Level) اما الافراد غير العاديين (Unreasonable Individuals) فقد يتطلعون لاشباع حاجتهم على المستوى القومي او العالمي غير مراعين لحدود طاقاتهم او مستويات قدراتهم ، او الظروف المحيطة بهم ، ولا شك ان نتيجة هذه الحالة هي الخيبة والفشل .

الحاجة الى الانجاز : تدل الدراسات التي تمت على ان هذه الحاجة تمثل صعوبة عند محاولة فهمها او التعرف عليها او تحديد آثارها ، بسبب ان الانسان يحاول اشباعها بطرق ووسائل متعددة . وقد ركزت الابحاث الحديثة اهتمامها على نوعين من الغايات

الانسانية التي تتدرج تحت الحاجة الى الانجاز ، الاول ويتمثل في الشعور او تحقيق الاحساس بالكفاءة (Competence) والثاني يشير الى محاولة الانسان احراز تقدم ملموس في مجال معين من المجالات .

وتتمثل هذه الكفاءة في قدرة الانسان في السيطرة على عوامل البيئة التي يعيش فيها سواء كانت مادية او اجتماعية . ويبدو ان الافراد الذين يحاولون اشباع هذه الرغبة لا يستطيعون انتظار حدوث عوامل اشباعها ، بل انهم يحاولون تطويع جميع الامكانيات المحيطة بهم لتحقيق هدفهم .

ويتضح مما تقدم ان هناك علاقة وثيقة الصلة بين شعور الفرد بالكفاءة ودرجة توقعة لاشباعها : فنجاح الانسان في ماضيه هو الذي يحدد توقعات نجاحه او فشله في كفاءته في مستقبله . فيتسم الشعور بالكفاءة بالقوة عندما تكون مجالات نجاحه في الماضي اكثر من مجالات فشله . ومن ثم تصبح نظرة الانسان الى الحياة اكثر ايجابية (A Positive outlook toward life) ويرى في كل مشكلة جديدة تحديا ممتعا لكفاءته في التغلب عليها . وبالرغم من أن الحاجة الى الشعور بالكفاءة تظهر وتنمو مبكرا في حياة الانسان ، الا انه ليس من الضروري ان تصاحبه طوال حياته. فقد دلت بعض الدراسات على أن نجاح الفرد مرة اوعدة مرات ، رغم توقعه للفشل ، غالبا ما يدعم شعوره بالكفاءة ، ويدفعه هذا النجاح الى احراز الكثير منها . وعند تكرار ذلك يتحول شعور الانسان الى اعتقاده بامكانية التنبؤ بامكان نجاحه واشباع حاجته الى الكفاءة، وغالبا ما يكون عامل السن (Age) ذا اثر على امكانية النجاح . اذ للانسان طاقة معينة ومحددة ، يستطيع معها توقع نجاحه اوفشله في مجالات الحياة المختلفة .

ويعتبر العمل احد المجالات الرائدة التي تمكن الفرد من المواءمة بين قدراته الفنية والعلمية والعملية . ومتطلبات البيئة التي يعيش او يعمل بها ، وهي مواءمة تأخذ شكل مباراة تتسم بالتحدي والاصرار ، ولا شك في ان الاعمال التي تعطي الانسان الفرصة للدخول في مثل هذه المباراة تسمح له باشباع حاجته الى الكفاءة والتعبير عنها ، هذا بالاضافة الى ما يمكن ان يحصل عليه من حوافز مادية كانت او أدبية . ولذلك نرى ان الاعمال الروتينية لا تمكن الفرد العامل من الدخول في مجال لاظهار براعته الوظيفية او قدراته العلمية ، وفي هذه الحالة ، يضحى هذا الانسان خاضعا لنظام عمل تظلله رقابة اشرافية محكمة .

الحاجة الى الاحراز : واذا وجهنا النظر الى دراسة وفهم الحاجة الى الاحراز (Achievement) فانه يتعين الاشارة الى انها لاتعني مجرد جهود علمية او فنية او مبتكرة يبذلها الانسان ، بل انها بالاضافة الى ذلك ، تعني تحقيق ثمرة هذه الجهود ، رغم ماقد يوجد من صعوبات او عقبات يمكن ان تحول دون احراز هذه الثمرة .

فاذا توافر لدى بعض الافراد الشعور بحاجتهم الى احراز ثمرة معينة فان قوة رغبتهم تدفعهم الى العمل الجاد وبذل الجهود المتواصلة حتى يتحقق لهم اشباعها بدلا من ترك نتائجها للصدفة . وغالبا ما يتميز هؤلاء الافراد بقوة الحاجة مدفوعة بدوافع ايجابية ، وعلى الاخص اذا كان تحقيق الاحراز سيحقق لهم عائدا ماديا او ادبيا . ومع ذلك فان هدف الافراد في هذه الحالة ، تجسم اساسا في احراز الثمرة . بغض النظر عن حجم الحافز او مقداره ، ونتيجة ذلك ان النقود ـ باعتبارها حافزا ـ لا تعتبر بالنسبة لهؤلاء الا مقياسا لأدائهم ، وتقييما لجهودهم ومابذلوه.

البيئة كمصدر للدوافع Motivating Environment : يتضح مما سبق ان حاجات الانسان متعددة ، ووسائل اشباعها متباينة ، والدوافع التي تدفع هذه الحاجات الى الحركة

والاشباع مختلفة ، كما ان قوة ودرجة الاشباع تختلف من فرد الى آخر ، والادارة الناجحة هي تلك التى لها قدرة التنبؤ بدوافع الانسان ، وحاجاته واستخدام الحوافز المناسبة في الوقت المناسب .

ولا شك فى ان استخدام الحوافز فى العمل انما يهدف الى استخدام الطاقات البشرية بالشكل الذى يضمن ان العناصر البشرية تعطى كل ما هى قادرة على اعطائه ، اذ ان الدراسات العديدة تعطي الدلائل العلمية الثابتة على انه كلما ارتفعت كفاءة استخدام الطاقات او القدرات البشرية ، ارتفع الاداء الانسانى (Human Performance) كما ان الحوافز مادية كانت او ادبية ، تساعد على استخدام افضل لهذه الطاقات ، عن طريق تحريك دوافع الانسان واستخدام طاقاته المعطلة او الكامنة .

وقد اجريت في احدى قطاعات الصناعة الامريكية دراسات حاول الباحثون الرد على السؤال التالي : ماذا يريد العاملون من اعمالهم (What do workers want from their jobs?)

في هذه الدراسة طلب من طبقة المشرفين Supervisors ان يضعوا انفسهم مكان العاملين لديهم (A worker's shoes) ويعدوا كتابة قائمة بالحاجات التي يعتقدون ان العاملين يتطلعون الى اشباعها من العمل على أن يراعي في ترتيب هذه الحاجات وضعها حسب اهميتها لهم . كما طلب من العاملين ايضا اعداد هذه القائمة ، التي تبين الحاجات التي يتطلعون الى اشباعها من عملهم .

ويصور الجدول الآتي رقم (٢) الحاجات مرتبة حسب اهميتها ، مع مراعاة ان الرقم ١ يعنى الاكثر اهمية والرقم ١٠ يعنى الاقل اهمية .

جدول رقم (٢)
ماذا يريد العاملون من اعمالهم ؟

العمال	المشرفون	الحاجات
١	٨	تقدير الادارة للعمل الذى يؤدى
٢	١٠	الشعور او الاحساس الداخلى للعامل
٣	٩	التعاطف وفهم المشاكل الشخصية
٤	٢	الامان والطمانينة في العمل
٥	١	اجور ممتازة
٦	٥	عمل يثير اهتمام العامل
٧	٣	الترقية والتقدم مع نمو المنظمة
٨	٦	ولاء او اخلاص الادارة للعاملين
٩	٤	طرق وظروف عمل جيدة
١٠	٧	عدالة وحساسية نظام التاديب

ويمكن اعادة ترتيب الحاجات ، بالشكل الذى يبين وجهة نظر المشرف ، ووجهة نظر العامل فى الجدول الآتي (رقم ٣) .

جدول رقم (٣)
ماذا يريد العاملون من اعمالهم ؟

العمال	الحاجة طبقا لاهميتها	المشرفون	الحاجة طبقا لاهميتها
١	تقدير الادارة للعمل الذى يؤدى	١	اجور ممتازة
٢	الشعور الداخلى للعامل	٢	الامان والطمانينة فى العمل
٣	التعاطف وفهم مشاكل العاملين	٣	الترقية والتقدم الوظيفى
٤	الامان والطمانينة فى العمل	٤	طرق وظروف عمل جيدة
٥	اجور ممتازة	٥	عمل يثير اهتمام العامل
٦	عمل يثير الاهتمام	٦	ولاء واخلاص الادارة
٧	الترقية والتقدم الوظيفى	٧	عدالة وحساسية نظام التاديب
٨	ولاء واخلاص الادارة	٨	تقدير الادارة للعمل الذى يؤدى
٩	طرق وظروف عمل جيدة	٩	التعاطف وفهم مشاكل العاملين
١٠	عدالة وحساسية نظام التاديب	١٠	الشعور الداخلى للعامل

ويتضح من الجدول السابق رقم (٣) الملاحظات الهامة التالية :

١ ـ ان طبقة المشرفين غالبا ما تعتبر ان الاجور المرتفعة تمثل الحافز الاول لزيادة انتاجية العامل . فان الدوافع الاساسية للعاملين ، تتمثل فى فرص الكسب الاقتصادى ومن ثم فهم يختارون افضل الظروف التى تضمن ان يكون الكسب المادى هو النتيجة المباشرة لزيادة انتاجيتهم .

٢ ـ ان طبقة المشرفين اضافوا الشعور بالطمانينة والترقية والتقدم الوظيفى باعتبارها عوامل او حاجات يتطلع العاملون لاشباعها من عملهم في المنظمات العاملة . ولاشك في ان الامان والطمانينة فى العمل (Job Security) اعتبرت فى المرتبة الثانية من الاهمية فى نظرية ماسلو السابق الاشارة اليها . وقد جاء في الجدول السابق ان هذه الحاجة تعتبر من الحاجات او الرغبات الهامة لدى العامل ولو انها ادرجت تحت رقم ٤ بدلا من رقم ٢ طبقا لوجهة نظر طبقة المشرفين .

والترقية قد تعني امرين :

الاول انها تضيف امانا اكثر وطمانينة فى نفس الانسان نحو بقائه في الوظيفة .

الثاني انها تعني زيادة فيالاجر او المرتب ، وفى كلتا الحالتين تعتبر الترقية من الحوافز المادية وان كانت تعطي الانسان الاحساس باهميته في المنظمة ، ومن ثم يمكن اعتبارها من الحوافز الادبية .

وقد ادرج العاملون الترقية فى المرتبة السابعة من الاهمية ، وان كانوا قد اعتبروا ان تقدير الادارة لعملهم هو اول ما يتطلعون اليه . ويمكن تفسير ذلك بان تقدير الادارة لاعمال الانسان ، غالبا ما يؤدى الى ترقيته ومنحه الفرصة للتقدم الوظيفي بالمنظمة .

٣ ـ ادرج العاملون تقدير الادارة للعمل ، والشعور الداخلي للعامل تجاه المنظمة ، والتعاطف وفهم مشاكلهم في الاهمية القصوى بالنسبة لهم . وهذا يفسر اهمية العلاقات الانسانية في العمل .

٤ ـ يتضح ايضا من الجدول السابق ان الحاجات التي اعتبرها العاملون من اهم متطلباتهم ، ويتطلعون الى اشباعها ، رأى المشرفون انها اقل اهمية من غيرها . وهذا يعني ان بعض المديرين ليس لديهم القدرة او الرغبة في فهم الحاجات او الرغبات التي تمثل الاهمية القصوى للعاملين لديهم . وهذا يؤدي الى اختيار الحافز الخطأ او استخدامه في وقت غير مناسب .

٥ ـ ما زال بعض او اغلب المديرين يعتقدون ان اشباع الحاجات المادية للعاملين من اهم الحوافز فاعلية لتحقيق الاستخدام الامثل للطاقات البشرية . وهذا ما يخالفه الواقع في النتائج التي توصلت اليها الدراسة المشار اليها . ويبدو ان الحافز المادي ، يكون منتجا في الدول النامية، نظرا لضآلة الاجور وانكماش فرص التقدم .

خلاصة ونتائج

يتمثل الهدف من هذا البحث في شرح ودراسة وتحليل الدوافع والحوافز ، والتطبيقات الميدانية لها والآثار المترتبة على استخدامها في المنظمات العامة بصفة عامة وقطاع الخدمات بصفة خاصة .

واستخدام الدوافع والحوافز يتطلب الاجابة على سؤالين هامين :

الاول يتمثل في الوسائل التي تتمكن المنظمة بمقتضاها اختيار وترغيب الاكفاء من الافراد ، والالتحاق بالوظائف واستمرارهم او بقائهم عاملين بها .

والثاني يدور حول الحوافز المادية والمعنوية التي تتمكن المنظمة من توفيرها للابقاء على الاكفاء من العاملين ، وكسب ولائهم ورغبتهم في تحقيق الحد الامثل من الانتاجية .

من خلال الصفحات السابقة نرى انها تؤكد حقائق محددة نوجز اهمها فيما يلي :

(١) ان الانسان **طاقة** اذا احسن استخدامها تضحي قوة ، واذا وجهت هذه القوة اضحت وسيلة لتحقيق غاية او غايات . لكن الطاقة الكامنة في الانسان لا تصبح قوة الا بتحريكها او استخدامها ، واذا احسن توجيه قوة الانسان نحو هدف ما فانه في الغالب يتحقق .

(٢) ان الانسان يختلف عن الآلة ، ويتمثل اهم هذا الاختلاف في ان الانسان بطبيعته مخلوق متغير وغير مستقر ، ومن ثم يصعب التنبؤ بسلوكه او تصرفاته او اتجاهاته .

(٣) ان هناك صعوبة او استحالة في تواجد تماثل بين انسان وآخر في الطبيعة والسلوك والتصرفات والاتجاهات ، ومن ثم فان ذلك قد ينشيء صعوبة في المنظمات العاملة نحو ايجاد التآلف بين الافراد والتناسق في سلوكهم ، والتقارب بين اتجاهاتهم .

(٤) انه لا توجد حتى الآن وسيلة علمية مؤكدة تتميز بالدقة والسلامة لاستخدامها في امرين :

الاول يتمثل في قياس مساهمة الفرد او

عمق اهتمامه او مقدار ولائه للمنظمة التي يعمل بها .

والثاني يتمثل في التنبؤ او في تفسير ما يطرأ على سلوك الانسان او تصرفاته او اتجاهاته من تغير او تقلب في المستقبل .

وازاء هذه الحقائق تضحي المهمة شاقة في ادارة الانسان العامل . وتزداد هذه المهمة صعوبة اذا اجتمع هذا الانسان مع غيره من الافراد تحت ادارة واحدة . وتضحي هذه المهمة اكثر تعقيدا كلما ازداد حجم القوى العاملة التي تعمل في منظمة واحدة او في مكان واحد . ومن ثم يضحي التوازن حتمي وضروري في تطوير أساليب الادارة في مجال ادارة الطاقات البشرية عن طريق سياسات تخطيطية تمهد المسيرة نحو تعاون جماعي ، ومساهمة فعالة لضمان تحقيق اهداف المنظمة من خلال تحقيق حاجات الفرد وتطلعاته في المستقبل .

* * *

المراجع

د . منصور احمد منصور ، المبادىء العامة في ادارة القـوى العاملة . الكويت ـ وكالة المطبوعات ، ١٩٧٢ .

د . منصور احمد منصور ، الدوافع والحوافز في قـاع الانتاج : دراسة مقارنة . القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية . ١٩٧٤ .

د . منصور احمد منصور ، المبادئ العامة في ادارة القوى الافريقية ، القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية : ١٩٧٤.

د . منصور احمد منصور، تطور مفهوم تخطيط القوى العاملة في الدول المتقدمة (١) القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية ١٩٧٢ .

د . منصور احمد منصور ، ايكولوجية الادارة العامة . القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية ١٩٧٢ .

د . منصور احمد منصور ، القوى العاملة : تخطيط والتنمية وتقويم ادائها الكويت : جامعة الكويت ١٩٧٥ .(تحت الطبع)

د . منصور احمد منصور ، البحث العلمي واهميته في مجال الادارة ، مجلة الادارة ، اكتوبر ١٩٧٢ .

د . منصور احمد منصور ، مفهوم الانتاجية بين النظرية والتطبيق ، مجلة الادارة ، ابريل ١٩٧٤ .

د . منصور احمد منصور ، الثورة الادارية بين النظرية والتطبيق ، مجلة الادارة ، اكتوبر ١٩٧٤ .

* * *

عقوبة الاعدام
بين الابقاء والالغاء

عبد الوهاب حومد

من بين المشاكل التي ثار حولها جدل طويل،واصطرعت فيها الفلسفات والعواطف والمعتقدات، مشكلة عقوبة الاعدام . ولعل اصطدام الفكر بواقع المجتمع ، بما فيه من مركب الخوف على نفسه ان يقع الفرد منه ضحية خنجر من شرير ، او رصاصة من دموى ، يغلف النقاش الهادىء بسحب قاتمة ، تجعل البصيرة اقل نفاذاً في بحثها عن الحل الامثل، في مصطرع التناقضات الاجتماعية .

ومما يزيد في صعوبة اتخاذ قرار ثورى حاسم ، ان البشرية درجت على الرضا بهذه العقوبة ، ومارستها منذ الازل ، وارتاحت اليها ، كوسيلة من وسائل تسكين الحقد الذى يعتمل فى نفوس ذوى المقتول ، وطمانة لمن روعتهم الجريمة ، دون ان تنالهم في اشخاصهم ، بان هناك عينا ساهرة على سلامتهم ، هى الدولة ، وسيفها المسلط في يدها على رقاب العابثين باقدارهم العظمى ، يرهب اعداء الله واعداء القانون ..

ولقد عاقبت البشرية انماطا من المجرمين بالموت ، **منذ فجر تكوّن المجتمعات الأولى ، اذا لم اغامر بالقول ، منذ تكون المجتمع الاول** .. ولا يذهبن بنا الخيال ، الى ان هذه العقوبة كانت قاصرة على القتلة ، الذين يزهقون ارواح الناس . لانها ، في حقيقتها ، كانت تطال غير القتلة . بل ربما كان اعدام **القتلة لم ينتشر الا بعد مرحلة طويلة من التطور** الحضاري .

فقد عاقبت **مصر الفرعونية** جرائم كثيرة بالاعدام :

عاقبت **قتل الحيوانات** المقدسة ، والسحر ، وعدم افشاء مؤامرة ضد الفرعون ، والتصريح الكاذب من الموارد المالية . وعدم اغاثة من تعرض لهجوم الاشقياء ، في الطريق ...

ونوعت طرق تنفيذ هذه العقوبة :

فمن قتل اباه ، كان يعدم بقرز قطع حادة من القصب في جسمه ثم يقطع الجلادون من لحمه قطعا صغيرة بآلة خاصة ، وبعد ذلك يلقى به على كومة من القش ، ويحرق ببطء .. وكانوا يحرقون الزانية ...

وكان يدخل في سلطة القاضي اختيار طريقة اعدام المجرمين الآخرين ، بين الشنق ، او الاغراق او التقطيع ، او النار ..

ومع الزمن ، خفت حدة الغرائز البدائية ، فادخلوا في مفهوم المسئولية الجماعية تقييدا اساسيا ، هو ان تنفيذ العقوبة اصبح قاصرا على الفاعل وحده ، وان المرأة الزانية ، اصبحت تعاقب بجدع الانف ، لحرمانها من محاسنها التي كانت تغري بها الرجال لانتهاك حرمة الرباط الزوجي المقدس ...

وينقل احد المؤلفين المعاصرين (١) عن المؤرخ اليوناني هيرودوت "Herodote" ، ان الفرعون "Sabacon" ، احد مؤسسي الاسرة الخامسة والعشرين (ما بين ٧١٠ ـ ٧٠٣ ق . م .) الغى عقوبة الاعدام ، وابدلها بعقوبة السجن مع تقييد المجرم بالسلاسل ، وتشغيله في الاعمال العامة . فاذا صحت هذه الرواية ، تكون مصر القديمة ، اول نظام منظم ، حقق خطوة حاسمة ، لا تزال البشرية في حيرة امامها حتى اليوم .

وقد اعيدت هذه العقوبة فيما بعد ، واصبحت تطال ، في عهد مصر البطلموسية وهي الفترة التي تمتد ما بين الغزو الماكيدوني لمصر عام ٣٣٢ ق.م والغزو الروماني عام ٣٠ ق.م ـ ، كما يتضح من اوراق البردي اليونانية وبعض النقوش ، عدد متزايد من الافعال ، كارتشاء الموظفين ، والتطفيف في الميزان ، والتعدي على اموال المعابد ..

ولقد اجبرت كليوباترا ، بمرسوم اصدرته عام ٥٠ ق .م. التجار الذين يشترون حبوب مصر الوسطى وخضارها ، بنقلها الى الاسكندرية وعاقبت مخالفي هذا المرسوم بالاعدام .

وفي ظل الحضارة الرائعة التي ازدهرت في **بلاد ما بين النهرين** ، وضعت قوانين متكاملة، من اعظمها ، قانون **حمورابي** عام ١٧٠٠ق .م، الذي يعكس في مواده الجميلة نضوجا فكريا خصبا .. واذا كان هذا التشريع البابلي ، يعاقب افعالا كثيرة بالاعدام ، كالسرقات الكبرى ، واخفاء المسروقات ، التي استلبت بواسطة العنف ، وازالة الوشم عن وجه العبد لاخفائه عن مالكه ، والقتل ، وزنا المرأة واغتصابها ، والشهادة الزور في جريمة القتل، والبلاغ الكاذب عن ارتكاب جريمة قتل

(١) Jean Imbert, la peine de mort, P.U.F. P. 15

مكلوبة ، ومحالة التهرب من اداء الخدمة العسكرية ، فانه امتاز بثلاث ميزات مدهشة :ــ

الاولى : ــ انه قلص الجرائم الدينية كثيرا حتى اصبحت قاصرة على جريمتي السحر ، والانحراف الراهبة التي ترتاد الملاهي ..

والثانية : ــ انه اشترط وجود العمد في القتل ، ليستحق القاتل الاعدام . فقد نص في المادتين ٢٠٧ ، ٢٠٨ على انه : ــ

« اذا تسبب الضرب بموت الضحية ، واقسم الفاعل بانى لم اضربه عن قصد ، فانه **يدفع ثلاثين مثقالا من الفضة** « "Sicles" (٢) ، **اذا كان المقتول مواطنا** ، وعشرين مثقالا اذا **كان المقتول لا يتمتع بالمواطنية** mesquin ...

والثالثة : ــ انه الغى صيغة المماثلة ، (La talion) الا في حالة واحدة ، هي حينما ياخذ الدائن ولد المدين رهينة لسداد دينه ، ويعامله معاملة قاسية ، فيموت من جرائها ، فان ولد هذا الدائن هو الذى يعدم .

وكان الاعدام ينفذ بطرق شتى ، كالشنق والقتل بالسيف ، والاغراق والحرق . يضاف الى ذلك طريقة جديدة ، هي الخازوق ، وكانت المراة التى تقتل زوجها او تشترك في قتله تعدم بهذه الطريقة الرهيبة .

وقد تاثرت بهذا التشريع بعض الدول المجاورة ، ويذهب بعض الباحثين الى ان العبرانيين استقوا كثيرا من مبادئه . وليس **هذا بغريب ، فقد كان ابراهيم الخليل يعيش في اور ، احدى بلاد تلك الدولة قبل مهاجرته الى العرب ، وحين بدا التقنين اليهودى بالظهور ، كان التشريع البابلي يجتاز قرنه الثامن .**

وقد عرف **التشريع اليهودى القديم المسئولية الجماعية** ، ففى سفر التكوين ، **(الاصحاح الرابع والثلاثين ، الاية ٢٦ ــ ٢٧)** ، ان Sichem ابن Hémor خطف امراة تدعى Dina . واغتصبها ، ولكنه اعلن انه يريد أن يتزوجها . غير ان اخوتها قتلوا الخاطف واباه انتقاما لشرف اختهم الملوث ..

وحين قوى ساعد السلطة المركزية بدات تفرض عدالتها ، محل العدالة الفردية ، واصبحت العقوبة تتجه الى الفاعل وحده . ففي سفر الـ Deutéronome ، الاصحاح الرابع والعشرين الاية ١٦ :

« ولا يعاقب الاولاد بالموت بدلا من آبائهم » ، « ولايعاقب بالموت الا من ارتكب خطا شخصيا »

ولكن ولي الدم هو الذى ينفذ العقوبة في جريمة القتل .. اما في الجرائم العامة ، فان الاعدام كان سهلا جدا .. فقد كان يعاقب بالاعدام السحرة ، وعبدة الاوثان والمرتدون ، والذين يحقرون الرب ، وكان يعاقب بالاعدام كل يهودى يشتغل يوم السبت « لان اليوم السابع سيكون يوم راحة كاملة مكرسة ليهوه » EXODE XXX, 15

ويقتل الزاني، والزانية ايضا ، وتعاقب بالاعدام كل فتاة تخفي عن زوجها انها ليست عذراء ، ويعدم مرتكبو الاتصال الجنسي بالمحرمات ، واللواط واتيان الحيوانات ...

ولكن الجرائم الاقتصادية والجرائم الموجهة ضد الملكية لم تكن معاقبة بالاعدام .. ومما يلفت النظر ان تنفيذ الاعدام ، كان يتم بالرجم بالحجارة ، في جميع الجرائم . وكانوا يعللون ذلك ، بان الحكم يصدر عن القضاة ، ولكن

(٢) في لاروس انسيكلوبيديك ، انه يبدو ان كلمة Sicle عبرية ، وهو وزن عند العبريين « ١١ غراما وكسور » وعند البابليين ٨،٤٠ غرامات .

الشعب كله هو الذي ينفذه . وأول من يبدأ بالرجم ، شهود الاثبات ، ثم يليهم الحاضرون حتى الموت ، وبعد ذلك تعلق الجثة على شجرة طيلة النهار ، ولكن يجب دفنها قبل حلول الليل .

ولم تكن طريقة التنفيذ بالنار مطبقة شرعا الا في حالتين : تعهر ابنة الكاهن ، والاتصال الجنسي بالأم او الأخت .

وعرف المجتمع العربي الجاهلي عقوبة الاعدام وطبقها ، بطريق العرف الذي كان ينظم علاقات الافراد ، وتوارثوه كابرا عن كابر ، دون ان يكون للتشريع اليهودي او النصراني اي اثر في تكوينه او تعديله . ذلك ان اليهود الذين فروا من بلاد الشام ، خوفا من مجازر الروم ، لاجئين الى الجزيرة العربية ، لم يكونوا من الكثرة بحيث يستطيعون ان يؤثروا في عقلية الناس . وقد اهتم بعض المستشرقين على دراسة اسماء يهود الحجاز ، وواقعهم الاجتماعي ، وقرروا انها اسماء عربية خالصة ، وان المستوى الاجتماعي لم يكن يختلف عن مستوى سائر سكان الجزيرة ، وانهم كانوا يتزوجون منهم ، ويزوجونهم ، دون تحرج ، واستنتجوا من كل ذلك ، ان غالبية يهود الجزيرة العربية ، هم قبائل عربية ، تهودت (٢) .

وكان للنصرانية مستعمرات مبعثرة على حدود الجزيرة الشمالية ، تسللت اليها من اتصال الحجاز بفلسطين ، كما كان لها بعض الاتباع في اليمن ، تأثرا بالنصرانية الحبشية . .

ولكن العادات والتقاليد العربية الراسخة ، هي التي كانت تحكم الجزيرة واهلها ، ولم يكن يسيرا على جماعة قافلة ، مغلقة الابواب والبصائر على التيارات الفكرية الاجنبية ، ان تغير او تبدل من مفاهيمها الأزلية . .

وقد اشار الى ذلك تعالى بقوله : وكذلك ماارسلنا من قبلك في قرية من نذير الاقال مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة وانا على اثارهم مقتدون »

(الزخرف ، الآية ٢٣) .

ولم يكن للعرب دولة موحدة ، تضع لهم القانون ، وتنفذ فيهم العقوبات . . . لانهم كانوا مجموعة من المجتمعات المتموجة ، الفت احكام الطاغوت ، ونهاها الله عنه ، عندما بزغ عليها فجر عهد جديد ، جاء ينقذهم من الضلالة الى الهدى في دنياهم ودينهم ، ويضع لهم قواعد للسلوك القويم ، على اساس من التساند الاجتماعي والتمسك بنظام الشرع ، عقيدة وسلوكا . . فقال تعالى :

« يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت ، وقد امروا ان يكفروا به » (النساء آية ٦٠)

والطاغوت هذا هو حكم العرف ، الذي كانت العدالة فيه تقوم على الثار على اساس من مسئولية جماعية قبيحة ، وكان للكاهن والعارفة دور كبير في اقامة البينة وتقرير العقاب . .

والظاهر ان عقوبة الاعدام لم تكن منتشرة عندهم ، لفقدان التنظيم الدولي .

فقد كان من حق الأب ان يقتل اولاده الذكور ، ويئد بناته . . وفي ذلك يقول الله : « قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم » (الانعام ١٤٠) .

ويقول : ــ « واذا الموؤودة سئلت : بأى ذنب قتلت » (التكوير الآيتان ٨ و ٩) .

واذا وقع قتل بين اثنين من عشيرة واحدة ، او من عشيرتين مختلفتين ، كان من حق ولي

---

(٢) جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٦ «القسم الديني ص ١ ــ ٥٠ و » Margolioth ص ٦١ .

الدم ان يثأر في الحال ، او في خلال ايام قليلة فان ولق يكون الموضوع قد صفى ، والا تدخل الحكماء لبذل المساعي الحميدة ، وانتهى الامر اما بتسليم القاتل للاقتصاص منه ، او لدفع دية ، وهذا هو الغالب . وكان تسليم القاتل الى اهل المقتول معروفا لدى الرومان ، وكانوا يسمونه « Nozae Diditio » .

ولم تكن السرقات الكبرى معاقبة ، وهي المتمثلة في الغزو ، بل كانت موضع تفاخر وإباء ، والدهر قُلّبٌ فيهم ، والحرب سجال :

فيومٌ علينا ، ويوم لنا : ويوم نُساءُ ويومٌ نُسر .

ولكن الجريمة التي كانت ، دون ريب ، معاقبة بالاعدام عندهم : هي جريمة الزنا ، خوفا من اختلاط الانساب ، ودفاعا عن الشرف والسمعة ...

والى هذا اشار المؤرخ اليوناني سترابون في حديثه عن العرب .. ولكن الاهل هم الذين ينفذونها ، غير انهم لم يكونوا مجبرين على ذلك .

وجاءت الشريعة الاسلامية ، بقواعدها الجديدة ، ونصت على عقوبة الاعدام في بعض الجرائم ، بصورة حصرية ، وهي :

١ ـ جريمة القتل العمد : ـ

وعقوبتها الاعدام ، الا اذا عفا ولي الدم . وسند هذه العقوبة ، قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والانثى بالانثى ، فمن عفي له من أخيه شيء ، فاتباع بالمعروف ، واداء اليه باحسان » .
(البقرة آية ١٧٨)

وفي الحديث : ـ

« من قتل له قتيل ، فهو بخير النظرين ، اما ان يفتدى واما ان يقتل » .

٢ ـ الحرابة : ـ وهي قطع الطريق ، قال تعالى : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الارض فسادا ، ان يقتلوا او يصلبوا ، او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الارض .... » . (٤)
(المائدة آية ٣٢) .

٣ ـ الردة : وهي الخروج من الاسلام بعد ان كان فيه .

والاجماع على ان المرتد يقتل . واختلف الفقهاء في امر المراة المرتدة . ويرى ابو حنيفة انها لا تقتل ، ولكن تحبس حتى تتوب .

ولم يرد في القرآن الكريم نص على قتل المرتد . فقد قال تعالى : ـ

« ومن يَرتَدِدْ منكم عن دينه ، فيمت وهو كافر ، فاولئك حبطت اعمالهم في الدنيا والآخرة ، واولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » .
(البقرة آية ٢١٧)

ولكن روى عن رسول الله قوله : ـ من بدل دينه فاقتلوه ...

---

(٤) اختلف الفقهاء المسلمون في تفسير هذه الآية .

فذهب فريق ، منهم الكاساني في البدائع ج ٧ ص ٩٤ ، الى ان حرف او للتنويع ، وهو مذهب ابن عباس ، اي انهم يقتلون ويصلبون اذا قتلوا وسرقوا المال ، ويقتلون اذا قتلوا ولا يصلبون اذا لم يسرقوا المال .

وذهب فريق آخر الى ان النص يخير القاضي بين احدى العقوبات ويفوض اليه الامر في كل على حدة . وعلى راس الفريق مالك رضي الله عنه .

وفي الراجح من المذاهب، ان المرتد يستتاب ثلاثة أيام (ابو حنيفة ومالك واحد قولين للشافعي) .

ويرى علي ان يستتاب شهرا . ولكن ابن حنبل وقولا اخر للشافعي : « انه يقتل دون استتابة » .

٤ ـ البغي : وهو خروج المسلمين على الامام بتاويل سائغ ، ولهم منعة وشوكة .

والبغاة هم المجرمون السياسيون في الشريعة الاسلامية ، ونقول هم الثوار الذين ثاروا على الامام الجائر فخرجوا عليه يقاتلونه لخلعه .

وقد يكونون مخطئين في اجتهادهم .. لذلك جاز للامام ان يقاتلهم في ارض المعركة ، اذا بداوه ولم يقاتل علي الخوارج ، الا بعد ان قتلوا عبد الله بن خباب ، وامتنعوا عن تسليم قاتله .

فاذا انحسرت المعركة عن فرار البغاة ، فانه لا يجوز قتال المدبر منهم ، ولا من القى سلاحه ولا من اغلق بابه ، ولا يقتل اسيرهم ولا جريحهم وتعاد اليهم اموالهم ، لانها ليست غنائم .

٥ ـ وتبقى لنا كلمة في جريمة الزنا .

فهل يقتل الزاني والزانية رجما بالحجارة ؟ هذا ما لم يرد عليه نص في القرآن . ولكن رسول الله امر برجم ماعز والغامدية مرة ، ولم يأمر برجم شخص آخر ، جاءه بعد ايام يعترف بالزنا ، فسأله رسول الله هل توضأت وصليت معنا ؟ قال نعم : قال اذهب فقد غفر الله لك . (٥)

وقد اخذ قانون معاقبة الزنا الليبي ، الذي صدر مؤخرا ، في المادة الثانية الفقرة الاولى ، بعقوبة الجلد مئة جلدة ، ولم يأخذ بعقوبة الرجم .

وقد عرفت اوروبا القديمة ، منذ اقدم الازمان ، عقوبة الاعدام ، وطبقتها بسخاء منقطع النظر ، تارة دفاعا عن المجتمع واخرى عن الملك ، وثالثة عن الدين . وان المرء ليشعر بقشعريرة تخترق جسده وهو يذكر محاكم التفتيش التي ذهب ضحيتها مئات الالوف من المسلمين في الاندلس ، وجنوب فرنسا ، بسبب تمسكهم بعقيدتهم ، في حين انه في ظلال حكمهم السمح جدد ابن ميمون الديانة اليهودية في عاصمة الملك قرطبة ، وفي اروقة جامعاتهم ، تخرج البابوات ورجال الاكليروس والعلماء الذين اصبحوا مصابيح هدى لتبديد ظلمات الفكر المتخلف في اوروبا المسيحية .

وكانت طرق تنفيذها تدل على سادية لا مثيل لها ، كالاحراق بالنار ، والتقطيع والرجم ، والدفن حيا في كفن من الشوك .. وقد يعدون للمحكوم عليه ، في حفرته ، انبوبا رفيعا يتنفس منه بصعوبة ، امعانا في تعذيبه .

وعلى الرغم من قوافل الملايين من الذين اعدموا ، على مر مئات القرون من السنين ، لا تزال البشرية ، في كثير من بقاع الارض ، تطبق هذه العقوبة . فهل فشلت هذه العقوبة في القضاء على الجريمة ، وردع المجرمين ، بدليل ان جرائم القتل وغيرها من الجرائم الكبرى ، لا تزال تروع مجتمعات اليوم متقدمها ومتخلفها وبالتالي ، فلا مبرر لاستمرارها ؟ ام انها عقوبة لا غنى عنها ، للابقاء على كيان المجتمعات والدفاع عن سلامة الافراد وبدونها يكون الوضع ادهى وامر ؟

---

(٥) هذا ما ذكره الاستاذ علي حسب الله في محاضرة له القاها في جامعة الكويت عام ١٩٦٨ ، منشورة في الموسم الثقافي لهذه الجامعة ١٩٦٨/١٩٦٩ ص ١٤٧ .

هذا هو السؤال الصعب الذى انكبت ، للاجابة عليه ، ادمغة كبيرة ، استقرات الوقائع وسبرت اغوار النفس البشرية ، واتخذت لها موقفا محددا من هذه العقوبة . فذهبت جمهرة الى المطالبة بالغائها ، وقال فريق آخر بابقائها . وحارت جماعة بين هذا وتلك ...

والموضوع اليوم مطروح على رجال القانون ، وعلى غيرهم من المفكرين ورجال السياسة وافراد الشعب .. كما هو مطروح على الحكومات ايضا .

ومن الدول التي اهتمت بهذا الموضوع **انجلترا** التي شكلت « اللجنة الملكية لدراسة عقوبة الموت » عام ١٩٤٩ ، وظلت تعمل خلال اربع سنوات حتى عام ١٩٥٣ ، وتقدمت بتقرير اكتسب شهرة واسعة . وشكلت حكومة المانيا الاتحادية لجنة خاصة لاصلاح التشريع الجزائي كان نصيب الدراسة المخصصة منه لعقوبة الاعدام ، مجلدا ضخما صدر عام ١٩٥٩ . وشكلت **كندا والولايات المتحدة** لجانا مماثلة وانكب فقهاء **الاتحاد السوفيتي** بدورهم على دراسة الموضوع ، فى اعوام ١٩٥٤ ، ١٩٦٠ من خلال العمل على اصلاح التشريع الجزائي. وعقدت فى **فرنسا** عدة مؤتمرات عام ١٩٦١ لتقريب وجهات النظر المتباينة حول هذا الموضوع الخطير ..

وقبل ذلك جرت فى فرنسا عدة محاولات لالغاء هذه العقوبة منها عدة مشاريع قوانين تقدم بها نواب فى الجمعية الوطنية فى اعقاب حرب ١٩١٤ وحرب ١٩٣٩ ، ولكنها كلها بقيت دون نتيجة .

وفى السنوات الاخيرة نشاهد تصعيدا خاصا لدراسة هذه القضية ومن ابرز مظاهرها ، اهتمام الجمعية العامة للامم المتحدة ، فقد قررت في نوفمبر ١٩٥٩ تكليف المجلس الاجتماعى والاقتصادى اتخاذ الاجراءات التي يراها ضرورية لدراسة مسالة عقوبة الاعدام ، ونتائج الغائها . وقد قرر هذا المجلس القيام بدراسة تعرض بعد ذلك على لجنة استشارية خاصة من الخبراء والمختصين فى الوقاية من الجريمة ومعاملة المذنبين ، لدى اجتماعها في شهر ابريل سنة ١٩٦٣ .

ومن الذين تقدموا بتقارير هامة حول الموضوع مستشار النقض الفرنسى انسل "Ancel" الذى قدم تقريره عام ١٩٦٢(٦) .

والاستاذ نورفال موريس "Norval Morris" مدير مركز الدراسات الجنائية فى جامعة شيكاغو ، عام ١٩٦٨ ، (٧) .

ولكن لم يتخذ قرار فى الموضوع من جانب الامم المتحدة ، فهو اذن لا يزال مطروحا للبحث . ولكن المادتين ٥،٤ من ميثاق الامم المتحدة تمنعان بصراحة تطبيق عقوبات قاسية او وحشية او محطة بالكرامة الانسانية » .

ولكن مجال تفسير هذه الالفاظ واسع . على انه توجد ظاهرة تستاهل ان اسجلها الآن ، وهي تقهقر عدد الحالات التى تعاقب بالموت :

فقد كان عدد الجرائم التى تعاقب بالموت في انجلترا منذ قرن ونصف القرن ٢٠٠ جريمة بينها بعض السرقات العادية(٨) وكان عددها فى فرنسا فى ظل الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ،

(٦) وزع التقرير برقم ST / SOA / S D 19
(٧) وزع التقرير برقم ST / SOA / SD / 10
(٨) انظر Zalaric ص ١٤

١١٥ جريمة ، خفضت الى ٣٢ جريمة فقط بقانون العقوبات الصادر عام ١٧٩١ .

والمدهش ان الجمعية الوطنية المعروفة باسم "La convention" كانت صوتت في ذلك الوقت على الغاء الاعدام ولكنها حادت ، وظلت العقوبة باقية .

وقد كان احد القضاة الالمان في القرن السابع عشر واسمه "Cartzow" يفاخر بانه اصدر خلال ٤٠ عاما من توليه القضاء عشرين الف حكم بالاعدام(٩) .

ولكن الانظمة الدكتاتورية في النصف الاول من القرن الحالي جاءت كارثة عظمى على التطور الالغائي .

ونحن اليوم نشهد صراعا شديدا بين تيارين ، تيار يتمسك بعقوبة الاعدام ويتشبث بها ، **لانها** ، في فلسفته ومفاهيمه ، السلاح الذي يرهب به المجتمع اعداءه الشريرين من القتلة والخونة وخاطفي الاطفال ، وتيار يقابل التيار الاول ، ويقارعه حجة بحجة ، وينتهي الى المطالبة بالغاء هذه العقوبة .

ومن الامانة ان الاحظ انه لم تقم في البلاد العربية ، من اقصاها الى اقصاها ، حركة جدية ، تهدف الى تغيير الواقع ، الذي الفناه، ونمنا على هدهدته ، ووقفنا نرصد الصراع الفكري ، لدى غيرنا دون ان يتاح لنا ان ندلي بدلونا في الدلاء . . .

انام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

فما هي حجج الابقاليين والالغائيين ؟

اني اود ، فيما يلي ، ان اعرض حجج الفريقين ، ليستطيع كل منا ان يكون لنفسه عقيدته الخاصة ، مدعمة بالحجج والمنطق ، وليس بمجرد العاطفة التي تستمد كيانها من المألوف ، الذي آن لنا ان نعمل على هزه من سباته .

١ ـ التيار الابقالي :

يقول انصار الحفاظ على عقوبة الاعدام : انها ضرورية للحفاظ على سلامة الجماعة وامنهم ، ويسوقون لدعم رأيهم ، الحجج التالية :

ا ـ هذه العقوبة ظفرت بتأييد عدد من المفكرين الكبار ، مثل جان جاك روسو ، الذي فلسفها بنظريته الشهيرة عن العقد الاجتماعي. فالفرد الذي قبل ، مختارا بعقد يبرمه مع المجتمع ، ان يتخلى عن الانتقام الفردي، مقابل حماية المجتمع له ، يكون قد قبل سلفا بالتخلي عن حياته ، فيما اذا فصم هذا العقد ، واعتدى على حياة شخص آخر ،وقبلها **لمبروز وغارفالو** وهما من زعماء المدرسة الوضعية ، لتخليص المجتمع من رجل لمبروز الشهير ، وهو المجرم بالفطرة . ويأتي على راس قافلة المؤيدين المعاصرين ، كبار اساتذة القانون الجنائي الفرنسي مثل **غارو وغارسون ودونديودوفابر.**

ب ـ **انها عقوبة تكفيرية** ، بمعنى ان الذي قتل آخر في ظروف فظيعة وحرمه من حياته ، بدون وجه حق ، يجب ان يكفّر بدمه عن خطيئته .

فهي اذن **عقوبة عادلة** ، يتساوى فيها تماما، الاذى الذي اوقعه المجرم بحياة قتيله ، بالاذى الذي تعرضت له حياته هو . وحياتان تتساويان امام القانون ، وفي مفاهيم الناس ، الذين يقولون :« يداك اوكتا وفوك نفخ » .

---

(٩) الاستاذ محمد عبدالله محمد ، بسائط علم العقاب ص ٣٦

جـ ـ **انها عقوبة مخيفة** ، يهلع من هولها قلب من تسول له نفسه هز دعائم المجتمع الآمن ، فليس امرا بسيطا أن يعرف القاتل ما ينتظره من حبل يجز عنقه ، ويحرمه من احبابه وذويه ، كما حرم ضحيته من نعمائها واحبائها (١٠) .

ثم انها تخيف الآخرين ، الذين يشهدون تنفيذ الاعدام او تبلغهم انباؤه . فاذا تغلت احكام الاعدام على فترات متقاربة ، بقيت العظة ماثلة في كل نفس ..

د ـ ولماذا تلغى عقوبة الاعدام ، ولم يقم دليل قاطع على أن الغاءها قد ساعد على انخفاض الخط البياني للاجرام ، او حتى على الاقل ، الحفاظ على مستوى الاجرام ؟

يقول انصارها : هاتوا احصاءاتكم ، فان كانت مقنعة ، فاننا سننحاز الى رأيكم ، اما أن نغامر بقذفه في المجهول ، ونعرض كيان الامة الى اخطار غير متوقعة ، فهذا امر لا يمكن ان يقبله رأي حصيف .

هـ ـ هذه العقوبة ، هي الوسيلة الوحيدة للقضاء على شرير خطر ، يهدد المجتمع واهله بشر مستطير . وكل عقوبة أخرى ، لا يمكن أن تكون ناجعة حياله .

هل نحكم عليه بالحبس المؤبد ، كعقوبة بديلة ؟ حسنا ولكن لم يحدث ، الا نادرا ، ان يبقى مجرم سجينا طيلة حياته .. فهو يحلم تارة بالهرب ، او بقانون عفو شامل ، او مرسوم عفو خاص .. يقصر مدة سجنه ، ثم يجد نفسه حرا ، خارج القضبان ، يزرع الذعر والهلع في الناس .

ومن ذكرياتي ، انني عملت مرة على استبدال عقوبة الاشغال الشاقة المؤبدة بالاعدام ، لشقيقين ، كانا يستحقان في نظري هذا الابدال ، ولكن لم تمض الا سنوات لم تبلغ العشر ، حتى كانا طليقين ينعمان بالحرية . الا انني لم اسمع عن معاودتهما مقارفة الاجرام .

ولو فرضنا جدلا ، يقول اصحاب هذا الرأي ، أن المحكوم عليه بقي في زنزانته طيلة حياته ، فانه سيكون في غاية التعاسة ، لا ينفعه ان يحسن سلوكه ، او يبذل جهده

(١٠) نقل الاب Vernet هذه الاقوال من محكوم عليه بالاعدام :
« لقد طال انتظاري شهورا ، لذلك فانا اعيش في جحيم ..
وفي كل صباح انظر لارى هل نصبت لي المشنقة ام لا ، ولكني لا اجدها ..
وفي كل صباح يجتاحني قلق اشعر به كأنه يضغط على حنجرتي ويجعلني ارتجف ..
ان شعوري بانني سوف اعدم يكاد يمزقني ...
ومع ذلك ، فان الاوهام تراودني احيانا ...
اني اعترف بانه لولا الكاهن الى جانبي يعطيني القوة ، لكنت قتلت نفسي لاتخلص من هذه الصباحات المشؤومة »..
ونقل عن محكوم آخر قوله :
« بصراحة اني اريد ان اعدم ..
فمنذ احد عشر عاما ، لم القَ كلمة من والدي ، فهل تراه صفح عني .. ؟
وولدي ، حين يحدثونه عني ، يرفض الاعتراف بي ..
وزوجتي تزوجت .. وبذلك تهدمت الاسرة ..
اليس هذا عقابا كافيا ؟
ان الرغبة في الحياة لا تزال تنقصني .... » .

لاعادة تأهيله ، مادام سيظل قابعا في مكانه حتى الموت . . . انها حياة عذاب نفسي لايطاق، لانها لا يلوح على آفاقها طيف من اطياف الفرج . .

و ـ أن الرأى العام قد ألفها ، واطمأن اليها . والبحث في الغائها سيثير أعصابه ، ويجسد له المخاطر . فلماذا نقلب قواعد حياتنا القانونية ، من اجل عدد ضئيل من القتلة والاشرار ؟

ولقد رأيت أن احاور طلابي وطالباتي من السنة الرابعة حول هذه العقوبة ، فاستفتيتهم في ابقائها او الغائها ، فكانت النتيجة مذهلة :

طالب واحد من بين جميع الطلبة قال بالالغاء ، وأجمع الآخرون على الابقاء .

اما الطالبات ، فكن الا باجماعهن مع الابقاء . . .

ز ـ ويضيفون حجة ذات طابع مالي الى حججهم ، فيقولون : لماذا نحتجز سفاكا سنين طويلة ، ويتكبد المجتمع نفقات حراسته واطعامه ، دون هدف ، كهدف اصلاحه مثلا ؟ اليس من حق دافعي الضرائب ، ان يطالبوا بتوجيه هذا المبلغ ، الى جهة يكون نافعا فيها ؟

ولكني اود ان اعلق على هذه الحجة ، بأن حياة الفرد تظل دوما أثمن من المال ، ولن يعجز الدولة اطعام عدد قليل من الناس ، دفاعا عن مبادىء عليا ، ويمكنها ان تشغلهم مقابل ذلك .

ح ـ ولهم ، فوق ذلك ، حجة سياسة . يقولون ، مادام كل نظام سياسي يزعم أنه نظام ديموقراطي،اي انه يخضع لحكم الاكثرية، فان من واجب كل مؤمن بالديموقراطية ، ان يستشير الشعب في قضية حيوية ، ويخضع الى حكمه الذي تصدره اكثرية . وهم قانعون أن الشعوب اذا استفتيت ، فانها ستقف الى جانب عقوبة الاعدام .

ط ـ لا ريب في ان الفقهاء المسلمين ، سيقولون ، أن عقوبة الاعدام قصاص عن جريمة قتل عمد ، وبعض جرائم غاية في الخطورة. وقد قال الله تعالى في محكم التنزيل: « يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى . . . » (البقرة آية ١٧٨) .

وقال ، جل من قائل « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا » (الاسراء آية ٣٣) . . وطلب القصاص حق للولي ، ومن حقه ان يعفو . . . ويأخذ الدية . .

ولكنه رغب في العفو بقوله : « وان تعفوا اقرب للتقوى (البقرة آية ٢٣٧) » . . وقوله« . . فمن تصدق به فهو كفارة له » . . (المائدة آية ٤٥) .

ومما يلفت النظر ، هذا التضييق الشديد الذي قيد به **ابو حنيفة** القصاص . فعنده ان القتل بغير المحدد لا يستوجب القصاص ، وانما تؤخذ الدية من القاتل . . .

فالقتل بالسم ، وهو من افتك وسائل القتل ، والقتل بالحجر ، وربما بالكهرباء أو النار ، لا يستحق القصاص عنده ، مستندا الى رواية ابي داود عن النبي عليه الصلاة والسلام : « الا ان في قتيل خطأ العمد قتيل السوط والحجر مئة من الابل » . .

يضاف الى التضييق آراء عدد من الفقهاء ، بان القصاص ، لا يقع في جرائم القتل العمد بين ذوى الارحام ، بشبهة الجزئية ، ولا بين الازواج ، بشبهة الزوجية ، ولا قتل العبد ، بشبهة التملك(١١) ، ولا القتل الواقع في اثر الرضا . والقتل بالرضا يسقط القصاص عند الحنابلة وابى حنيفة والصحابيين . واذا رجح هذا الراى ، فانه يقدم لنا حلا شرعيا لمسالة القتل بدافع الشفقة وهو المسمى بالاوتانازيا . . .

٢ ــ التيار الالغائى :

يذهب الذين يطالبون بالغاء عقوبة الاعدام ، الى انها عقوبة لم تثبت جدارتها للبقاء ، ولا خير فيها للمجتمع . ويتناولون حجج الفريق الاول ، ويردون عليها ، ويدعمون آراءهم بحجج جديدة ، يرونها كافية لزعزعة البنيان العقابى القديم وتهديمه . ويأتى في مقدمة مؤيديهم مدرسة الدفاع الاجتماعى الجديد ، على لسان احد رؤسائها المستشار آنسل(١٢) .

وفيما يلى ما يعرضون من الادلة :

ا ــ يقولون ، ان الذى منح الحياة هو الله ، فلا يحق لمخلوق ان ينوب عن الخالق في انتزاع روح مخلوق آخر . فهى مخالفة للمبادىء الفلسفية العامة .

ولكنا رأينا ان الفقهاء المسلمين مجمعون على ان القصاص ورد النص عليه في محكم التنزيل قال تعالى « ولكم في القصاص حياة يا اولى الالباب » (البقرة آية ١٧٩) .

ب ــ وانها قاسية على الشخص ، مهما كانت وسيلة تنفيذها ، لانه لا توجد حتى اليوم وسيلة تحقق موتا فوريا ، ودون الم . وقد كان اليهود يسكرون المحكوم عليه قبل اعدامه ، حتى يقل شعوره بالالم . . . .

وقد نوعت البشرية وسائل الاعدام ، الى ان استقرت اليوم على المشنقة والرصاص ، والجيلوتين ، والسيف ، وغرفة الغاز ، والصعق بالكهرباء والخنق . وكلها قاسية واليمة .

ج ــ **انها عقوبة غير منطقية** ، **لانها « قتل منظم »** كما يقول بكاريا ، **تضفى عليه الدولة** الصفة الشرعية . فالمجرم يرتكب جريمته ، ولا يستطيع احد ان يؤكد تحت اى دوافع الدفاعية او نرجسية ارتكبها ، في حين ان الجتمع يقرر اعدامه ، وينفذه ، وهو بارد العصب ، هادىء النفس . فالدولة حين تعدم شخصا ، فانها لا تمحو آثار جريمته ، وانما تعاود ارتكاب جريمة القتل بنفسها مرة اخرى ، وكانها تكرر مع الشاعر قوله « وداونى » بالتى كانت هى الداء » . . .

د ــ انهــا عقوبة **غير مفيدة** ، خلافا للزعم القائل بانها رادعة مانعة .

فلم يثبت ان البلاد التى الغتها قد زادت فيها نسبة الجريمة ، بل ثبت ان دولة النمسا

---

(١١) انظر في ذلك ، محمد ابو زهرة ، الجريمةوالعقوبة في الفقه الاسلامى ص ٣٨٠ وما يليها .

(١٢) انظر Revue des science criminelle, 1963 P. 404 Ancel **الذى كتب يقول :**
« اننا نود ان نجيب فورا وبصراحة ، بان مذهب الدفاع الاجتماعى ضد عقوبة الاعدام ... فهو يرفض اسسها الثلاثة : التكفير expiation **ومعاقبة الخطأ** retrication **والردع .** intimidation

حين اعادتها عام ١٩٢٤ ، لاحظت بصورة مؤكدة ان الاجرام ارتفع فيها كثيرا . قد راى النائب العام الاميركي رامسي كلارك Ramsy Clarck امام اللجنة الفرعية في مجلس الشيوخ الاميركي يوم ١٩٦٨/٧/٢ ، ان هذه العقوبة « قد فشلت في ان تكون وسيلة وقاية » وهو رأى للاستاذ الكبير Th. Sellin استشهد به ـ وطالب بجراة بالغاء عقوبة الاعدام . ومن ابرز سوءات هذه العقوبة في نظره ، انها تتقوقع على مفهوم التكفير ، ولكنها لا تسمح بمحاولة اعادة تأهيل المجرم ، وعنده انها لا تصلح لمجتمع متمدن ، ارتقت عنده المفاهيم الخلقية والاجتماعية .

هـ ـ وانها **عقوبة** ظالمة ، لأن القاضي مهما اوتي من المقدرة العلمية لا يستطيع هو ، او اعوانه من اصحاب الاختصاص ، قياس درجة الخطا ، لانها شيء مستقر في اعماق النفس ، لا يستطيع ان يدركه الا الله سبحانه وتعالى .

والواقع ان التشريعات المعاصرة قد تخلت عن البحث في حرية الارادة ، واكتفت بفكرة « العادية » ، la normalite وهي تقصد بذلك ، ان المرء يعتبر مسئولا عن فعله ، اذا كان **يريده ، ويدرك مداه** . فالادراك والارادة هما ركنا المسئولية الجزائية . وليس من شك في انهما من مسائل ما وراء الطبيعة ، metaphysiques وبهذه الصفة لا يستطيع احد ان يجزم بالتحقيق من وجودهما سليمين حين ارتكاب الجريمة ، وان سلامتهما شرط لقيام المساءلة الجزائية .

وهكذا تكون العدالة المطلقة شيئا وهميا لا وجود له ، ويكون الحكم بالاعدام ، من ناحية اقرار المسئولية ، قرارا لا يستند الى سند اخلاقي صحيح ، ينزهه عن **المطاعن** .

و ـ وهي **عقوبة غير زاجرة ولا رادعة** . ولو كانت كذلك ، كما يزعم انصارها ، لوجب ان تكون الجريمة قد انحسرت عن الحياة الاجتماعية منذ آماد بعيدة . والواقع ان الانسانية بدات تطبيق اعدام المجرمين منذ فجر تاريخها القديم . فلماذا لا تزال موجودة في القوانين حتى اليوم ، لو كانت حقا زاجرة ؟

فقد اعدم **في ايران** ، عام ١٩٧٠ ، على سبيل المثال ، خمسة وسبعون من مهربي المخدرات ، في سنة واحدة .. ومع ذلك ، بقيت عمليات التهريب مستمرة ، ولا تزال المشانق فيها ، تجتذب اعدادا متزايدة من قوافل المحكوم عليهم .

واذكر ، بهذه المناسبة ، انه اعدم **في الكويت** قاتل منذ سنتين ، ولم تمض ايام ، حتى قرانا في الصحف عن جناية قتل ثلاثية ، ارتكبها مجرم آخر كان يشهد عملية الاعدام ، ثم راح يعمل سكينه وناره في صديقه وزوجته وطفلهما ... فهل حركت رؤية المشنقة شهيته الى ان يكون بطل حفلة مشئومة ، يستقطب فيها انظار الحشود ، وهو التافه الذي لا يثير ، في الحياة ، انتباه احد ! .. اذن يكون الاعدام في هذه الحال ، محرضا لبعض الشواذ المغرمين بحب الظهور ، والسيئي التقدير ، على ارتكاب افظع الجرائم ، بدلا من ان تكون وسيلة زجر او ردع ...

ز ـ لا يستبعد ان يكون لبعض الاعتبارات الاجتماعية دور تمييزي شائن فيها . فالوقائع تدل على ان الغالبية العظمى من المحكوم عليهم بالاعدام من الفقراء البؤساء ، ان لم يكن كلهم . اولا لما تتمتع به طبقة اجتماعية دون اخرى من نفوذ توظفه في صالح ابنائها ، وثانيا لان

الاستعانة بمحامين مشاهير ، وخبراء عالميين ، تنقل كاهل الضعيف ، وتاتى نعمة وبركة على المترفين ...

وتؤكد الدراسات فى امريكا ، بوجه خاص ، أن مجتمع الزنوج فيها ينال القسط الاكبر من هذه العقوبة ، لان المجتمع الابيض مشبع ضدهم بالافكار السيئة ... وهذا واقع يجب اخذه بعين الاعتبار حين القيام بدراسة جدية . فمنذ عام ١٩٣٠ نفذ حكم الاعدام فى ٢٠٦٦ اسود و ١٧٥١ ابيض ، مع ان السود لا يتجاوزون ثمن السكان !..

٨ — وانها لعقوبة **خطرة** ، اذا وقع فيها خطأ ، فانه غير قابل للتلاق ، فى حين أن سائر العقوبات الاخرى ، يمكن ان يتلافى فيها الخطأ ، فاذا نفذ حكم الموت فى شخص ، ثم ثبت خطؤه فان الفارط يكون قد فرط . وقد ثبت ، فعلا ، وقوع اخطاء قضائية ، من شانها أن تجرح الضمير الانسانى .

واسباب الاخطاء القضائية عديدة :

يقول البعض ، ان المتهم كثيرا ما يعترف ، والاعتراف شهادة المرء على نفسه ، وانه سيد البينات . فهل تريدون عدلا اكثر من ان يدين المرء نفسه ؟

نعم ، نريد اكثر من ذلك . فقد عرفنا اعترافات شتى ، انتهت بأصحابها الى المشنقة ، ثم ثبت كذبها . ومن ذلك ان شخصا اتهم بقتل امراة ، و«عولج» فى دائرة الشرطة حتى اعترف بقتلها والقاء جثتها فى النهر ، فاعدم وبعد عامين عادت المراة الى بيتها ، من زيارة قامت بها الى بعض اقاربها فى منطقة اخرى .

وفى **حلب** ، اتهم شخص بقتل ثرى والقائه فى بئر ، وتمرست به اكف الضابطة القضائية وعصيها ، حتى ادلى باعترافات كاملة ... وكاد يصعد الى المشنقة ، لولا ان احد المسئولين ، لم يرتح ضميره الى هذه الاعترافات ، فاستجوب زوجة احد اصدقاء القتيل ، وعرف منها ان القاتل هو زوجها ، لانه مدين للقتيل بمبلغ كبير ، عجز عن سداده ، وانها عاونته فى نقل الجثة الى البئر .

ويقولون ايضا : كثيرا ما تؤيد الجريمة **بشهود عيان** ، يحررون ضمائرهم ... فهل تريدون أن تدير ظهورنا لشهادة شهود عدول ؟

ان الشهادة بينة من البينات العديدة ، ويجوز ان تاتى فى المؤخرة من قافلة البينات .. فقد اثبتت الدراسات الجدية الحديثة ، ان كثيرا من الشهادات مضللة ، رغم مظاهر البراءة على اصحابها .. فالشاهد قد يخطىء ، لضعف فى الذاكرة او فى حاسة الرؤية او السمع ، وقد يخطىء لاصابته بمرض عصبى ، يثيره منظر الجريمة ، وقد يكون مدفوعا الى الشهادة بمصلحة شخصية ، فيحرف فيها ما شاء له التحريف ، وبذلك يضلل القضاء .. ولعل رجال القانون المدنى يعرفون حقيقة قيمة الشهادة فى العقود ، لذلك فانهم لا يقبلونها الا لاثبات مبلغ صغير من المال .

واذكر انى ترافعت مرة عن متهم بقتل شرطى ، قال عدة شهود انهم راوه باعينهم وهو واقف امام باب الجامع يطلق النار من مسدسه عيار ٩ مليمتر ، على رجال الشرطة ، فاصاب شرطيا ، بينما كان واقفا امام باب المدرسة فقتله .

وكان للمتهم قصة قتل سابقة ، حكم عليه من اجلها ، وقضى مدة عقوبتها . اذن كانت النظرة اليه سيئة ، وكانت القناعة بجرميته مستمدة من ماضيه المشبوه . وجاء الشهود يحملون عن ضمير المحكمة ، عبء اتخاذ قرار حاسم ، بهدف اجتثاث هذه الجرثومة .

وشاءت ارادة الله ، أن اكون عارفا بالمنطقة ، ورحت اتجول فيها . فوجدت انه لم يكن فيها الا جامع واحد ، والا مدرسة واحدة ، وهما متقابلان ، ولكن كان يوجد بينهما بناء ضخم ، يجعل من المستحيل على الرصاصة ان تبلغ حالب الشرطي . فقد كان عليها أن تسير موازية للارض ، ثم ترتفع عمودية الى محاذاة اعلى البناء ثم تغير مسارها ، الى نهاية البناء ، ثم تنخفض الى الارض ، ثم تعدل مسارها على موازاة الارض ، وتتجه باتجاه الشرطي ، فتصيبه وتقتله ... وحين ثبت للمحكمة كل ذلك ، قررت براءة المتهم . ولم تكن براءته بمهارتي ، وانما لمحض الصدفة الماثلة بقيام بناء شاهق ، لم ينتبه له الشهود الزور ...

ومن المحقق ان رجال القانون الجزائي يفضلون القرائن والخبرة على وسائل الاثبات الاخرى ، ولكن الاخطاء في قراءتها كثيرة جدا .. هي ايضا . انها حقا لا تخطىء ، ولكن المختص هو الذي يقع في الخطأ ، فيضلل القضاء ..

ففي قضية : اتهم زوج بقتل زوجته بالسم الممزوج بالكحول ، ولما يمض على زواجهما غير شهرين ، كانا فيهما ، على احسن ما يكون تفاهم بين زوجين .

وارسلت احشاؤها الى التحليل ، فجاء الجواب ، ان كمية الكحول فيها مخيفة .. وطالب النائب العام باعدامه .. ولكن المحامي اكتشف ان مساعد الطبيب المحلل كان ينظف الاواني الزجاجية بالكحول ، وأنه وضع الاحشاء فيها مدة يومين ، فامتصت كمية كبرى منها ، ولذلك ظهرت في التحليل كأنها اداة جريمة ..... وانقذ هذا الاكتشاف المتهم .. ولكنه اكتشاف تم بطريق الصدفة .

بل ان تطور الفكر العلمي نفسه ، قد يلعب دورا في تجريم المرء أو تبرئته : فقد صدف ان اتهم صيدلي فرنسي ، اسمه Denval بقتل زوجته بالسم ، واكتشف التشريح وجود بعض مليغرامات من الزرنيخ في جسمها ... فادانته المحكمة ، ولكنها لم تحكم عليه بالاعدام ، بل قضت عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة .. وظل المسكين يعلن ، على مدى عشرين عاما وهو في السجن ، انه بريء .. حتى ثبت علميا عام ١٩٢٣ ، ان جسم الانسان العادي ، يمكن ان يحتوي ، بصورة طبيعية ، على هذه الكمية من الزرنيخ . كذلك اكتشف العلماء مرضا جديدا ، هو النقص ما فوق الكلوي الحاد . L'insuffisance surrénale aigue ، تبدو اعراضه كاعراض التسمم بالزرنيخ . وتقررت اعادة محاكمته ، فتبرأ وعاد الى الحياة شيخا متهدما ، ولكنه مع ذلك على قيد الحياة ..

ولست في حاجة الى وقفة خاصة عند الاعدامات التي تتم ، في اعقاب الانقلابات العسكرية ، وخاصة الفاشلة منها . ذلك ان المرء ليشعر بالغثيان ، عندما يعلم ان ثلاثة من « الجزارين » يسوقون الى حمامات الدم، قوافل خصومهم ، دون شاهد يشهد او محام يدافع .. ويعلنون في الاذاعة بأن المحكمة اصدرت احكامها باسم الشعب ...

وتحضرني هنا كلمة قالتها **مدام رولان** ، وهي تصعد الى المقصلة في عهد الثورة الفرنسية:

« يريد الشعب الخبز ، فيقدمون له المقصلة» ، وقد صرخ النائب **بودو** في مجلس النواب ذات يوم : « يجب أن نقتل حتى **لا** نقتل » .... وتبًا لهذه العدالة ، وتبا لرجالها ...

هذا موجز الكفاح النظري بين تيارين كبيرين . فما هو واقع عقوبة الاعدام في التشريع وفي التطبيق ؟

الامر الذي لا شك فيه ، هو ان عقوبة الاعدام ، فقدت في هذا القرن الاخير كثيرا من مكانتها وهيبتها ! ومن المحتمل جدا ، انه لولا الاحداث التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، لربما كان وضعها اكثر ضعفا ، وكانت الافكار اكثر تقبلا لالغائها ، او تقليلها جدا على الاقل .

ففي القرن التاسع عشر ، الغتها عدة دول من تشريعها ، منها **رومانيا** عام ١٨٦٤ ، **والبرتغال** عام ١٨٦٦ ، **وهولندا** عام ١٨٧٠ ، **وايطاليا** عام ١٨٩٩ . وفي هذا القرن العشرين ، الغتها الغاء قانونيا ايضا ، **النرويج** عام ١٩٠٢ **والنمسا** عام ١٩١٩ ، **والسويد** عام ١٩٢١ ، **والارجنتين والدانمرك** عام ١٩٣٠ ، **واسبانيا** عام ١٩٣٢ ، وكذلك الغتها **بعض ولايات امريكا الشمالية** .

كما ان بعض الدول الغتها **الغاء واقعيا** ، اي انها لم تنفذها رغم وجودها في التشريع . وفي مقدمة هذه الدول ، **بلجيكا** التي لم تنفذ عقوبة اعدام واحدة ، منذ عام ١٨٦٣ .

وفي هذه السنوات الاخيرة ، اصدرت انكلترا عام ١٩٥٧ قانون القتل Homicide Act ، قللت به عدد الجرائم المعاقبة بالاعدام ، واصدرت بتاريخ ٨ نوفمبر ١٩٦٥ The Murder Act (قانون القتل العمد) ، الغت بموجبه عقوبة الاعدام لمدة خمس سنوات على سبيل التجربة . وفي هذه الفترة وقعت عدة جرائم فظيعة ، ولكنها وقفت في وجه التيار الشعبي واصدرت قانونا عام ١٩٧٠ الغت بموجبه عقوبة الاعدام بصورة نهائية .

وحذت حذوها **كندا** ، فالغت عقوبة الاعدام عام ١٩٦٩ .

وكانت **المانيا الاتحادية** قد سبقتهما ، فنصت في المادة ١٠٢ من دستورها الصادر بتاريخ ٢٤/ مايو ١٩٤٩ على الغائها . وقد شكلت الحكومة الالمانية لجنة من اثني عشر عالما ، بينهم الجزائي وعالم النفس ورجل الدين والفيلسوف والبيولوجي والمحامي والاستاذ الجامعي ، ووضعت دراسة جيدة عام ١٩٦٢ ، انتهت فيها الى ضرورة الابقاء على الغاء هذه العقوبة .

ولم تبق الولايات المتحدة ، رغم تفاقم الاجرام فيها بصورة مخيفة ، مما جعلها بحق عاصمة الاجرام الاولى في العالم ، بمعزل عن هذا التيار : ففي عام ١٩٦٢ الغت ست ولايات عقوبة الاعدام ، وبعد ذلك تضاعف العدد ..

وفي عام ١٩٧٢ قررت محكمة نيوجيرسي ، باكثرية ٦ اصوات ضد صوت واحد ، ان الاعدام مخالف للدستور . ومنذ ٢ حزيران ١٩٦٧ لم ينفذ في امريكا حكم واحد بالاعدام ، وفي ذلك التاريخ اعدم في غرفة الغاز مجرم قتل زوجته واولاده . واليوم يوجد في سجون الولايات المتحدة ٦٠٠ محكوم بالاعدام يترقبون مصيرهم كل صباح ...

وقد عرضت ثلاث حالات اعدام على المحكمة العليا للولايات المتحدة ، فقررت « بانه في هذه الحالات تعتبر عقوبة الاعدام قاسية ولم تعد صالحة للتطبيق ، وهي مخالفة للتعديل الثامن والتعديل الرابع عشر من الدستور » ومعلوم بان احكام هذه المحكمة نافذة في كل امريكا ولكن يتضح من حكمها انه خاص بهذه الحالات الثلاث فقط ، ولا يشمل جميع حالات الاعدام .

وعدد قضاة هذه المحكمة تسعة ، صوت اربعة منهم ضد الالغاء ، ارشاء الرئيس نيكسون الذى عينهم . اما الخمسة الاخرون فقال اثنان منهم صراحة بانهم مع الالغاء ، واكتفى الثلاثة باصدار حكمهم على هذه الحالات الثلاث فقط ...

وتشير الاحصاءات الى ان الجرائم المعاقبة بالاعدام في هولندا لم يزد عن عددها عام ١٨٧٠ وهو عام الغاء العقوبة . ويسترعي الانتباه بصورة خاصة تطور جرائم القتل في المانيا الغربية ، منذ الغاء عقوبة الاعدام :

فقد كان عدد حالات القتل عام ١٩٤٩ (سنة الغاء العقوبة) : ٥٢١ وانخفض عام ١٩٥٠ الى ٣٠١ ، واصبح عام ١٩٦٠ ، ٣٥٥ حالة .

على ان الامانة في البحث ، تقتضيني ان الاحظ ، بان عددا من الدول التي الغتها ، اعادتها بعد تجربتها ، فقد **اعادتها ايطاليا** عام ١٩٢٥ ثم الغتها ثم اعادتها عام ١٩٣٠ ، واعادتها **زيلاندا الجديدة** عام ١٩٥٠ ، ثم عادت فالغتها عام ١٩٦١ ، والغاها الاتحاد السوفييتي عام ١٩٤٧ ، ثم اعادها بعد سنتين لجرائم الخيانة والتجسس ، كما اعادها عام ١٩٥٤ من اجل جرائم القتل المرتكب في ظروف مشددة ، واعادها مرسوم فدرالي صادر عام ١٩٦٢ من اجل جرائم الرشوة والاغتصاب والاعتداء على رجال الشرطة ... وقد جرى في العام الماضي استفتاء في ولاية جورجيا الامريكية ، صوت فيه ثلثا الناخبين على اعادة عقوبة الاعدام ، فاعيدت تشريعيا ...

واود ان اسجل لهذه المناقشات والمحاولات انها اثرت عمليا في واقع عقوبة الاعدام . فالبلاد التي لا تزال تحتفظ بها في تشريعها ، وتطبقها ، لا تفرط كثيرا في تنفيذها .

ففي كندا (قبل الالغاء) نفذ ١٦ حكما بالاعدام من اصل ٥٦ وفي **المغرب** نفذ ١٥ حكما من اصل ٤٣ وفي **لبنان** (قبل المأساة) نفذت ٤ احكام من اصل ٣٠ ، وفي فرنسا لم تصدر المحاكم عام ١٩٦٢ الا ١٠ احكام بالاعدام ، نفذ منها اثنان فقط . وفي انكلترا ، صدر ما بين ١٩٥٤ – ١٩٥٨ مئة حكم بالاعدام نفذ منها ٢٨ وفي **مصر** نفذ ٦٦ حكما من اصل ١٠٣ ، وفي **تركيا** نفذ الحكم في ٣٢ شخصا من اصل ٣٣ ، وفي **اليابان** نفذ الحكم في ١٢٦ شخصا ، هم جميع المحكوم عليهم (١٣) .

وقد يرد على الذهن سؤال هو :

ماهي الجرائم التي تعاقب في ايامنا هذه بالاعدام ، واى البلاد تعاقبها ... وقد رايت اتماما للفائدة ، ان اذكر فيما يلي هذه الحالات ، والى جانبها البلاد التي تتبناها .

(١٣) هذه الاحصاءات ماخوذة من دراسة للامم المتحدة للفترة ما بين ١٩٥٩ – ١٩٦١ .

الجرائم الموجهة ضد الاشخاص :

١ – **القتل مع سبق الاصرار :** وهو معاقب فى الغالبية الساحقة من البلاد التى تحتفظ بعقوبة الموت ، وفى مقدمتها ، اوستراليا وكندا والشيلى والصين واسبانيا وبعض ولايات امريكا ، وفرنسا وغانا واليونان والهند وايران ، وانكلترا وتشيكوسلوفاكيا وتركيا والاتحاد السوفييتي ويوغوسلافيا ، وجميع البلاد العربية .

٢ – **القتل العمد :** (اى العادى غير المقترن بالاصرار) ، وهو معاقب بالموت فى بلاد قليلة ، اكثرها افريقية ، ولكن لاحظت ان السودان من البلاد العربية وبولونيا من المعسكر الشيوعى ، والباكستان من هذه الدول القليلة .

٣ – **القتل اثناء مبارزة :** وهو مقصور على عدد من الولايات المتحدة الامريكية .

٤ – **جريمة الغش :** وهى موجودة ايضا فى بعض الولايات المتحدة الامريكية .

٥ – **التسميم :** معاقب بالاعدام فى فرنسا والعراق واليابان والمغرب ومصر ، وبعض الجمهوريات الجديدة .

٦ – **قتل الاب او الام او الولد :** ويعاقب بالموت فى فرنسا ، وتركيا ولبنان والمغرب والعراق واليابان وغيرها .

٧ – **القتل الذى يرافق او يعاقب ارتكاب جريمة :** وهو معاقب بالموت فى لبنان ومصر والعراق ، وانكلترا واسبانيا وغيرها (واكثر ما يصادف هذا الجرم فى اثناء السرقة ، او قطع الطريق او القرصنة) .

٨ – **قتل شرطى او موظف اثناء الخدمة ..**

٩ – **ضرب او جرح ولد بصورة عنيفة :** فمات ، (فرنسا والمغرب خاصة) .

١٠ – **الحريق العمدى الذى نجم عنه موت احد ..** فرنسا ، مصر ، العراق ، ايران ، اليابان ، المغرب،انكلترا ، تركيا ، يوغوسلافيا وغيرها .

١١ – **الاشتراك** complicité فى انتحار ولد او مخدر او مجنون .

السودان ، اركانساس الامريكية ، الهند ، الصومال .

١٢ – اجهاض امراة تسبب فى موتها .

١٣ – اغتصاب امراة بالعنف :

أ – اذا نشأ عنه موت : اليابان وتركيا والفلبين .

ب – أو الاغتصاب العادى : الصين ، بعض الولايات المتحدة ...

١٤ – الخصماء الذى يعقبه الموت .

١٥ – المتاجرة بالمخدرات فى بعض حالاته الخطيرة : تركيا ، ايران ، الصين ، بعض الولايات المتحدة .

١٦ – خطف القاصر :

١ – بعض البلاد تشترط موت المخطوف : فرنسا ، المغرب .

٢ – بعضها لا تشترط ، وانما يجب ان يتم فى شروط خاصة ، كطلب فدية (الشيلى وبعض الولايات المتحدة) .

١٧ ـ الاعتقال التعسفي مع التعذيب الجسدي : الصين ، فرنسا ، ايران ، تشيكوسلوفاكيا .

١٨ ـ الشهادة الكاذبة التي تسبب في صدور حكم بالاعدام :بعض الولايات الامريكية وفرانسا والهند والعراق ، والمغرب ومصر والسودان .

١٩ ـ العدد بعد الحكم بأطول عقوبة مانعة للحرية ، او اجتماع عدة جرائم معاقبة بهذه العقوبة : الشيلي ، الصين ، العراق ، تركيا الصومال ، تركيا وغيرها .

٢٠ ـ الاضرار الخطيرة التي تسبب للمواصلات (كالقطار وغيره) : بعض الولايات المتحدة .

ب ـ الجرائم الموجهة ضد الاموال والجنايات الاقتصادية :

١ ـ **السرقات الموصوفة** : او المشددة (وخاصة مع استعمال السلاح) : بعض الولايات المتحدة ، فرانسا ، اليونان ، افريقيا الجنوبية ، التوغو .

٢ ـ **القرصنة مع العنف** : او ستراليا ، كندا ، شيلي ، اسبانيا ، جبل طارق ، غواتيمالا ، وغيرها .

٣ ـ الاحتكار او رفع الاسعار بصورة غير مشروعة وخطيرة واختلاس اموال الدولة: الصين ، اسبانيا ، يوغوسلافيا .

٤ ـ تزييف النقد والمضاربةعلى العملات الصعبة devises : روسيا وبولونيا .

٥ ـ الاعتداء الخطير على الملكية الاشتراكية : بولونيا ، روسيا ، يوغوسلافيا.

ج ـ الجرائم الموجهة ضد الدولة والنظام العام :

١ ـ الخيانة : دول كثيرة .

٢ ـ التجسس : الصين ، اسبانيا ، الولايات المتحدة (القانون الفدرالي، فرانسا، اليونان ، ايران ، المغرب ، بولونيا ، مصر ، تشيكوسلوفاكيا ، تركيا ، روسيا ، يوغوسلافيا . .

٣ ـ الاتصال بالعدو intelligence او التعاون معه . . . دول عديدة .

د ـ الاعتداء على سلامة الدولة الداخلية

١ ـ العصيان المسلح والثورة او التآمر على الدولة .

٢ ـ القتل المرتكب اثناء اضطرابات émeute او ثورة : بعض ولايات امريكا .

٣ ـ الاعتداء على سلامة رئيس الدولة: (وبعض الشخصيات الهامة) .

٤ ـ النهب pillage والقتل الجماعي massacre والتخريب Devastation **والافغان** تعاقب الزنا بالموت .

والآن ، ماهي الحكمة التي يجب ان نستخلصها من هذه الدراسة،بالنسبة لتكوين راى فيما يخص الغاء الاعدام او ابقاءه ؟

هل كانت آراء الابقاليين مقنعة ؟

ام ان آراء الالغاليين ، والتطور الذي حدث عند الامم المتقدمة ، هي الأرجح وزنا ، واكثر ثقلا في ميزان المقارنة ؟ انا لااظن ان اية دراسة هادئة ، موزونة ، تستطيع ان تنال

اجماعا أو شبه اجماع ، فى مشكلة شديدة التعقيد ، متصلة بمفاهيم الطبقات المختلفة ، وغرائزها وعواطفها ، لان هذه المشكلة مشكلة انسانية ، قبل كل شيء ، ومن شانها ان تلامس بقوة أوتار كل نفس ، فتحركها ، فى الوضع التى هى عليه . فلا نحاول اذن ان يعمل بعضنا على اقناع الاخر بوجهة نظره ، وليكوّن كل واحد منا لنفسه قناعته خلال تفكيره ودراساته وملاحظاته الشخصية ...

ولى راى فى الموضوع ، اود ان اعرضه، كونته لنفسى بعد اربعين سنة فى رحاب القانون ... ولست ازعم انه نهائى بالنسبة لى ، فقد اغيره ذات يوم ...

انى ارى ابقاء عقوبة الاعدام فى القانون، بالنسبة للجرائم الكبرى العادية ، وخاصة حين يقع ازهاق روح بريئة ... كخطف طفل صغير طلبا للفدية وقتله ، وقتل الضعاف من النساء ، والعجزة ... طمعا فى اعراضهن او اموالهن ...

وارى ان تتشدد المحاكم فى قبول البينات حتى لا يبقى ، حقا وصدقا ، اى ظل للشك فى نفس القضاة ... والا يكون عليهم اى سلطان فى قضائهم لغير القانون ، كما يقول الدستور .. وان تقف فى وجه الراى العام ، اذا اثارته الصحافة او الدعاية، حتى تستطيع احقاق الحق ، دون تاثر او تاثير ...

ولقد جرت عادة المحاكم ، ان تمتنع عن الحكم بالاعدام على الفتيان ، ولو كانت بعض القوانين تعاقبهم به ، كما جرت العادة ان تقلل هذه الاحكام على النساء ، وخاصة الحوامل منهن ، وعلى المصابين ببعض من شذوذ فى التفكير والمحاكمة ، لايصل الى درجة منع المسئولية ... وهذا تعامل ، وليس حقا مقررا . فقد حكمت المحاكم الفرنسية مؤخرا على فتى هاجم عجوزا وقتلها بسبع عشرطعنة من سكينة ، ليستلب منها ما اقتصدته لايامها الاخيرة ، كما قررت اعدام امراة تآمرت مع عشيقها على الخلاص من الزوج ، فقتلاه ، وقطعاه وجعلا جسده سمادا لحديقة البيت ، وراحا يستمتعان بزهورها حين ازهرت، وهما يقطفان ثمرات الحب الحرام ، حتى كشف الله الستر عنهما ، فاسلمت عنقاهما الى الجلاد ... جزاء وفاقا .

ويأتي دور رئيس الدولة ، كملاذ اخير ، باستعماله حق العفو فى حالات تركها الدستور الى ضميره ، دون رقيب عليه الا شعوره بالمسئولية وخوفه من الله . وقد جرت العادة أن يمارس هذا الحق بشيء من السخاء ، وخاصة اذا تصرف القضاء بشيء من الاندفاع ... فعلى سبيل المثال ، ابدلت ٨ احكام بالاعدام فى استراليا من اصل ١٠ ، وابدلت ١٧ حالة فى فرانسا من اصل ٣٤ ، و ٣٤ فى كندا من أصل ٥٥ (١٤) ...

وقد كان لسورية رئيس جمهورية ، كان يمتنع عن تصديق اى حكم بالاعدام ، خلال رئاستين متواليتين ... ولم يلاحظ احد ان حبل الامن اضطرب ، او ان الاجرام ازداد .. بل كنا نلاحظ ان المشانق تنصب فى الساحات العامة ، فى الايام الاولى للانتفاضات العسكرية على الدستور، وقلب الحكم ، لارهاب الناس.

وبتعبير أوضح انى اريد لهذه العقوبة ان تظل تظل فى التشريع ، لحين الحاجة اليها ،

---

(١٤) انظر تقرير Norval Marris السابق ذكره ص ٢٢ .

وليس لتطبق باستمرار . ولقد اتيح لى ذات يوم أن اتولى تنفيذ اربعة قرارات جمهورية تقضى باعدام اربعة مجرمين .

احدهم عبث بزوجة ابيه ، وعاشرها معاشرة الزوجة ثم اتفق الاثنان على قتله ، فاحتالا عليه ، واخذاه الى خارج القرية ، وحطم الولد راسه بحجر كبير ، ودفنه فى حفرة مهجورة ، وعاد الى فراش خالته ،

وثانيهما ، غريب استضافه محسن فى بيته ، فطمع فى زوجته ، فقاومته ، فقتلها وجرح ائنتين هبتا لنجدتها .

الثالث ، قاتل ماجور ، قبض مبلغا من المال مقابل قتله انسانا لا يعرفه ، ولم يسىء اليه من قبل ...

والرابع ، شخص اتهم ظلما وعدوانا طبيبا انسانيا بانه يعاون عليه خصومه فتربص به وقتله ، ثم تبين ان المسكين لا يعرف عن موضوع الخلاف شيئا ...

ولقد فكرت وانا اوقع اوامر التنفيذ ، بالابرياء والثكالى والايتام ، وهم يذهبون ضحية بعض الاشقياء فى ظروف تدعو الى الرثاء والبكاء . وامام دموع الصغار الذين لفهم اليتم ، والنساء اللواتي فجعن ببعولتهن او ابنائهن ، لا يمكن للمشاعر الا ان تتحرك ، وللنقمة الا ان تشتد . وفي مثل هذه الحالات النفسية ، يتخذ الانسان قراره ، متحسسا بمشاعره . وقد قرات مؤخرا تعليقا على ندوة تلفزيونية عرضت فى فرنسا (١٥) ، استجوب فيها المذيع اشخاصا من مختلف الاتجاهات ، ولفت نظرى جواب والد طفل صغير ، اختطفه مجرم آثم ، وطالب بالفدية، ثم خشى ان يعرفه الصغير فخنقه ، ثم اكتشف امره ، قال : « حين قتل ولدى ، فقد ناداني .. صرخ بابا .. انه وكلني بالاقتصاص له .. فاذا افرج عن قاتله ، فانى سأثار لولدى ، واقيم العدالة بنفسى » ...

ويترتب على رايي هذا ، ان يمكن المتهم من الدفاع عن نفسه ، بكل حرية وان يتمتع بكل الضمانات التى يمنحه اياها الدستور والقانون وانه لمن مصلحة المجتمع ان يؤمن له دفاع جيد لا خبثا به ، ولكن زيادة فى الاحتياط ضد مزالق الزلل ، ورغبة فى التشدد فى اقامة عدالة سليمة . وهذا يعنى واجب المحامين الكبار بعدم التهرب من التوكل عن هؤلاء المتهمين ، وعليهم ان يقوموا تجاههم بواجب الدفاع على وجهه الاكمل ، حتى يكون تساو بين كفتى ميزان العدالة ، اى كفة الاتهام وكفة الدفاع . وهذه مسالة توليها اهمية كبرى . ثم اننا نشجب بقوة ، تعامل بعض محاكم الجنايات ، التي تنتدب لبعض المتهمين الفقراء محامين متمرنين ، لكافهم وهم فى قاعة المحاكمة بالتوكل عنهم ، دون ان تضع الملف بين ايديهم قبل مدة كافية، فيقف المحامى ليقول: لمّا كانت التهمة غير ثابتة على موكلى ، فانى اطالب له بالبراءة ... هذا التعامل يعنى طعن العدالة فى صميمها ، والاستخفاف بحقوق اشخاص قد يكونون ابرياء ، وتجريدهم من حقوق ضمنها لهم الدستور والقانون ...

وانى لاشعر ان هذا البحث لا يكتمل ، اذا لم اشر الى عقوبة الاعدام فى الجرائم السياسية .

(١٥) Le Figaro 13 / II / 1975

أنى من حيث المبدا معارض لهذه العقوبة فيها ، لا استثنى من ذلك ، الا جريمة الخيانة في حالاتها الفظيعة ، لأنها تقطع الصلة بين الخائن ووطنه ، الذى قد يعرضه بخيانته الى التهلكة الجماعية . وتكفى العقوبات الاخرى للجرائم الاخرى . ذلك أن المجرم السياسي ، مجرم عقيدة وفكر ، وطالب اصلاح ، واجرامه يختلف عن اجرام القاتل وهاتك الاعراض . فهو يسعى الى الاصلاح وحرق المراحل للخلاص من التخلف ، وتحقيق مثل اعلى في وحدة قومية ، أو تحقيق مساواة اجتماعية . وقد يكون خطره اشمل من خطر المجرم العادى لشموله وتعريضه نظاما قائما الى هزة عنيفة ، الا أن الذى يشفع لمعاملته بشيء من الرفق ، انه مثالى النزعة ، نزاع الى اقامة مجتمع يحقق آماله في المدينة الفاضلة . . .

وانى لاحتفظ من هذه العقوبة ، بذكريات سوداء قائمة، فقد شهدت اعدام ٣١ شخصا، قتلوا رميا بالرصاص ، في ساعات حقد أسود

ولو أن الذين حكموا على تلك الزهرات الحلوة من أصحاب العقيدة الوحدوية الصافية بهذه العقوبة الرهيبة ، تربصوا بأنفسهم بضعة أيام، لكان مقدرا أن تهدأ العواطف ، وتسكن النفس، ويعود الصفاء الى الاعصاب ، وترتفع راية العدالة ، بعيدا عن التصفيات الجسدية ، ولكن حين تخرج القضاء من يد القضاة ، فان كل الاحتمالات تكون ممكنة ، ويكون التعصب اللديم ، القانون والسيف .

ويا بلادنا ، التى انهكتها الانتفاضات منذ أكثر من ربع قرن لقد آن لك أن يسود فيك القانون ، ويحترم الانسان ، وتصان الحريات . . . فقد قال تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم» واحسن تكريم له أن تصان انسانيته ، ويزول من قلبه شبح الخوف . .

ورحم الله المعرى ، القائل :

ما دامت الخيـــل والانعام خائفة
فرسا ، فما صح أمر النسك للاسد

* * *

المراجع

Jean Imbert : La peine de mort.
P.U.F. 1972.

J. Ancel : Rapport publié par les Nations Unies, 1962 : S /SOA/SD/9
— Les doctrines de la défense sociale devant le probléme de la peine de mort in Revue des sciences criminelles 1963.

J. Graven : Nouvelles reflexions sur la peine de mort, dans :
Recueil d'études en hommage à la mèmoire du professeur
Donneoliu de Vabres,
Paris, Cujas 1962.

Norval Morris, Rapport publie par les Nations — Unies, 1968 :
ST/SOA/SD/10

Vouin : La peine de mort,
Revue des sciences criminelles, 1966.

Thorsten Sellin : la peine capitale et le procés pénal, dans :
Problèmes contempotains de Procedure pénale, Paris 1964.

R. Merle, Les aspects théologiques de la peine de mort dans :
" Travaux du Colloque sur la peine de mort Organise à
Athenes en 1960.

Oerton : l'abolition de la pene de mort en Grande-Bretagne, dans :
Revue des sciences criminelles, 1966.

Savey — Casard : L'Eglise catholique et la peine de mort,
meme Revue : 1961.

Vernet — Joseph, Enquete prealable a la peine de mort
meme Revue, 1966·

Thierry Lévy, l'znimzl jufivizitr, Pztid, Grasset, 1975.

وبالنسبة لآراء الفقهاء الجزائيين العرب ، تراجع مؤلفاتهم في العلوم الجزائية ، وهي كثيرة .

* * *

ميخائيل نعيمة

ناقداً أدبياً

الدكتور مناف منصور

مفهوم النقد ووظيفته

ليس النقد الأدبى عند ميخائيل نعيمة الا وجها من نتاجه الأدبى المتنوع ، والذى يشكل ، فى النهاية ، نظاما فكريا واحدا من حيث النوع والمدى . فالفاعلية الفكرية واحدة . وبما ان كل انتاج له هو ثمرة الجهد الكبير لتصوير تلك الفاعلية فقد كان من الواجب طرح انتاجه بكامله – على بساط البحث لكى نتعرف بوضوح الى نظامه النقدى فى صورته الاكمل . وعندما اردنا ان نتبين نتاجه النقدى وجدناه متوزعا فى اربعة مناح :

١ – رسائل يكتبها الى المؤلفين والشعراء الذين ارسلوا اليه نتاجهم فيعرض نعيمة فى هذه الرسائل آراءه وانطباعاته . وهى كثيرة : بعضها منشور فى الصحف والدوريات ، وبعضها لم ينشر بعد .

٢ – المقدمات التى يكتبها لدواوين ومؤلفات الآخرين .

٣ – الاحكام والآراء والملاحظات فى الأدب والنقد يبثها بين الحين والآخر عبر نتاجه الادبى او الفلسفى او السيرة .

٤ – كتاب « الغربال » الذي يضم احدى وعشرين مقالة توزعت في ثلاثة محاور :

أ – مقالات عن النقد البناء : الغربلة ، محور الادب ، الرواية التمثيلية العربية ، المقاييس الأدبية ، الشعر والشاعر .

ب – هجوم عنيف على الادب التقليدي والتبحر اللغوي : الحباحب ، نقيق الضفادع ، وهجوم على العروض التقليدي : الزحافات والعلل . وهناك مقال قصير جدا يدعو فيه للترجمة .

ج – النقد التطبيقي : الارواح الحائرة ، الدرة الشوقية ، القرويات ، الريحاني في عالم الشعر ، السابق ، ابتسامات ودموع ، غاية الحياة ، اغاني الصبا ، النبوغ ، شكسبير ، خليل مطران ، الديوان ، عواصف العواصف ، الفصول .

وهكذا قسمة تاليفه النقدي ، على الاطلاق ، هي المقالة . وكان اول مقال نقدي له (١٩١٣) يدور حول رواية الأجنحة المتكسرة لجبران : قرأت الرواية فاستفزتني لكتابة مقال فيها دعوته « فجر الأمل بعد ليل اليأس » (١) وارسلت به الى « الفنون » وهو اول مقال نقدي حبرته ، فكان فاتحة حياتي الأدبية . وقد نددت فيه تنديداً مراً بجمود اللغة العربية في خلال عصور طويلة ، وانصراف كتابها وشعرائها عن الحياة في داخلهم ومن حولهم الى الشعوذات اللغوية والبهرجات الفارغة والتقليد المميت » (٢) .

وعلى هذا ، لاينطلق نعيمة في مفهومه للنقد من منظور ضيق أو من اساس فني محدد ، فاذا كان الأديب ضمير الحياة والانسانية ، فان الناقد ضمير الأديب ، والحياة ، في منتهاها ، مجموعة من الأفكار والمشاعر المتحركة حركة ذات غنى وخصوبة ، واذا تكون الحياة مجال النقد وميدان عمله . هكذا ببساطة كلية يرفع نعيمة النقد من أسار القواعد الضيقة – مهما وسعت – ليكون وجه الحياة اذ « الحياة والأدب توأمان لا ينفصلان » (٣) . فليس هو نشاطا عرضيا بل (لو شئت ان احدد النقد بكلمات ثلاث قلت انه عمل الحياة الدائم) (٤) انه حاجة مستمرة وملحة لكي تبقى الاشياء والحياة في قيمتها المتألقة المنشودة « فنحن مدعوون في كل لحظة من وجودنا الى التفكير والتمييز والاختيار – اي الى النقد » (٥) . فهو دليلها ومؤكدها ، **فالحياة هي الانتقاد والتجدد** (٦) . انه بحث مستمر عن حقائقها العميقة واكتشاف اسبابها ، فهو اذا شكل الحياة بل سُنّة من **السنن التي تقوم بها الطبيعة والطبيعة اكبر** مغربل ... الغربلة سُنّة الطبيعة وسنّة البشر الذين هم بعض من الطبيعة (٧) . وهكذا

---

(١) دمج نعيمة قسما من هذه المقالة في مقال « الحباحب » المدرج في الغربال (دار صادر بيروت الطبعة الثامنة ، ١٩٦٩ ، ص ٣٧ – ٦٤ .

(٢) راجع نعيمة : جبران خليل جبران ، ط اولى ، مطبعة لسان الحال ، بيروت ١٩٣٤ ص ١٦٩ . و « سبعون » دار صادر ودار بيروت ١٩٥٩ – ١٩٦٠) الرحلة الثانية ص ٣٠ .

(٣) الغربال ص ٣٠ .

(٤) راجع مقالة نعيمة « الاديب والناقد » دروب (ط ٣/دار بيروت ودار صادر ١٩٥١) ص ١٧٠ .

(٥) دروب ص ١٧٢ .

(٦) الغربال ص ٤٢ .

(٧) المصدر نفسه ص ٢١ .

يتحول نعيمة بمسالة النقد ومشكلة تعريفه من قضية فنية الى موقف اخلاقي ، يبين بالتالى خطر مسؤوليته وفداحة مهمته ونتائجها « فالفن اخلاقي ولابد من ان يكون النقد مثله ضرورة (٨) . والناقد ـ ككل انسان ـ مفروض عليه « ان يصحح » ما يراه او يعتقد انه خطا ، وعدته فى ذلك تفكير نير ، وتميز مسؤول ليتسنى له اخيرا مجال الاختيار ، فيكون نشاط النقد التزاما للحياة واشيائها ، وارتباطا عضويا بها . من هنا بان من الضرورى التميز بين نوعين من النقد يقوم بهما : الحياة والانسان ... ان الفرق بين نقد الحياة ونقد الناقدين منا وفينا لفرق شاسع جدا، فالحياة تنقد ذاتها بذاتها . اذ ليس ماهو خارج عنها لتوجه اليها نقدها . ولاننا بعض من ذاتها فهى تنقدنا كذلك فى كل لحظة من وجودنا . **في حين اننا ننقد الاخرين وقلما توجه نقدنا الى انفسنا** (٩) فيقيم المقارنة على مستوى نوع العمليتين النقديتين ، وهو امر يصدر عن خطا مبين يغفل التميز السوى بين النقد الانساني وما سماه نقد الحياة . فالقول بان الحياة تنقد ذاتها بذاتها لايمكن ان يعنى عندنا الا ان الحياة تملك من نفسها وفى نفسها طاقة الحركة فتتجدد وتستمر فاعلة ، غير اننا نرى ـ فى هذه الحال ـ ان هذه الظاهرة لايمكن ان تكون الا بواسطة الانسان ، فهو اولا يعى ذلك ويقدره ، وقيمة الشيء فى معرفتك به ، ووعيك له . وثانيا لانعرف كائنا آخر يملك الحس والارادة والتمييز والاختيار غير الانسان. فالحياة لاتختار وانما تعرض اشياءها عرضا ، وبقاء الشيء والموجود رهن بحاجة الانسان وارادته له ، ثم اوليس الانسان هو محرر الحياة ـ على حد اشارته ـ وان قواه هى التى ترينا فى دياجير الحياة وميض انوار تحببها الينا (١٠) ... وان « لاقيمة لعمل ياتيه (الانسان) الا بمقدار مايدنيه ذلك العمل من معرفة نفسه او يقصيه عنها ؛ وسواء ادرك ذلك ام لم يدركه فهو ابدا يقيس كل ماتيه بهذا المقياس فيهمل منها مالا يزيده بنفسه معرفة ، ويحتفظ بما يشاهد فيه مظهرا من مظاهر نفسه (١١) . واما ان الحياة تنقدنا فى كل لحظة من وجودنا فلا يمكن الاخذ بهذا ايضا الا على اساس انها مجال نشاطنا ، واذا نحن سليل تفاعل مع اشيائها وتجاربها وتاثر فاعل ومتبادل، من هنا سبيل الارتقاء والتطور المعروف حيث الانسان اساسه ومحوره ، اذ لاوجود للاشياء الا بنا . كذلك نقف موقف الحذر من قوله « **فى حين اننا ننقد الغير وقلما نوجه نقدنا الى انفسنا** » على ان هذه الظاهرة تبدو صحيحة ودائمة ، للوهلة الاولى ، لدرجة انها تكاد تعمى وراءها حقيقة ابعد ، ذلك ان نقد الآخرين انما هو ، عندنا ، شكل من اشكال نقد النفس ، فنحن فى العملية النقدية لا يهمنا الناقد والمنقود ، بل الاهم الكشف عن قيم وتجارب ومعطيات انسانية ، فكل مظهر ذاتى ، بل اى مظهر ذاتى ، انما هو فى الحقيقة مظهر انسانى ايضا ، وفى آن . فاذا كان مجال عمل النقاد ماكتبه غيرهم وما انتجوه فان مادة هذا المعطى وهذا النتاج انما هى الحياة « ان النقد الحق ياخذ مادته والهامه من الحياة » (هدسن) .

وهذه هى الحلقة الدائرة التى ينهجها النشاط الابداعى :الحياة الادب النقد ،ليصب

---

(٨) راجع ستانلى هايمن : النقد الادبى ومدارسه الحديثة ج ١ ص ١٠٠ .

(٩) دروب ص ١٧٧ .

(١٠) راجع الغربال ص ٢٢ ـ ٢٥ .

(١١) الغربال ص ٢٥ .

النقد ، اولا واخيرا ، فى الحياة ، اى النفس الانسانية بكل مالها وما عليها ، لانها وحدها قطب هذه الدائرة .

النقد هو التميز

وعلى هذا يتحصل بان النقد حق للناقد اذا كما للكاتب الحق فى الكتابة على حد سواء (١٢) لان « مهمة الناقد الغربلة . وما يدونه قسم من الناس من الافكار والشعور والميول هو ما تعودنا ان ندعوه ادبا . فمهمة الناقد اذا هى غربلة الآثار الادبيةلاغربلة اصحابها » (١٣) فيكون النقد « ادبا على الأدب » اى ان مادة الناقد الاولى بديل أن تكون من الحياةالمشاهدة مباشرة ، فانها الحياة « المؤلفة » والمعبر عنها بالدرجة الاولى من الشاعر او القاص ...

وهكذا يرى نعيمة انلتبيان مكانةالنقد بالنسبة للانتاج الادبى علينا ان نعرف اولا حدود العمل الادبى نفسه ،وحدودالاشكال الثقافية الاخرى والتى تمسه بشكل أو بآخر ، وعلى هدايتيين وظيفة النقد لاعلى انها غايةبذاتها بل « القصد من النقد الادبى هو التمييز بين الصالح والطالح ، بين الجميل والقبيح ، بين الصحيح والفاسد »(١٤) فينهج بذلك نهج البارجي خاصة والنقد العربى عامة ويتفق مع ما تقدم من نظراته تلك . فعلى الناقد مسؤولية كبرى، عبئها ــ الى حد ما ــ انها تقرر نوع المقاييس الادبية والفكرية التى تسود ، فى زمن ما ، على ضوء ذلك التمييز المنشود . ولكن لن يقرر الناقد ذلك (او على الاقل يمهد للتقرير) : للكاتب ام للقارىء ؟ . فاذا كان « لكل منا الحق بان يكون له غرباله يغربل به نفسه كيف شاء (١٥) فان لكل منا أيضا « عواطف وافكارا مشتركة هى نتاج مجهوداتنا الادبية المشتركة. وغربلة هذه هى وظيفة الناقدين » (١٦) ، بدافع الشوق والقلق وكلاهما « يتفاوت عمقا وعتفا ومدى بتفاوت البواعث التى تبعثه ثم بتفاوت القوى التى تميه وتتاثر به . وهذه القوى هى العقل والوجدان والخيال والذوق والارادة . وهى لا تتساوى ابدا عند اثنين من الناس . فكيف بها تتساوى عند جميع الناس . » (١٧)

علاقة النقد بالكاتب :

من هنا تكون علاقة الناقد بالكاتب، فهو يعبر عن القلق الذى يثيره العمل الادبى فيه ، ثم رغبته فى التخلص من ذلك القلق . فالكاتب والناقد « يعملان بدافع من القلق والشوق . فالكاتب فيما يكتب انما يعبر عن قلق تثيره فيه حواسه الخارجية والباطنية من اوضاع بعينها وعن شوق الى التخلص من ذلك القلق . وبالى الناقد ليعبر عن القلق الذى يثيره فيه عمل الكاتب وعن شوقه الى الانعتاق من ذلك القلق (١٨) . اى ان محور العلاقة بين الكاتب وعمله من جهة ، وبين الناقد وعمل الكاتب من جهة اخرى هى علاقة الاثرة . « فمن يريد ان يثير

(١٢) الغربال ص ١٤ .

(١٣) المصدر نفسه ص ١٣ .

(١٤) الغربال ص ١٥ .

(١٥) الغربال ص ٢٢ .

(١٦) المصدر نفسه .

(١٧) دروب ص ١٧٥ .

(١٨) المصدر نفسه ص ١٧٤ .

مشاعر الآخرين عليه ان يتأثر هو قبل كل شيء » . (راسكين) (١٩) وهكذا تبدو الاثارة مصدرا وجوديا ممتدا للحياة ، دائب الحركة ، يستنفر المواهب للعطاء والابداع ، ومن ثم الاستمتاع ولا ضرورة لان يكون النقد ـ اثارة على نسق الاثارة المباشرة للطبيعة او الحياة خلقا وابداعا . فالناس ليسوا على مستوى شعوري واحد لتبليغ الاثارة لدى الجميع حدا متشابه النوع . من هنا تبدا مرحلة النقد انطلاقا من الاثارة ، فالكشف عن مقوماتها ، **واستمداد عناصرها الفكرية وتعليلها يستنزف** معالم الشخصية المنتجة ويمتد الى استخراج عناصره الحية . وعلى هذا يتحصل لدينا ان قلق الناقد اوسع ، بل احد ، ذلك انه وليد : الكيان الادبي نفسه المطروح امامه لم بما يذكر به هذا العمل الادبي من قلق صاحبه الباعث **الاول له . واذا ليس سهلا** على الناقد ان يكتنه اثارة الاديب وان يعي ما تضمنته من اغوار ، بحيث نخلص الى ان الاثارة ركيزة كبرى في النقد ، عند نعيمة ، ولها صح اعتبار الاثر **النقدي ادبا وان لم يستمد من الحياة مباشرة ،** فعلى مستوى الاثارة وروحها يشيد الناقد بناءه النقدي في الكشف عن **حسنات النص** وسيئاته ، **وتقييمه على ضوء مقاييس خاصة** وهو بذلك يقترب من **اليوت** « يقيني ان للنقد غاية : هي توشيح الاثارة الفنية وتثقيف الذوق فبصرف النظر عن اية فلسفة ادبية ينطلق منها ، فان اساس النقد الادبي هو التجربة الشخصية مع النص وما يثيره من تأثيرات ، اذ ان كل نقد ادبي لا بد ان يبدأ بالتأثير ، وذلك لانك لا تستطيع أن تستغني عن الذوق **الشخصي والتجربة المباشرة لادراك حقيقة** ما ادراكا صحيحا فهو يعتقد اذا مع **سانت بوف** بأن الموهبة الاولى والضرورية للناقد هي ان يشعر على الفور بلا اى اعتبار للقوانين النظرية بجمال العمل الادبي وقيمته (٢٠) عبر هذا ، ولما كان القصد من النقد التمييز لا اطلاق الحكم ، كان يرى أن واجب النقد أن يظهر كيف يعيش الأثر الادبي ، ما هي حقا سورته وبنيته وحياته الاساسية ، وان يوضح ذلك بتبيان خصائص شاهدة ، فالناقد يعنى بكيفية الاثارة اكثر من اعتنائه بأثرها الذي حققته في نفس القارىء ، على نقيض ما يرى **ادموندجوس** من ان النقد « هو فن الحكم على صفات الشيء الجميل وقيمته سواء كان ذلك في الأدب او في الفنون الاخرى ... ولكن المصطلح (نقد ادبي) قد بدا يحمل معنى ثانويا آخر اكثر تخصيصا ، **وهو تحليل لمزايا** الاثر الادبي او الفني وتحديد صفاته . (٢١)

غير ان نعيمة يذهب في علاقة الناقد بالكاتب مذهبا آخر ، فيحكم اواصر ارتباطهما ، بحيث يصبح الناقد عنده تابعا للاديب ، اى ان الاديب الكبير هو الذى يمهد للناقد الكبير او يخلقه **(ما من شك في ان مستوى النقد يرتفع ويهبط بارتفاع مستوى النتاج الادبي وهبوطه فالادباء الكبار يمهدون الطريق للنقاد الكبار . ولا اعكس فاقول ان النقاد الكبار يمهدون الطريق للادباء الكبار . فالعبقرية الحقه تشق طريقها بقدرتها لا بما يقوله فيها مادح او قادح)** (٢٢) . ومن هنا فالنقد لا يقرر او يعطى العمل الادبي قيمة بل هو يكشف عن العمل

---

(١٩) راجع Walter Thomas : John Ruskin P. 29

(٢٠) راجع فان ليغم : المذاهب الادبية في فرنسا (منشورات عويدات بيروت ١٩٦٨) ص ٢٣١ .

(٢١) ادموند جوس : دائرة المعارف البريطانية : النقد .

(٢٢) دروب ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

قيمته التي يحملها . اى ان النقد بطبيعته غير قادر على رفض حقيقة كائن ادبي : ولعله بذلك يذكر بموقف **ورد ذورث** « ليست القدرة على النقد عندى قيمة كبيرة . النقد ملكة من ملكات العقل احط شانا من ملكة الخلق والابتكار » .... ولو ان الوقت الذى يبذل فى نقد الآثار الأبية ينفق فى الادب الانشائي من اى نوع كان لكان ذلك خيرا لنا واجدى (٢٣) (ورد ذورث)، او بما ينشده **اميل فاجيه** « انني لا اعتقد بان للنقد ثمة امرا ، وبقدر ما اتعمقه اقتنع بـأن **ليس له اى اثر** (٢٤) . **فالناقد لاحق بالكاتب**، واذا كان الادب نقد الحياة فالنقد هو نقد له « عمل الناقد هو نقد النقد » ، وهو مدين به الى عمل الكاتب ، فلولا الكاتب لما كان الناقـد ولا يصح العكس ، وذلك هـو الفارق الاول **والأهم ما بين الاثنين** » (٢٥) . فالادب الخالق ينظم تجاربه التى استمدها من « رأس النبع » فى اكثر الاحوال ، اما النقـد فينظم تجاربه المستمدة من الادب الخالق ، اى من الحياة ، **اى بعد أن نقلها الادب** نقلـة جديدة . واذا شئت فقل ان كليهما نوع من الشعر ، ولكل واحد منهما حظه فى الاستقلال بقدر ما بينهما من اتصال (٢٦) . **فالناقد اذا هو الحلقة التى** تربط بين العمل الادبي والحياة ، وواجبه ان يحدد هذه العلاقة . وطبيعة القيمة الادبيـة تعتمد على طبيعة العلاقة بين الفن والحياة فى مجموعها . ومحاولة اصدار حكم على الادب قبل الوصول الى تصور نهائى بشـان هـذه العلاقة لا يمكن ان يكون لها نتيجة مفيدة ، لان ذلك معناه تحديد القيمة بقاعدة غير محددة .

الا ان نعيمة يفرق تفريقا قاطعا بين النقـد والادب ، بينمـا هـو فى الواقع « ادب مـن الادب » : « وحكم النقد لا يختلف عن حكم الادباء فى ان بعضهم مبدعون وبعضهم سخفاء : وسيظل فيهم السخفاء والمبدعون . كل ما فى الامر ان النقد فرع خاص من فروع الادب ، والنقد لا يعدو ان يكون ادبا يتخذ من الادب نفسـه موضوعه (٢٧) **وهكذا يظهر لنا ان نعيمة** لا يقول بان وجود الناقد وعدم وجوده سيان . ولكنه لا يقول ايضا ان النقد دعامة لا يقـوم الأدب الا بها وعليها . فقد يقول بمهمة النقد القارىء والناظر والسـامع والزمان . فان اخطأ القارىء والناظر والسامع فلن يخطىء تقدير الزمان فى المدى البعيد اذا كان لبعض النقاد من مـراتب عاليـة **كلنانت بوف وتين وراسكين وبيلنسكي** فيما فى نفوسهم من كنوز الافكـار والأحاسيس ما تكتشف الا لـدى احتكاكهـا بكنوز مماثلة ، « فهى ثمينة فى ذاتها لا فى كونها **جاءت تعليقا على هذا الكتاب او ذاك** » (٢٨) من هنا كان لنا ان نستنتج ما يلى :

١ ـ التاكيد بـأن ليس الناقـد وحـده ، وبالضرورة ، الذى يقوم بمهمة النقد ، بـل **هناك الزمان** (٢٩) (**يلحظ هنا ان نعيمة يعدد** الاسماء لقوة خفية واحدة هى وحدها تحفظ

---

(٢٣) راجع الثقافة ٣)١٩ ع ٢٢ ص ١٦ .

(٢٤) E. Faguet, Propos Littéraire, II P : 5.

(٢٥) دروب ص ١٧٤ .

(٢٦) ستانلي هايمن : النقد الادبي ومدارسه الحديثة ج ١ص ١٧ .

(٢٧) رئيف خورى ، الآداب ١٩٥٦ ع ١٠ ص ٩ .

(٢٨) دروب ص ١٨١ .

(٢٩) يلحظ هنا تقربه من موقف الريحاني فى هذا الصدد ،راجع رسائل الريحاني (دار الريحاني ١٩٦٠) ص ١٨٦ .

خلود العمل الادبي فحينا الحياة ، وحينا الطبيعة وهنا الزمان ، وهناك القارىء ايضا). اذ ليس ثمة ناقد اعلى من الجمهور ، فهو متبصر بحسب المكان والزمان ولكنه دائما محترم بما يصيب من احكام سديدة في جميع الانواع ، فهو يطلقها اولا متفرقة ثم لا تلبث أن تتوحد في اللغة لتؤلف الراى العام (٣٠) . وهكذا فالنقد ليس مجالا اختصاصيا عند نعيمة يتكرس له اصحاب اختصاصيون ، بل هو امر يتولد طبيعيا عند الناس ، وبالتالي يمكن ايّ كان القيام بهذه المهمة ولا خطر مما تستتبع من مسؤوليات ، فان الصحيح لايعوز ناقدا يكشف عنه ، بل ان طبيعة الحياة هي التي تعطي الاثر الادبي القدرة على البقاء اذا كان حاملا اسبابها .

ب ـ غير انه ينزع ، من قبيل آخر ، الى تعليل قيمة بعض النقاد الكبار فتراه يرتفع بالنقد الى مستوى الخلق وعدم اقتصاره على مجرد الشروح والتعليقات او الاسفاف لان يكون ضربا من المهاترات او نوعا من المماحكات، انه تاليف تنبع قيمته من ذاته ولايستعيرها من المواضيع التي يشغلها . فالناقد الحقيقي هو خالق كالشاعر ، فينحو بذلك نحو **سانت بوف** او **دي غورمون** ، ويتهيأ لنا ان هذا التاكيد يرافقه شعور بالمرارة لاحساسهم بالعجز عن أن يكونوا غير ناقدين .

النقد بين الابداع والاسفاف :

يبدو لنا ان نعيمة حائر في امر النقد ، وفي تحديد المكانة التي ينبغي ان يشغلها هذا النشاط . فمرة يرفع النقد الى مرتبة الخلق، ويعظم الناقدين حين يذكر **تين وسانت بوف** الفرنسيين **وبيلنسكي** الروسي . فيؤكد ان من آثارهم النقدية ما يماثل كنوز الخلق الادبي . ومرة يحط من هذا النشاط واصحابه ، فيكاد ينكر فضلهم فيجعلهم كالدجاجة التي تقوقي كلما باضت رفيقتها ، ويدعوهم الى الشغل بانفسهم والى الانتاج الادبي وترك سواهم وشانه . وهنا يتهيأ لنا انه يميز بين نوعين من النقاد : نوع يعيش على هامش النقد وحقيقة عمليته فيفهمه تناولا للمؤلفين ونتاجهم ، وهؤلاء يرفضهم نعيمة رفضا قاطعا . ونوع آخر يجعله قرين المبدعين بل هما من طبيعة واحدة ، وذات مهمة واحدة ، غير ان نعيمة لم يكن صريحا وواضحا في هذا التعريف ، بل كثيرا ماكان يتحدث بصورة عامة فأنت لاتكاد تعرف من يقصد من النوعين ، مما دفع رئيف خوري الى ان ياخذ عليه هذه الظاهرة « فالاستاذ نعيمة حين يميل الى هذا التهوين من شأن النقد والناقدين انما يعتمد على فلسفة ليؤذن لي ان اصفها بالمائعة . فلسفة يصر بعض المفكرين على ان يستمدوا منها نتائج خاطئة بليغة الضرر . تلك هي الفلسفة « الليبرالية » المحض وادعوها بالعربية « الاصطفائية » دهي تستند على ان هذه القيم التي نسميها الحق والخير والجمال قيم متحولة متبدلة في العصور ، عدا انها في كل عصر وبيئة تختلف مفاهيمها بل تتضارب نسبة حتى الى الاشخاص والافراد . وهكذا تكون النتيجة ان ليس في الواقع من حق ولا خير ولا جمال ترسم حدودها واضحة معينة لاشية فيها . وبالتالي ليس في الواقع من نقد بوسعه ان يدعي انه يصدر عن هذه القيم قيم الحق والخير والجمال . . . (٣١) وتفسيرا لتلك الظاهرة فهو يصف العلاقة بين الكاتب والناقد على أساس من الحذر والحقد . فهما مستويان مختلفان بينهما خصام شديد ، ويريد لو تكون

(٣٠) وهذا ماذهب اليه Marmontel (1723-1799) راجع ايضا Fayolle, La critique P: 24

(٣١) رئيف خورى / الآداب ١٩٥٦ ع ١٠ ص ٩ .

العلاقة على اساس من الثقة والاطمئنان » . الا ان علاقة الكاتب بالناقد هي على الاجمال علاقة قلق وحذر وحرب قد تكون سخنة وقد تكون باردة . وكان من الاحرى ان تكون علاقة اطمئنان وثقة وسلام لو صفت نية الناقد واستقامت موازينه واخلص لنفسه ولعمله (٣٢) . فهو اذا يرد باعثها الى الناقد ويعتبره مسؤولا عن شكلها . ولعل **علي ادهم** يفسر ، في شكل او في آخر ، جانبا مما يضمنه قول نعيمة هذا « من الطبيعي ان ينظر الناقد بشيء من الحسد الى الخالقين الموهوبين الذين يعبرون في يسر وسهولة عن احزانهم ومسراتهم ، ويرخون العنان لخيالهم الموجد وعواطفهم الجائشة ، في حين انه محروم من هذه القدرة الخارقة ولا يحسن سوى التحدث عما ينتجه الآخرون ، وشرحه وتفسيره » . (٣٣) .

وهو اذ يفهم النقد غربلة لجهوداتنا الادبية المشتركة لتمييز جيدها من رديئها ، وهو اذ يرى ان الاثارة اساس الملكة النقدية ، وهو اخيرا ، اذ يفصل في العلاقة بين الكاتب والناقد ، يتأتى لنا بان بحث نعيمة في المفهوم النقدي لا يقوم على فلسفة فنية معينة ، او على اساس اتجاه مذهبي محدد ، او هو يستل من نظام فكري فلسفي مترابط الاجزاء فيكون النقد نتيجة له على غرار المذاهب النقدية الاوروبية ، وهو لا يطرح مشكلة النقد على اساس انه فن هو او علم . او هو لا يبين علاقة النقد بالعلوم الانسانية واللسانية الاخرى ، كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم اللغة ... وبالتالي لا يبين نوع هذه العلاقة ودرجتها بل في رأيه ، وبعيدا عن اي تعقيد مهمة النقد اكتشاف سر الحياة الذي تكتنفه الآثار الفنية .

فالحديث عن النقد ليس حديثا عن قيمة هذه الآثار على اساس جمالي او مثالي مطلق . وهو لا يعتمد فنية جمالية بل الحياة مباشرة . ان النقد الحقيقي عنده لا يكون التزاما بقواعد مفروضة ومسبقة بل هو استخراج قيم جديدة باستمرار من النصوص المدروسة . وهكذا يكون الناقد في توتر دائم للخلق والابداع . فاذا كان المؤلف او الشاعر خالق اثر ما فان الناقد خالق قيمة هذا الاثر امام الجاهلين (٣٤) . فضله انه يقف كترجمان بين الملهمين وغير الملهمين (كارليل) **فمن هو هذا الناقد ؟ ما صفاته وما ثقافته ؟ وكيف يقف بين الأثر الادبي والآخرين ؟** اولا يكون في وقفته هذه سدا ، في الوقت نفسه ، بين القراء والعمل الادبي ؟

•••

صفات الناقد وثقافته :

ان النقد الادبي ، في اساسه ، وظيفة فكرية ، مادتها المنتوج الأدبي ، باعتبار ان مبرر وجود هذا الاثر نفسه لا يمكن ان يكون الا بالقارىء وله ، فهو الذي يعيد خلق هذا النتاج باستخدامه وممارسته له . واذ الأديب نتيجة لروح وشكل تفاعل تحصل من عوامل كثيرة اجتمعت وانصهرت لتأتلف في كائن جديد ، يؤكد بانه ليس عملا من اعمال البنية الانسانية (كالمشي والاكل) بل هو شكل او جزء من النمو الاجتماعي او الحضاري . فان الاصول والأدوات الجديدة في النقد ، والاتجاهات في البحث ، تعتمد في اكثر احوالها ، على

(٣٢) دروب ص ١٨٥ .

(٣٣) علي ادهم – على هامش الادب والنقد (دار الفكر العربي ، مصر ، لا . ت) . ص ١٢٤ .

(٣٤) الغربال ص ١٧ – ١٨ .

فروض (٢٥) اصبحت اساسية في الفكر الانساني الحديث ومميزة له . واذا القارىء عاجز ، كل مرة ، عن الاهتداء وحده ، وبسهولة ، الى المقاصد والابعاد الحقيقية التي يكتنزها الابداع الادبي ، كان على الناقد اذا عبء المسك بالقارىء في يد ، والمسك بالاثر الادبي وصاحبه في يد اخرى فيساعد القارىء على فهم العمل الفني وتذوقه ، ويساعد الفنان على ان يفهم منه ويقومه ، ويعين على تقدم الفن وتطوره بتعميم المعايير المطلوبة او بتحديدها وتجهيزها فيكون الناقد بالتالي مستقطبا بثلاثة اهتمامات واضحة : اولها الاديب المبدع والخلفية الفكرية التي استمد منها مقدماته بل كانت مدار وروح نتاجه ، وثانيها العمل الادبي نفسه ككائن اصبح ما بينه وبين مبدعه مسافة ، فلم يعد ما اراده الاديب بل يصبح له استقلاله النسبي وقوانينه التي تحكمه بنفسه ، وثالثها القارىء الذي هو ، بالنهاية ، مرتكز جميع هذه المقومات والاهتمامات . فمن هو ، في راي نعيمة ، هذا الناقد الذي هو حاجة ضرورية في المجتمع تبلغ مسؤوليته مبلغا دقيقا وخطيرا اذ اننا في حاجة الى الناقدين لان اذواق السواد الاعظم منا مشوهة بخرافات رضعناها من ثدي امسنا ، وترهات اقتبلناها من كف يومنا ، فالناقد الذي يقدر أن ينتشلنا من خرافات امسنا ، وترهات يومنا ، والذي يضع لنا اليوم محجة لندرك ها في الغد هو الرائد الذي سنتبعه، والحادي الذي سنسير على حدوه (٣٦) .

فحين يكون الماضي تراكما يورث الضلل ويبعث الشوه في اذواق الناس وملكاتهم واذا لا يعود الزمن اكبر مغربل اين منه غرابيل الناس (٣٧) ، يكون وجود الناقد منارا لا لكشف الغطاء عن ذلك الماضي لتحسس حقائقه ، وحسب ، بل لامكان تنبؤه بالغد واطلالته عليه ، فيكون له السبق في استشراق القيم الجديدة ، اي ، هو ، في حالات خاصة ، يوقظ جيلا من الشعراء كما فعل **امرسون** ، وقد يعين موضوعات للادباء يكتبونها مثلما فعل **جوركي** ، وقد يغير اتجاه الفن او يحاول ذلك مترسما خطى تولستوي وخطى **بوالو** والنقاد الرومانسيين . او قد يمد الفنان بموضوعات محددة وقواعد وتقنيات علمية ... واذا يكون الناقد شبيها بمخرج فني ، يبين للقارىء الروح التي يجب ان يستلهمها في سبر اعماق الاثر الادبي فلا يكون (هذا الاثر) ثابتا ونهائيا عند فراغ المؤلف من كتابته ، بل هو ، في الحقيقة ، ينتهي مع النقد . وهذا الناقد القادر على كل ذلك يخلق وفيه ملكة فطرية لهذا النشاط ، فهي لا تكتسب اكتسابا ـ كما ادعى اليازجي ـ بالمطالعة او بالدربة والممارسة او باي سبيل آخر ، فهو من طينة النقد اي

---

(٢٥) يعود الفضل في هذه الفروض ، بالدرجة الاولى ، الى اربعة علماء كبار من مفكري القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين وهم : داروين (منه جاءت الفكرة بان الانسان جزء من الطبيعة وان الحضارة تطورية) وماركس (القائل بان الادب هو الذي يعكس ولو بطريقة معقدة ملتوية احيانا ، العلاقات الاجتماعية ، والانتاجية لهذا العصر او ذاك) وفرويد (الذي يرى ان الادب اسمى ملتمع وتحقيق لرغبات مكبوتة ـ قياسا على الاحلام ـ وان هذه الملتمعات تعمل حسب مبادىء معروفة ... وفكرته ان هناك مستويات ومدارج عقلية تقع وراء الوعي وان بين الرقيب والرغبة في التعبير صراعا مستمرا) وفريزر صاحب الافكار عن السحر البدائي والاسطورة والشعائر البدائية ...) كلها تكمن في اساس اعلى النماذج الادبية ، يضاف اليها فكرة السلوكيين بان الادب ليس الا رجلا يكتب ورجلا يقرأ ولا شيء غير ذلك ، وفكرة العقليين بان الادب قابل للتحليل » ... للتفصيل في هذا الموضوع راجع ستانلي هايمن : النقد الادبي ومدارسه الحديثة ج ١ ص ١٥ وما بعدها .

(٣٦) الغربال ص ١٧ .

(٣٧) راجع « في مهب الريح » (ط ٢ ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٢) ص ١٦٤ .

هو يكون ناقدا ولا يصبح كذلك ، فيقرر حسب هذه الملكة الطبيعية والأصيلة (واذا النيرة) مقاييس وقواعد تنبع منها فتكون شكل رؤيتها للحقيقة وكيفية تمثلها لها » هناك خلة لا يكون الناقد ناقدا اذا تجرد منا وهى قوة التمييز الفطرية . تلك القوة التى توجد لنفسها قواعد ولا توجدها القواعد ، والتى تبتدع لنفسها مقاييس وموازين ولا تبتدعها المقاييس والموازين ، **فالناقد الذى ينقد « حسب القواعد » التى وضعها سواه لا ينفع نفسه** ولا منقوده ولا الأدب بشيء » (٣٨) من هنا التأكيد على شخصية الناقد تاكيدا لايحد ، وعلى مؤهلاته الطبيعية فيه واهمها قوة التمييز ، لأن النقد ليس « حكما » فقط بل **هو قبل كل شيء « تمييز » و « تمحيص »** و « ترتيب » فى مرحلة أولى . واذا فدراسة القواعد وتطبيق معطيات النقد وتقنياته لاتطلع ناقدا ، بل فى ذلك خيانة لحقيقة النقد والأدب على حد سواء ، اذ ليس من مهمة الناقد التعليق أو الادلال على المعايب او المحاسن فى النص الادبى ، وكما تتراءى له ، وهو لن ينفعه فى ذلك براعة اسلوب او طابع تهكم وسخرية ، (٣٩) لان فى ذلك قتلا للروح المبدعة فيه ، وفهما سيئا لوظيفته ، اذ الناقد خلاق ومبدع ولا شيء آخر . يتوسل الى ذلك « بالمعرفة » و « التمييز » و « الاحاطة » « للحق » و « الخير » و « الجمال » . **فالناقد الذى يتعرض الى اثر من الآثار الأدبية عليه ان يعرف الحق وان يميز الخير وان يحيط بسائر صفات الجمال ، كيما يحل له ان يصدر حكمه فى ذلك الأثر . الا ان مثل هذا الناقد لاوجود له على الاطلاق .** (٤٠) من هنا كان الناقد شريك الكاتب فى طبيعة العمل ومهمته ، سبيله ان يبصر الاشياء على حقيقتها ، محاولا ان لاتسود بين الناس غير روائع الآراء ، صادقا مع نفسه فى مايذهب اليه ، فعندما يعطى « من وهج روحه مقاييس للحق والخير والجمال » ولا يعيش على حساب غيره كالطفيليات ، عندها يرفع النقد الى مرتبة الفن العالى ويسر الأدب بأن يتبناه ويعتز به . فهو مرشد من مرشديه ومنارة من مناراته وبان من بناته ، وكثيرا مايكون نقده من قوة الاشعاع والاقناع بحيث يقضي قضاء مبرما على اتجاه قديم فى الأدب ويدفع به فى اتجاه جديد . . . انه روح الثورة فى الأدب (٤١) واذا قد يفعل النقد ، حينا ، ـ فى الحركة الفكرية ـ ما لا يستطيع الادب وحده ان يقوم به . **فهو** حديث مباشر مع القراء ، يشرح الاشياء ويكشف عنها الغوامض والاسرار التى اكتنفتها عملية الابداع والتوليد . فيكون روح الثورة فى الادب ، اى ان النقد **الخلاق هو المصدر وهو** السبيل ، معا ، فى التمهيد لنازع جديدة وفى القضاء على اتجاهات قديمة ، او قل هو محك الادب يستظهر منه طاقة الحياة فيه واسباب الجمود والموات أيضا ، فلكى يقضي نعيمة على نوع الادب السائد اثناء ئذ (النازع الى القديم والقائم على براعة الاسلوب والبهلوانيات اللغوية والرياضة الكلامية) لم يجد غير النقد سبيلا يعتمده للقضاء على ترهات الماضى وللتمهيد لادب جديد ، مغاير (ينزع للانسان) فكان المدماك الأول لبنائه الادبى على الاطلاق .

---

(٣٨) الغربال ص ١٧ .

(٣٩) دروب ص ١٨٢ .

(٤٠) المرجع نفسه ص ١٧٢ .

(٤١) المرجع نفسه ص ١٨٢ .

الذات هى الاصل

وعلى هذا يكون الناقد الخالق مقاييسه من نفسه والقادر على حمل القارىء والكاتب معا على احترامها والايمان بها ، انقى بصيرة وأوسع افاقا وأسلم ذوقا وأصدق نية وأمضى عزما وأشد ثقة بنفسه وبمقاييسه من قارئه ومن منقوده (٤٢) وهنا يفوق الناقد الكاتب فى درجة الملكات او مستواها ، فلكي يستطيع ان يدخل ، غبر الاثر ، فى تواصل مع الكاتب عليه ان يكون أولا من طينة الكاتب « من حيث ملكة الابداع ، ومن ثم مايملك هو من ملكة اخرى مهمتها محاورة الكاتب ، وبالتالى فالناقد قادر أن يكون اديبا ايضا من حيث الشعور بالحالة المولدة الواحدة ، لا من حيث طبيعة النوع الفنى الذى يختلف باختلاف نشاطات ومجالات التعبير . » فلكي تكون ناقدا ممتازا يجب عليك ان تكون مؤلفا جيداً، فالموهبة تسمح بتلمس نظرات جديدة وتدفع بالناقد قدماً لتبين مقاييس فى الجمال لم توجد بعد . (٤٣)

الناقد مبدع ايضا

لايقتصر عمل الناقد على ملاحظة ما هو امامه وتمحيصه ، وتثمينه وترتيبه (٤٤) فهو مبدع ومولد ومرشد مثلما هو ممحص ومثمن ومرتب . فالنقد ، فى النهاية ، حالة خاصة من المعرفة بحيث ان الناقد الاصيل هو الذى يجعلها شكلا من الحس ، يحولها الى نمط من الشعور خاص به « فهو مبدع عندما يرفع النقاب فى اثر ينقده عن جوهر لم يهتد اليه احد حتى صاحب الاثر نفسه (٤٥)» . **واذا يعتبر اولا** ان الانتاج الادبي ليس وليد خلفية فكرية يلتزمها الاديب ويسعى الى اثباتها وتحقيقها ، بكل وعى وارادة فيكون بالتالى عارفا بجميع ابعاده وبنائه وخفاياه ، وانما يقدر انه يصدر عفويا عن نفس صاحبه مع شعور بالغربة عنه، أى الاديب ، قد لايعرف جميع اسرار مولوده الادبي . « ما اكثر ما تناولت **قلمى وفي نيتى ان اكتب** كيت وكيت واذا بى اكتب غير مانويت كتابته ، حتى ليبدو لي احيانا ان يدى ليست وحدها التى تقود قلمى . او ان قلمى ليس وحدى » (٤٦) ، واذا هو فى موقف شبيه بموقف القارىء **ويعتبر ثانيا** ان مع الناقد ، وهنا ، يتكامل الانتاج الادبي من حيث ولادته وتذوقه. **فالنقد « اكتشاف »** (٤٧) للموهبة وكشف عن ماهيتها . مـن هـنـا فان روح الخلق الادبي وروح النقد الادبى من نوع واحد « وفى اعتقادى ان الروح التى تتمكن من اللحاق بروح كبيرة

---

(٤٢) المرجع نفسه ص ١٧٨ .

(٤٣) Villemain (1970—1870) = Discours sur les avantages et les inconvenients de la critique.

(٤٤) يرى فردينان برونتيير (١٨٤٩ ـ ١٩٠٦) فى مقالتـه عن النقد فى « دائرة المعارف » ان غرض النقد : التمحيص والتصنيف والحكم . ويفهم الشرح والتمحيص على انه تحديد علاقات الاثر بالتاريخ العام للادب ، وبالمبادىء الخاصة لنوعه الفني ، وبالمكان الذى طلع فيه ، واخيرا بصاحبه ، ويكون شرح الاثر يعنى تحديد موقعه من الحركة الادبية وتطورها وليست دراسة الظروف الجغرافية والاجتماعية فى معين الا ان المهم هو تحديد موقع الاثر فى « الزمن الادبي » . والتصنيف والحكم هما عمل موضوعى غير شخصي الا ان اعتبار « الروح الادبي » من جهة ودور وظيفة النقد من جهة اخرى .

(٤٥) الغربال ص ١٨ .

(٤٦) سبعون (المرحلة الثالثة) ص ٢١٠ .

(٤٧) الغربال ص ١٩ .

فى كل نزعاتها وتجوالها فتسلك مسالكها وليستوحى موحياتها وتصعد وتهبط صعودها وهبوطها هى روح كبيرة مثلها (٤٨) . وهكذا فالتفريق الأصيل بين الناقدين والمبدعين فى الادب لايملك اى معنى او قيمة ، او هو لايمكن ان يكون الا مع النقاد من الدرجة الثانية . وليست هذه الفكرة جديدة فى تاريخ النقد ، بل لها أسيادها وخاصة فى النقد الفرنسى انطلاقا من **سانت بوف** (١٨٠٤ – ١٨٦٩) وارتقاء **بمارسيل بروست** (١٨٧١ – ١٩٤٥) **واندريه سوياريس** (١٨٦٨ – ١٩٣٩) **و (اميل شارتييه) الآن** (١٨٦٨ – ١٩٥١) فلا يعود النقد حكما ، بل هو فهم الأثر واعادة خلقه ، **اى ان الناقد** قادر على الارة العواطف والمشاعر المختلفة وان يعيش من جديد **التجارب نفسها . يقول دوبو** : ان طريق النقد المثالى هى طريق الابداع ولكن يسلكها الناقد بالاتجاه معاكس ، فهو يبدأ من حيث ينتهى المؤلف لينتهى من جديد حيث بدأ المؤلف ايضا ... ذلك انه من النادر ان تبدو لى حقيقة متميزة عن صاحبها ... ان كل شيء يبدو لى حقيقيا بالنسبة للقوة التى ابدعته ، فعلاقة التعبير الفكرى والاصالة التى تختفي وراءه تبدو فى عينى علاقة مشابهة ومماثلة (٤٩) وهكذا يكون الناقد ايضا مولدا ، لانه فى ما ينقد ليس فى الواقع الا كاشفا نفسه ، فهو اذا استحسن امرا لا يستحسنه لانه حسن فى ذاته بل لانه ينطبق على آرائه فى الحسن ، وكذلك اذا استهجن امرا فلعدم انطباق ذلك الامر على مقاييسه الفنية (٥٠) اى ان الناقد هو محور العمل النقدى ، دائما ، كما الأديب محور الأدب (٥١) ، فلا قيمة لشيء الا بالنسبة للانسان، بالنسبة لرؤيته ومقاييسه الخاصة به التى هى « بنات ساعات جهاده الروحى ورصيد حساباته الدائمة مع نفسه تجاه الحياة ومعانيها . وهى اذا تسامت ثم دعمت من الناقد بالاخلاص والحماسة والغيرة ومقدرة البيان سطت بقوة خفية على جماهير قرائه **فاعطتهم وجهة جديدة وايمانا جديدا** (٥٢) **وهكذا فبحركة تكاملية يصبح الناقد** ، بدوره ، كاتبا لا ادعاء بذلك المرتقى ، بل رغبة فى ان يكون كذلك ، اذ الكاتب لا يمكن ان يحدد بمقاييس الدور او القيمة ولكن بالنسبة « لضمير » الأدب وحده . فعلاقة الناقد بالاثر الادبى هى علاقة الشكل بمعناه ، والناقد لا يمكن ان يزعم ترجمة الاثر الادبى وتفسيره وتوضيحه اذ ليس اكثر وضوحا من الاثر الادبى نفسه ، ومن ثم ما قيمة نص ادبى بحاجة الى شرح وتفسير ؟ . ما يمكنه هو ان يلتمس اتجاها يشتقه من شكل هو الاثر نفسه . وبالتالى فالناقد يثير امام النص الاسباب نفسها التى يثيرها الاديب امام العالم واشيائه .

غير ان هذا المنطلق التأثرى العامل بمنطق الذوق واحكامه انما هو امتداد طبيعى للقلق المتوثب عنده باستمرار ، لنقل افكاره عن الحق والخير والجمال من الموضوع الى الذات والنكران لهذه المجردات وجودا مطلقا او ملتصقا بجوهر الاشياء والافعال ، مؤكدا ان وجود هذا المثلث (من كيان الحياة) هو فى ذهن الانسان وحده (لا فى خارجه) مصدر

---

(٤٨) المرجع نفسه .

(٤٩) Du Bos, Journal (24 Novembre) 191 .

(٥٠) الغربال ص ١٩ .

(٥١) الغربال مقالة « محور الادب » ص ٢٣ – ٢٨ .

(٥٢) الغربال ص ١٩ .

الاحكام على الاشياء والافعال . وهكذا ففي مثل هذا الجو من الذاتية لم يعد للناقد مجال الكلام على مقاييس واضحة للادب فلم يبق امامه الا الشعور يعتمده في احكامه . فنقد الادب كثيرا ما يكون ، عنده ، عملا شخصيا كالتاليف الأدبي سواء بسواء . غير ان شعور **الناقد او القارىء (رضاه او نفوره) عما يقرأ ،** ناشيء في الحقيقة ، من انه وجد ما يحبه وما يميل اليه او ما يبغضه وينكره . وهذا شيء من خواص نفسه وميوله الذاتية . اي كانه وجد نفسه فيما يقرأ لا نفس الكاتب ، واعجب بميوله الكاتب وآرائه ، وهكذا ترتفع قيمة الاديب او تتلاشى بمقدار ما يعبر عما يدور في خلد الناقد (او القارىء) **فنعيمة يقيم شأنا عظيما للانطباعات الشخصية** . الا ان النقد لا يحتاج الى مثل هذه التعبيرات عن هذه الانطباعات وتعليلها ، لأنها ليست في حقيقة امرها ، الا انعكاسا مباشرا بشكل أو بآخر ، لاهوائنا فيقع الناقد في خطا مبين ، اذ لا يعود يرى الاشياء بقدر ما يرى نفسه . ذلك ان تحكيم مستوى ذوقي معين ـ مهما بلغ نضج هذا المستوى ـ انما يصدر عن موقف سيء : فهو يسلب الآخرين حريتهم (الاديب والقارىء) ، بل لشدة التصاقه بالنص الادبي **لا يمكنه ان يراه بوضوح . أوليس البعد عن** الاثر الادبي بعدا معقولا ومقبولا يسمح من تقديره قدرا اوفى ؟ بل ان هذا التحكم الذوقي هو شكل من اشكال الانصراف عن حقيقة التفهم لانه لون من الانانية والاسراف في تاكيد اهتمامات معينة لا تبقى الحياة اسيرتها ، بل تتسع لها ولغيرها . فكان على نعيمة ، بدل ان يعكف على ترديد صوت نفسه وقيمها دون ملل ، ان يتوجه الى ارساء اصول الفهم ودراسة مفاعلاته ، اذ ليس الفرض من الاطلاع على النصوص ان نؤكد باستمرار ما نحب وما نكره ، لأن في ذلك ، بالنهاية ، انطواء نفسيا ووجدانيا لا يقود الى اي ارتقاء ، او الى ادراك ما في القيم من تنوع لا ينفد .

وعندنا ، ان نعيمة حينما دعا الى اقامة الحد الفاصل ما بين شخصية الكاتب وما يكتبه لكي يسهل فهم الغربلة الادبية والقصد منها (كما سنرى في المقاييس النقدية عند نعيمة) انما كان يتحول الى اقامة علاقة شخصية اخرى ولكن ما بين الناقد والنص الادبي ، هذه المرة ، وبالتالي ، فالنقد كالفلسفة والتاريخ ، نوع من القصة في متناول نخبة تلاحظ وتهتم ، وكل قصة نمط من السيرة الذاتية ، والناقد الحاذق هو الذي يكتشف نفسه عبر روائع الآثار ، فاذا كان الشاعر يتلمس **المجال الذي تتفتح** فيه موهبته وتحيا فان الناقد يتلمس غريزته وما تنص عليه موهبته (٥٣) فيبعد النقد عن ان يكون علما بالمعنى الدقيق والشامل ، بل هو تفتق فني . من هنا يتبدى من جانب ، نوع العلاقة بين الناقد والكاتب ، انه من ثم مرشد « لانه كثيرا ما يرد كاتبا مغرورا الى صوابه ، أو يهدي شاعرا ضالا الى سبيله (٥٤) ولكن ليس كل ناقد كذلك (مر معنا آنفا ان لافضل للناقد على الكاتب) . غير ان خاصة الارشاد هنا تأتي نتيجة حتمية وطبيعية لخاصتي الابداع والتوليد في الناقد . ولكن كيف تتم **هذه الوظيفة وما مداها في التجربة** النقدية ؟

الناقد مرشد :

كثيرا ما يكون الأديب ، غير موفق في اختيار مجال نشاطه ، اي يكون ضالا سبيله . (هنا تعارض مع موقف آخر اصيل ودائم عند نعيمة يقول بان الادب ولادة فطرية في نفس صاحبه ،

---

(٥٣) Sainte-Beuve, Portraits littéraire , P. Corneille.

(٥٤) الغربال ص ١٩ .

واذا لا يصدر عن الفطرة والعفوية الا مايمسها وما يخصها ، فاية فطرة هذه صادقة تنتج فى **مجال ما فاذا نتاجها فى مجال آخر ...)** هذا الكلام لا يصدر عن موقف سليم وصادق فى مفهوم الادب وابداعه : فاما ان يكون الاديب لهذا المجال من نفسه وبها ، او لا يكون اديبا . الم يقل « من كان معدا للادب كان فى غنى عمن يدله على طريقه ، ففي داخله ومن خارجه حوافز لاتتركه يستريح حتى يتم التزاوج ما بين عقله وقلبه وذوقه وبين القلم والمداد والقرطاس (٥٥) . فيأتى الناقد ليهدى هذا الاديب الى فرعه ويدله بالتالى الى المجال الذى يصلح فيه » . وعندنا **ان قيمة هذا الامر** ضئيلة من حيث المتوخى من هذا الاديب بالذات . اما ان يكون الناقد مرشدا من حيث انه يكشف عن مواهب الكاتب الثمينة وودائعه النفيسة التى ضلها القراء فاذا بسخرهم من الاديب ينقلب تهليلا وتكريما له ، فهو امر واقع بل هو جانب من اهم جوانب المهمة النقدية . فمثل هذا الكاتب والشاعر غنما هدية الناقد الى الامة والبشرية (٥٦) واذا هو مرشدا للقراء (ليس الناقد غير رجل يعرف كيف يقرا ويعلم الآخرين كيف يجيدون القراءة (سانت بوف) . وما يريد ان يعلمه **للاخرين هو الحس الجيد والقياس الصحيح** دونما فرض لاية قواعد حاجزة او احكام مسبقة. **وهو مرشد للمؤلفين ، ولكن لا من حيث** هديهم الى النوع الفنى اللائم والمناسب لملكاتهم الابداعية (الملكة وحدها تقرر نوعها الفنى « لان النوع الفني عندنا هو شكل هذه الملكة اى لا يمكن ان توجد وتظهر الا به) بل من حيث الكشف ، على طريق الفنان ، عن قيم فنية وفكرية ، جديدة ، هي امتداد لقيمه او مغايرة لها . فمن التماس معها والاحتكاك بهذا الكشف تتولد امكانات جديدة باستمرار .

وعلى جميع ماتقدم من خصائص الناقد ، **نستنتج ان للناقد ، عند نعيمة ، شانا فى ذاته، ينبع من شان موافقة نفسها وليس من قوة اخرى** . فهو يد اب فى تأكيد ما يذهب اليه لا بواسطة قواعد او اسول او موارد خارجة عنه ، **لان ما ذهب اليه ايضا ليس من منطلق خارج عنه ، بل سبيل لتدعيم موافقة واثباتها** يعود الى نفسه والى قوته بالذات « ولا قوة تدعمها (المقاييس والموازين التى تكون لكل ناقد) وتظهرها قيمة صادقة سوى قوة الناقد نفسه . وقيمة الناقد هي ما يبطن به سطوره ، من الاخلاص فى النية والمحبة لمهنته ، والغيرة على موضوعه ، ودقة الذوق ، ورقة الشعور وتيقظ الفكر ، وما اوتيه بعد ذلك من مقدرة البيان لتنفيذ ما يقوله الى عقل القارىء وقلبه (٥٧) موقف يذكر بما يراه **اناتول فرانس** فى « ان النقد لا يقدر الا تبعا لشخصية صاحبه ، والاكثر ذاتية منه هو الاكثر فائدة واهمية » (٥٨) .

بواعث النقد

البواعث التى تعطي النقد مركز التقدير هى نفسها البواعث التى تعطى العمل الأدبي وجوده وكيانه :

١ ــ اخلاص فى النية ، اى اصالة متمكنة لاتحيد عن الحق والحقيقة رافضة ان تقيم اى

---

(٥٥) فى مهب الريح ص ١٧٢ .

(٥٦) الغربال ص ٢٠ .

(٥٧) الغربال ص ١٦ .

(٥٨) A. France, la vie littéraire TI, P : 176.

شأن لما هو خارج عن عملية النقد (كالعلاقات الشخصية بين الناقد والمنقود فينحاز النقد الى التهليل او الى التحقير تبعا لنوع العلاقة على غرار ما رأينا في الفصل الاول من هذه الدراسة) .

ب – يستتبع هذا حبه لمهنته وغيرته على موضوعه ، فحيث لاحب لا حق ولا جمال ولا عطاء . فسمة النقد السلبي ، افتقاده لعنصر الحب هذا (٥٩) اذ يورث فيه التزام عمله النقدي الصافي فيكون همه ، وبالتالي لايقبل فيه الزيغ ، لانه يصدر عن دقة في الذوق ورقة في الشعور وليقظ في الفكر . فيتأتى لنا انه يريد ان يجعل من النقد عملا صعبا ، يعلم الجمهور ظواهر الاثر الادبي الجميلة والمختلفة وان يصل عبرها بين مختلف العبقريات (سانت بوف) . وهو اذ يقيم لهذه الامور الوزن الاكبر فلا يغفل الحديث على ملكة التعبير عند الناقد وطريقتها وقوتها ، لانها متممة للعناصر الاولى ، وهو اذ يضعها في درجة ثانية لا لشيء الا ردة فعل لما ذهب النقاد قبله من اعتبار النقد سبيل رياضة لغوية قبل كل شيء . فما اشبه الحالة التي يصدر عنها هنا بحالة **فلوبير** حين كتب (١٨٦٩) الى **جورج صاند** عن موضوع الناقدين فقال « كان الناقدون في زمن **لاهارب** نحويين ، وفي ايام **سانت بوف وتين** مؤرخين فمتى يصبحون فنانين حقا وصدقا (٦٠) . فعند نعيمة اعتبار كبير لطريقة العرض النقدي ، اذ انه يؤمن بان كثيراً من الناس يملكون الحقيقة ولكنهم سرعان مايفقدونها من طريقة عرضهم لها .

الناقد يتذوق ليخلق

غير ان القول بهذه البواعث والعناصر ، لايعني ، في نهاية الامر ، بان يكون الناقد هو الاديب . او انه لايجوز ولا صلاحية لناقد فن من الفنون الادبية الا اذا كان هو نفسه من ابناء ذلك الفن . وهذا مذهب قيل باخلاص وصدق عند العرب ، اذ المشكلة قائمة قديما في النقد العربي ، وذهب النقاد العرب فيها مذاهب شتى ، ولعل **ابن رشيق** يلخص طابع مذهبهم ذلك حين يقول بان « اهل صناعة الشعر ابصر به من العلماء بآلته من نحو وغريب ومثل وخبر وما اشبه ذلك ، ولو كانوا دونهم بدرجات ، وكيف وان قاربوهم او كانوا منهم بسبب ! (وقد كان ابو عمرو بن العلاء واصحابه لايجرون مع خلف الاحمر في حلبة هذه الصناعة ، اعني النقد ، ولا يشقون له غبارا لنفاذه فيها وحذقه بها واجادته لها) . (٦١) اي ان الناقد الشاعر ابصر عنده من الناقد غير الشاعر . ولكنه يقبل ايضا وبحماس بانه ليس من الضروري على ناقد فن ما بان يكون هو اولا من ابناء ذلك الفن المنتجين له » وقد يميز الشعر من لايقوله كالبزاز يميز من الثياب مالم ينسجه ، والصيرفي يخبر من الدنانير مالم يسكبه ولا ضربه ، حتى انه ليعرف مقدار مافيه من الغش وغيره فينتقص قيمته . . . (٦٢) وهو عين مايذهب اليه نعيمة حين يرد على ذلك الادعاء بقوله مستشهدا بجواب احدهم وقد سمع هذا الاعتراض عينه « أعليّ ان ابيض البيضة اذا لاعرف ما اذا كانت صالحة او فاسدة ! » (٦٣) ولعل ذلك

---

(٥٩) Ernest Hello, L'Homme (la vie, la science, l'art) 1872.

(٦٠) ستانلي هايمن ج ١ ص ٣٧ .

(٦١) ابن رشيق ، العمده ج ١ ص ٧٥ .

(٦٢) المرجع نفسه .

(٦٣) الغربال ص ٢٠ – ٢١ .

يعود الى بعض المفارقات البديهية مابين النقد والادب ، فالادب يعتمد ملكة الخلق بينما النقد يعتمد ملكة التمييز . اى ان الاديب يخلق الاشياء ليتذوقها ، اما الناقد فيتذوق ليخلق. فهما شريكان ، لا في نمط التاليف ، بل في القدرة على الشعور بالحالة نفسها وبالتجربة ذاتها اللتين صدر منهما العمل الادبي « غير أن من الناس من لايدركون انمن لاينظم القصيدة قد يقرأ فيها اكثر مما اودعها ناظمها . فرب ناقد لم ينظم في حياته بيتا ولا عرف مافي النظم من مشقة الأوزان والقوافي ولا من لذة الفوز بها ، غير أن ذلك لايعوقه عن ادراك مافي الافصاح من عوامل النفس من لذة روحانية، ولا يعميه عن تموجات الالوان في الرسوم الكلامية ولا يصمه عن رنة الالحان في مقاطع الالفاظ والعبارات . والا لايكون ناقدا . واذا تيسر له ذلك ففي امكانه الدخول الى مستودع روح الشاعر وتفقد مخبآته الى ان تتولد فيه حالة نفسية كالتى تمخضت في الشاعر بتلك القصيدة . فيصبح الناقد كأنه الشاعر وكأن القصيدة من وضعه . واذ ذاك لاحاجة به أن يكون عالما بكل دقائق العروض ليفهم الشاعر ويقدر نتائج قريحته (٦٤) فيكون دون الشاعر ان ينقل الحالة كما هي ليأتى الناقد ويعيش هذه الحالة نفسها ، يعيد خلقها من جديد ليحلل خباياها وكنوزها . ولن يعبق الناقد شكل النتاج الأدبي اذ همه مايحمل هذا النتاج من عوامل النفس ، فهو لاينظر الى كيف قال الشاعر بقدر ماينظر الى نوع ماقاله ، فغرضه تحليل الحالات النفسية للفرد وللوسط اللذين اطلعاه ، اى ان الناقد يتجه في بحثه اتجاها يعتبر النص كصورة صاحبه المنتج له (التحليل النفسي) وهو في كل هذا انما يصدر عن موقف ادبي واحد اذ يعتبر الانسان محور المنتوج الادبي ، وان سلطان الادب في انه ابدا يجول في اقطار النفس باحثا عن مسالكها مستطلعا آثارها بصرف النظر عن شكله ، فليس هو معرضا للازياء اللغوية والبهرجة العروضية (٦٥) فاذا معه يتحول النقد الى وسيلة للتحليل النفسي بديل الاقتصار على الكشف عن الاخطاء اللغوية او تبيان المعايب والمساوىء كما تحول فن النقد مع سانت بوف « من فن مساعد للتاريخ الى آلة حقيقية للتحليل والتفتيش واكتشاف اسرار النفوس » (٦٦) فدراسة الأنا التلقائية ، اى الشخصية الطبيعية والخام ، هي احدى وظائف الناقد الهامة . بل وظيفته الاولى على الاطلاق عند نعيمة . فالسر الحقيقى عند مؤلف لا يمكن ان يكون الا في نفسه ، لذا كان من الاحرى على الناقد امام كل نص او اى نص ، ان يسأل نفسه : الى اى مدى وبأى مقياس استطاع المؤلف ان يكشف عن نفسه الحميمة فيكشف ، في آن ، عن حقيقة الكون ومجراه (٦٧) ؟ ان ناقدا كمثل هذا الناقد يمتاز بخصائص وصفات طبيعية فيه من نفسية متاصلة « الاخلاص ، الطهارة ، الجرأة ، الذوق ، الشعور ... » وفكرية متيقظة وطاقة تعبيرية نافذة يكون رائدا لا يعدم اناسا ينضوون تحت لوائه ويعملون بمشيئته ، فيستحبون ما يحب ويستقبحون ما يستقبح، فيصبح وهو وراء منضدته ، سلطانا تأتمر بأمره وتتمذهب بمذهبه وتتحلى بحلاه وتتذوق بذوقه الوف من الناس . اذا طرق سبيلا سلكوه ، واذا صب نقمته على صنم حطموه ،

---

(٦٤) الغربال ص ١٧ ـ ٢١ .

(٦٥) الغربال ص ٢٧ .

(٦٦) راجع قسطاكى الحمصى ، منهل الوارد في علم الانتقاد ، ج ١ ص ٩٠ .

(٦٧) هذا ما يقول به P. Valéry راجع M. Bémol, la méthode critique de P. Valéry P. 135-145.

واذا أقام لهم الها عبدوه وبخروا له وسبحوه (٦٨) لانه انما يصدر في ذلك لا عن فردية خاصة به (وهنا يكون الاختلاف والتفاوت بين الناس) وانما يصدر – في تلك الخصائص المذكورة – عن الطابع العام والمناخ الطبيعي الذي يحدده اطار عوامل كثيرة : الزمان ، المكان ، ومستوى الشعب الثقافي والفكري العام فيهما . فالناقد خير من يتمثلها جميعا ويصهرها في بوتقة واحدة ، فهو في عمله انما يعبر عن الرأي العام لمحيطه فاذا قال به لا يكون غريبا . فالناقد يعبر بالفعل عما في نفوس قرائه من استعداد فطري للتذوق بالقوة .

وهكذا لا يكون الناقد مقتلعا من الارض التي اطلعته بل هو واحد من وسط ، يختلف منهم درجة لا نوعا ، فلديه قسط من الحساسية الحية أكثر من سائر الناس ، ومعرفة اشمل بطبيعة الخلق الأدبي ، وروح اوسع احاطة بالنفاذ الى حقائق الاشياء . وهو في كل هذا انما يصدر عن حقيقة لا ترد ، وهي ان شيئا لا يمكن أن يكون من لا شيء .

النقاد طبقات

الا ان نعيمة لا يشير الى نوع الثقافة التي يجب على الناقد اكتسابها والى نمط المعرفة التي عليه العمل بنورها . فاذا كان ازدهار النقد يفترض ثقافة واسعة اكثر مما تتطلبه الأشكال الأدبية الاخرى ، فان نعيمة ، على ما يبدو ، لا يقول بالناقد المتخصص والمطبق لقوانين ونظريات العلوم الاخرى . فالعلوم تنمو نموا كبيرا مع الأيام ، حتى أن دراسة فرع واحد منها تستنزف العمر كله اذا اريد تسليطها على النقد الادبي ، اي ان يبقى للناقد الا وقت قليل للتعرف على الأدب نفسه . واذا دعا للتعرف على مآثر الآخرين ونادى بالترجمة « فلنترجم ولنجل مقام المترجم لانه واسطة تعارف بيننا وبين العائلة البشرية العظمى ، ولأنه يكشف لنا اسرار عقول كبيرة وقلوب كبيرة تسترها عنا غوامض اللغة يرفعنا من محيط صغير محدود ... الى محيط نرى فيه العالم الأوسع فنعيش بأفكار هذا العالم وآماله وافراحه واحزانه . فلنترجم (٦٩) فدعوته هذه لا تحدد – وعلى سبيل المثال – (تفكير نعيمة يكره التحديد فهو يتجه دائما اتجاهات عامة) حاجة الناقد الى علوم كعلم النفس والفلسفة والتاريخ واية ضرورة تقتضيه على ذلك ، أوليس مرد النقد قبل وبعد كل شيء الى **الذوق والبصيرة ؟ أوليس الناقد أيضا** كالشاعر يولد ولا يصنع ؟ ولكن هل يصيب الذوق وحده في كل مرة ؟ فلطالما احس نعيمة بهذا الهاجس الذي كان يقلقه ، باستمرار ، فتراه في كل مرة يسارع الى الطرف الآخر من الحذر والاحتمال ولا يجزم في الموقف الواحد جزما قاطعا فيستدرك « غير أن الناقدين طبقات . كما ان الشعراء والكتاب طبقات . فما يصح ان يقال في الواحد منهم لا يصح ان يقال في كلهم (٧٠) . **وهكذا فان نعيمة هنا ينزع الى تقسيم (٧١) النقاد والشعراء الى طبقات منزع النقاد القدامى انفسهم في تصور الشعراء على انهم طبقات** (ابن قتيبة : الشعر والشعراء) فيهتمون بالمفاضلة اهتماما ينافس التحليل والكشف . غير انه لا يبين لنا أيضا

---

(٦٨) الغربال ص ١٦ .

(٦٩) الغربال ص ١٢٦ .

(٧٠) الغربال ص ١٧ .

(٧١) طالما ترددت هذه النزعة الى التقسيم عنده ، فهي تصدر عن ايمان بان « الناس من حيث قواهم الجسدية والعقلية والروحية ليسوا سواسية » راجع نعيمة : رسالة الى رضوان الشهال .

على اى اساس يجرى هذا التقسيم الطبقى ؟ وانما كل ما نعرفه ان الناقد كلما ملك من قوة التمييز الفطرية كان ناقدا اكبر . وبمقدار ما يسبر غور الأديب ويعرف كنهه ويحاور المبدعين الكبار بمقدار ما يكون ناقدا : « فظاهرة النقاد الكبار الاعجاب بالشعراء » (هوغو) .

الناقد بنياته :

وكان طبيعيا ان يصل به هذا الحذر الى النهاية الحتمية فيستنتج بان « ... الناقد لا ينجو من زلة او هفوة . فقد يرى القبيح جميلا ، او يحسب الصحيح فاسدا وما ذاك الا لأنه بشر والعصمة ليست لبني البشر (٧٢) . اوليس في هذا القول ثمة تعارض مع ما قدمه من ان « الناقد مرشد » او انه حاجة ضرورية في المجتمع لانتشال الناس من الخرافات والترهات . وربما يصدر هذا الرأى عن ايمان عميق عنده ، بمبدأ الصدفة ، اى ان النقاد ـ كذلك الكتاب ـ نتيجة لعوامل مجهولة ، يكتبون ما تمليه عليهم ملكاتهم المبدعة ، وما صدف ان حمل من طاقة الحياة وامكاناتها يستطيع البقاء ويكون سليما صائبا ، والا فلا وعلى هذا يمكن التفسير الوحيد لكثرة تطلبه بان الحياة هي خير غربال وافضل ناقد . لأن المسالة برمتها عند نعيمة ، انما هي مسالة نسبية ، فما هو صحيح او خطأ وما هو جميل او قبيح هو كذلك بالنسبة للحياة ؛ فهى القوة الخفية التى تحفظ للاشياء بقاءها او تحرمها اياه . ويجب ان تأخذ معنى الحياة هنا لا على انها مجرى العيش اليومي ـ وهو جزء منها ـ بل هى الحاجات والمقاييس المشتركة بين بنى البشر ، والتى تخاطب جوهر الانسان الحميم والذى لم يتغير عبر الأزمنة والأمكنة . فالحياة عنده خبرة شعورية وفكرية . ثم ليس من يقين مطلق في الحياة ، فما هو خطأ الآن قد يبدو صحيحا في لحظة اخرى وتحت عوامل وظروف اخرى ، وما يبدو جميلا في حالة قد يفقد شيئا من جماله في حالة اخرى . من هنا كانت تخف وطأة زلة النقاد وينعدم خطرها الفادح . « فلنحاسب الناقدين بنياتهم اولا ، فان اخلصوا النية فزلاتهم مغفورة لهم (٧٣) فالمهم ان تكون النية سليمة » اى طبيعة نفس الناقد واصالته ، خالية ، من اية شائبة ، عندها لا قيمة لخطائه ، لأن جوهره الانساني صاف فيستطيع ان يعوض تلك الهفوة ، خاصة اذا كانت مقاييسه محكمة متناسقة واجاد استعمالها فذلك حد ما يحق لنا مطالبته به (٧٤) ـ ليس لنا ان نسأل الناقد لماذا يقف هذا الموقف من هذه المسالة . له ان يذهب في ذلك مع ما ترتضيه نفسه . انه حر . المهم ان ينبثق عن نفسه ، كالاديب . واذا لا يمكن درسه على اساس ما قال ، بل على اساس ما يرتبط بالنفس وما يكشف عنها في عرض مترابط منظم متسق الاجزاء والكليات . وعندنا ان الأمر ينطلق من موقف واحد من الادب والفن عند نعيمة ، اذ لا يعتبر الاديب او الناقد من غير طينة البشر (وهنا رد عنيف وقاس على اصحاب النظرة المميزة للاديب عن سائر الناس والقائلة بتفوقه النوعي على البشر) بل هو يتهكم من الأديب الذى خال انه جُبِلَ من غير جِبِلّةِ الناس ، فراح يلبس غير ما يلبسون ، ومن ذلك قوله بلسان ميشلين موجها كلامه اللاذع لجبران ذلك العهد « انت خلقت الشعر والفن وانت تعتقد ان الشعر والفن رزق من السماء . وانا ـ كما قلت لى مرة ـ من التراب وللتراب . وقد كنت اظن في بساطة قلبي ان التراب الذى

(٧٢) الغربال ص ١٥ ـ ١٦ .

(٧٣) الغربال ص ١٦ .

(٧٤) المرجع نفسه .

ينبت القمح الفذى والزنبقة الطاهرة والوردة الجميلة يصلح كذلك تربة للشعر والفن (٧٥) .

فهو اذآ لا ينم عن منظور ارستقراطي في فهم وظيفة الأدب والنقد ، وانما يريد ان يرى الاشياء والجمال والقوالب ... عبر حقيقة النفس والحياة ، لأن لا شيء فوق النفس والحياة اللتين تعطيان الموجود قيمته (الموجود قيمة زوجية : سنفصل هذا عند الحديث عن المقاييس النقدية) من هنا اذا لم يكن للناقد من فضل سوى فضل رد الأمور الى مصادرها وتسمينها باسمائها لكفاه ذلك ثوابا (٧٦) لان **اساس العملية النقدية السعى الى اكتشاف** ومعرفة حقائق الامور والاشياء . المهم ان يبقى منارا ضابطا لمعالم القيم ، فالسواد الأعظم من النـــاس لا يمكن ان يحافظوا او ان يبقوا باستمرار ، ودون « مرشدين » ، في كل مرة ، ضمن الاطار الروحي والحي السبيل الوحيد لادراك الموجودات وجوهرها . فليس عند جميع النـــاس القدرة على النفاذ الى لب الأمور ، بل كثيرا ما يتناولونها عرضا ، فليس عندهم دائما همّ التحرى والسبر في الاعماق. من هنا كان الناقد ضرورة يتعامل مع اذواقهم وطبائعهم وملكاتهم ، يحاول ان ينظفها من الشوائب عن طريق الهدى فهم منضوون تحت لوائه. ولكن التعامل مع الناس صعب وشائك : فعدا كون النقد عملية معقدة ، فان طبائع الناس ايضا (والنقد في سبيلهم بالدرجة الاولى ولأجلهم) مختلفة ومتعددة . من هنا صعوبة التحدث الى جميعهم بالرضى والقبول فيكون حظه منهم قليلا لأن النقاد « لا يرضون فريقا من الناس الا باغضاب فريق آخر ، غير ان القوى بينهم ــ والقوى من اخلص النية ــ لا يحفل بمن يرضى وبمن يغضب لأنه يخدم غاية اكبر من رضى الناس وسخطهم ، ويتم وظيفة هى من أهم وظائف الحياة (٧٧) .

وهكذا يبقى الاخلاص فى النية المعيار الأوق فى الحكم على كفاءة النقاد ومقدرتهم وصلاح مذاهبهم .

وعلى هذا يسير الناقد الادبي موازيا للاديب : له نظرة يتدبرها خاصة به ، تكونت بطريقة عفوية طبيعية ، فيصبح بالتالي صاحب دعوة أدبية جمالية من خلال نقده فيضع النص الادبى باعتباره مجالا متحركا . فليست وظيفته اصدار احكام اخلاقية مقنعة خلف مظاهر الاستحسان او الاستقباح الجمالى فحسب ، بل هى وظيفة تشريحية ايضا تفتش من « قيمة الحياة » وعن « المدى » بناء على مقاييس واضحة ، واصول تنبع من نفس الناقد ، لأن النقد يدور حول الفهم والتذوق بالدرجة الأولى . غير ان هذا لا يعنى ابدا ان الفهم شيء والتذوق شيء آخر ، اى ان الاول يخضع للعقل والآخر يوضحه . ان الناقد يقوم بمهمة النقد لأنه انسان (لا مجرد آلة) له اهتماماته ومبادئه ومعتقداته ، ومر بتجارب ادبية وغير ادبية ! فيهتم بتحويل تجاربه وخواطره وانفعالاته الى مفاهيم .

●●●

المقاييس النقدية :

من الطبيعى ان مفهوم الادب هو الذى يحدد ، في شكل او في آخر ، مفهوم النقاد واتجاهاتهم ، ويصدق هذا اكثر حينما يكون الناقد نفسه اديبا ، فيصدر عن خلفية وجودية هى روح نظراته وجوهرها على تعدد مناحيها واشكالها ، والمقاييس النقدية هى كل مفهوم للنقد ، وكمثل الأدب ، هى محصول نوعى

---

(٧٥) نعيمة ، كتاب « جبران خليل جبران » ص ١٢٤ .

(٧٦) الغربال ص ١٨ .

(٧٧) الغربال ص ٢١ .

لناقد له صفات وخصائص اصيلة فيه ، ومرتبطة ايما ارتباط بطبيعة موقفه من الاشياء والوجود عامة . ولما كان النقد قراءة متعمقة للآثار لاكتشاف ما فيها من ابعاد فكرية (لا تؤخذ كلمة فكر هنا بمعناها التجريدي بل من حيث هي تصدر او تشحن بطاقة وجدانية وشعورية نافذة) ولما كان هذا الاكتشاف مرتبطا بقدرة الناقد (٧٨) وملكاته (بحيث انه لا يمكن تصور العملية النقدية بلا ناقد يقوم بها) كان النقد ، تبعا لذلك ، عملا فنيا فرديا ، يختلف باختلاف النقاد ومنازعهم ، ولما كانت الحقيقة نسبية (لا تظهر الحقيقة الا من خلال منظور معين ولا يمكن ان « نراها » كما هي (٧٩) اى هي لا تكون الا بنا وتبعا لمداركنا لها) كانت المقاييس التي تبنى عليها نسبية ايضا وبالتاكيد . **من هنا كان النقد عند نعيمة ، في اساسه ، عملية فردية لا تنقاد الى التصنيف العلمي تماما كاي نشاط آخر** » والعمل الفني عملية معقدة لانه عمل نفساني ، وليس حديثنا عن تكوينه ونموه في نفس الفنان ، ثم عن ولادته ، غير ضرب من الرجم بالغيب . فكيف بتذوقه وتفهمه من قبل الذين لم يحملوا به ولم يلدوه ! انه لامر يعود في النهاية الى فطرة المتذوق والمتفهم ، والى مزاجه وميله وثقافته ومجمل تركيبه الجسداني والعقلاني والروحاني . لذلك لم يخضع لتقدير الفن ولن يخضع لقياسات « علمية » وسيبقى عملية فردية لا تنقاد الى التصنيف العلمي (٨٠) ففي الواقع

ليس ثمة الا حالة نفسية ، الا شكل خاص من التفكير لانتاج هذا او ذاك من الآثار ، ويجب تبعا لذلك اعتماد الحالة النفسية ايضا في تذوقها وتقديرها حق قدرها ان كل عمل فني يمثل حالة خاصة ويجب ان يحكم عليه باعتباره حالة خاصة . ان التصنيف العلمي واى شكل اتخذه ، لا يمكن ان يحيط بالانتاج الادبي ، لان الادب ، في النهاية ، « مفارقات » والناقد يتذوق وفقا لطبيعته (اى السليقة) ويصدر احكامه نتيجة لذلك (اى للتاثير الذي احدثه الانتاج الادبي في نفسه) بالجودة او الرداءة في صورة عفوية وان كان لها في واقع الامر اساسها الجمالي الدفين في نفسه ، فيقول سانت بوف « ان النقد لا يمكن ان يصبح علما وضعيا ، وسيبقى دائما فنا دقيقا في يد من يحاولون استخدامه وان يكن قد اخذ يستفيد واستفاد بالفعل من كل ما انتهى اليه العلم او كشف عنه التاريخ من حقائق (٨١) (سانت بوف) . فالمسالة اذا مسالة احساس فردي (ذاتي) فبقدر ما تحب الاثر وتنفعل فيه يكون لحكمك قيمة (الحب هنا يكون شخصيا اصيلا ونابعا من الذات نتيجة الاحتكاك المباشر بالنتاج الادبي ، ولا يعني ذلك الحب المتولد عند الآخرين من مجرد قولك لهم بان هذا النتاج جيد) ومع ذلك « فالنقد مذهبيا كان او غير ذلك ، ومهما تكن اهدافه ، لا يصل الا الى ان يحدد الاثر الذي يخلقه في نفوسنا في وقت ما هذا الكتاب او ذاك ، وقد دون فيه

---

(٧٨) يرى نعيمة دائما انه « لابد لكل مذهب جديد ، ان في الادب او في سواه ، من شخصية قوية توجه خطاه وعبقرية فذة تتعهد نموه » نعيمة : وولت هتمان او الشعر المسرح : الادب ص ١ (١٩٣٥) ع) ص ٩ .

(٧٩) يرى رولان بارت ان ما يطلب الى الناقد ان يصدر عن خلفية لا ترى الحقيقة بل تحاول ان تكونها ، بحيث يحق لنا ان نداعيه لا بان يجعلنا نعتقد بما يقول ، بل يجعلنا نؤمن بما قرر قوله ، وهو يستعين في ذلك بقول « كافكا » الشاعر ان كل العالم لا يمكنه رؤية الحقيقة بل يمكنه ان يكونها

Roland Barthes, critique et vérité, P. 75.

(٨٠) نعيمة : من رسالة الى رضوان الشهال بمناسبة كتابيه « في الشعر والفن والجمال » ، و « ابو الطيب المتنبي » بسكنتا في ١٠ كانون الثاني ١٩٦٢ .

(٨١) راجع محمد مندور : في الادب والنقد ص ٦٥ .

المؤلف نفسه الاثر الذى تلقاه هو الآخر من العالم الخارجى فى وقت ما (جول لوميتر) ، وعلى هذا يبنى نعيمة أساس عمله النقدى الذى يصدر عن نفسه وذوقه وثقافته التى تبتدع لنفسها المقاييس والموازين « فلو كان لنا « قواعد » ثابتة لتمييز الجميل من الشنيع، والصحيح من الفاسد ، لما كان من حاجة بنا الى النقد والناقدين . بل كان من السهل على كل قارىء ان يأخذ تلك « القواعد » ويطبق عليها ما يقرؤه (٨٢) من هنا ، ومن جميع ما تقدم ، يتأتى لنا بأن نعيمة ، فى مذهبه ، ناقد تأثرى يعتبر الذوق (٨٣) السبيل الوحيد للقيام بمهمة النقد والأدب » والذوق الفنى هو الذى يدل الشاعر على الكنوز الشعرية فى الموضوع الذى ينتقيه ، ثم يهديه الى الطريقة المثلى لعرض تلك الكنوز وابراز ما فيها من روعة وجمال وتناسق ومعان . فلا يكثر الطلاء حيث يكفى القليل ، ولا يصرح حيث يكفى التلميح . ولا يسهب حيث الايجاز أوفى بالفرض وأوقع فى النفس ، ولا يعظ حيث الوعظ بلادة ، ولا يغالى حيث المغالاة تصنع وتكلف وتدجيل ، وتعفير خد وجبين ، وتسخير كرامة ووجدان ، واهانة للفن الذى يجب ان يتسامى ابدا عن التملق والذل والامتهان (٨٤) . فهو يعتقد على نحو ما يعتقد برك (٨٥) ويصر بأن يكون الحكم على الشعر بحسب تاثيره (٨٦) فى العاطفة ، اى

النقد بمقتضى القياس الذاتى الصرف . « والحق ان لكل جيل نمطا من التذوق الفنى ، والاجيال فى ذلك كالافراد من الناس لكل طريقته ومذاقه ومطالبه واغراضه الفنية الخاصة . والتذوق الفنى الخالص حين لا يكون مجرد حكم مصطنع انما هو فى رابى مثال اعلى ، ويجب ان يظل كذلك ما دامت عملية التذوق قضية اناس يطوون الحياة وهم مقيدون فى وجودهم بحدود الزمان والمكان (اليوث) فتكون السمة الأولى للدراسة الادبية هى العناية بالعواطف والمشاعر ، ومعرفة ما اذا كانت متكلفة وعاجزة او صادقة ومؤثرة .

ولعل مبعث هذا الاهتمام ، عند نعيمة ، بالعاطفة والتاثير انما يرجع عندنا الى ظواهر طبيعية كان لها الفعل الأكبر فى توجيهه الى ذلك نذكر منها :

١ ــ ردة فعل لما ورث نعيمة فى مستهل هذا القرن من شعر ردىء نوعا ومستوى .

٢ ــ اعتبار اللغة ، قبله ، غاية الابداع ومنتهاه وهو فى الحقيقة امتداد لوظيفة الشاعر العربى ــ بفعل عوامل ساعدت على انحرافه عن مبدئه الأول ــ فى العصور المتقدمة اذ كان النقد العربى القديم نفسه يكرس جانبا عظيما للحديث عن الشعراء الذين يسحرون الناس بالفاظهم .

---

(٨٢) الغربال ص ١٧ .

(٨٣) بدا النقاد ــ فى الادب الانجليزى ــ يعتبرون اهمية « الذوق » ووجوب توفره فى الناقد البصير منذ اواخر القرن الثامن عشر : « والذوق هنا معناه الادراك الغريزى لخصائص العمل الفنى ، او الحدس بطبيعة النتاج وبقيمته . ولاشك ان الناقد حينما يعتمد على الذوق بهذا المعنى لايلجأ الى القواعد المقننة ولا يكتفى بتطبيقها تطبيقا اليا . كما ان اعتبار الذوق المعيار الاخير فى تقييم الادب يعنى احلال العنصر الشخصى او الفردى ، اى شخصية القارىء محل القاعدة العامة التي كان يطبقها الناقد تطبيقا موضوعيا من قبل .

(٨٤) نعيمة : خليل مطران فاتح عهد وخاتم عهد ، الرسالة ١٩٥٧ ع ٥ ص ٢ .

(٨٥) يصر برك على ذلك فى رسالة موضوعها « بحث فلسفى عن منشأ آرائنا فى الجلال والجمال ظهرت عام ١٧٥٦ فكان اصراره هذا أول مناداة بحقوق المذهب الحر فى النقد الادبى . راجع فى ذلك : لاسل آبركرمبى : قواعد النقد الادبى (ترجمة محمد عوض محمد) ص ١٧٥ .

(٨٦) يلاحظ هنا ان دعوى نعيمة هذه ليست جديدة بل ظهرت تباشيرها واسبابها منذ مستهل هذا القرن مع سليمان البستاني ومصطفى لطفى المنفلوطى قبل هذه الرحلة .

٢ ـ لقد وصلت دراسات الأدب في القرون الوسطى الى جمود ، وعناية بالشكل ، واستغراق في التقسيمات والتفريعات ، مما قتل روح الجمال الأدبي وخرج تذوق النصوص من طبيعتها الفنية الى طبيعة البحث المنطقي او الرياضي ، فاصبحت همة الدارسين منصرفة الى بيان ما في النصوص من تشبيه واستعارة وايجاز او اطناب ، وجناس او طباق ، واصبح الناشئون لا يتذوقون من روائع الآثار الأدبية الا معرفة اجزاء الاستعارة او تقرير الكناية ، او تمييز هذه الناحية او تلك من المحسنات البديعية (٨٧) .

غير ان هذا التجديد ، عند نعيمة وأمثاله ، في تشييد دعائم التأثرية في النقد العربي الحديث ، هو ، بشكل او آخر ، من قبيل « الاحياء » للنزعة النقدية العربية القديمة . اي ان لهذا التجديد منطلقا في القديم . ولقدر ما استفحل امر النزعة التأثرية في النقد العربي ، قديما ، مع شيء من الفوضى النقدية حاول المرزوقي تصويرها « وزعمت » . . . فانك مع طول مجالستك لجهابذة الشعر والعلماء بمعانيه ، والمبرزين في انتقاده ، لم تقف من جهتهم على حد يؤديك الى المعرفة بجيده ومتوسطه ورديئه . حتى تجرد الشهادة في شيء منه ، وتثبت الحكم عليه أو له ، آمنا من المجاذبين والمدافعين ، بل تعتقد أن كثيرا مما يستجيده زيد يجوز الا يوافقه عليه عمرو ، وانه قد يستحسن البيت ويثني عليه ثم يستهجن نظيره في الشبه لفظا ومعنى حتى لا يخالفه ، فيعرض عنه اذ كان ذلك موقوفا على استحلاء المستحلي واجتواء المجتوي (٨٨) .

فاذا بالحكم النقدي العام يصبح ، في أساسه ، طبعا واستعدادا متمكنين في النفس وقادرين على التمييز والابداع . ويؤيد هذا المنحى ويسلكه القاضي الجرجاني اذ يقول « وملاك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمل والاسترسال للطبع وتجنب الحمل عليه والعنف به ، ولست اعني بهذا كل طبع ، بل المهذب الذي قد صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الرديء والجيد ، وتصور امثلة الحسن والقبح (٨٩) . ومع ذلك يبقى النقد مهمة لا تقتصر على تعليل استحساناتنا ، بل تندفع ايضا الى معرفة طبائع الاشياء من منظور مقبول عند الطبائع السليمة الاخرى ، على غرار ما نحا الآمدي (٩٠) اذ يقسم الذوق الى ثلاثة اقسام : الطبع والحذق ثم جماع الاثنين اي الفطنة . من هنا فان « التذوق نفسه يستطيع أن يكون ذا معايير يقيس بها صحته ورصانته ، ولا بد لكي يكون مكتملا من أن يدل على فهم « دائم » لغاية هي النتيجة الضرورية ، بل هي الثمرة الصحيحة لما فيه من صحة ورصانة (بلا كمور) .

اما المعايير او المقاييس الأخرى (والتي اساسها الذوق دائما) التي يعتمدها نعيمة في النقد فينبغي ، تسهيلا للدرس والبحث ، ان نقسمها الى قسمين : واحد يتناول فن النقد

---

(٨٧) محمد خلف الله : من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده ص ١٢٤ .

(٨٨) المرزوقي : مقدمة شرح ديوان الحماسة (القاهرة ١٩٥١) ص ٤ .

(٨٩) القاضي الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه (ط صبيح ١٩٤٨) ص ١٩ .

(٩٠) « ويبقى مالم يمكن اخراجه الى البيان ولا اظهاره الى الاحتجاج وهي علة مالا يعرف الا بالدربة ودائم التجربة وطول الملابسة وبهذا يفضل اهل الحذاقة بكل علم وصناعة من سواهم ، ممن نقصت قريحته وقلت دربته ، بعد ان يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الطبائع وامتزاج ، والا لايتم ذلك ، واكلك بعد ذلك الى اختيارك وما تقضي عليه فطنتك وتمييزك فينبغي ان تنعم النظر فيما يرد عليك ولن ينتفع بالنظر الا من يحسن ان يتأمل ، ومن اذا تأمل علم ومن اذا علم انصف » راجع الآمدي : الموازنة (ط المعارف الاولى ج ١ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤) .

بعامة ، وواحد يتناول العمل النقدى بذاته ويستخرج من خلال النقد التطبيقى عنده ، على ان كلا القسمين واحد فى روحه وشكله ، ويؤلف فى النهاية أصول مذهبه فى النقد .

انه يرى اولا ان لكل ناقد موازينه ومقاييسه الخاصة به (٩١) . وهذا ينطلق من اعتباره النقد ذاتيا لا موضوعيا . وقوله بقوة التمييز الفطرية قبل الموازين فصحيح ، لأن فقدانها لا تعوضه المقاييس والقواعد (وهو هنا يتفق مع ايليوت فيما ذكرناه آنفا فى أن كل جيل يختلف عن الجيل الآخر فى فهم الادب ، ولذلك يأتى بمعايير خاصة ، والذوق الفنى المطلق مثل أعلى ...) . ويدعو ثانيا الى التمييز باصرار ما بين شخصية المنقود وآثاره الكتابية والا « فلا يكون الناقد من حاملى الغربال أو الدائنين بدينه » (٩٢) ولشد ما يشبه هنا André Suarès فى اعتباره ان اهتمام الناقد يتعلق بالنتاج الادبى وليس باعتبارات شخصية تخص صاحبه . وعيبه ان يجعل من المؤلف هدفا له عبر النتاج نفسه ، عندما ينال من صاحبه سواء بالهزء به أو بشتمه . ولقد اسهب فى شرح هذا المبدأ الناقد المعاصر Richards لاهميته ، ولكن نعيمة ألمح اليه بايجاز ، ورأى ريتشاردز أن على الناقد أن ينحو جميع العوامل التي تفسد عليه حكمه كالاختلاف فى المذهب والاتفاق فيه أو وجود استجابات جاهزة فيكون الانفعال من مخزون القارىء لا من القصيدة نفسها او دقة الحس او اللاحساسية ... ويقول ريتشاردز « علينا ان نتجنب الحكم على العازفين على البيانو بشعرهم » (٩٣) فقول نعيمة اذا على ايجازه على جانب كبير من الاهمية للوصول الى الحكم الصحيح ، ولابداء الرأى بحرية وشجاعة ، وللسمو بالنقد الى المرتبة الخليقة به . واذا على الناقد ان يفتش عن الفكرة التى تسكن المؤلف فجعلته « اداتها » فيكون النقد تحليلا وخلقا اكثر منه صوغ احكام واطلاقها » فكما يخلق الكاتب نفسه فى ما يكتب يخلق الناقد نفسه فيما ينقد . وما الأثر الذى ينقده غير الحافز والمشحذ . اما النور الذى يلقيه على ذلك الأثر فنوره (٩٤) اذ الناقد الجيد من يروى مغامرات نفسه وروحه عبر الأثر المنقود (أناتول فرانس) . من هنا كان الأثر الخالد هو ما فيه بعض من الروح الخالدة (٩٥) . والروح الخالدة هى، فى نظره ، قوة الفن الذى مهما تسامى فى نظر صاحبه ونظر الناس ليس من الاهمية على شىء مالم يترجمه صاحبه والناس الى قوة تنشط بهم من علاقات المعيشة المحدودة الى حرية الحياة التى لاتحد من الانسان فى الله ، الى الله فى الانسان (٩٦) انه ، فى النهاية ، وبكلمة واحدة « هو الحياة والحياة هو » (٩٧) لذا كان على الناقد ان يفهم الجمال ، والالوان المبهجة لاتصنع الضعف فلا الكلام الجميل يرفع الشناعة الى مستوى الجمال ، والالوان المبهجة لا تصنع الضعف قوة ، وقولك ان الحب هو الله لا يجعل الشهوة

---

(٩١) الغربال ص ١٦ .

(٩٢) الغربال ص ١٢ .

(٩٣) راجع اسحق موسى الحسينى : النقد الادبى المعاصر فى الربع الاول من القرن العشرين ص ٩٨ .

(٩٤) نعيمة : النقد والكلمة : الآداب ص ٩ (١٩٦١) ع ٤ ص ٤ .

(٩٥) الغربال ص ٢٦ .

(٩٦) نعيمة : جبران خليل جبران ص ٧ .

(٩٧) المرجع نفسه ص ١١٧ .

الجسدية الها ولا اللذة الحيوانية ناموس الحياة (٩٨) فليس همّ نعيمة في النقد ابراز قيمة الآثار الضئيلة ، بل رد الموضوع المنقود الى حقائقه العقلية والاخلاقية والعاطفية فيتعرف الى هذه الحقائق كمجموعات متصلة محاولا ابرازها بايضاح الانطباعات دون تنسيق او مبالغة . على اننا نفهم بالانطباعات هنا لا كونها ردة فعل امام الآثار الادبية وحسب ، بل هي تمتد الى الحالات النفسية ذاتها التي تتأتى امام الطبيعة والاشياء . واذا ليس النقد مجرد قراءة او تطبيق قواعد . انه قبل كل شيء « تجربة » تلتزم الكيان الحي : بأسره في ظواهره الفردية وظواهره الجمالية على حد سواء . فعنده بقدر مايكون الاثر الادبي كبيرا يكون شخصيا (هاجس الناقد التأثري ان لايكون له هدف غير التحدث عن نفسه) لان في امكان الذاتية الفنية والناقد وحدهما ان تستنبش من ضمير الجماعة رؤيتها الى العالم وموقفها منه ، فالحقائق لايمكن ان تكون الا فردية ، اي لا يمكن اكتشاف ابعاد الكون الا بالسير في اعماق الشيء والنفس (في كل شيء ينطوي العالم الاكبر) . ومن هذا المنطلق الصوفي كان منطلقه النقدي ، اذ الفن عنده ــ كما مر معنا ــ لايعلمنا ان نرى فقط بل ان نكون ايضا . انه يؤمن بان التواصل الحقيقي الوحيد ، والممكن ، مع الآخرين ، هو بالخلق (الابداع) الصادر عن جميع الانسان : فكره وقلبه وجسده . وهكذا فنعيمة لايكتب ليشتهر بل ليحدد علاقته الخاصة مع العالم . من هنا لاتكون الثورة الادبية في اسلوب التعبير بل في الانسان مصدر كل تعبير . والبحث عن النفس الانسانية (اننا في كل مانفعل وكل مانقول وكل مانكتب انما نفتش عن انفسنا (٩٩) والعالم هو جوهر نظامه الفكري والادبي : فالحياة والفن والانسان ثلاثة اشكال لوجود واحد : النفس الكلية او الروح الخالدة كما سماها آنفا . فاذا توقف النقد عند اديب ما او عند اي اثر ما ، فلا يعني ذلك اعادة تأليفه في قيمة ما بقدر مايرمي الى اعطائه المحل المناسب له بين الموجودات .

الفردية والحرية :

سمة النقد النعيمي ، الفردية والحرية . وهما مفتاح جميع عمله النقدي وظاهرته الأصيلة (لقد تأثر المهجريون بالأدب الغربي ولا سيما بالادب الرومنتيكي الذي يعزز النزعة الفردية والتعبير عن الذات وخلجات النفس في يأسها ورجائها وحزنها وفرحها وصحتها ومرضها وفقرها وغناها وآمالها وآلامها : فنزعوا الى الشعور الوجداني الذاتي وكرهوا الادب التقليدي الذي لايصدر عن شعور واحساس) . وهذه هي الخلفية الفكرية التي يصدر منها نظامه النقدي . وهي نفسها التي يصدر عنها نظامه الادبي . من هنا ترابط نظراته ، احيانا ، الى حد ما ، بحيث لم تعد لمات او مجرد آراء مفككة بل يبقى النقد عند نعيمة (اي المقاييس) خواطر انما تصدر عن منظور واحد لايتغير (اولم يقل بعد نحو من اربعين عاما من صدور الغربال « في الكتاب نظريات وآراء وتوجيهات لو سئلت فيها اليوم لتبنيتها دونما تردد » (١٠٠) .

ولنا ان نستنتج بسرعة ان نعيمة ، على مايبدو ، يريد ان يجعلنا نرى العمل الادبي بعينيه لابعيوننا وان نفهم منه مايفهمه هو نحكم عليه بحكمه . وفي هذا امكان ان يكون النقد اذا عقبة بيننا وبين العمل الادبي بديل ان يقربه الينا .

(٩٨) المرجع نفسه ص ١٢٥ .

(٩٩) الغربال ص ٢٥ .

(١٠٠) راجع نعيمة : سبعون (المرحلة الثانية) ص ٢٠١ .

بين الذوق والموهبة

فاتجاه نعيمة في النقد لم يعتمد على التراث النقدي العربي القديم ، كما انه لم يعتمد التراث الغربي أيضا ، وحسب ، بل هو اتجاه يهضم جميع هذه المكونات لتتمثل في شكل او في آخر ، في محاولات ذاتية ، تعول على الموهبة وما تستعينه في استحضار نفسها . ولا تعارض بين الذوق والموهبة . الذوق هو حالة خاصة من الاحساس ، والموهبة تحتقر الصنعة والتعمل لتترجم انطلاق النفس وولبتها بالافعال المعبرة « والموهوب هو الذي يخلق بيئته ولا تخلقه البيئة » (١٠١) اي ان العمل الادبي لايقتصر على مجرد التعلق بسلسلة من الافعال والعواطف ، بل بقيمتها ، بوقعها وبنتيجتها (وما يمكن ان نسميه « ماهيتها ») . من هنا كانت مقاييس نقده التطبيقي صادرة عن هذه المبادىء العامة بالتأكيد ، ففي حديثه عن « اغاني الدرويش » لايهمه ان يحاسب الشاعر لِمَ اختار هذا الموضوع دون ذاك ، او لِمَ يغني هذا النوع من العواطف دون غيره ، فكل مجال النقد وميدانه ان يقول هل احسن الشاعر في اثره ام اساء . المهم في الخلق عنده ، كيفية التوقيع لانوعه « لينصعّد **رشيد ايوب** من الزفرات ماشاء وليبك مادام في مقلتيه دموع . فلا شأن لي معه في ذلك . تلك هي أوتاره ، وذاك هو اسلوبه في التوقيع عليها . والذي يهمني هو انه يحسن التوقيع (١٠٢) . ولعله ينطوي على موقف من النقد والادب عامة ، ابعد واعمق ، فيرى ان ازدهار الادب او تقهقره لايعودان الى طبيعة المقاييس نفسها بقدر ما يرجع ذلك الى حسن استخدامها وممارستها او العكس . فيبقى الانسان ، باستمرار محور العمل الادبي والنقدي . واذا كان الادب العربي النائل في فقر او نقص ، لايعني ذلك انه في حاجة الى مقاييس ثابتة . فهي متوفرة (١٠٣) (لعل هذا الوجه من رؤيته يفسر لنا مبعث اخذه عن النقاد العرب الذين سبقوه او عاصروه ومن نقاد الغرب والكبار ، بحيث يفقد الاقتباس خطورته وفداحته التي صرح عنها مرة في الهلال « ان الشرق لفي غنى عن اقتباس حرف واحد من المدنية الغربية ، اذ ليس الاقتباس الا تقليدا . وكل من يقلد سواه لايكون مخلصا لنفسه (١٠٤) اذا عيب التقليد لا في الأخذ عن آراء الآخرين ومواقفهم بل في ان تنهج منهج الآخرين انفسهم وتسير في مسالكهم نفسها فتفقد بذلك « ذاتيتك » « وحريتك ») واذا كيف تزهر آدابنا وتثمر مادامت مقاييسها في ايد لا تعرف من الادب كوعه من بوعه (١٠٥) (يقصد الجرائد والمجلات التي تقيس الأدب بعدد مشتركيها ومناصريها واعمدتها .....) وخاصة في تلك المرحلة اذ هي دور انتقال (وهو من أصعب الادوار في الحركات الادبية) فرضه تهديم روح قديم والتمهيد لبناء روح جديد . فبقدر ـ ما ينجح في هذا التمهيد ستكون مرحلة البناء التالية ، نوعا ومدى ، ذات شأن .

وعلى ضوء هذا المفهوم يبين الموازين التي يقيس بها الآثار المنقودة وخاصة الشعرية منها بعد ان يؤكد « ان لكل قارىء مقاييس عديدة

(١٠١) نعيمة : راجع جورج صيدح : ادبنا وادباؤنا في المهاجر الامريكية ص ٢٨ (ط القاهرة ١٩٥٦) .

(١٠٢) نعيمة : مقدمة ديوان « اغاني الدرويش » لرشيد ايوب ص ٧ (صدر الديوان ١٩٢٨) .

(١٠٣) الغربال ص ٧٢ ـ ٧٤ .

(١٠٤) نعيمة : الهلال نوفمبر ١٩٢٢ (ص ٣١) ج ٢ ص١٢٨ .

(١٠٥) الغربال ص ٧٣ ـ ٧٤ .

يقيس بها الشعر والشعراء لست لآخذها منه ولا لأبدلها بمقاييس ، فما انا الا عارض عليه ما عندي ، فلينبذه اذا شاء او ليقبله اذا شاء (١٠٦) . هكذا تتولد المواقف من بعضها ، عند نعيمة ، فشرط المحافظة على حريته وذاتيته الذي تطلبه باستمرار ، كان شرطا عليه ايضا في المحافظة على حرية القراء ومنازعهم . فمهمته ان يعرض ، بلا فرض ، على الناس ما يذهب اليه ، فما يجدونه ملائما لهم ولحاجاتهم اخذوا به ، وما لا يروق لهم نبذوه وهجروه . بكلمة اخرى ان اي تفاعل ادبي يكون مستحيلا بلا القراء ، والاديب هو ، في شكل او في آخر ، مبدع ضمن اطار ايديولوجي لوسطه وجماعته ، فيمكن ان يقبلوها او ان يعدلوا فيها ، ان يرفضوها كلية او جزئيه ، غير انه لا يمكنهم التنصل او الفرار منها . واذا ايضا كان القراء بحاجة الى الناقد وغرضه ، فاذا بقوا وحدهم مستفردين يظلون خارج نظام الحقائق الاصيل وينخدعون .

البحث عن نسمة الحياة لا عن النوع الادبي

وهو اذا اراد ان يبدأ عمله النقدي ، « فاول ما ابحث عنه في كل ما يقع تحت نظري باسم الشعر هو نسمة الحياة . والذي اعنيه بنسمة الحياة ليس الا انعكاس بعض ما في داخلي من عوامل الوجود في الكلام المنظور الذي اطالعه . فان عثرت فيه على تلك النسمة ايقنت انه شعر والاعرفته جمادا . واذذاك ليس ليخدعني باوزانه المحكمة ومفرداته المنمقة وقوافيه المترجرجة (١٠٧) . فبقدر ما يظهر الشعر من الاحاسيس يكون شعرا . وبعبارة اخرى ، فان منطلق هذا القياس هو ان الشاعر يعبر عما وجدنا نحن من قبل ، وكاننا جميعا ادباء بالقوة ، ومزية الشاعر وفقا لهذا التفكير ايجاد العبارة التي اعوزتنا (هذا ما يراه التاثريون) فاذا قوي احساس المرء بعمل او قصيدة خيل اليه انه عانى ما يشبهه من قبل . ولطالما تطلب نعمية هذا المقياس في جميع نقده فطبقه في « الارواح الحائرة » (الغربال ص ٢٧) والدرة الشوقية (الغربال ص ١٤٥) والقرويات (الغربال ص ١٥٥) والريحاني في عالم الشعر (الغربال ص ١٦٣) وكثير من رسالله ... فيكون جميع نقده مسكونا بهذه الظاهرة نظرا وعملا . ونحن نقره هنا على ضرورة (نسمة الحياة) مقياسا للشعر ، غير اننا نخالفه في مفهومه لها . اذ لا يمكن قصر الشعر او الادب على اثارة العواطف فقط . فمرة واحدة لم تكن قوة الشعور وحدها ، وفي ذاتها من الاسباب الهامة في بقاء الادب ، فكثير جدا من الناس اقوياء الشعور غير انهم ليسوا فنانين « وليس الشعر كله محتاجا الى العواطف القوية ولكنه محتاج الى ان يكون خلقا خياليا ، فالخلق الخيالي صفته الاولى (١٠٨) غير انه اذ يقول في ذلك فانما يصدر عما كرره من مفهومه للحياة وعلاقة الانسان بها ، ولعل ما يقوله هذه المرة يلخص ما ذهب اليه هنا وهناك فيعتبر ان انفسنا « لا تستفيق ... الا اذا شعرت برعشة الحياة في داخلها ، لان الحياة فينا وليست خارجا عنا ، وما التاثيرات التي تحدثها فينا الطبيعة او الحياة الخارجية الا منبه لما كمن في داخلنا من العواطف والافكار ، فلولا عواطفنا ولولا افكارنا لكان ما ندعوه « الطبيعة » صحيفة بيضاء . ان الحياة ارث مشترك ، ولي فيها مالك . غير ان ما ينتفع به كلانا من هذا الارث يتوقف على ما تنبه فيه من

(١٠٦) الغربال ص ١٢٩ .

(١٠٧) المرجع نفسه .

(١٠٨) راجع مصطفى ناصف : دراسة الادب العربي ص٥١ .

العواطف والافكار (١٠٩) من هنا تكون قيمة النص الشعرى او الادبى بقدر ما يحمل من الحياة والانسان لا بما يحمل من اساليب بيانية او مفردات منمقة ، وليس الوزن هو الذى يعطى الشعر شيئا من قيمته الحقيقية . بل اكثر من ذلك ليست قيمة الشعر فى ذاته (فى انه شعر) اذ ان نعيمة لا يقيم كبير شان للنوع الادبي ، لانه يعتبر النوع الادبى شكلا يتوسله الشاعر او الاديب لغرض آخر ، يبرر وجوده، الا وهو ، « الافصاح عن الحياة اى عن كل ما ينتابنا من العوامل النفسية » (١١٠) ولا ضير فى اى اسلوب او مظهر اتخذته هذه الحاجة . فما ابواب الادب الا أساليب (راجع «الريحانى فى عالم الشعر » : الغربال) حيث يؤكد ان ليس من آفة فى ان يتنقل الكاتب من هذا الباب الى ذاك من ابواب الادب ، وليس ما يمنع كاتب المقالات من ان يؤلف الروايات ، ولا مؤلف الروايات من ان يزاول الدراما ، ولا كاتب الدراما من ان يقرض الشعر (١١١) . فلا تمييز لنوع فني على آخر ، اى ليست القصة ارقى من المسرح ، او ان الشعر يفضلهما لاعتبارات فنية تقنية .

ومتى يوقن ان فيما يطالعه شعرا يعتبر العنصر الثانى فى تمييز الاثر الادبى من غيره « باتساع مداه ، بعمقه وعلوه وانفراج ارجائه (١١٢) فى الافكار والخيال والعاطفة . وهو مقياس لا حق بسابقه ومنه يمتد . ولطالما راعاه فى مجمل نقده (١١٢) . اذ يقدر كالعقاد ان الشاعر يمتاز على سواه « بقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه الى صميم الاشياء (١١٤) فما الذى يعطى الابيات كيانها الشعرى غير الرسم الجديد والفكر المبتكر والعاطفة الحية والمتطورة ارتقاء دائما (١١٥) . من هنا كان مقياس الصدق والاخلاص اساس النقد ، لانه المقياس الذى يكشف عن حقيقة ارتباط الاثر بصاحبه بل يعين فى تلمس مناخيه واعماقه بصرف النظر عن قالبه والسبيل الذى اعتمده صاحبه فى اظهاره « وانا حيثما أطل على الصدق والاخلاص فى اى عمل ادبي قلت : انه لعمل مبارك . ولا شأن لى من بعد ذلك مع الناثر او الناظم اذا هو خاطبنى بهذه الطريقة او تلك واذا هو اختار ان يبث افكاره واحاسيسه فى قوالب بيانية قد تبعد كل البعد عن القوالب التى فيها اسكب افكاري واحاسيسى . فلست من الجهل وضيق الصدر بحيث انكر على غيرى حقا اعده من اقدس حقوقى . وهو ان اعبر عن ذاتيتى بالاسلوب الذى يرتضيه ذوقى ويطمئن اليه وجدانى (١١٦) . فنعيمة لا يعير الاثر الادبي اى انتباه فنى ، ولا ينطلق من اية فلسفة فنية جمالية فى ذلك ، ولعل السبب يعود الى ان الظروف الزمنية التى راح نعيمة يطلق فيها آراءه النقدية ونتاجه الادبي لم تكن لتسمح بالاتجاه اتجاها فنيا كبيرا. ذلك ان المناخ العربى السائد حينئذ لا ينم عن نضج راق فى

---

(١٠٩) الغربال ص ١٢٣ ــ ١٢٤ .

(١١٠) المرجع نفسه ص ٧٠ .

(١١١) المرجع نفسه ص ١٦٣ .

(١١٢) الغربال ص ١٢٩ ــ (مقالة الارواح الحائرة) .

(١١٣) راجع الغربال تبيانا لذلك ص١٤٤ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ، ١٧٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٩ ، وراجع مقدمة الجداول لابي ماضي .

(١١٤) الغربال ص ٢١٢ .

(١١٥) الغربال ص ١٥٠ .

(١١٦) نعيمة : رسالة الى نقولا قربان .

المبحث الفني الاستطيقي الجمالي ، ثم ان احداث العصر نفسها وقضاياه لم تكن لتنحو بالادب غير ذلك المنحى . من هنا فان ما يميز الخلق الادبي الكبير ، عنده ، هو هذه الهالة السحرية التي تمتد في فكر القارىء ووجدانه اثناء التعرف عليه . اى ان خير مقياس لنجاح الاثر الادبي انما هو في الفعل الذي يحدثه في النفس التي تستطلعه . فكما في الادب كذلك في النقد . سره وقيمته في مدى صدق الناقد واخلاصه المتفانيين لانهما «سر الابتكار والابداع عند الاديب » (١١٧) وهكذا لم يعد النقد ، مع نعيمة ، تصنيفا للاثار على أساس مطلق ومجرد ، بل على اعتبار العلاقة الحميمة بين النتاج وصاحبه من جهة ، وبين النتاج نفسه ونتاجات قبلـه سبقتـه ، ولا باس اذا كانت للكاتب نفسه او لغيره ، فيؤول النقد نمطا من دراسة العلاقات القائمة والتي يمكن ان توصل في النهاية الى الحكم الصحيح . ان السؤال عن المدى هو « عندنا » في غاية من الاهمية ، اذ ينم عن ارتقاء في المفهوم النقدي عهدئذ ، بل هو فتح من جملة ما اعطاه نعيمة في هذا المضمار . انه يعني انتقالا من الجانب الوصفي الى الجانب التقييمي ، اى ان الناقد تحول من جو التامل النظري — خاصة بعد ما يسوق في طريقة من المقارنات والمفارقات والتوضيحات وضرب التحليل والتمثيل — الى هجير حلبة الصراع في الممارسة الادبية العملية . فكان اذا ثمة تدرج منطقي وطبيعي في منهجه ، فتطلب المدى بعد تبينه نسمة الحياة عن طريق التامل في النص ، كما ورد معنا . فلا سلامة اللغة ، ولا سعة الاطلاع ، ولا براعة التعبير ، ولا حسن الذوق هي المنشودة لذاتها ، بل القيمة للقدرة على الاتصال بالناس عن طريق القلب والفكر ، بصرف النظر عن اى اعتبار مادي آخر كالجنس ، او المذهب او غيرهما لقد جمع (عمر فاخوري) الى سلامة اللغة سعة الاطلاع واستقامة التفكير وبراعة التعبير وحسن الذوق . ولكن هذه كلها ليست بذات بال مالم يترجمها صاحبها الى عواطف انسانية تصل قلبه وفكره بقلوب الناس وافكارهم اينما كانوا ، ومن ايما جنس او ملة كانوا (١١٨) . ومن المعروف ان هـذا الناقد الـذي يعتبر هـذه المقاييس في استكشاف الادب وتقدير مـدى الصحة والعمق فيه ، هو ولا شـك الناقـد الحصيف الـذي تكونت عنده قـوة التعبير الفطريـة .

قضية الشكل

اما العنصر الثالث فهو ثوب الاثر الادبي الخارجي ، اى دقة تركيبه وحلاوة رنته» وبعد ذلك فحصت عن سرواله الخارجي ، عن دقـة تركيبه وحلاوة رنته وطلاوة الوانه وما اشبه (١١٩) وطبيعي موقفه هذا لان « الازياء البيانية ظلال لا تستقر على حال ، والمستقر هو الانسان وحاجته الى التعبير عن كيانه (١٢٠) . فالكاتب اثناء الكتابة لا ينصرف الى التفنن في صناعة التعبير ، بل يعتمد الاسلوب السهل والقريب لافراغ التفتق الابداعي الذي يتوتر ، كالنهر ، ولا يعود مرة اخرى . ثم ان الكاتب كما اشرنا همه الانسان لانه وحده يستحق كل جهـد وكل قيمة . غير ان نعيمة في هذا لا يقصـد اهمال الاسلوب التعبيري ، وانما يفهم الجمال والفن بقالبهما ، كما يفهمهما بجوهرهما ،

(١١٧) نعيمة : المراحل (ط ٢ بيروت) ص ٥٩ .

(١١٨) نعيمة : عمر فاخوري اديب وانسان : الطريق ، ١٩٥٠ ع ٤ و ٥ ص ٩ .

(١١٩) الغربال ص ١٢٩ .

(١٢٠) نعيمة : رسالة الى يوسف الخال .

ويفهم القالب على انه « لا ينحصر فى تنميق الكلام وتنسيق الخطوط والالوان ، بل ما يفرغ فيه الكلام من بعد التنميق ، والخطوط والالوان من بعد التنسيق ، والفنان يعنى بقوالبه عنايته بما يسكبه فيها من روحه لعلمه ان جمال القالب يزيد فى جمال ما يسكب فيه (١٢١) ذلك لانه باعتبار منطلقه الفلسفي والادبي كما بينا يعتبر بوحدة واحدة فى الجمال والكون . فكيف لايعتبر فى النتاج الادبي ومقياسه وحدة واحدة ايضا . فلا شكل بلا محتوى ، او ان اى محتوى لابد له من شكل يتجسد به . الفرق فى الموقف اذا : بديل ان يعطى الشكل قيمة المحتوى (كما فى النقد القديم) فان الشكل ، عند نعيمة ، انما يزيد فى جمال المحتوى . يضفى على ماهو موجود شيئا ما فيكتمل . ولا باس بالاستعانة بالفنون الاخرى وطبيعتها الخلاقة ، لان لاتناقض فيما بينها ، بل هى فى الحقيقة ، اساليب متنوعة للابداع الانساني الواحد . ويقرب هنا كثيرا من نظرية تولستوى فى الفن التى تقول بان الفن فعل انفعالات انسان ما بغية ان يشاركه الآخرون اياها ، وذلك عن طريق الحركات والخطوط والالوان والاصوات والاشكال المعبر عنها بالكلمات . اى لابد ان تكون هناك فكرة جديدة تهم الانسانية ويكون التعبير عنها بوضوح ليفهمه جميع الناس . واخيرا ان يكون دافع المؤلف الى انتاجه هو الحاجة الداخلية ، فالمضمون هو الذى يعطى العمل الفنى قيمته (الخير) والتعبير يعطيه قيمته من حيث هو عمل جميل (الجمال) ، اما علاقة الفنان بعمله فيعطيه قيمته من حيث هو عمل حق . (١٢٢)

القرابة الروحية :

معنى كل هذا ان التحولات فى الموقف النقدى ، عند نعيمة ، كانت تخرج من المفهوم العام لا لتسير فى خط مستقيم ولكن لتدور حول نفسها فتنتهى حيث تبدأ ، كل مرة ، وامام اى ظاهرة ، فاقتصرت محاولة احياء الروح فى العمل الادبي بكثرة تطلب عنصرى الشعور والحرية . انه لايقدر فنا ولا ادبا الا بقدر ما يرفع من نفسه ويفتح عليه من الآفاق الجديدة ، وهو لايرضى بالفن المحلق دون الفنان ، ولا بالخيال الطائر بغير الشاعر الطائر ، يريد المثل الاعلى وصاحبه فى آن (١٢٣) . من هنا كان آخر ما يعيره انتباها فى نقد الأثر الشعرى هو الأوزان والقوانين العروضية والقواعد اللغوية ... فالشعر الذى ينزل بفكره الى اغوار تحتها اغوار ، ويعلو بهذا الفكر الى سماوات تلوح من ورائها سماوات ، ويفتح لخياله آفاقا خلفها آفاق ، ويفتح لعاطفته مدى يجرها الى امداء ، هو الشعر الذى تستأنس به روحه وتتفتح له براعم الحياة فى داخله (١٢٤) . وهكذا فان نعيمة حين يقف امام الاثر الادبي – وخاصة الشعرى – يقيس نفسه به حينا ، فاذا بالشعر يكتسب قيمة من الشخصية التي يوجه لها عهد كان يكتسب قيمته من الشخصية التى صدر عنها . وهو فى كل هذا يعرف ظاهرة « الاتحاد الفني » حيث تفنى الذات فى الموضوع ، فاذا به يقترب كليا من ابن قتيبة فى حكمه النقدى « اشعر الناس من انت فى شعره حتى تفرغ منه » (١٢٥) فالمطلوب من الشاعر ان

(١٢١) نعيمة : جبران خليل جبران ص ٢٤١ .

(١٢٢) راجع مجلة الاداب ١٩٥٤ ص ٨٨١ .

(١٢٣) راجع فاتحة كتاب « جبران خليل جبران » .

(١٢٤) راجع الغربال ص ١٢٩ .

(١٢٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٢٠ .

يجعلك تعيش في شعره فتكون انت هذا الشعر . انه يسعى باستمرار وراء « القرابة الروحية (١٢٦) بينه وبين الشاعر » .

اراؤه في فن الرواية :

الا اننا نشير اخيرا ، الى ان هذه المقاييس النقدية عند نعيمة ، وان اقتصرت في معظم الاحيان على الشعر دون غيره من الفنون ، فقد تطاولت ايضا الى فن الرواية فراى انها تحتاج « هذا الفكر المطل والمحلل الى يد المتفنن لابراز اشخاصها الى الحياة ولتطبيق مشاهدها على فكرتها الاساسية (١٢٧) . فتتطلب ، بالتالي ، خبرة فنية تقدر على الملاءمة ومراعاة اصول هذا الفن . فالروائي الفنان اذا ما خلق شخصين او اكثر نوّع الاغراض التي يرمي اليها من وراء كل منهم (١٢٨) . اي ان التاليف الروائي ليس كتابة مقال لم ياتي للمؤلف ليوزع كلامه على عدد معين من الابطال ، بل لكل بطل حضور خاص فاعل في سير الرواية ، وله غرض يساعد على نمو الاحداث وتطورها . « فالشخص في يد الروائي كالحجر في يد المثال يخلق منه ما يشاء ، والمثال الماهر ليس كالمرائين الذين يحسبون ـ كما قال فيهم يسوع ـ ان بكثرة صلواتهم يستجاب لهم . فهو قد يبرز معنى بارعا بضربة ازميل مثلما قد يخلق المصور العبقري آية من الحسن بلمسة ريشة ، والكاتب الفنان افقا من الجمال بشطحة قلم (١٢٩) ومنتهى ذلك ، عنده ، ان مقياس جودة الرواية هو في القدرة على التاثير (كما في الشعر وسائر الفنون الادبية) في السامع والناظر . ولاحداث هذا التاثير كان لا بد من التاكيد على امرين :

ا ـ اذا كانت الرواية مشهدا حيا من مشاهد الحياة الحقيقية .

ب ـ اذا كان الممثل قادرا على فهم افكار المؤلف وغايته وتفسير هذه الافكار وتادية تلك الغاية الى السامع بواسطة الصوت والحركات (١٣٠) . فالرواية عنده ، تكتب لتمثل ، لا لشيء آخر ، فكثيرا ما يتوكأ الكاتب على الممثل والممثل على الكاتب . الا ان قيمة ما كتبه نعيمة في هذا الباب كبيرة نظرا لما كان النقاد عليه من عدم اعارتهم اي انتباه لهذا الفن . فافرد نعيمة له فصلا كاملا « الرواية التمثيلية العربية » في كتاب الغربال (وهي نفسها مقدمة مسرحيته « الآباء والبنون ») كذلك كان يلمع بين الحين والآخر فيما نقد من روايات مترجمة (شكسبير خليل مطران) او قصص موضوعة (العواطف لجبران) . . . وهو بذلك يتقدم على سابقيه او معاصريه من النقاد . لان مجمل تلك المقاييس التي حاولوا ان يؤكدوها (العقاد ، المازني . . .) انها تهتم بالشعر بل لا تتصرف الا الى فن محدد منه هو الشعر الغنائي المتوارث من القديم « واخذ نقادنا ومفكرونا يقتتلون حوله خلال الربع الاول من هذا القرن بل الى سنوات بعد ذلك ، مغفلين فنونا اخرى اخذت تظهر في ادبنا المعاصر مثل فن المسرحية الشعرية ، وفن القصة والاقصوصة وفن السيرة وفن المقالة ، فهذه كلها فنون لا نكاد نعثر على آراء فيها وفي

---

(١٢٦) نعيمة : مقدمة ديوان الجداول لابي ماضي (٢١ حزيران ١٩٢٧) .

(١٢٧) الغربال ص ١٦٥ .

(١٢٨) نعيمة : رسالة الى كرم ملحم كرم عن روايته « الصعود » .

(١٢٩) المصدر نفسه .

(١٣٠) الغربال ص ٣٢ .

مناهج نقدها عند نقاد الجيل السابق ، واذا كان نعيمة يمس بعضها حينا ، فانما كان ذلك من قريب ، حيث انك لا تجد تحريا لوضع أصول مترابطة فى هذه الفنون ، بل خطوات تتولد من جراء التعليق على قصة او التمهيد لرواية ...

هذه هى اهم المقاييس التى اعتمدها نعيمة فى نقده ، وهو يرى ان الأمة المتيقظة بحاجة الى «تقويم» مفهومياتها الادبية ، وتعديل مقاييسها وموازينها الروحية باستمرار (١٢١) ان النقد فى تجدد مستمر لأنه فى نبض مستمر . فعمل الناقد لا ينتهى ، انه عمل يبدأ من جديد فى كل مرة ، لأنه على استعداد دائم لمواجهة الاشياء والحقائق لتبيانها . ولكل حقيقة نمط تظهر به . واذا كان يؤكد بان للزمان غربالا اين منه غرابيل الناس ، او ان الحياة للحياة وحدها القول الفصل والحكم الاخير (١٢٢) لا يعنى ذلك ، عندنا ، الا ان الحياة والزمان يعطيان الناقد « خبرة نقدية » و « تجربة معرفة » تسيران بالناقد او بالمبدع الى النضج (للزمن فعل كبير فى تطوير الملكة الشعرية عند الشاعر (١٢٣) لأن المقاييس النقدية ، بالتالى ، غير منفصلة عن الحياة او هى من خارج الحياة. من هنا كان الشاعر فى حاجة الى غربال ، لكنه يجب ان يكون هو الغربال والمغربل معا (١٢٤) . على هذا تأتلف جميع الظواهر : الادب (الاديب) ــ النقد (الناقد) ــ المقاييس النقدية (الحياة) . فلا تمييز ولا تفريق بين الابداع والنقد والمقاييس النقدية ، بل كلها فى الحقيقة وجوه متعددة ــ مظهرا ــ لشىء واحد : هو الانسان محور الاشياء والوجود . ولكم يذكر حكمه هذا بقول ابسن « اذا اردت الكتابة فانك لتستدعى نفسك الى محكمة انت قاضيها » .

• • •

المنهج الانطباعى :

مهما كان المنحى الذى يسلكه النقد الانطباعى او الموضوعى او العقائدى او اللغوى او الجامعى ... وايا كانت مقاييسه الذاتية او العلمية او التاريخية او الفنية .. يبقى له منهجية ، تنطلق من هذه المفاهيم وتحتويها ، اى هو يعتمد اصولا معينة فى فهم الادب ، وفى تبيان القيم النفسية والفكرية والجمالية . غير ان هذا لا يعنى اخضاع كل عمل ادبى ، الى مقاييس ثابتة جامدة ، فتتجمد بذلك شخصية الناقد ، وتتعطل عنده حساسية التذوق الذاتية ، القادرة على اكتشاف القيم الخاصة فى كل اثر ادبى بذاته . من هنا كان من الخير للادب ان تتعدد مناهجه ووظائفه فلا يعمل الكتاب كلهم عملا واحدا . فبناء الحياة الذى هو شغل الادب لا يختلف من هذا القبيل عن اى بناء (١٢٥) . او لينشئ كل اثر هو نتاجا شخصيا فريدا قائما بذاته (التجربة الواحدة لا تتكرر عند فنانين بل هى لا تكرر نفسها فى نتاجين لفنان واحد) واذا فمنهج تقديره والبحث فيه لا يصدران عن مناهج سابقة لأنهما لا يحملان احكاما سابقة مستقاة من آثار اخرى . وعلى هذا يكون المنهج النقدى ، عند ناقد معين ، صادرا من نوع مقاييسه ؛ بل هو كيفية عرض لها .

---

(١٢١) الغربال ص ٢٠٨ .

(١٢٢) نعيمة : دروب ص ١٨٩ .

(١٢٣) راجع الغربال ص ١٥٥ ــ ١٥٦ .

(١٢٤) الغربال ص ١٦١ .

(١٢٥) دروب ص ٥٤ .

ونعيمة ، قبل كل شيء ، يصـدر في نقده النظري والتطبيقي على حد سواء ، عن مقصد واحد هو الاقنـاع (التأثير) لا الفرض . ولا يكون الاقناع الا بالحجة (١٣٦) . **والسبيل الى** ذلك يتحصـل عن ضـبط البحث وتصميمه ودقة تأليفه ومتانة ترابطه بعضه ببعض ، فهو مقدمة فشرح فاستنتاج ، وكأن هذه العناصر حلقات في سلسـلة واحـدة (١٣٧) تقـوم على التبسيط والوضـوح الى اقصى حـد ، فهو عندما يخاطب القارىء تراه ينتقل به خطـوة خطوة ، بكل بساطة ، وهذا ضروري عهدئذ زيادة في سبيل تأكيد الاقناع وفعله في العقلية المتحجرة السـائدة ، فيعرض ويشرح ثم يستنتج مكتفيا ما يرمى اليه (١٣٨) .

وهـو من منطق الاقنـاع او التأثير هذا ، وعبر مقالته « الغربلة » يتبين لنا ان **منهجه في النقد منهج تأثري** ذاتي (لكل ناقد غرباله ... ولا قوة تدعم مقاييسه غير قوة التمييز الفطرية ...) اي هو منهج لا يقوم على التفسير والتقييم ، بل ينتمي الى خلق ادبي مبتكـر . « اجل ان كل ما يفعله الناقد في نقده هو ان يعرض نفسه بما فيها من قلق وشوق ، وذلك في عرض الكلام عن غيره » . فقد يقلقه اشـد القلق ان يقع في كتـاب ما على مجرور بحرف اللام بدلا من الباء فيثور ثائره ولا يهدأ باله ، حتى يعلن على الملأ انه ارسـخ قدما في علم النحو من مؤلف الكتاب (١٣٩) . وبالنسـبة للقارىء فله مقاييسـه واعتباراته ، فنعيمة في النقد العرض لا الفرض « فما أنا الا عارض عليه ما عندي » (١٤٠) . والمقالة النقدية التي يعرضها انما هي « مزيج من فلسفة وادب وانتقاد » (١٤١) ينحو بذلك نحو **بيلنسكي** الناقد الروسي في تنويع المقالة بحيث تضفي جواً من الخصوبة وتبعث على الارتياح والامتاع ، فلا يعـود النقد متطلبا لذاته ، لذا كان يطلب من القراء مطالعتها ، فربما يجدون فيها ما يستحق النظر « لا بل طالعاها ، قبلتم أم لم تقبلوا ، ولماذا المداجاة ، فانا لم اكتبها للذاتي » (١٤٢) على ضـوء ما تقدم ، يسـلك نعيمة في عمله النقدي منهجا نحاول ان نرسم خطوطه فيما يلي :

« انهيت المطالعة (من « منشود ») ويسرني ان انقل اليك بغير ابطاء بعض ما تركته هذه الرواية من طيب الأثر في نفسـي فقد راقني تصويرك للأشخاص . . . مثلما راقني ما اجريته على السنتهم . . . (١٤٢) .

واذا هو منهج انطباعي تأثري ذوقي ، ينقل مباشرة عند الفراغ من قراءة النتاج ردة الفعل التي تكونت لديه . وهذا هو مادة نقده ، اولا واخيرا ، فاذا لم تتوفر لا يمكن كتابة اي نقد عنده . لم يبدأ كتابة البحث النقدي بالتعريف

---

(١٣٦) الغربال ص ١٨٦ .

(١٣٧) انظر الغربال ص ١٨٨ .

(١٣٨) هذا هو المنهج الذي اتبعه بوضوح كبير في مقالته « الغربلة » راجع الغربال ص ١٣ ـ ٢٢ .

(١٣٩) دروب ص ١٧٩ .

(١٤٠) الغربال ص ١٢٩ .

(١٤١) المرجع نفسه ص ٤٠ .

(١٤٢) المرجع نفسه ص ٤١ .

(١٤٣) نعيمة : « منشود كما يراه نعيمة ، راجع الحكمقس ١٩٥٥ ، ع ٥ ص ٥ .

بالاثر المنقود ، وذكر موضوعاته ومحتوياته ووصفه (١٤٤) . وهو يهتم كثيرا بعرض جانب الحياة الخاصة والوسط اللذين يعيشهما الشاعر او الكاتب المنقود ، بكل تفاصيلها ودقائقها ، حتى تكتمل ، في رأيه ، صورة المنقود ، في اكمل وجه ، ثم يتحدث عن ثقافته وتعلمه ذاكرا اول اطلالاته الادبية (اين ومتى) ثم ينتقل الى القسم الثاني وهو دراسة مؤلفات (او مؤلف واحد بعد ذكرها جميعا) (١٤٥) . اي بامكاننا تذوق النتاج الادبي دون معرفة صاحبه ، ولكنه لا يمكننا فهمه وتقديره حق قدره ، وبالتالي ، فان نعيمة يحاول ان يلم ، في طريقة للفهم ، بكلية الاديب في شكل مؤتلف . فما يهمه من النتاج ، اولا واخيرا ، هو اكتشاف الانسان وراء الاديب اكثر من اهتمامه بالفنان . ان الاثر الادبي وحده ، منفصلا عن صاحبه ، ومعتبرا لذاته ، ليس هو غرض نعيمة في البحث . وهكذا ينتهي الى النقد الاخلاقي الذي عرف في اوروبا منذ القرن التاسع عشر وقصاراه « ان جمال الاثر الفني يجبان لا يواجه بصورة مجردة ومستقلة عن الوسط الذي نتج فيه رينان : مستقبل العلم) . اي ليس للادب قيمة او جمال الا باعتباره شهادة للانسان . فلا قوانين مجردة ، ولا قواعد مطلقة . فلا يمكن الاعجاب بالنتاج الادبي الا على اساس معرفة صاحبه وزمانه ومكانه معرفة حقةوسليمة . وكان Villemain (١٧٩٠ — ١٨٧٠) اول مـن اراد ان يشرح العمل الادبي بسيرة الكاتب وبالعصر الذي عاش فيه (١٤٦) . ولعل نعيمة يحذو في ذلك حذو **سانت بوف** ، الناقد الرومنسي الكبير ، في منهجه الذي يتلخص بالعناية بالكاتب ودرسه قبل نقد مؤلفاته ، واعتبار شخصية المؤلف اساسا لفهم ما يكتب ولنقده « ليس الادب – اي الانتاج الادبي – منفصلا في نظري عن الانسان ، فباستطاعتي ان اتذوق مؤلفا ادبيا ، ولكن من الصعب ان احكم عليه دون معرفة للكاتب نفسه ، وذلك لانه كما تكون الشجرة يكون ثمرها ، وهكذا تقودني الدراسة الادبية الى الدراسة الانسانية قيادة طبيعية (١٤٧) .

وقد بلغ به هذا الاتجاه ان راح يتطلبه ليس في الدراسات النقدية البحتة وحسب بل حتى في كتب « المنتخبات » او ما نحت نحوها . فاسمعه يعاتب احدهم لعدم ذكر ترجمة عن حياة كل شاعر ذكر له قصيدة في كتابه « ويقول « تمنيت لو انك اوردت فذلكة عن حياة كل شاعر ترجمت منه . ففي ذلك نفع للقارىء العربي الذي لا يعرف شيئا عن اولئك الشعراء والذي يطل عليهم لاول مرة من خلال كتابك » (١٤٨) لان النقد الحق (يتكون – كما اجده – من دراسة كل شخص ، اعني كل مؤلف ، اعني كل ذي موهبة ، حسب احواله الطبيعية لكي نقيم له وصفا حيويا حافلا ، حتى يمكن ان ينزل – فيما بعد – في موضعه الصحيح عن سلم الفن » (١٤٩) .

---

(١٤٤) انظر الغربال ص ١٨٩ ومجمل رسائله النقدية .

(١٤٥) انظر رسالة نعيمة (تولستوى عملاق الروح والقلم)ورسالته لغوركي من القاع .الى القمة ايار ١٩٥٨) ومقالة (عمر فاخوري الفنان) المنشورة في الرسالة ١٩٥٦ ع ١ ص١ ، ومعظم رسائله الاخرى .

(١٤٦) راجع فان تيغم « المذاهب الادبية الكبرى في فرنسا» ص ٢٢٠ .

(١٤٧) سانت بوف : احاديث الاثنين الجديدة ج ٣ : مقال عن شاتوبريان .

(١٤٨) رسالة نعيمة الى صاحب « قصائد من الادب الاجنبي »توفيق اليازجي ، الاديب ١٩٦٣ ، ع ٨ ص ٥٧ .

(١٤٩) راجع ستانلي هايمن : النقد الادبي ومدارسه الحديثة ج ١ ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

المحتوى والشكل :

اذا انتقل الى القسم الثاني ، وهو دراسة الأثر المنقود نفسه ، فتراه يشرع في عرض مقاييسه « قلت في مقدمة الكلام ان اول ما اطلبه من الشاعر هو المدى ـ مدى الفكر والعاطفة والبيان . ومن لم اتفحص قوالب شعره الخارجية . اما الذي فليس من ينكره في شعر (نسيب عريضة) ... واما قوالبه ... » (١٥٠) . وتراه في معظم الأحيان ينهج في احكامه نهجاً فحواه « ضربة على الحافر وضربة على المسمار » ، فكلما ذكر الرديء ذكر الى جانبه الجيد في آن ، ومن قصد ، ويكفي ان نتمثل هنا ببعض ما جاء في نقده « للدرة الشرقية امثال كثيرة من... الوصف السطحي الذي لا يحرك فكرا في راس ولا يرسم صورة في مخيلة ، ولا يهيج عاطفة في قلب . غير ان فيها من الوصف الشعري ما يكاد يشفع بتلك الترهات لو لم يكن ضالتها بين ابيات جاءت حشوا ، فبان كقصمة من الزهر في حقل من العوسج » (١٥١) ولشد ما كان يزعجه الأثر السيء التأليف (بدليل ظاهرة التكلف والتفكك في القصيدة ، وانعدام الوحدة العضوية فيها ، ثم تقلب الشاعر السريع في بنائها) كل ذلك يبعث عنده شعورا بالحيرة ، فلا يعود يملك امره او يتدبر عمله النقدي ، متى تقلب الشاعر ... التقلب السريع بين مطلع القصيدة وختامها ولم يترك في النفس سوى رنة القافية المتتابعة ، حار في امره الناقد وسدت في وجهه السبل . فلا حول ولا » (١٥٢) ، لذا يتأتى لنا ان بحث نعيمة النقدي يقوم على التنظيم ودقة التصميم ، والمنهجية، وليس هو مجرد خطرات متباعدة او متناثرة ، اساسه التحري النفسي. وهو ، بعد كل ذلك ، يعتمد في منهج البحث ظاهرة « الربط » بين مجمل نتاج الشاعر فيتأتى له باخلاص وامانة وسلامة ، كيفية تطور الشاعر او الكاتب في خبراته الأدبية وتجاربه الحياتية . وهذا ما يتفق مع منزعه التأثري ، بكل تأكيد ، اذ « تقول التأثرية على « الربط » فاذا عرضت قصيدة انتقل متلقيها ... الى اشياء ترتبط بها ... وقد يأخذ الربط شكلا خاصا تسميه التشخيص، ويحكي المتلقي في وصف العمل الفني مؤثرات نفسية(١٥٣) وبيولوجية ويخضع المتلقي لسلطان الذاكرة واحكام التداعي (١٥٤) . واذا يعتمد المقابلة بين مختلف مؤلفات الأديب الواحد لينتهي الى الحكم الصحيح على النشاط الخاص به (١٥٥) . ذلك ان «المقابلة» والتحليل هما في راي **اليوت** ، عدتا الناقد الاساسيتان ، ويقومان على تشريح المنقود وتفسيره تفسيرا مستمدا دائما من عند الناقد يكمل به نواقص الأثر فيسد بعض الخلل الواضح فيه . الا ان اعتماد المقابلة هذه سبيلا في النقد لا يعني ، عند نعيمة ، الانتماء الى تحديد مراتب الكتاب وطبقاتهم ، فاذا كان للناقدين ولع بتحديد مراتب الكتاب والشعراء والمقابلة بين واحدهم والآخر وتفضيل هذا على ذاك او ذاك على ذلك ـ وقد يكون في مقابلاتهم وتفاضيلهم نفع لهم او لقارئيهم « اما انا فان عثرت على كاتب له قلب يخبر وعقل يفكر وقلم يسطر شكرت ربي الف مرة ومرة . وتركت

(١٥٠) راجع الغربال ص ١٤٢ .

(١٥١) المرجع نفسه ، ص ١٤٩ .

(١٥٢) المرجع نفسه ، ص ١٥٤ .

(١٥٣) راجع مقالة « الارواح الحائرة » في الغربال ص ١٣٤ .

(١٥٤) مصطفى ناصف : دراسة الادب العربي ص ٣٦ .

(١٥٥) الغربال ص ١٦٤ .

للقارىء المقارنة بينه وبين سواه ومحاسبته بالخطأ والصواب والحلال والحرام والنفع والضرر . فتقديرك الكاتب منوط بما تقرأ من نفسك وعنها في سطوره وبين سطوره لا بما يقرؤه سواك (١٥٦) . ولكنه في رفضه لظاهرة تحديد المراتب وتقسيم الشعراء الى طبقات الا يتعارض مع ما قال به في موضع آخر من هذا البحث حين صرح بوضوح بأن الكتاب طبقات وكمثلهم النقاد ، وما يصح أن يقال في الواحد منهم لا يصح ان يقال في كلهم « كما ان الشعراء والكتاب طبقات » (١٥٧) .

ومن جانب آخر ، كان احيانا ، بنتيجة هذه المقابلة او المقارنة ، يجد نفسه على غرار النقاد القدامى في موقف يطلق فيه « الاحكام المطلقة » عن الاندفاع الشعوري المتحمس . فبعد ان يسود فقرة من مقول المنقود يردف بسرعة حكمه التالي وكأنه ضرورة حتمية في السياق النقدي عنده : « فهل قرأت ارق وادق وابدع من هذا الوصف (١٥٨) . او يكثر في حديث آخر من « صيغ » التفضيل كمثل « ما اظن فنانا من ابرع الفنانين كان يستطيع ان يرسم .. صورة اوقع في النفس ... و « ابلغ من تهكمه ... و « الغاية في الابداع .. » في مقال يمتد الى صفحتين تشغل الاستشهادات قسما كبيرا منهما (١٥٩) . او تراه في موضع آخر يطلق لنفسه العنان ليحكم في بيت واحد من الشعر على انه « اجمل بيت وصفي في ديوان الشاعر على وجه الاطلاق ... (١٦٠) . (كل هذا يصدر عن منهج تأثري ذوقي) وهذه هي عادة القدماء في النقد كما هو معروف ، ذلك ان الناقد كان يحكم بأن هذا البيت من الشعر او ذاك هو خير بيت قيل في هذا المعنى او ذاك او ان هذا الشاعر هو احسن شاعر في هذا الغرض او غيره) . ولعل تفسير هذا عندنا يعود الى اعتبار نعيمة أن العمل النقدي استنفاذ لقوى الناقد « هذا حد مداركنا وغاية ما بلغته قوة التمييز فينا (١٦١) فيصدر الاحكام داعمها بكل تأييده .

التهكم والسخرية :

من سمات منهجه في النقد ، ايضا ، روح التهكم والسخرية اللاذعين . وكثيرا ما استعالهما في مجمل ابحاثه النقدية النظرية والعملية . فكأني به ، قد تحول بظاهرة التهديد والتجريح والانتقام من شخصية المنقود الى ظاهرة تهكم موضوعي على النظرة والعقلية في فهم الادب وتقديره . وهذا وجه ارقى . واكثر مواضع هذه الظاهرة بروزا عنده في مقالته «الحباحب» (الغربال ص ٣٧) والدرة الشوقية (الغربال ص ١٤٦) وابتسامات ودموع (الغربال ص ١٨٣) ومستهل «اغاني الصبا» (الغربال ص ١٨٩) ، واماكن اخرى . ولكم كان موفقا في سلك هذا المسلك ، فتأتي سخريته تدمر حيث تبدو وكأنها تتحاشى ان تمس مسا . فهو هنا لايقل جودة وفنا عنه في رصانته واتزانه . فيصقل تأليفه لتشف منه خواطره الحية . واراني مضطرا لنقل هذه الاسطر لتبيان هذا الملمح عنده ، فيقول في « الدرة الشوقية » (قصيدة

(١٥٦) الغربال ص ٢٤٥ .

(١٥٧) الغربال ص ١٧ .

(١٥٨) نعيمة ـ عمر فاخوري اديب وانسان ، راجع الطريق.١٩٥٠ ع ٤ و ٥ ص ٨ .

(١٥٩) راجع مقالة نعيمة : عمر فاخوري الفنان ، الرسالة١٩٥٦ ع ١ ص ١ .

(١٦٠) انظر مقالة نعيمة « القرويات » في الغربال ص ١٦٠ .

(١٦١) الغربال ص ١٢٧ .

لاحمد شوقي كان قد نشرها في الهلال) مرتفعا بالهزء في تصاعد مستمر مبطن « لقد سمعت » بدرر » شعرية كثيرة ولما اعملت فيها طرف المبرد وجدتها صدفا لماعا ... ولولا ما للهلال عندي من الاعتبار والثقة بحسن ذوق صاحبه الفني والادبي لما اقبلت على مطالعة « الدرة الشوقية » . لكن للهلال في عيني منزلة خاصة به بين سائر المجلات والجرائد العربية : فقد تعودت منذ ايامي المدرسية ان اصدق مايقوله الهلال وان اعتبر من يعتبره ، واحتقر من يحتقره ، لذلك عندما رايته يقدم لي درة قلت لاشك في انها درة ... ووقفت قليلا لاتاكد مما اذا كنت اطالع قصيدة جاهلية أم عصرية ... (١٦٢) . غير ان نعيمة لم يجر على ذلك في جميع منتوجه النقدي ، فهو في كتابه « جبران خليل جبران » انصرف الى النقد البانى ، يحلل ويدقق في اصول فنية متكاملة ، مما دفع خليل هنداوى الى التعليق على ذلك بان قال « لصاحب الغربال روح كانت تظهر بتهكم لاذع ، تسلك به السبيل الذي تريد ، ولكن هذا التهكم لاتجد له اثرا في هذا الكتاب (كتاب جبران) وانما هو النقد الجاد الصارم، الذي يمتزج بالحياة الجادة ، فهو يبح ويبكت، ولا يتهكم ، واذا تهكم فلا يبتسم (١٦٣) .

ان عملية الهدم ، عند نعيمة ، وعملية البناء وحدة متكاملة تتجسد في عملية الخلق ، التي لاتكون الا مع الانسان ، الذي هو اعظم من الزمان والمكان (١٦٤) . انها الروح الخالدة التي تمتد وراء الحدود والاصطلاحات . اى ان الادب والنقد استثمار للاشياء ومصالحتها ، وبالتالي ابتعاد عن التسليم وانصراف الى التامل ـ من هنا لم يعتمد نعيمة ، المنظور اللغوى ، لينتهى الى الذوق الادبي (١٦٥) ، بل اتخذ ، في نقده ، منهجا روحيا يبدأ بالنظر الفكري والروحي الى الاشياء والكائنات (الاثار الادبية) لينتهي الى الذوق الادبي ، فالنظر اللغوى . ذلك لان النقد ينفر من الهياكل الجاهزة والقواعد المحددة . انه تفتق شعوري وفني .

* * *

---

(١٦٢) الغربال ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

(١٦٣) خليل هنداوى : التصوير والنقد والفن عندميخاليل نعيمة في كتاب جبران خليل جبران ، صوت الاحرار ، ٥ كانون الثانى ١٩٣٦ ص ٦ .

(١٦٤) راجع نعيمة في فصل « خراب ماهول » من كتابهوامش (بيروت دار صادر ١٩٦٥) .

(١٦٥) هذا هو النهج الفهمي في النقد وقد اتبعه فيما بعدمحمد مندور : راجع كتابه « في الميزان الجديد » ص ٦٩ .



عرض وتحليل ونقد لكتاب :

قوة الفدائيين العرب ١٩٦٧ـ ١٩٧٢

عرض وتحليل : الدكتور أسعد عبد الرحمن

تمثل هذه الدراسة التي وضعها الميجر « ادجار اوبالانس » بعنوان « قوة الفدائيين العرب : ١٩٦٧ – ١٩٧٢ » . حلقة في سلسلة تقع في خمسة عشر كتابا نشرها المؤلف في ربع القرن الأخير . وتختص هذه المؤلفات بمعالجة مواضيع عسكرية الطابع ؛ تشمل ابحاثا محددة من جيوش معينة او عن حروب اقليمية او اهلية، تغطي شريطا عريضا من البلدان المختلفة على امتداد رقعة واسعة من الكرة الارضية . فقد كتب « اوبالانس » عن « الحرب الهندية الصينية : ١٩٤٥ – ١٩٥٤ » وعن « كوريا : ١٩٥٠ – ١٩٥٣ » وعن الملايو : حرب العصيان الشيوعي بين ١٩٤٨ – ١٩٦٠ » وعن « الجيش الاحمر الروسي » و« الجيش الاحمر الصيني » كلا على حدة ، وعن « الحرب الاهلية اليونانية : ١٩٤٢ – ١٩٤٩ » وعن « حرب العصابات » بشكل عام . وعن « حكاية الفرق الاجنبية الافرنسية » بالاضافة الى سبعة كتب (آخرها هذه الدراسة) عن حركات مسلحة وثورات وحروب وقعت في الوطن العربي ، سواء في شمال العراق او الجزائر او فلسطين او اليمن ، زيادة على كتبه الخاصة بالحروب العربية ـ الاسرائيلية الثلاث الاولى .

وتمتاز دراسة « اوبالانس » :

اولا : بتسلسل منطقي وزمني وتقسيم جغرافي يجعل محتوياتها تنساب الى ذهن القارىء عبر احد عشر فصلا دونما اي تشويش . وستظهر معالم هذا التسلسل وذاك التنسيق عندما تعرض للمادة المتضمنة في الدراسة . وفي هذا المجال ، سيشكل استعراضنا لمحتويات الكتاب الجانب الرئيسي **الاول** في هذه المراجعة .

ثانيا : تتمتع الدراسة بمادة ومعلومات غزيرة تشهد على اطلاع المؤلف واتصالاته وعلى

المامه ، وبالتالى ، وفى كثير من الاحيان ، بادق التفاصيل . على ان ذلك لا يعنى ان الدراسة خالية من الاخطاء الفادحة احيانا ، على مستوى المعلومات . وسيشكل تعدادنا لابرز هذه الاخطاء الجانب الرئيسى **الثانى** فى هذه المراجعة .

ثالثا : « تفاخر » الدراسة بانها نجحت فى معالجة الموضوع بقدر من الموضوعية يجعلها اقل تحيزا من غيرها لصالح وجهة النظر الاسرائيلية ـ الصهيونية ـ الغربية المناهضة لوجهة النظر العربية . وستشكل اشارتنا الى بعض اوضح المغالطات حول هذه المسالة الجانب الرئيسى **الثالث** فى هذه المراجعة .

الجانب الاول : المحتويات

يخصص المؤلف **الفصل الاول** ، « **عبادة الفدائيين** » The Cult of Fedayeen لاستعراض جذور النشاطات الفدائية الفلسطينية من نقطة زمنية تبدا مع اسدال الستار على احداث الحرب العربية ـ الاسرائيلية الاولى فى العام ١٩٤٨ . فيشير « اوبالانس » الى ان غارات العرب بشكل عام ، والفلسطينيين بشكل خاص ، كانت فى مطلع الخمسينات ، غارات فردية لم تحركها دوما الاعتبارات الوطنية (ص ١٦) ، وبقى الحال كذلك الى ان بدات الجبهة المصرية ـ الاسرائيلية بالالتهاب فى العام ١٩٥٤/١٩٥٥ مما ادى الى هجمات فدائية منظمة ومنسقة ومدعومة من النظام المصرى الجديد . وقد تبلور رد الفعل الاسرائيلى فى غارات انتقامية كبيرة وقع العديد من العسكريين والمدنيين المصريين والفلسطينيين ضحية لها (ص ١٩) . وبقى الحال على ما هو عليه على الجبهة المصرية حتى ازداد تصاعدها فشمل الجبهة الاردنية وادى بالتالى ، الى حرب السويس (الحرب العربية ـ الاسرائيلية الثانية) فى العام ١٩٥٦ . ومع انتهاء تلك الحرب خيم على تلك الحدود هدوء نسبى (٢٠ ـ ٢١) . الا ان هذا التوقف فى الهجمات والغارات لم يمنع فكرة العمل الفدائى من التفاعل فى العقل الفلسطينى . ومع نهاية الخمسينات ومطلع الستينات بدات الفكرة بالخروج الى حيز العمل فبرزت عدة تنظيمات فلسطينية تدعو جميعها الى اعتماد الكفاح المسلح اسلوبا اساسيا من اجل تحرير فلسطين . وبالرغم من انشاء « منظمة التحرير الفلسطينية » فى العام ١٩٦٤ ، فان الانظار اتجهت الى « حركة التحرير الوطنى الفلسطينى ـ فتح » اثر مباشرتها النضال المسلح فى مطلع العام ١٩٦٥ (٢٣ ـ ٢٦) . وهنا يتابع المؤلف حديثه محاولا تاريخ حركة فتح مستعرضا ، دونما توفيق كبير ، جذورها وردود الفعل الاسرائيلية والعربية ازاء اعمالها ، مشيرا الى ازدياد شعبية عملها فى الاشهر التى سبقت حرب حزيران ـ يونيو ١٩٦٧ (٢٩ ـ ٣٤) .

فى الفصل الثانى « السمكة والبحر » ، يوضح « اوبالانس » الترابط ما بين موقف الرفض العربى كما تجلى فى لاءات مؤتمر الخرطوم الشهيرة وبدء موجة العمل الفدائى (٣٦) . وبعد ان يستعرض المؤلف سقوط قيادة منظمة التحرير الفلسطينية وصعود فتح عبر المقاومة وعبر تجميع السلاح من سيناء (٣٨) وتشكيل خلايا سرية داخل المناطق المحتلة (٣٩) و (٤٢) ، « يقرر » فشل العمل الفدائى فى تطبيق منطق السمكة (الفدائيون) والبحر (الجماهير الفلسطينية داخل الاراضى المحتلة) مما دفع المنظمات الى اقامة قواعدها شبه الثابتة على الحدود وبدء حرب استنزاف ضد اسرائيل (٤٢ ـ ٤٣) . وقد تمثلت قمة الغارات الاسرائيلية الانتقامية فى « معركة الكرامة » التى منيت بها الغطرسة الاسرائيلية بضربة موجعة ، فى حين شكلت تلك المعركة بداية الزخم الفلسطيني الجديد فى العمل الفدائى الفلسطينى

(٤٦ – ٤٧) ليس في مواجهة اسرائيل فحسب بل وفي مواجهة السلطات الاردنية ايضا (٤٨) .

٦

يركز المؤلف في الفصل الثالث « توسع الفدائيين » ، على معالجة ما يمكن تسميته بالمراحل الاولى من العمل الفدائي العلني » (٥١) ، شارحا التزايد المستمر في اعداد رجال المقاومة وكيف مكنهم ذلك الوضع من فرض وجودهم العلني وتحسين أحوالهم المالية (٤٩) . كما يستعرض « اوبالانس » نشأة المنظمات الفدائية الاخرى (٥٠) (٥٢ – ٥٣) ، محاولا – بدون نجاح كبير – شرح موقف الاتحاد السوفياتي من العمل الفدائي في تلك الفترة (٥٦ – ٥٧) ومثبتا ازدياد مكانة المنظمات في الاوساط الشعبية والرسمية العربية وسيطرة حركة فتح وباقي المنظمات على منظمة التحرير (٥٤ – ٥٥) . كما واستعرض المؤلف الازمة الرئيسية الاولى بين منظمات المقاومة والسلطات الاردنية في شهر تشرين الثاني – نوفمبر ١٩٦٨ (٦٢ – ٦٥) ، وينتهي هذا الفصل مع سرده لبداية العمليات الخارجية التي ابتكرتها « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » وما تلا ذلك من ردود فعل اسرائيلية كان ابرزها الهجوم الاسرائيلي الشهير على مطار بيروت (٦٨ – ٦٩) .

أما الفصل الرابع « تعاظم الفدائيين » فانه يتضمن تثبيتنا لحقيقة كون العمل الفدائي قد وصل ذروته في العام ١٩٦٩ ، وذلك بسيطرته الكاملة على منظمة التحرير (٧٠ – ٧١) وتحقيق بدايات في الوحدة الوطنية الفلسطينية (٧٥) على الرغم من معاناة أحد اكبر التنظيمات الفدائية (الجبهة الشعبية) من سلسلة انشقاقات من جهة (٧١ – ٧٢) ، وعلى الرغم من عدم تبلور موقف ايجابي – حسب اعتقاد المؤلف – من قبل الاتحاد السوفييتي من جهة ثانية (٧٦ – ٧٧) . وقد شهد ذلك العام تطورا نوعيا في عمل حركة المقاومة ، اذ تمكنت « فتح » من رفع العلم الفلسطيني في بلدة « الحمة » بعد تحريرها لمدة بضع ساعات (٧٧) . كما يشير المؤلف الى تضارب مصالح ونشاطات بعض فصائل المقاومة (الجبهة الشعبية بالذات) مع مصالح بعض الدول العربية ، خاصة بعد أن نسفت الجبهة جزءا من خط أنابيب التابلاين (٧٨ – ٧٩) . هذا وقد حرص « اوبالانس » على رصد ردود الفعل الاسرائيلية (غارات خارج المناطق المحتلة واللجوء الى اعنف الوسائل داخل تلك المناطق) ازاء الهجمات الفدائية . كما يتحدث « اوبالانس » عن ردود الفعل على حرق المسجد الاقصى في ١٩٦٩/٨/٢١ (٨٢ – ٨٣) وعن ازدياد حدة التناقض بين الفدائيين والسلطات الاردنية (٨٤ – ٨٥) . واخيرا لا يفوت المؤلف الاشارة الى التوترات بين الاطراف المشاركة في « الجبهة الشرقية » والى التعارضات بين فصائل المقاومة وبخاصة « حرب الدعاية » التي اندلعت فيما بينها (٨٦ – ٨٩) .

ينتقل المؤلف بعد ذلك الى لبنان فيشرح في **الفصل الخامس « ارض فتح »** العوامل التي ادت الى بدء تركز العمل الفدائي في بعض مناطق جنوبي الجمهورية اللبنانية (٩١ – ٩٤) ويربط « اوبالانس » بين هذا التطور والازمات التي حكمت العلاقات الفلسطينية – اللبنانية (٩٤ – ٩٦) والتي أدت الى « تحرير » المخيمات من السلطات اللبنانية والى سلسلة من الاقتتالات (٩٨ – ٩٩) كان أبرزها صدامات تشرين الاول – اكتوبر ١٩٦٩ . تلك الصدامات التي انتهت – عبر الوساطة المصرية – الى عقد اتفاقية عرفت باسم « اتفاقية القاهرة » (٩٩ – ١٠٢) . كما ويستعرض المؤلف التوترات والصدامات التي وقعت بين الفدائيين وبعض الفئات اللبنانية مثل حادثة الكحالة (١٠٩) ويتضمن العرض وصفا لما اشتهر فيما بعد باسم معركة العرقوب (١١٠ – ١١١) التي واجه فيها الفدائيون الفلسطينيون القوات الصهيونية ، وما تلا ذلك من التهاب في الجبهة السورية – الاسرائيلية (١١٤ – ١١٥) .

وفى الفصول الثلاثة التالية يعود المؤلف بالقارىء الى الساحة الاردنية ، فيشرح عبر تتابع زمنى الاحداث التى شكلت « **مدخلا الى الحرب الاهلية** » (**الفصل السادس**) **مركزا** فى الفصل الذى يلى (السابع) على وقائع « الحرب الاهلية فى الاردن » ومنتهيا (فى الفصل الثامن) الى « هزيمة الفدائيين فى الاردن » .

وتتضمن صفحات الفصل السادس عرضا وافيا بسلسلة العمليات التى قامت بها « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » فى أكثر من مكان خارج الشرق الاوسط ، والتى تضمنت بالاساس ، خطفا لطائرات متنوعة الجنسيات ، وهجوما على اكثر من مطار فى أوروبا ، ونسفا لعدد من الطائرات (١١٧ ـ ١٢١) . وفى تلك الاثناء كانت العلاقات الاردنية الفلسطينية تزداد تشنجا واقترابا من درجة الصدام الحاسم ، الا ان الملك حسين عرف ـ اكثر من مرة ـ كيف يحنى رأسه للرياح الفدائية الشديدة فحافظ على « شعرة معاوية بينه وبين الفدائيين وكان ذلك كله مدعاة لاستياء القبائل البدوية ومعظم قطاعات الجيش (١٢١ ـ ١٢٢) و١٢٧ ـ ١٢٩) . وفى هذه الاثناء ، قام عرفات بعدة زيارات شملت الاتحاد السوفياتى والصين وفيتنام (١٢٣ ـ ١٢٤) فى حين كانت الهجمات على اسرائيل متصلة وكذلك الغارات الانتقامية الاسرائيلية (١٢٥ ـ ١٢٦) . وقد ازداد التوتر بين أطراف الصدام الثلاثى الجوانب (الفدائيون ـ اسرائيل ـ الاردن) بعد اعلان وليم روجرز ، وزير الخارجية الاميركية ، عن مبادرته للسلام والتى وافق عليها عدد من الرؤساء العرب كان فى طليعتهم الرئيس جمال عبدالناصر والملك حسين (١٣١ ـ ١٣٣) . وكانت الحصيلة ان ساءت علاقات الثورة الفلسطينية ليس بالاردن فحسب ، بل ومع الجمهورية المتحدة ايضا ، وبدا كل من الفدائيين والملك حسين يعد نفسه لمواجهة بات وقوعها امرا متوقعا ووشيكا (١٣٥ ـ ١٣٦) .

وفى الفصل السابع يستعرض المؤلف التصاعد المتسارع في التوتر بين السلطات الاردنية والفلسطينية وصولا الى انفجار « الحرب الاهلية فى ايلول ـ سبتمبر من العام ١٩٧٠) . وقد بدا هذا التسارع مع خطاب الملك حسين الذى اعلن فيه موافقته على بادرة روجرز (١٣٧) . وفى تلك الاثناء ، قامت « الجبهةالشعبية» بتنفيذ سلسلة منالعمليات التى استهدفت خطف طائرات عدد من البلدان المعادية واجبرتها على الهبوط فيما عرف باسم «مطار الثورة» (مطار داوسون المهجور) باستثناء طائرة الجمبو التابعة للبان اميركان والتى نسفها فدائيو « الجبهة » على ارض مطار القاهرة (١٣٨ ـ ١٤٠) . هذا فى الوقت الذى بدات فيه الاشتباكات المحدودة بين الفدائيين والسلطات الاردنية تزداد قوة وانتشارا حتى شملت معظم مدن المملكة وحتى بلغت قمتها باندلاع الحرب الاهلية يوم ١٧ ايلول ـ سبتمبر ١٩٧٠ (١٤٣ ـ ١٤٥) . وقد خصص « أوبالانس » الصفحات التالية (١٤٥ ـ ١٦٠) لشرح ادق « التفاصيل من معارك ايلول بما فى ذلك الدعم السورى للفدائيين ، وتمحور الوضع الدولى بين مؤيد لهذا الفريق ومؤيد لذاك (١٥٠ ـ ١٥٣) . وبقى الحال كذلك على الرغم من انعقاد المؤتمر الطارىء للرؤساء والملوك العرب ، والذى مثل الاردن فيه البريجادير محمد داوود، الذى عين فى وقت سابق رئيسا للحكومة العسكرية التى انيطت بها مهمة القضاء على الفدائيين (١٥٣). وفى مرحلة لاحقة ، واثر ايفاد مؤتمر القمة الرئيس السودانى (جعفر النميري) الى عمان نجح المؤتمرون فى اعلان « اتفاق القاهرة »بين عرفات والملك حسين الذين كانا قد وصلا الى العاصمة المصرية اثناء احتدام المعارك فى الاردن (١٥٤ ـ ١٥٥) هذا وقد اعقب ذلك اتفاقية

اخرى عرفت باسم « اتفاقية عمان » ينسحب الفدائيون بموجبها خارج المدن ليتمركزوا عند الحدود مع اسرائيل (١٥٩) . وما كاد الاقتتال يتوقف حتى قام الملك حسين بتعيين وصفي التل (١٩٧٠/١٠/٢٨) رئيسا للوزراء (١٦٠) .

اما الفصل الثامن « هزيمة الفدائيين في الاردن » فيستعرض شريط الاحداث التي ادت الى اخراج الفدائيين من المدن وتسليم اسلحة الميليشيا في المخيمات ، بالاضافة الى محاصرة الفدائيين المتمركزين في احراش جرش وعجلون الى خارج الاراضي الاردنية وكل ذلك تحت سمع وامام ابصار لجنة المراقبة العربية (١٦١ ــ ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦) . ويعتقد المؤلف ان ما كشفته « هزيمة » الفدائيين في الاردن يتلخص في افتقادهم للاستراتيجية الواضحة ، وفقدان الوحدة ، وتعدد وجهات النظر ، وعجز القيادة ، (١٦٢) . ومع ذلك يشير الكاتب الى نجاح المنظمات الفدائية في تقليص عددها من احد عشر تنظيما الى اربعة او خمسة تنظيمات ، وذلك عبر سلسلة اندماجات في حركة فتح (١٦٣) ، الا ان موجات النقد والنقد الذاتي ملأت الساحة الفلسطينية واستمرت « الجبهة الشعبية » في موقفها المتصلب الرافض تسليم اسلحة الميليشيا واي صيغة للتعاون مع نظام الملك حسين (١٦٩) . ومع بدء الربيع بات واضحا ان الصدام واقع لا محال ، وان اسرائيل ــ عبر ما اعلنه مسؤولوها ــ ستكون جاهزة ومستعدة للتدخل اذا ما بادر اي طرف (المقصود سورية والعراق اساسا) لمساعدة الفدائيين (١٧٥) . هذا وقد تعاظم القتال في شهري ايار ــ مايو وحزيران ــ يونيو وبلغ قمته في تموز ــ يوليو حيث دارت معارك عنيفة في جرش وعجلون ، خسر الفدائيون نتيجتها وجودهم على الاراضي الاردنية في حين استشهد ابو علي اياد ، احد ابرز قادة فتح (١٧٩ ــ ١٨٣) واثناء انعقاد مؤتمر الدفاع العربي المشترك في مقر جامعة الدول العربية في القاهرة قام بعض انصار ابو علي اياد باغتيال وصفي التل الذي كان يمثل الاردن في ذلك المؤتمر بوصفه رئيسا للوزراء ووزيرا للدفاع ، وقد اعلن الفدائيون انتماءهم الى منظمة جديدة حملت اسم « ايلول الاسود » (١٨٥ ــ ١٨٦) . اثناء ذلك ، كان الوجود الفدائي في لبنان يتعزز يوميا بمن يفد اليه من الساحة الاردنية (١٨٩) في حين كانت اسرائيل توجه ضربات قاسية لبعض الخلايا الفدائية في المناطق المحتلة . وعندئذ لم يكن قد بقي في الساحة الفلسطينية اية نقطة ضوء متوهجة سوى غزة (١٩٠) .

والفصل التاسع برمته مخصص للحديث عن **صمود وتمايز غزة** ، ذلك الصمود الذي منع اسرائيل من تحقيق مخططاتها بالنسبة للقطاع ، وذلك التمايز الذي جعل غزة مختلفة عن باقي المناطق من زاوية حدة مقاومتها للاحتلال الاسرائيلي . ويذكر « اوبالانس » ان البداية في النضال الحقيقي جاءت مع نجاح كل من فتح والجبهة الشعبية في الوصول الى غزة والانتشار فيها بدءا من العام ١٩٦٩ (١٩١) . وقد ترافق العمل العسكري مع انتفاضات طلابية ونسوية (١٩٣) على الرغم من لجوء اسرائيل الى اعنف الوسائل (المطاردة والقتل ، نسف المنازل ، حظر التجول ..) استمرت العمليات الفدائية ليس ضد قوات الاحتلال فحسب ، بل وضد كل الافراد الذين تعاونوا مع اسرائيل . وعندما لم تؤثر مجازر ايلول ــ سبتمبر على تصاعد العمليات في القطاع ، قرر موشيه دايان ، وزير الحرب الاسرائيلي آنذاك ، القيام بتنفيذ

حملة واسعة للقضاء على « الارهاب » وذلك مع مطلع العام ١٩٧٠ (١٩٤ ـ ١٩٥) . وقد تضمنت الحملة الاسرائيلية ترحيل النازحين من مخيماتهم الى أماكن اخرى لتقليل كثافة السكان والتقليل من امكانية اختفاء الفدائيين بينهم (١٩٨ ـ ١٩٩) . ثم يتحدث المؤلف بنوع من التفصيل عن العلاقات بين قوات الاحتلال من جهة ورؤساء البلدية العرب من جهة ثانية (١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣) .

ويختار المؤلف **للفصل العاشر** عنوانا له مغزاه الكبير : **« الجمر يخبو »** وكأنه يقول ان العمل الفدائي أصبح يعاني حشرجات الموت ! فالفدائيون طوردوا الى خارج الاراضي الاردنية ، وقيدوا في سورية ، وهم في طريقهم لان يحاصروا في لبنان . هذا الوضع الصعب جعلهم يلجأون الى طرق وأساليب جديدة : مزيد من خطف الطائرات (٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩) مزيد من « قتل الرهائن والاغتيال » (٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢١٩) ، وبدء لحملة الرسائل الملغومة المتبادلة (٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥) ، ثم يتحدث المؤلف بنوع من التفصيل عن الهجوم الاسرائيلي الكبير الذي تعرضت له الاراضي اللبنانية ، طوال اربعة أيام في شباط ـ فبراير ١٩٧٢ م ذلك الهجوم الذي اختتم بدخول الجيش اللبناني الى المناطق التي كانت القوات الاسرائيلية قد احتلتها ، والتي كان الفدائيون قد انسحبوا منها أثناء المعركة (٢٠٦ ، ٢٠٧) .

ويخصص « اوبالانس » الصفحات التالية للحديث عن العلاقات اللبنانية ـ الفلسطينية ، وعن الازمات التي مرت بها تلك العلاقات ، والاتفاق الذي « جمد » الفدائيون بموجبه نشاطاتهم عبر الحدود اللبنانية بشكل مؤقت (٢٠٩ ـ ٢١٢ ، ٢٢١ ـ ٢٢٢) .

واخيرا يلخص المؤلف في الفصل الحادي عشر (عودة الى الوراء ونظرة الى المستقبل « الافكار الرئيسية الواردة في الدراسة مستنتجا أن العمل الفدائي « فشل في « تحقيق » هدفه فشلا كليا » (٢٢٩) اذ ان اسرائيل لا تزال تسيطر على جميع المناطق التي احتلتها في العام ـ ١٩٦٧ ، ويعزو « أوبالانس » ذلك « الفشل » الى : عدم فهم الفدائيين العرب لأصول الحرب الثورية ، تعدد فصائل المقاومة وتعارضها ، وعدم ظهور زعامة وقيادة حقيقية قادرة ، وعدم قدرتهم « على فهم حقيقة مؤداها ان ليس من دولة » والحال ينطبق على الدول العربية ـ يمكن ان تسمح بوجود « دولة » اخرى « غير مسؤولة » ضمن حدودها (٢٢٩ ـ ٢٣٢) .

الجانب الثاني : ابرز الاخطاء

تعاني الدراسة ، على الرغم من سعة اطلاع الكاتب ، من التشويش في المعلومات ، ومن اخطاء عديدة تتضمنها صفحات الكتاب . ومن الامثلة على هذا التشويش وتلك الاخطاء ما ورد في (صفحة ١٧) من أن الملك عبد الله ابن الحسين قد اغتيل في العام ١٩٤٩ مع ان اغتياله كان يوم ٢٠ تموز ـ يوليو ١٩٥١ ، كذلك قوله بان حركة فتح تأسست في المانيا الغربية معددا اسماء ياسر عرفات وهاني الحسن وخليل الوزير على انهم كانوا الطلبة الذين اسسوها (٢٦) !!! وفداحة الخطأ في المعلومات هنا لا تحتاج الى أكثر من مجرد الاشارة ، اذ ان منشأ فتح واسماء مؤسسيها لم يعودوا خافين على ذوي المستوى العادي من الاطلاع . ثم ان « اوبالانس » يخلط بين « فرقة عبد القادر » وهي احدى الوحدات التابعة « لجبهة التحرير الفلسطينية » وبين كونها تنظيما قائما بحد ذاته (٣٢) .

ومن الامثلة الاخرى على الاخطاء المتفشية في الكتاب قول المؤلف في « ص ٥٣ » بان حزب البعث في العراق قد قام باعتقال الدكتور جورج حبش في العام ١٩٦٦ و « معلومات » كهذه لا أساس لها من الصحة ، اذ لم يعتقل الدكتور حبش في العراق لا في العام ١٩٦٦ ولا في اى عام آخر . ولا يضاهي هذا الخطا في المعلومات سوى قول المؤلف بان « الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين » تبنت الدعوة الى اقامة « دولة مزدوجة القومية في فلسطين (٧١) ، وقوله بان احمد جبريل الامين العام « للجبهة الشعبية ــ القيادة العامة » هو رئيس « جبهة النضال الشعبي الفلسطيني » (٧٢) ثم يقع المؤلف في تناقض فادح عندما يقول ان علاقات « الجبهة الشعبية » كانت علاقات خاصة وجيدة مع الحكومة السورية (٧٦) واغلب الظن انه يخلط هنا ما بين « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » وبين « الجبهة الشعبية ــ القيادة العامة » . ولعل اوسع الفجوات في معلومات المؤلف هي تلك التي جعلته يقول بان « الجبهة الشعبية » اتصلت بشكل مباشر بالملك فيصل ، عاهل السعودية، طالبة منه دعمها ماليا (٧٨ ، ٧٩) وغنى عن الذكر أن علاقات « الشعبية » مع المملكة السعودية كانت دوما علاقات قطيعة كاملة . هذا وتتكرر الشواهد على تشوش « أوبالانس» وعدم تمييزه بين « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » التى يتزعمها الدكتور جورج حبش وبين « الجبهة الشعبية ــ القيادة العامة » التى يرئسها أحمد جبريل في الصفحة(١١٨).

ولا تتوقف الاخطاء عند هذا الحد . ففي الصفحة (١٥١) يشير المؤلف الى اعتقال السلطات الاردنية لثلاثة من زعماء الفدائيين اثناء مجازر ايلول ــ سبتمبر ١٩٧٠ مشيرا الى ان أحدهم ينتمى الى فتح في حين ينتمى الاخران الى « الجبهة الشعبية » . مع العلم أن القياديين المشار اليهم هم صلاح خلف (ابو اياد) وهو احد زعماء فتح ، وابراهيم بكر وهو قائد فلسطين مستقل ، وفاروق قدومى وهو قائد في فتح . وفي الصفحة (٢٠٨) يقدم « أوبالانس » اكثر من دليل على نقص معلوماته عن « الجبهة الشعبية » وجذورها . فهو يقول ، مثلا ، ان الدكتور حبش قد طرد من « حركة القوميين العرب » في العام ١٩٧٠ ، مع أن الحركة كانت قد اضمحلت قبل ذلك . أم تراه « يقصد حزب العمل العربي الاشتراكي » الذى شكل نوعا من الامتداد التنظيمي للحركة ؟ كما انه يقول أن الجبهة « تخلت » عن عمليات خطف الطائرات في العام ١٩٧٠ مع انها « جمدت » تلك العمليات ولم تتخل نهائيا عنها . ومن افدح الاخطاء في هذا المجال اعتباره الدكتور وديع حداد « قائدا في قطاع غزة » مع ان عمل الدكتور حداد ــ كما اثبتت العمليات الارهابية الاسرائيلية التى استهدفت حياته بالصواريخ الموجهة في بيروت منذ العام ١٩٦٩ ــ لم يكن في غزة فحسب ، بل وليس له اية علاقة نضالية مباشرة بغزة . والشيء ذاته ينطبق على « الهام » المؤلف للدكتور انيس صايغ ، وهوشخصية فلسطينية مستقلة ويعمل مديرا لمركز الابحاث في بيروت ، بالانتماء الى الجبهة الشعبية . ثم يعود أوبالانس فيقول بأن وديع حداد ، الذى سبق وان صنفه « كقائد في غزة» (٢٠٨) هو نائب زعيم « الجبهة الشعبية » وانه التجأ « طلبا للامان » الى أوروبا الشرقية (٢١٣) !!!! كما انه في مكان آخر (٢١٨) يقف ، بدون داع ، محتارا ازاء الجبهة التى قادت الهجوم الانتحارى اليابانى على مطار اللد . هذا مع العلم أن « الجبهة

الشعبية » والجيش الاحمر اليابانى » أعلنا اكثر من مرة مسؤوليتهما المشتركة عن تلك العملية .

الجانب الثالث : ابرز المغالطات

على الرغم من ان كاتبا عربيا واحدا على الاقل يعتبر « ادجار أوبالانس » من أشهر المؤرخين المعاصرين المعروفين بالدقة والامانة ورجاحة الراى العسكرى » (١) فاننا نبدى تحفظنا الشديد على تقييم كهذا . وقول الاستاذ كيالى فى ختام مراجعته للكتاب ، «ان بعض الملاحظات والآراء الشخصية للمؤلف وان كانت قليلة ، قد تضلل القارىء لاسيما الغربى ، ففيها احكام جائرة وغير صحيحة » (٢) ان هذا القول فى رأينا هو اضعف ما يمكن ان يوصف به تحيز « اوبالانس » . وليس معنى قولنا هذا ، ان المؤلف قد استخدم ، بالمقارنة مع غيره من الكتاب الغربيين ، اقذع العبارات واشدها للهجوم على العرب ، دائما قصدنا القول بان كتبا مثل كتاب اوبالانس ، واسلوبا مثل اسلوبه المستخدم في هذه الدراسة يشكل خطرا اكثر من غيره على القضية العربية ، ويمثل بالتالى تحيزا افدح من زاوية قدرتة على الاضرار بوجهة النظر العربية . فالهجوم غير المباشر ، و« تمرير » المغالطات بشكل هادىء ، والدس من خلال التظاهر بالسذاجة اوالبراءة ،هذه كلها تساعد على « بيع » افكار الكاتب « الشخصية » والتي هى احكام جائرة وغير صحيحة للقارىء لاسيما الغربى » ـ كما ذكر اعلاه .

ويبدو ان المثل القائل : « يعرف الكتاب من عنوانه » فيه كل الصحة احيانا . فان يجعل المؤلف عنوان كتابه « قوة الفدائيين العرب » مسالة لا يجوز ان تمر ببساطة ويجب ان تفهم، ضمن سياق المغالطات التي يمتلىء بها الكتاب، على انها محاولة لطمس الهوية الفلسطينية فى اكثر المواضع حساسية من الزاوية الاعلامية . ثم ان توقف المؤلف فى عرضه عند العام ١٩٧٢، وعند هجوم ميونخ على وجه اكثر تحديدا ، ان هذا التوقف عند هذه النقطة الزمنية بالذات كانما يقصد به ان يترسخ فى ذهن القارىء ذلك الحدث الدموي الذي دفع اليه الفدائيون دفعا . وهو فى تبريره لتوقفه عند هذا الحدث يقول انه ـ اى الحدث ـ مثل ـ « بداية جديدة » فى العمل الفدائي . وينسى « اوبالانس » او يتناسى ، ان يقول لنا كيف تشكل كارثة ميونخ بداية جديدة ، وما هي معالم هذه المرحلة الجديدة التي يشير اليها (١٢) .

ثم ان المؤلف يحرص على ان تكون النتيجة الرئيسية التي يصل اليها واضحة : الحركة الفدائية الفلسطينية « لا استراتيجية لها » و « وفشلت كليا » وبدات مرحلة « انحدارها » (١٢ ، ٢٢٩) . وهو بهذا يقع فى تناقض مع نفسه عندما يذكر فى مكان آخر بأن المستقبل وحده هو الذي سيقرر فيما اذا كان العمل الفدائي « ظاهرة مؤقتة » او «بداية ليقظة عربية » جديدة (١٢ ، ٢٣٣ ـ ٢٣٤) .

كذلك يقرر « اوبالانس » ـ ولا ندري ان كان ذلك ناجما من سذاجة كلية او تساذجا

(١) انظر مراجعة الاستاذ ماهر كيالي للكتاب ، شؤون فلسطينية ، عدد ٤٢ ، آذار ـ مارس ١٩٧٥ ص ١٥٣

(٢) كيالي ، المصدر ذاته ، ص ١٥٩

متخابثا – ان « الغرور والتقدير السيء » (من جانب الفدائيين) هو الذي ادى الى الحرب الاهلية (في الاردن) والقتال في لبنان (١١) . اى ان المؤلف – هكذا وبكل بساطة – يتجاهل دور اعداء العرب والعرب الاعداء في التحضير لتلك المجزرة وتنفيذها . كذلك فان عدم ذوبان النازحين الفلسطينيين في المجتمع العربي يتحول – في نظر « اوبالانس » الى « اهمال » من العرب للفلسطينيين (١٥) . ايضا قوله ان « نصف لبنان عربي ونصفه مسيحي » كانما يقصد القول بان العربي هو فقط المسلم من ابناء العروبة ، او كانما المسيحي بالضرورة غير عربي (١٦) . كذلك فان الغمز والمغالطة واضحان في قوله بان الفدائيين لم يكونوا « محبوبين بشكل عام » في لبنان (١١٣) . ثم هو يتحدث عن اطلاق السوريين نيرانهم بشكل مستمر على « العمال الاسرائيليين » من فوق الهضبة السورية قبل ١٩٦٧ ، دونما ابة اشارة الى ان احتلال اسرائيل للاراضي المنزوعة السلاح هو الذي ادى الى ذلك الموقف الوطني من جانب سورية . ايضا فان الكاتب حريص على وصف ما تقوم به اسرائيل بكلمة « قتل » في حين ينعت ما يقوم به الفلسطينيون والعرب بكلمات من نوع « اجرام » وعدوانية و « ارهاب » (الصفحات ١٩ ، ٢٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٩٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٢١ على سبيل المثال لا الحصر) . ولا يفوت « اوبالانس » اغتنام كل فرصة للتشكيك في موقف الاتحاد السوفياتي من الثورة الفلسطينية بشكل يحس معه القارىء بضحالة التحليل الذي يقدمه المؤلف (٧٦،١٢٣،٢١٢). ثم ان الكذب – حسبما يقول « اوبالانس » – يكاد يكون صفة ثانية للفدائيين عندما يكتبون بياناتهم ، دون ان يسمح لنفسه بالشك ، ولو للحظة في مصداقية البيانات الاسرائيلية (١١٧) ، كذلك تتحول السياسة الاسرائيلية – بقدرة قلم المؤلف – الى سياسة « شجاعة » لانها « تحول اللاجئين الى عمال » (١٩٨ ، ٢٠٣) . اما استشهاد غسان كنفاني فامر يحيط به – وفقا لامانة « المؤلف – غموض كبير لا يعرف معه ان كانت اسرائيل وراءه ام «الجبهة الشعبيةالثوريةلتحرير فلسطين»(٢١٢) واخيرا لا يفوت المؤلف ان « يقرر » بان العربي انسان لا يهمه الا « حبه الفردي للحياة وتحسين وضعه المالي » وان العرب يشتهرون تقليديا بصفات « البلادة او اللا مبالاة»(٢٣٠).

• • •

وبعد ،

ثمة فجوة كبيرة بين ما يتصوره وما يقوله الناشر في معرض وصفه للمسائل الرئيسية التي يعالجها الكتاب ، وبين ما يقوله الكاتب ذاته عن طبيعة محتويات الكتاب . فالناشر ، في سعيه لتشويق القارىء ، لاسباب معروفة ، لمطالعة الكتاب ، يسارع – وعلى الصفحة الداخلية للغلاف الخارجي للدراسة – الى الادعاء بان المحتويات تجيب على الاسئلة المركزية التالية :

« ١ – ما الذي جعل الفدائيين يخطئون في تقدير الوضع ؟

٢ – ما هي التقديرات الخاطئة التي ادت الى اصطدامهم الكارثوي مع الجيش الاردني ؟

٣ – كيف تم دفعهم خارج « ارض فتح» في لبنان ؟

٤ ـ ولماذا كانت الحركات الفدائية غير قادرة على تحقيق وحدة فعالة فيما بينها ؟ » .

٥ ـ وكذلك ـ والكلام الناشر ـ يوضح الكاتب « المسائل التي تهز العالم العربي ، يحلل الشخصيات المتغمسة في العمل ، ويستقرىء الماضي ، ويصف الحاضر ، ويعالج المستقبل » .

أي بعبارة موجزة : يعدنا الناشر بدراسة تحليلية .

وعلى صعيد آخر ، يصف المؤلف كتابه ـ بتواضع يعكس الحقيقة ـ بأنه « سرد » الوقائع (ص ١٢) وهو فعلا ، سرد ، يتمتع بالالمام بالتفاصيل من جهة ، ويعاني ـ كما رأينا ـ من كثير من الاخطاء والمغالطات ، من جهة ثانية .

* * *



النمو الانسانى في عصر التحضر

للدكتور : ثيرون الكساندر

عرض وتحليل : الدكتور [illegible] يعقوب القطب

المؤلف : الدكتور ثيرون الكساندر عضو هيئة تدريس بجامعة تمبول بولاية فلوريدا بالولايات المتحدة الامريكية . وقبل ان يبدا بتاليف هذا الكتاب فقد قام بعدة نشاطات خاصة في البحوث والدراسات التي تدور حول مشاكل المعوزين والفقراء من الاطفال والشباب . وقد تاثر في نظرته الى التطور الانسانى من دراساته في العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية في جامعة شيكاغو ، ومن خلال خبراته كعضو هيئة تدريس في كليات الآداب والطب والتربية في الولايات المتحدة . وقد استغرق العمل في اعداد هذا الكتاب مدة اربع سنوات كاملة اقتنع خلالها بضرورة ايجاد منظور آخر لسيكولوجية النمو في الآونة الحالية . وقد ازداد اهتمام المؤلف في الجمع بين مبادىء النمو والاوضاع الاجتماعية في في المجتمع المعاصر .

الكتاب : يعتبر الكتاب من المؤلفات الحديثة ، اذ صدر عام ١٩٧٣ من قبل دار النشر برنتس هول في بلدة انجلود كليفس بولاية نيوجيرزى بالولايات المتحدة ، وقد سجل في مكتبة الكونجرس الامريكى . ويقع الكتاب في ٣١٣ صفحة بما في ذلك الرسوم والجداول . بلغ مجموع المراجع التي استخدمت في فصوله الثلاثة عشر ٥٩٧ مرجعا اى بمعدل ٤٦ مرجعا للفصل الواحد ، وقد تكررت بعض المراجع بين الفصل والآخر ، وتنوعت ميادينها بحيث اشتملت على مختلف فروع علم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا والتربية .

وقد قسم الكتاب الى خمسة اجزاء ، تضمن كل جزء عددا من الفصول يتراوح بين فصلين وثلاثة ، يبلغ متوسط عدد صفحات

Theron Alexander. Human Development in an Urban Age. Prentice- Hall, inc: N.J 1973.

الفصل الواحد حوالى ٢٥ صفحة بما فى ذلك المراجع .

يتناول **الجزء الاول بيئة الانسان ونمو المدن وقدرة الانسان على تطوير بيئته** . وفى **الجزء الثانى** يناقش المؤلف اعداد الفرد للحياة فى مجتمع المدينة الذى يتميز باختلافات فى الثقافة وانماط الحياة فى هذا العصر . ويعالج **الجزء الثالث** النمو الانسانى فى مجالات الذكاء واللغة والابداع ، ويتطرق الى المؤثرات الثقافية والوراثية . ويتناول **الجزء الرابع** النظريات ونتائج البحوث والدراسات فى مسائل التعلم والحوافز والاحاسيس عند الانسان . اما فى **الجزء الخامس والاخير** فينحو المؤلف منحى جديدا فى دراسة النمو الانسانى ، بحيث يناقش موضوعات وقضايا تدور حول ضبط السلوك ، وعدم قناعة الشباب بالمجتمع المعاصر ومشاكل السلطة والحرية الذاتية .

ويختلف الكتاب عن غيره من الكتب التى تناولت مثل هذه القضايا والموضوعات فى ثلاثة اشياء : **الاول** ، ينظر المؤلف الى نمو الانسان من خلال حيز الحياة وكجزء من النظام الايكلوجى للكرة الارضية . **والثانى** ، تربط النمو الانسانى الى اوضاع مجتمع المدينة فى الوقت الحاضر وتؤكد على عواقب التغير الاجتماعى . **وثالثا** ، تزود القارىء باتجاه جديد مفاده ان مبادىء النمو يجب ان تفهم من خلال علاقتها المباشرة للاوضاع الاجتماعية المحيطة بها . وبعبارة اخرى فالكتاب يركز على تحقيق الهدف النهائى وهو الخبرات التى يكتسبها الانسان فى النمو والتنشئة الاجتماعية ، وبالتالى يتحدد دوره فى المجتمع المعاصر . ويعتبر هذا الكتاب مساهمة علمية جادة فى ميدان سيكولوجية النمو ، اذ يعالج مراحل التعلم من حيث علاقتها بالبيئة ، وتاثر الانسان بها وتاثيره فيها . اى ان المؤلف يحاول التوصل الى قواعد وافتراضات مشتقة من اطر سيكولوجية النمو وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا .

البيئة والانسان :

ان دراسة النمو الانسانى لا تقتصر فقط على عملية التعلم وكيف يستجيب او يتغير خلال سنوات نموه ، بل ايضا على تاثير المعطيات البيئية التى تتم عملية التعلم من خلالها . وهذه المعطيات تشمل الخصائص الكونية والطبيعية ، مثل الارض والجبال والوديان والانهار ، وكذلك البيئة الاصطناعية من مدن ومنشآت . هذا بالاضافة الى خصائص التركيب الاجتماعى الذى يسهم فى النمو .

واذا حاولنا تناول الانسان وبيئته نجد ان لمثل هذه الدراسة عدة مداخل تتخللها عدة وجهات نظر ، والانسان كاى عضو آخر هو جسم فى الفضاء يتفاعل مع المثيرات من حوله ، ويتعلم كيف يستجيب لهذه المثيرات ويتكيف معها ، اى ان البيئة تتكون من الاشياء التى يدركها الفرد . واستجابة الفرد للبيئة تتأثر بالخبرات والجزاءات والمكافئات والتحيزات والتعميمات التي تنجم عن الاستجابة للمثيرات المختلفة . وتختلف الآراء فى الاطار النظرى للبيئة والانسان .

يربط كيرت ليفين (Kurt Lewin) علاقة الانسان بالبيئة فى مجال مدى توفر الفرص للانسان فى تلبية احتياجاته الاساسية . اما بياجيه (Piaget) فيرى علاقة الانسان بالبيئة تدريجية تبدأ بالتعمق مع نمو الطفل وادراكه لما حوله للوصول الى حالة توازن من خلال عمليتين اساسيتين وهما التكيف والتمثيل . وسيجموند فرويد (S. Freud)

يرى أن الخبرات السارة فى تفاعل الانسان مع البيئة تظهر فى الادراك الواعى ، أما الخبرات غير السارة فتدفن فى الشعور اللا ارادى ، وكلاهما يؤثر فى تكوين شخصية الانسان . والاتجاه النظرى الثالث يتصل بنظرية المثير (Stimulus) والاستجابة (Response) للعالم السلوكى جون واطسون (J. Watson). الذى يرى ان البيئة يمكن ان تصقل وتهذب استجابات الانسان ، خاصة عندما يكون الثواب على السلوك متوافرا .

وقد اشار المؤلف الى اساسيات التفاعل مع البيئة ، فاشار الى استخدام الفضاء او رقعة الارض التى يتواجد عليها كعوامل اساسية فى التاثير على سلوك الانسان ، مثل المأوى ونوع المسكن وملائمته للتقلبات الجوية من حرارةورطوبة وانخفاض فى درجة الحرارة . ان هناك علاقة بين الخصائص المناخية والوظائف العضوية والاجتماعية للانسان . وقد قسم المؤلف ، حسب وجهة نظر مخططى المدن ان مساحة المدينة يمكن تقسيمها الى ست تصنيفات منها : (١) قطاع المدينة العام (Urban Public) ، (٢) وقطاع المدينة شبه العام (Semi Public) ، (٣) قطاع الجماعة ـ العام (Group Public) ، (٤) القطاع الجماعى الخاص (Groub Private) ، (٥) القطاع العائلى الخاص (Family Private) واخيرا القطاع الفردى الخاص (Individual Private) ، كما يرتبط استخدام مساحات المدن بعدة عوامل اجتماعية مثل الطبقة المثقفة ومفهومها فى الافادة من المساحة ، ثم طبقة العمال ورجال الصناعة ورجال التجارة ، اى ان لكل جماعة اتجاه فى استخدام بيئة المدينة .

ثم يستعرض المؤلف بناء المجتمع ونظمه والعوامل التي تؤثر فى ضبط وتوجيه السلوك والمحافظة على هوية المجتمع وبقاءه واستمراره . ويشرح مقومات وخصائص النظام والعلاقات الاسرية فى المجتمع المعاصر ، وذكر ان المكانة الاجتماعية للاسرة لا تزال مرتبطة الى حد كبير بمهنة الاب . اما بالنسبة الى النظام التربوى الذى اخذ يتصل بالانسان فى السنوات المبكرة من حياته والسنوات المتاخرة (التعلم مدى الحياة) ويواجه النظام التربوى العديد من المشاكل المتعلقة بالمنهج والاسلوب والاختيار والتنظيم والادارة وحرية التعليم وغير ذلك من المشاكل . وفيما يتعلق بنظام السلطة الذى يتكون من الجانب التشريعى والجانب التنفيذى فانه يتميز بالبيروقراطية والمركزية فى اتخاذ القرارات على كافة المستويات ، وتزداد مشكلات السلطة تعقيدا مع التقدم والتحضر . وبالنسبة الى النظام الاقتصادى فان التغيرات التى طرأت فى عمليات الانتاج والتسويق والاستهلاك والاستثمار كان لها آثار نفسية واجتماعية واسعة النطاق . واما بالنسبة الى النظام الدينى فانه يواجه مراحل تغير الى مواجهة تحديات العصر بالنسبة الى الوظائف الروحية والنفسية والاجتماعية التى تؤديها المؤسسات الدينية .

ثم تطرق المؤلف الى موضوع التنظيم الطبقى والحراك والتغير الاجتماعى ولاحظ انه طرأ تغييرات جوهرية فى العلاقات الاجتماعية وقلت المسافة بين الطبقات بسبب عوامل متعددة منها نفسية واقتصادية ، ذاتية وجماعية . وميز المؤلف بين التغير البطىء والتغير الثورى الشامل والسريع ، وحذر من نتائج التغير السريع فى تفكك العلاقات والبناء والتنظيم الاجتماعى .

ويخلص المؤلف الى ان الابحاث والتغيرات الاجتماعية هى مسئولة فى خبرات التنشئة التى تؤثر فى التغير فى عملية النمو الانسانى .

التنشئة الاجتماعية

كان ينظر الى التنشئة الاجتماعية من خلال نمو الخصائص الفردية للسلوك الاجتماعي ، ولم يقتصر المؤلف في مناقشته لموضوع التنشئة على المهارات الاجتماعية او على عملية اكتساب السلوك المتعارف عليه ، بل يتطرق الى الحديث عن تأثيرات البيئة التي تشمل الجوانب الطبيعية ، النظم الاجتماعية وما تتضمنه القيم والمعطيات الثقافية .

وفي هذا المجال يتعرض المؤلف الى عدد من القضايا ذات الصلة بنظرية النمو والبحوث الخاصة بها وهي : (١) اهمية خبرات الطفولة المبكرة وانماط الاستجابات في مراحل الطفولة المتأخرة .

(٢) اهمية الدوافع اثناء سنوات النمو المبكرة وفي الادوار السلوكية في مرحلة المراهقة .

(٣) منشأ العقبات التي يواجهها الاطفال اثناء نموهم في الاطر البيئية التي تختلف عن الاطر الطبيعية للثقافة الامريكية مثل الذين ينشأون في المناطق المتخلفة في المدن (Slums) .

(٤) دور ومكانة ووظائف المؤسسات الاجتماعية في تنشئة الاطفال .

(٥) علاقة العمل ووقت الفراغ في المجتمع المعاصر .

ان هذه القضايا تضع الاساس لفهم ضوابط السلوك الاستقلالي الشخصي ؛ الصراع الاجتماعي والسلطة . ويضيف المؤلف ان الثقافات تتفاوت من بيئة الى اخرى من حيث المضمون وما يتوارثه الاجيال . وأهم الخصائص الثقافية التي تؤثر في السلوك الانساني هي نماذج السلوك المعيار ، حيث ان هذا السلوك متعارف عليه وينتقل من جيل الى آخر . اما في حالة المجتمعات المعقدة المعاصرة فانه يصعب النقل العناصر الثقافية في وحدات متكاملة بسبب التغيرات الاجتماعية السريعة . وغالبا ماتسبب عملية النقل الثقافي الاحباط ، وهذا بالتالي يؤثر في الحافز الفردي لتطوير نماذج من السلوك المقبول او المعياري . ويضرب المؤلف مثلا لرفض الشباب العديد من أساليب المعيشة التي يسير بموجبها المجتمع ، وبالرغم من ان هذا الرفض يمثل وجود الحاجة الى التغير فان مؤسسات المجتمع لم تبد استجابات واقعية لهذه المطالب .

ويتناول المؤلف موضوع التفاوت الثقافي ـ الاجتماعي في انماط الاستجابات ويؤكد ان مكان ولادة الفرد ، ومدى مشاركة اسرته في النشاط الاجتماعي ، ومكانة والديه في النظام الطبقي في المجتمع ، ومدى نجاحهم في اكتساب معايير سلوكية يؤثر في مكانته في المجتمع .

الذكاء واللغة والابداع :

يتوقف الرضاء في التفاعل الاجتماعي للفرد والمجتمع على قدرة الفرد للاستجابة بكفاءة وبسلوك خلاق . وتنمو القدرات بفعل الخصائص البيولوجية والمعلومات وفرص التعلم والخبرات المكتسبة في اطار البيئة . كما يتكون ادراك الفرد بفعل قدرته على الاستيعاب والتذكر وفهم الرموز وتطوير المفاهيم ، الامر الذي ينطبق على خصائص الفرد الذي يتفاعل مع الطبيعة . وتعتبر اللغة عنصرا اساسيا في تيسير التفاعل مع البيئة والنمو الادراكي . والقدرة على استخدام اللغة عن طريق النطق من العناصر الهامة في الذكاء ، اذ ان عدم اللياقة في استخدام اللغة هو في حد ذاته سببا ونتيجة للتخلف العقلي . كما تهم اللغة اولئك الذين يعنون بالحرمان الثقافي للاطفال في المناطق المتحلة من المدن الكبيرة . والاطفال من المناطق المتخلفة هذه عندما يدخلون المدارس بالمستوى النطقي الضعيف يواجهون الصعوبة الكبيرة في استيعاب المناهج الدراسية ، كما ان اللغة تعتبر اساسية ايضا للاطفال في عملية الحراك الاجتماعي .

ان السلوك الابداعي والخلاق المتمشي مع قدرة عقلية فائقة يعتبر ذات قيمة في التوصل الى الرضاء في الحياة العصرية . وقد يعتقد البعض ان الابداع والذكاء هما قدرتان منفصلتان ، غير انه قد تمت ملاحظة حالات عديدة حيث تواجد الابداع في الاشخاص ذوي الذكاء العالي ، وكذلك حالات عديدة لا تتمتع بذكاء منخفض قلما يمكن تسمية السلوك عندها « خلاقا » .

ويضيف المؤلف ان البحث عن « نوع الحياة » هو هدف للعديد من الناس في المجتمع المعاصر ويعتمد على المنهج الابتكاري الذي يمارسه الفرد ، ولتحقيق ذلك لا بد من توفر المجال ، في مراحل النمو المختلفة ، لاكتساب الخبرات والفرصة لاكتشاف البيئة بأقل توجيه من الآخرين. ان الخبرات التي يكتسبها الاطفال في النظام المدرسي المعاصر تفتقد بدرجة كبيرة الى مثل هذا الانفتاح والتفاعل بين الفرد والبيئة من حوله . ويعتمد نوع « نمط الحياة » المرضي في المجتمع المعاصر بدرجة كبيرة على قدرة الفرد لايجاد حلول للعديد من المشكلات .

العواطف والدوافع والتعلم

ان النظريات ونتائج البحوث المتضاربة تؤكد عدم التوصل الى تعريف دقيق للعواطف والدوافع بالرغم من التقدم في هذه البحوث ، الا ان الكثير غير معروف بعد .

وفيما يتعلق بالعواطف فقد تطرق المؤلف الى بعض النظريات مثل نظرية جيمس لانج James Lang التي تشير الى ان العاطفة تتبع الحالة العضوية . أما النظرية السلوكية عند جيمز واتسون James Watson فتحدد العاطفة على اساس الامتداد والسرور والالم . وبالنسبة الى نظرية كانون – بارد Canon - Bard فانها ترسي مسئولية العواطف على الجهاز العصبي ، على اساس ان العديد من الاحداث تقع عندما يتم ادراك موقف مثير ومعقد مثل حركة الدم وضغطه ، ونبضات القلب ، وتغيرات في النشاط الهرموني ، وهناك التفسير الفرويدي للعواطف وارتباطها بمواقف « الأناهو » « الانا » و « الانا الاعلى » وكذلك النظرية الفيزيولوجية العصبية التي تنص على ان الخبرة العاطفية تحرك وتتقاطع مع الوضع العصبي الطبيعي .

اما بالنسبة الى الدوافع فان السبب الذي يعمل الانسان بجدية ، متحملا المشاق والتضيق سبيل الوصول الى مركز ما لا ينحصر في الخصائص الذاتية للانسان والتنشئة الاسرية فقط بل ايضا في المجتمع والثقافة والبيئة . وحيث ان طبيعة الانسان مرتبطة بضوابط البيئة وعناصرها فان المجتمع السريع التغير يعمل كسبب ونتيجة للتغير في سلوك الافراد . وعندما يتغير نمط الافراد واهدافهم ، فان هذا التغير يؤثر في المجتمع .

ويتقدم المؤلف بعدة افتراضات حول القوى التي تغير الاتجاهات نحو العمل منها :

(١) تشعب الادوار للوظائف المختلفة .

(٢) الاتجاه الحديث نحو المال والنقود

(٣) النواحي التنظيمية نحو الانجازات

(٤) وجود الانتاج التجميعي

(٥) التنظيم الصناعي .

(٦) نمط جديد من المثالية

(٧) تاثير الحكومة المتزايد على مصير الانسان .

وبعد تحليل هذه العوامل وعلاقتها بالدوافع يتطرق المؤلف الى مناقشة التركيب الاجتماعي وعلاقته بالدوافع ، ويذكر بشكل

خاص تاثير الاسرة على التحصيل وتدعيم مستوى الطموح عند الفرد ، كما اشار الى دور المدرسة والمناهج والنشاط المدرسي في عملية التحصيل ، وكذلك النظام الطبقي في المجتمع، والحراك الاجتماعي والاهداف الفردية في المجتمع الحضري . ويمتاز المجتمع الحضري المعاصر بالمرونة والحرية النسبية ، والاتجاهات والثقافات المتباينة التي تؤثر في الدوافع ، وبالتالي في سلوك الانسان .

الفرد والمجتمع — المراهقة ومرحلة الكبار المبكرة

ماهي مواطن النجاح والفشل في عملية التنشئة ؟ وماهي بعض الاوضاع في المجتمع التي تساعد أو تثبط مصير الانسان في المجتمع المعاصر ؟

هذه هي بعض الاسئلة التي يطرحها المؤلف في الجزء الاخير من كتابه ، وقد اخذ بعين الاعتبار عند السرد على هذه التساؤلات بعض القضايا الاساسية المتضمنة في السلطة ، الاستقلالية ، القوة والصراع في المرحلة الحضارية المعاصرة .

بالنسبة الى التنشئة فان السؤال المطروح هو كيف يمكن للفرد ان يتعلم استيعاب قواعد المجتمع بحيث يراعى القيم الاجتماعية ويحقق السلوك الاجتماعي دون ان يكون هذا السلوك مبنيا على الخوف ؟ وبالتالي كيف يمكن لمضمون ما يستوعبه الفرد ان يتغير تدريجيا وبصورة منتظمة للوصول الى التغير الاجتماعي بدون تضحيات من قبل الفرد غير لازمة ، أو تفتيت النظام الاجتماعي .

ويقترح المؤلف ان مبادىء التعلم يمكن استخدامها في فهم عملية الاستيعاب ، ويحدد الاوضاع التي تتم بموجبها العملية . مثلا — في حالة الطفولة المبكرة حيث تبدا مرحلة اكتشاف الحياة وكما ينمو الطفل باحاسيسه وادراكاته واستجاباته فان البيئة من حوله تنمو ايضا ، وعلى الوالدين والمسئولين في المدرسة مساعدة الطفل في كل مرحلة تغيير في حياته عند دخوله المدرسة ، عند وصول سن البلوغ ، وعند وصوله المراحل التي يواجه فيها حياته .

واذا نظرنا الى بيئة المدينة فنجد ان هناك العديد من الاوضاع التي تسبب السلوك الانحرافي والاحباط والمضايقات ممايؤدي احيانا الى انزواء الفرد وتقليل اتصالاته مع الآخرين وتجنب الازدحام والاماكن العامة . وعدم التفاعل الايجابي يؤدى الى عدم الالتزام بالقواعد الاجتماعية ويطور السلوك الانحراف الفردى (الذاتي) الذى يتخذ مظاهر متنوعة .

وللحد من السلوك الانحراف وتدعيم التنشئة السليمة يتطرق المؤلف الى الضبط الداخلي والخارجي متضمنا العقاب الجسمى والمعنوى بدرجات متفاوتة حسب درجة ونوع المخالفة، ويؤكد اهمية الضبط الذى يستخدم العقاب المعنوى لمزاياه العديدة . اما كيف يمكن للفرد استيعاب السلوك المعيارى وتطبيقه فانه في التدريب المبكر وفق قواعد تأخذ بعين الاعتبار اسس التعلم الحديثة والخصائص البيئية والثقافية والتغيرات التى تحصل في المجتمع وادخال التغيرات في اساليب التنشئة حتى تستجيب للمثيرات المستجدة في الحياة المعاصرة .

ويستعرض المؤلف بعض القضايا الاجتماعية في مجتمع المدينة في امريكا خاصة ان المعارضة التي يبديها الشباب ترتبط بالتطور التاريخي للكيان الاجتماعي لمجتمع المدينة، واهم الاحداث التي ساهمت في ابراز المعارضة بعد الحرب العالمية الثانية **اولا** — ماقام به مارتن لوثر كينج ومطالبته بتطبيق الحقوق المدنية ، **ثانيا** — المعارضة الشديدة لحرب فيتنام ، **ثالثا** —

الاقصاء والابتعاد عن المجتمع مثل تعاطي المخدرات وفقدان المعايير السلوكية الجنسية .. الخ .

والراديكالية الجديدة فى المجتمع المعاصر لها ، فى حد ذاتها ، مقومات شخصية واجتماعية ، ولمواجهة هذه الراديكالية عند الشباب فإن على المؤسسات الاجتماعية ، مثل الجامعة ، دورا كبيرا فى تقديم المثل الأعلى لتوجيه السلوك وتعميق الخبرات العلمية والعملية التى تتمشى مع معطيات التغير الحضارى . كما أن على الجمعيات والاندية والمنظمات التى ينتمى اليها الفرد بقصد اشباع الحاجات الاجتماعية والنفسية دورا هاما فى توفير المناخ الصحى واتاحة الفرصة لبناء علاقات وقيم اجتماعية معاصرة لتساعد الفرد على مسايرة التغير واستيعابه فى حياته وقيمه ومبادئه .

واما فيما يتعلق باستقلالية الفرد فى مجتمع المدينة فيقول المؤلف ان ليس هناك ما يسمى استقلالية كاملة . والاستقلالية هى شيء محدود ونسبى ومتغيرة خلال فترة الحياة ، لأنها تتوقف على الاوضاع الاجتماعية من ناحية ، ولان الفرد لا يستغنى عن اعتماده على الآخرين من ناحية اخرى .

وحيث أن النشاط الاجتماعى والاقتصادى والاسرى والسياسى يحتاج الى الاتجاه التخصصى فان متطلبات التخصص والتدريب والاعداد للادوار المحددة يتطلب من الفرد التعرض لمواقف نفسية واجتماعية معقدة وجديدة ، كما أن البيروقراطية فى المنظمات والعمل تشكل العلاقات المهنية والاجتماعية الجديدة، كما تعرض الفرد للمواقف والضغوط والانفعالات التي يجب ان يتكيف لها ويتأقلم مع البيئة والمعطيات الجديدة . ومن المواقف التى يواجهها الفرد فى مجتمع المدينة الصعوبة فى تحديد الهدف والمعنى لحياته ، حتى ان البعض يواجه صعوبة فى الانتساب الى الضاحية او المجتمع السكنى الذى يتواجد فيه .

وحتى يتمكن الفرد من تلبية احتياجات الدور المتوقع منه فى المجتمع الحضرى لا بد أن يتعلم الاشياء التالية خلال سنوات نموه : ان يعمل بجلد ولوقت طويل ، دون توقع مكافاة ، ومواصلة العمل بعد الجهد الضائع ، ضبط الحواس والشعور حول متطلبات العمل المعقد والطويل ، الاهتمام والمتابعة للتعليمات للمواقف السلوكية المعقدة ، استيعاب الحقائق والمناهج والاساليب لتنفيذ العمل ، التفاعل والاتصال مع الآخرين .

ويتناول المؤلف فى الفصل الأخير موضوع القوة الاجتماعية والتعلم الاجتماعى فى المجتمع الديموقراطي ، ويطرح التساؤل التالى : هل يحصل الفرد على الرضاء بصورة اوفر فى المجتمع الديموقراطي ؟ واذا كان الامر كذلك فما هى الخصائص النظرية والعلمية للديموقراطية ؟ وبالتالى لماذا يبدو ان بعض افراد المجتمع يحصلون على رضاء اكثر من الآخرين .

بالنسبة للديموقراطية فهناك النظرية الكلاسيكية والحقائق التنظيمية ، وحسب النظرية الكلاسيكية يؤثر الافراد فى السياسات عن طريق ممثلين يعكس اتجاهاتهم ورغباتهم . ويعتبر التنافس أساسا للتنظيم ، والقيادة تسعى جادة لمراعاة راى واتجاه الاغلبية .

وتتحدد قدرة الفرد على التفاعل مع القوة والضبط فى المجتمع المعاصر بموجب الخبرات التي يكتسبها فى مراحل نموه . ويجب ان يكون التعليم عن القوة والسلطة والقدرة الذاتية

التأثير فيها أو تحقيقها جزءا من عملية التنشئة. وإذا كان الشباب اليوم يرفضون جميع السلطة والقوة، فهم بحاجة الى دراية ومعرفة عن النتائج المترتبة على هذا الرفض. ويمكن تحقيق مثل هذا التعلم من خلال المؤسسات الأسرية والتربية. ويجب أن نقر بأن الخبرات التي يكتسبها الشباب اليوم لم تساعدهم في مواجهة مشكلة ايجاد المكانة المناسبة لهم في المجتمع. وإذا اردنا مساعدة الشباب في الوصول الى حالة الرضاء عندما يقومون بادوار الكبار فلا بد من ان ندرك مزايا وقيم ونواقص التنظيمات والمنظمات الاجتماعية. وإذا اردنا تحقيق التغير الاجتماعي والمجتمع الافضل فيجب علينا أن نعير الاهتمام الكافي الوسائل والاساليب والطرق المناسبة لتحقيق التغيرات المرغوبة. والخبرات التي يكتسبها الفرد في نموه لا يمكن أن تكون ميدانا للبحث بصورة منفصلة عن المجتمع والثقافة التي تتم من خلالهما عملية النمو ذاتها.

•••

يعتبر هذا الكتاب من المؤلفات الحديثة التي تناولت موضوع النمو الانساني في بيئة المدن في المجتمعات المعاصرة ومصير الانسان وعملية التنشئة الاجتماعية والذكاء واللغة والابتكار والعواطف والدوافع والتعلم، وكذلك المؤثرات في مراحل النمو في فترة المراهقة وما بعدها.

وقد تمكن المؤلف من اضافة منهج جديد في دراسة النمو الانساني، وهي ربط النمو بالبيئة الاجتماعية والطبيعية، وقدم الدراسات التي تبين مثل هذا الربط ودعا الى المزيد من البحوث في مختلف ميادين النمو النفسي والاجتماعي والبيولوجي.

الا ان المؤلف في مناقشته للابعاد المشار اليها لم يتوصل في النتيجة الى نظرية أو قاعدة يمكن تجربتها بالبحوث الميدانية، واكتفى بابراز مختلف جوانب العلاقة بين الفرد والبيئة، مشيرا الى النظريات القديمة والمتطورة فيما يتعلق بالنمو والتنشئة والذكاء والتعلم.

والعبرة التي يمكن استخلاصها من هذا الكتاب، ان الفرد في بيئة المدينة في المجتمع الامريكي المعاصر تتجاذبه عدة اتجاهات متضاربة في التركيب الاجتماعي والسلطة والتنظيمات السياسية والاقتصادية، وتؤثر عليه وتعمق في سلوكه اتجاهات سلبية مثل ما يحصل حاليا في ثورات الشباب والمواقف السلوكية السلبية.

وإذا ما تساءلنا عن مدى الافادة من هذه الدراسات والخبرات التي تعرض لها المؤلف وعرضها بين صفحات هذا الكتاب في واقع مجتمعنا العربي الذي يمر في مرحلة تغيرات سريعة وواسعة؛ لها تأثيرات متفاوتة على سلوك الفرد وعملية التنشئة الاجتماعية، وتقييم الوضع الراهن والسياسات والمفاهيم التي تستخدم في التوجيه الاسري والمنظمات التربوية والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية؟ كما ان هناك حاجة ماسة الى اجراء المزيد من الدراسات حول تكيف الفرد مع البيئة في المجتمعات العربية الحضرية.

هذا وقد اكتفى المؤلف في عرض المشكلة وتشخيص مثل السلوك الانحرافي والانعزالي، كما انه اكتفى بالتنويه عن دور الاسرة والمدرسة في تكوين الاتجاهات لدى الفرد، ولكن لم يتطرق الكتاب الى اقتراح بعض الحلول والوسائل التي تحقق التوافق والتماثل بين الفرد والنمو الاجتماعي في المجتمعات الحضرية.

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ،وسوف نعرض لها بالتحليل في الاعداد القادمة

1. Bottomore, Tom, Marxist Sociology, Macmillan Press, 1975.
2. Devlin, D. D., Jane Austen and Education, Macmillan Press, 1975.
3. Hudson, Donald W., Wittgenstein and Religious Belief, Macmillan Press, 1975.
4. Hudson, Kenneth, A Social History of Museums, Macmillan Press, 1975.
5. John Lewis, Max Weber and Value-Free Sociology, Lawrence & Wishart, London, 1975.

* * *